

نيقولاى غوغول



المؤلفات المختارة

4.3.2015

المفتش العام

ترجمة

غائب طعمة فرمان - د. أبو بكر يوسف



نيقولاى غوغول

المفتش العام

@ketab_n

ومؤلفات أخرى

ترجمة:

غائب طعمة فرمان

د. أبو بكر يوسف



المفتش العام

Author: Nikolai Gogol
Title: The Government Inspector
Translator: Gaeb Tohme Faraman
 Dr. Abu Baker Youssef
Cover designed by: Majed AlMajedy
P.C. : Al-Mada
First Edition: 2014

المؤلف: نيقولاي غوغول
 عنوان الكتاب: المفتش العام
 ترجمة: غائب طعمة فرمان
 د. أبو بكر يوسف
 تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
 الناشر: دار المدى
 الطبعة الأولى: 2014

copyright©Al-Mada

جميع الحقوق محفوظة



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 986	بنسداد : حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
+ 964 (0) 770 9080 800	Iraq/ Baghdad- Abu Newas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+ 964 (0) 790 1919 290	www.almada-group.com ✉ email: info@almada-group.com
+ 961 175 2616	بيروت: المسرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
+ 961 175 2617	www.daralmedia.com ✉ info@daralmedia.com
+ 963 11 232 2276	دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
+ 963 11 232 2275	
+ 963 11 232 2289	ص.ب: 8272

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.

الفهرس

١٥	الفصل الأول
٣٧	الفصل الثاني
٥٩	الفصل الثالث
٨٥	الفصل الرابع
١٢٥	الفصل الخامس
١٤٦	المشهد الختامي
١٤٧	بعد عرض مسرحية جديدة
١٩١	خطوبة
١٩٣	الفصل الأول
٢٤٣	الفصل الثاني
٢٨٩	شارع نيفسكي
٣٣١	الصورة
٣٩٩	الأنف
٤٣٣	المعطف
٤٦٧	مذكرات مجنون
٤٩٣	عربة
٥١١	مالكو أيام زمان

لا تَلَمَّ المرأة، إذا كان وجهك قبيحاً
(مثل روسي)

شخصيات المسرحية

أنتون أنتونوفيتش سكفوزنيك دموخانوفسكي، حاكم المدينة.
آنا أندرييفنا، زوجته.

ماريو أنتونوفنا، ابنته.

لوكا لوكيتش خلوبوف، ناظر المؤسسات التعليمية.
زوجه

أمون فيدروفيتش ليابكين - تيابكين، قاضي.

ارتيمي فيليوفيتش زملانيكا، راعي مؤسسات خيرية.

إيفان كوزميتش شيبكين، مأمور البريد.

بيتر إيفانوفيتش دوتشينسكي

بيتر إيفانوفيتش دوتشينسكي مالكا أراضٍ في المدينة.

إيفان الكسندروفيتش خليستاكوف، موظف في بطرسبورغ.

أوسيب، خادمة.

خريستيان إيفانوفيتش غينز، طبيب البلدة.

فيدور أندربيفيتش ليوليوكوف

إيفان لازيريفيتش راستاكوفسكي موظفون متقاعدون،

شخصيات محترمة في البلدة.

ستيان إيليتش أوخوفيرتوف، رئيس الشرطة.

سفستونوف
بوغوفيتسين
درجيموردا
عبدولين تاجر.
فيفرونيا بيتروفنا بوشليكننا، زوجة سمكري.
زوجة ضابط صف.
ميشكا، خادم حاكم المدينة.
خادم حانة.
ضيوف وضيفات، تجار، أهل البلدة، أصحاب حاجات.

ملاحظات للممثلين - أوصافهم وملابسهم

حاكم المدينة، رجل سلخ شبابه في الوظيفة. بعيد جداً عن الغباء، على طريقته الخاصة. وعلى الرغم من أنه مرتش إلا أنه يتصرف برصانة شديدة، وعلى قدر كاف من الجدية، بل وميال إلى المناظرة. يتكلم غير مرتفع الصوت ولا منخفضه، غير كثير الكلام وغير مُقلِّد. ولكل كلمة يقولها مغزى. تقاطيع وجهه غليظة قاسية مثل أي موظف بدأ سني وظيفته الشاقة من رتب واطنة، يتحوّل بسرعة كبيرة من الفرع إلى الفرع، ومن الوضاعة إلى الأنفة، مثلما يحصل لإنسان تطوّرت قابلياته الروحية تطوّراً متعشراً. يرتدي في العادة، بزّته الرسمية ذات العروات، وجزمة ذات مهمازين، شعره مشذب دبّ فيه الشيب.

آنا أندريفنا، زوجته، امرأة غناجة على الطريقة الإقليمية لم تنوغل في العمر كثيراً، تربّت إلى النصف على الروايات والأكبومات وإلى النصف الآخر على المشاغل في مؤونتها وخادماها. كثيرة الفضول، تُبدي خبلاء عند سnoch الفرصة. وتظهر سلطتها على زوجها أحياناً، لمجرد أن هذا لا يجد ما يرده عليها ولكن هذه السلطة لا تتعدى الصغائر وتقتصر على التوبيخ والنهك. خلال المسرحية تغيّر ملابسها أربع مرّات.

خليستاكوف، شابّ في نحو الثالثة والعشرين من العمر، نحيف هزيل العود، على شيء من البلاهة، وعلى المثل القائل لا يستجيب لنداء العقل، من أولئك الذين يسمّون في الدوائر بالنافهين. يتكلم

ويتصرف دون أي تفكير. لا يقدر على تركيز ذهنه في أية فكرة. كلامه متقطع والكلمات تتطاير من بين شفتيه بشكل مفاجئ تماماً. وكلما أظهر مثل هذا الدور مزيداً من نقاوة قلب وبساطة نجح في دوره أكثر. يلبس على المودة.

أوسيب، خادم مثل أي خادم اعتيادي فارق سنّ الشباب، يتكلم بجذبة، ويخفض بصره قليلاً، مجادل، ويحب أن يلقي العظات لنفسه عن سيده، وصوته موزون دائماً تقريباً، وفي حديثه مع سيده يتكلم بصراحة واقتضاب بل وبشيء من الغلظة. وهو أكثر ذكاء من سيده، وأكثر حذساً منه لهذا السبب، ولكنه لا يحب أن يتكلم كثيراً، فهو محتال صامت، يرتدي بدلة بالية رمادية أو زرقاء.

بوتشينسكي ودوتشينسكي، كلاهما قصير دحداح كثير الفضول، يشبه صاحبه شهاً صارخاً، وكلاهما ذو كرش صغير، يتكلم بسرعة فائقة مستعيناً إلى حدّ بالغ بالإشارات وحركات اليد، ودوتشينسكي أطول قليلاً وأكثر جذبة من بوتشينسكي، ولكن بوتشينسكي أكثر خفة ونشاطاً من دوتشينسكي.

ليابكين تيابكين، قاض، رجل قرأ خمسة أو ستة كتب، ولهذا فهو متحرر في تفكيره بعض الشيء. مولع كبير في الحدس والتخمين، ولهذا يعطي وزناً لكل كلمة ينطق بها. وعلى الممثل الذي يمثله أن يضيف على وجهه دائماً سمة الاعتبار، يتكلم بصوت عالي النبرة مع توقف طويل وبُحة ونخير، مثل ساعة قديمة تهمس قبل أن تدق.

زيملانيكا، راعي مؤسسات خيرية، بدين جداً، أهوج الحركات ثقيلها، ولكنه على الرغم من كل ذلك خشاش ماهر، وخدم جداً ولهوف.

مأمور البريد، بسيط إلى حدّ السذاجة.

وبقية الأدوار لا تحتاج إلى إيضاحات معينة. والعين دائماً تقريباً تقع على أشخاصها الحقيقيين.

يجب أن يلتفت السادة الممثلون بشكل خاص إلى المشهد الأخير. كلمة الختام يجب أن تحدث رجة كهربائية للجميع دفعة واحدة، وبشكل فجائي، وجميع الممثلين يجب أن يغيروا وضعهم بطريقة عين. كما يجب أن تفلت آهة الدهشة من جميع النساء دفعة واحدة، وكأنها منطلقة من صدر واحد. وعدم التقيّد بهذه الملاحظات يمكن أن يفسد التأثير كلّهُ.

الفصل الأول

غرفة في بيت حاكم المدينة

المشهد الأول

(حاكم المدينة، راعي المؤسسات الخيرية، ناظر المؤسسات التعليمية، القاضي، رئيس الشرطة، الطبيب، الثان من رجال الشرطة).

حاكم المدينة: دعوتكم، أيها السادة، لأخبركم بخبر مزعج جداً وهو أن مفتشاً عاماً في طريقه إلينا.

أموس فيدروفيتش: مفتش عام؟ كيف؟

أرتيمي فيلييوفيتش: مفتش عام؟ كيف؟

حاكم المدينة: مفتش عام من بطرسبورغ، متخفٍ وفضلاً عن ذلك بمهمة سرية.

أموس فيدروفيتش: يا للمفاجأة!

أرتيمي فيلييوفيتش: تأتلك الدواهي وأنت ساه.

لوكا لوكيتش: يا إلهي، ومهمة سرية أيضاً!

حاكم المدينة: كأن قلبي أعلمني. رأيت في الحلم هذه الليلة جرذين غير اعتيادين. الحقيقة أنني لم أرَ مثلهما قط. أسودين بحجمين غير طبيعيين! جاءا وثشمتا، واختفيا. ها أنا أقرأ لكم الرسالة التي تلقيتها من أندريه إيفانوفيتش تشميخوف الذي تعرفه أنت، يا أرتيمي

فيلبوفيتش: ها هو يكتب: «الصديق الفاضل المحسن، مُعمد أبنائي. (يتمتم بصوت خافت ممراً عينيه بسرعة)... أعلمك». آها! هكذا: «أسرع لأعلمك، بالمناسبة أن موظفاً وصل بمهمة تفقد الولاية كلها، ولا سيما قضاءنا (يرفع إصبعه إلى فوق بمغزى). عرفت ذلك من أوثق الناس، على الرغم من أنه يقدم نفسه على أنه لا يمثل أية جهة. ولما كنت أعرف أنك لا تخلو من آثام، كأي شخص آخر، لأنك رجل نابه، ولا تحب أن تفوت ما يسنح لك...» (يتوقف) طيب، لا غريب بيننا... «فإنني أنصحك بأن تلزم الحذر، فقد يصل إليك من ساعة إلى أخرى، إن لم يكن قد وصل الآن، وسكن متخفياً في مكان ما... يوم أمس كنت....» حسناً، بعد هذه تأني قضايا عائلية: «جاءت إلينا الأخت آنا كيريلوفنا مع زوجها. إيفان كيريلوفيتش سمن كثيراً، ويعزف على الكمان الوقت بطوله...» إلى غير هذا وذلك. هذا هو الوضع!..

أموس فيدروفيتش: نعم، هذا هو الوضع... غير الاعتيادي، غير الاعتيادي تماماً، لابد من سبب.

لوكا لوكيتش: ولأي شيء هذا، يا أنتون أنتونوفيتش؟ لماذا يفد علينا مفتش عام؟

حاكم المدينة: لماذا؟ قدر، كما يبدو! (يزفر).. حتى هذا الحين، وبفعل الله، كانوا يفدون على مدن أخرى. والآن جاء دور مدينتنا.

أموس فيدروفيتش: أظن في الأمر سبباً دقيقاً، أميل إلى السياسة، وهو أن روسيا... أها... تريد القيام بحرب. والحكومة، يا حضرة المحترم، أرسلت من يمثلها ليتأكد فيما إذا كانت هناك خيانة.

حاكم المدينة: أوه، إلى أين رحت! وأنت الرجل الحصيف! خيانة في مدينة من مدن الأقاليم! وهل هي على الحدود؟ إنك لو عدوت بحصانك من هنا لثلاثة أعوام لما وصلت إلى أية دولة.

أموس فيدروفيتش: لا، أريد أن أقول لك أنك لا... الرؤساء يرون الأمور الدقيقة. قد تكون المدينة بعيدة، ولكن لهم تفكيرهم الخاص. حاكم المدينة: لهم أو ليس لهم، ولكنني أبتهمكم مقدماً، أيها السادة. فالزموا الحذر. ومن جهتي أصدرت بعض الأوامر، ونصيحتي أن تفعلوا ذلك أيضاً. لاسيما، أنت أرتيمي فيليوفيتش! ليس من شك في أن الموظف القادم سيرغب، قبل كل شيء، في تفقد المستشفيات الخيرية التي ترعاها. ولهذا يجب أن تجعل كل شيء فيها لائقاً. الطاقيات نظيفة، والمرضى لا يشبهون الحدادين، كما هم في العادة، حين يضعون عليهم أي شيء من الثياب، وكأنهم في بيوتهم. أرتيمي فيليوفيتش: لا بأس في هذا. يمكن أن نلبسهم طاقيات نظيفة حسب ظني.

حاكم المدينة: ويجب أن يكتب المرضى فوق كل سرير باللاتيني أو أية لغة أخرى. وهذه مهمتك، يا خريستيان إيفانوفيتش، ومتى مرض المريض به، اليوم والتاريخ... غير لطيف أن يدخن مرضاك تبغاً قوياً يجعل كل من يدخل يعطس حتماً. وحبذا لو يقل عددهم، وإلا فسيعزى ذلك إلى سوء الإدارة أو عدم مهارة الطبيب.

أرتيمي فيليوفيتش: أوه! بخصوص الطبابة اتخذت أنا وخريستيان إيفانوفيتش الموقف التالي: كلما كان الأمر أقرب إلى الطبيعة كان أحسن. نحن لا نستعمل أدوية غالية. الإنسان بنية بسيطة. إذا كان في طريقه إلى الموت مات، وإذا كان في طريقه إلى الشفاء شفي. ثم إن من الصعب على خريستيان إيفانوفيتش التفاهم معهم فهو لا يعرف من الروسية أية كلمة.

(يصدر خريستيان إيفانوفيتش صوتاً يشبه الياء).

حاكم المدينة: وبودي أن أنصحك أنت أيضاً، يا أموس فيدروفيتش، بأن تلتفت إلى غرف دائرتك، فإن الحراس صاروا يربّون البطّ وفراخه في الرواق الذي يوجد المراجعون فيه عادة،

فيلبسط بين أرجلهم. تربية الدواجن تستحق كل ثناء بالطبع، فلماذا لا يربّيها الحراس أيضاً؟ ولكن لا يليق ذلك في مثل هذا المكان... قبل هذا أيضاً كنت أريد أن ألفت انتباهك، ولكن فات من بالي.

أموس فيدروفيتش: سآمرهم اليوم بنقله جميعاً إلى المطبخ لذبحه. تفضّل وتغدّد عندنا إذا شئت.

حاكم المدينة: وفضلاً عن ذلك قبيح أن تنشر مختلف الحرق في مقرّ عملك، ويتبدّل سوط الصيد من فوق الدولاب الذي تحفظ فيه أوراقك. أنا أعرف أنك تهوي الصيد. ولكن من الأفضل أن ترفعه مؤقتاً، وتعلّقه ثانية، حين يرحل المفتش العام. ثم إن موظفك المنتخب... طبعاً إنّه رجل مطلع، ولكن له رائحة قوية، وكأنه خرج لتوّه من مصنع تخمير. وهذا شيء غير لطيف أيضاً. كنت أريد أن أكلمك عنه منذ زمان، لكن كنت مشغول البال بشيء لا أذكره الآن. هناك وسيلة لعلاج ذلك، إذا كانت هذه رائحته الطبيعية، كما يقول، فمن الممكن أن يُنصح بأكل البصل أو الثوم، أو أي شيء آخر. وفي هذه الحال يمكن أن يساعده خريستيان إيفانوفيتش. بمختلف العقاقير. (يصدر خريستيان إيفانوفيتش نفس الصوت السابق).

أموس فيدروفيتش: لا، من المستحيل التخلص من تلك الرائحة. يقول إن أمّه صدمته، حين كان طفلاً، ومنذ ذلك الحين صارت تخرج منه رائحة الفودكا غير القوية.

حاكم المدينة: هذا ما أردت أن أتبهك عليه فقط. أما بخصوص الإجراءات الداخلية، وما يسميه أندريه إيفانوفيتش في رسالته بالآثام، فلا أريد أن أعلّق عليه. فإن ذلك سيكون غريباً. إذ لا يوجد إنسان خال من الآثام. هكذا خلقنا الربّ نفسه. وليس من حق أصحاب الأفكار الجديدة أن يعترضوا على ذلك.

أموس فيدروفيتش: ماذا تقصد بالآثام، يا أنتون أنتونوفيتش؟ هناك فرق بين آثام وآثام. وأنا أقول بصراحة للجميع: إنني آخذ

رشاوى. ولكن أي نوع من الرشاوى؟ جراء كلاب الصيد. وهذا شيء مختلف تماماً.

حاكم المدينة: كلها رشاوى سواء أكانت جراء أو غيرها.
أموس فيدروفيتش: لا يا أنتون أنتونوفيتش ولكن لو أن لأحد فروة ثمنها خمسمائة روبل، مثلاً، وللزوجة شال...

حاكم المدينة: ولكن ماذا يجدي أن تقتصر في رشاواك على جراء كلاب الصيد؟ بينما أنت لا تؤمن بالرب، ولا تذهب إلى الكنيسة أبداً. بينما أنا، على الأقل، قوي الإيمان، وأذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد. وأنت... أوه، أعرفك. إذا بدأت بالكلام عن خلق العالم، وقف شعر الرأس كله.

أموس فيدروفيتش: ولكن أنا الذي توصلت إلى ذلك بعقلي.
حاكم المدينة: حسناً، كثرة العقل، في بعض الأحيان، أسوأ من عدمه. وبالمناسبة أنا لم أذكر محكمة القضاء إلا عرضاً. فمن المستبعد حقاً أن يطل أحد عليها، فهي مكان آمن والرب يحرسه بنفسه. أما أنت، يالوكا لو كيتش باعتبارك ناظر المؤسسات التعليمية، فيجب أن تهتم بالمعلمين بشكل خاص. إنهم، بالطبع، أناس متعلمون درسوا في مختلف دور العلم، ولكن لهم تصرفات غريبة جداً لا تنفصل، بالطبع، عن لقبهم العلمي. فأحدهم، مثلاً، وهو ذو الوجه الممتلئ... لا أتذكر اسمه، لا يصعد إلى المنصة إلا وهذه التكشيرة على وجهه (تمثل هذه التكشيرة). ثم يأخذ بتمسيد لحيته بيده من تحت ربطة عنقه. لا بأس، بالطبع، لو كان يكثر هذه التكشيرة لتلامذته، فقد تكون التكشيرة ضرورية، وأنا لا أفهم في هذا. ولكنها قبيحة إذا جابه بها أحد الزوّار، فاحكموا بأنفسكم. قد يعتبرها السيد المفتش العام أو غيره مساساً به. وسيحصل من ذلك ما لا يعرفه إلا الشيطان.
لوكا لو كيتش: ماذا تريد أن أفعل به، حقاً؟ لقد تكلمت معه عن ذلك عدّة مرّات. وقبل أيام فقط، حين دخل عميد الأشراف عندنا

إلى الصف، قلب سحته قلبه لم أر مثلها قط. وقد فعل ذلك عن طيبة قلب. ولكنتي حصلت على توبيخ بدعوى أنه يدخل الأفكار المتحررة في عقول النشء.

حاكم المدينة: ثم يجب أن ألقت نظرك إلى معلم التاريخ. إنه عقل نير، وذلك واضح، ومعلوماته هائلة، ولكنه يتحمس حماساً شديداً، حين يشرح، حتى يخرج عن أطواره، ذات مرة استمعت إليه، طيب، حين كان يتكلم عن الآشوريين والبابليين لا بأس، ولكن عندما وصل إلى اسكندر المقدوني، لا أقدر أن أصف لكم ماذا حصل له. ظننت أن حريقاً قد شب، وحق الرب! نزل راكضاً من المنصة، وخبط الكرسي بالأرض بكل قوته.

اسكندر المقدوني بطل، بالطبع، ولكن لماذا يكثر معلمك الكرسي؟ في ذلك خسارة للدولة.

لوكا لوكيتش: نعم، إنه حاد المزاج! وقد تبهته على ذلك عدة مرّات... ولكنه يقول: «كما تشاء، ولكنتي لن أبخل بحياتي في سبيل العلم».

حاكم المدينة: نعم، هذه سُنّة القدر التي لا تخضع لتفسير: العالم إما أن يكون سكّيراً، وإما أن يقلّب سحته كالشيطان.

لوكا لوكيتش: عسى الله أن لا يجعل الإنسان يخدم في مؤسسة تعليمية. فهو يخاف من كلّ شيء، لأن أي إنسان يدس أنفه أو يحب أن يظهر أنه هو أيضاً عالم.

حاكم المدينة: هذا لا شيء. والمصيبة هو ذلك الذي يتخفى عنا. وسيطلّ فجأة ويقول: «آها، أنتم هنا، بالطاف! ومن القاضي بينكم؟» «إنه ليا بكيين تيا بكيين» «هاتوا لي ليا بكيين تيا بكيين! ومن راعي المؤسسات الخيرية؟» «زيملا نيك» «هاتوا لي زيملا نيك» تلك هي البلية.

المشهد الثاني

(نفس الأشخاص مع مأمور البريد).

مأمور البريد: أوضحوا لي، يا سادة، أي موظف قادم؟

حاكم المدينة: ألم تسمع حقاً؟

مدير البريد. سمعت من بيتر إيفانوفيتش بوبتشينسكي: كان عندي في دائرة البريد قبل لحظات.

حاكم المدينة: طيب. ما رأيك في هذا؟

مأمور البريد: ما رأيي؟ ستقع حرب مع الأتراك.

أموس فيدروفيتش: بالضبط! مثلما فكرت أنا.

حاكم المدينة: ولكن كليكما لم يصب الهدف.

مأمور البريد: حرب مع الأتراك، حقاً، وكل ذلك من كيد الفرنسيين.

حاكم المدينة: ما شأن الحرب مع الأتراك هنا! نحن الذين سنتضرر، لا الأتراك، وهذا معروف من الرسالة التي تلقيتها.

مأمور البريد: إذا كان كذلك فلن تقع حرب مع الأتراك.

حاكم المدينة: ماذا ترى في هذا، يا إيفان كوزميتش؟

مأمور البريد: وماذا أنا؟ ولكن كيف ترى أنت، يا أنتون أنتونوفيتش؟

حاكم المدينة: وماذا أنا أيضاً؟ لا أشعر بخوف، ولكن... التجار والأهالي يقلقونني... يقولون إنني ضايقتهم، ولكن والله إن كنت

قد أخذت رشوى من أحدهم، فبدون أية ضغينة حقاً. حتى أنني أفكر (يتأبط ذراعه، ويتنحي به جانباً).. حتى أنني أفكر بأن أحداً من الناس ربما قد وشى بي وإلا فلماذا يقصدنا مفتش عام حقاً؟ أسمع، يا إيفان كوزميتش، هل من الممكن، لمصلحتنا عموماً، أن نقض ختم الرسالة القادمة إليك في دائرة البريد الواردة والصادرة؟ نقضها قليلاً، وتقرأها، فلعل فيها وشاية أو مجرد إخبارية. وإذا لم تجد شيئاً يمكن أن تختتمها من جديد، بل يمكنك أن تسلمها كما هي، غير مختومة.

مأمور البريد: أعرف، أعرف.... لا تعلمني بذلك. فأنأ أفعله لا من جانب الاحتراس، بل من جانب الفضول أكثر. فأنأ مغرم حتى الموت بمعرفة ما هو جديد في الدنيا. وأؤكد لك أن مثل هذه القراءة غاية في المتعة. بعض الرسائل تقرأها بتلذذ، لأنها تصف مختلف الوقائع... فيها موعظة وحكمة... أحسن من «الوقائع الموسكوفية»^(١)

حاكم المدينة: طيب، ألم تقرأ شيئاً عن موظف قادم من بطرسبورغ؟

مأمور البريد: لا، لا شيء عن هذا ولكن أحاديث كثيرة تدور حول موظفين من كوستروما وساراتوف. على كل حال، خسارة أنك لا تقرأ رسائل. فيها مواضيع رائعة، أحد الضباط، مثلاً، يكتب لصديقه، ويصف حفلة راقصة في منتهى الفرفشة... لطيف، لطيف جداً. فهو يقول: «الحياة، يا صديقي العزيز، تجري في نعيم. الأوانس

(١) جريدة كانت تصدرها جامعة موسكو منذ عام ١٧٦٦. وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كفت الجامعة عن إصدارها، وصارت رجعية تصدرها الحكومة. المغرب.

كثيرات، والموسيقى تصدح، والرايات ترفرف» وصف في منتهى،
منتهى العاطفة، أبقى الرسالة عندي عمداً، هل تريد أن أقرأها؟
حاكم المدينة: ليس وقتها الآن، إذاً، اعمل معروفًا، يا إيفان
كوزميتش، إذا وقعت في يديك شكوى أو وشاية، احفظها عندك،
دون أي تردد.

مامور البريد: بكل سرور.

أموس فيدروفيتش: انتبه، فقد تناذى من وراء ذلك.

مامور البريد: آه، يا أولياء!

حاكم المدينة: لا بأس، لا بأس، شيء آخر لو شهّرت بذلك.
ولكنها قضية عائلية.

أموس فيدروفيتش: نعم، وقع ما لا تحمّد عقباه! بنما جئتكَ، يا
أنتون أنتونوفيتش، إذا أردت الصراحة لأهديك كلبة صيد، هي شقيقة
الكلب الذي تعرفه. لعلك سمعت بأن تشيتوفيتش وفارخوفينسكي
أقام دعوى على الآخر، وأنا الآن في ترف، أصطاد الأرانب في
أراضي هذا وذاك.

حاكم المدينة: آه، يا أولياء، لا تهمني الآن أرايتك. فانا أفكر في
ذلك المتخفي اللعين الذي قد يطل علينا من لحظة إلى أخرى...

المشهد الثالث

(نفس الأشخاص مع بوبتشينسكي ودوبتشينسكي اللذين يدخلان
لاهثين).

بوبتشينسكي: حدث خارق!

دوبتشينسكي: نبأ غير متوقع!

الجميع: ما هو؟

دوبتشينسكي: أمر لا على البال ولا على الخاطر. بينما كنا
داخلين إلى الفندق...

بوبتشينسكي: (يقاطعه) بينما كنت وبيتر إيفانوفيتش داخلين إلى
الفندق....

دوبتشينسكي: (يقاطعه) اسمح لي، يا بيتر إيفانوفيتش. أنا الذي
سيحدث.

بوبتشينسكي: لا، لا، اسمح لي، اسمح لي، اسمح لي... ليست
لديك أية طريقة في الحديث...

دوبتشينسكي: بينما أنت ستعثر في الكلام، ولا تتذكر كل شيء.
ولا تتذكر كل شيء.

بوبتشينسكي: أتذكر، والله، أتذكر. فلا تعقني، ودعني أحكي،
لا تعقني! اعملوا معروفاً، يا سادة، وقلوا لبيتر إيفانوفيتش أن لا
يعقني.

حاكم المدينة: ولكن تكلم، بحق الرب. ماذا عندكما؟ قلبي

خرج من موضعه. اجلسوا، يا سادة، خذوا مقاعدكم. هاك مقعداً، يا بيتر إيفانوفيتش.

(الجميع يجلسون حول هذين البيترين إيفانوفيتشين كليهما).

الجميع: طيب، ما هو؟

بوتشينسكي: اسمح لي، اسمح لي، اسمح لي سأحكي بالترتيب. ما إن نهياً لي الخروج منك بعد أن تفضلت وأبدت انزعاجك من الرسالة التي تسلمتها، أي نعم، حتى أسرع... أوه، أرجوك، لا تقاطعني، يا بيتر إيفانوفيتش! أنا أعرف، أعرف كل شيء... حتى أسرع إلى كوروبكين. فلم أجد كوروبكين في البيت، فخرجت على راستاكوفسكي، فلم أجد راستاكوفسكي، فذهبت إلى إيفان كوزميتش لأبلغه بالخبر الذي وصلت، وحين خرجت من هناك التقيت ببيتر إيفانوفيتش.....

دوتشينسكي: (يقاطعه) قرب الكشك الذي تباع فيه الفطائر.

بوتشينسكي: قرب الكشك الذي تباع فيه الفطائر. وحين التقيت ببيتر إيفانوفيتش قلت لهك «هل سمعت بالخبر الذي تلقاه أنتون أنتونوفيتش من رسالة موثوقة؟» كان بيتر إيفانوفيتش قد سمع بالخبر من قهرمانتك آفدوتيا التي لا أعرف لماذا أرسلت إلى فيليب أنتونوفيتش بوتشيتشوف.

دوتشينسكي: (يقاطعه) لجلب دنٌ للفودكا الفرنسية.

بوتشينسكي: (يبعد يديه). لجلب دنٌ للفودكا الفرنسية.

فذهبنا أنا وبيتر إيفانوفيتش إلى بوتشيتشوف.... أرجوك، يا بيتر إيفانوفيتش، لا تقاطعني، لا تقاطعني! ذهبنا إلى بوتشيتشوف وفي الطريق يقول لي بيتر إيفانوفيتش: «لنذهب إلى المطعم... لم أضع في معدني طعاماً منذ الصباح... عندي اضطراب معدوي» آها، عند

بيتر إيفانوفيتش اضطراب معدوي.... ويقول: «والآن جلبوا إلى مطعم الفندق سمك سلمون طازج، وسأكل منه». وما كدنا نخطّ في غرفة الطعام حتّى نرى شاباً فجأة...

دوبتشينسكي: (يقاطعه) له مظهر مقبول، ولباس مدني...

دوبتشينسكي: له مظهر مقبول، ولباس مدني، يتمشى في الغرفة، وعلى وجهه تفكير عميق... سيما... ت صرّفات، وهنا (يدير يده قرب جبينه). أهمّ الأهمّ. وكأنني حدست، فأقول لبيتر إيفانوفيتش: «شيء غير اعتيادي هنا». آها. وكان بيتر إيفانوفيتش قد أوماً إلى صاحب الحانة فلاس بأصبعه يدعوه إليه. قبل ثلاثة أسابيع وضعت زوجة فلاس طفلاً حركاً للغاية، سيدير حانة مثل أبيه. دعا بيتر إيفانوفيتش فلاس، واستفسر منه بهدوء: «مَنْ ذلك الشاب؟» فيرد فلاس: «هذا»... أوه، لا تقاطعني، يا بيتر إيفانوفيتش أرجوك، لا تقاطعني. ولا تتحدث، بحقّ الربّ، لا تتحدّث. أنت تهسهس. أنا أعرف أن إحدى أسنانك تصدر صفيراً... فيقول فلاس: «هذا الشاب موظّف قادم من بطرسبورغ يُدعى إيفان الكسندروفيتش خليستاكوف، في طريقه إلى ولاية ساراتوف. يتصرّف بغرابة. نزل في الحانة منذ أكثر من أسبوع، ولا يغادر. يأخذ كلّ شيء على الحساب، ولا يريد أن يدفع فلساً واحداً». وحالما قال لي ذلك، أدركت بوحى سماوي، فأقول لبيتر إيفانوفيتش: «آي».....

دوبتشينسكي: لا، يا بيتر إيفانوفيتش، أنا الذي قلت: «آي!»

دوبتشينسكي: في البداية قلت أنت، وبعد ذلك قلت أنا.

طيب، قلت أنا وبيتر إيفانوفيتش: «آي!» ولماذا يظّل ههنا إذا كان يقصد ولاية ساراتوف؟ نعم، إنّه هو، أقصد ذلك الموظّف.

حاكم المدينة: من هو ذلك الموظّف؟

بوتشينسكي: الموظف الذي تلقيت إخبارية عنه. المفتش العام.

حاكم المدينة: (في فزع) الله يحفظنا! ليس هو.

دوتشينسكي: هو! لا يدفع فلوساً، ولا يسافر. ومن يمكن أن يكون غيره؟ ساراتوف مكتوبة في وثيقة السفر.

بوتشينسكي: هو، وحق الرب، هو... متفحص استوعب ببصره كل شيء. حين رأنا أنا وبيتر إيفانوفيتش نأكل السلمون، بسبب معدة بيتر إيفانوفيتش على الأكثر... نظر في صحننا أيضاً، فاستولى الذعر عليّ.

حاكم المدينة: يا إلهي، ارحمنا، نحن الآثمين! أين يعيش هناك؟

دوتشينسكي: في الحجرة رقم خمسة، تحت السلم.

بوتشينسكي: في نفس الحجرة التي تعارك فيها الضباط المسافرون في العام الماضي.

حاكم المدينة: وهل هو هنا منذ زمان؟

دوتشينسكي: منذ أسبوعين. وصل في عيد القديس فاسيلي

المصري.

حاكم المدينة: منذ أسبوعين! (في ناحية). يا أولياء، يا قديسون!

أنقذوني، أيها الشفيعون! في هذين الأسبوعين جُلِدَت زوجة ضابط الصف^(١)! ولم توزع الأرزاق على المعتقلين! وفي الشوارع عريضة ووساخة! عار! مثلبة! (يمسك رأسه)..

ارتيمي فيليبوفيتش: ما رأيك، يا أنتون أنتونوفيتش؟ أنذهب إلى

الفندق لنقدم أنفسنا رسمياً؟

(١) قبل وقت قصير من ظهور «المفتش العام» صدر قانون يحرم العقوبات الجسدية لزوجات ضباط الصف. العرب.

أموس فيدروفيتش: لا، لا! في البداية نرسل عميد الوجهاء... رجال الدين، التجار: في كتاب «مآثر يوحنا ماسون»...

حاكم المدينة: لا، لا، اسمحوالي أن أتصرف. في الماضي حصلت حالات صعبة، وشوَّيت بل وحصلت على شكر. فلعلَّ الربَّ ينجيني، هذه المرَّة أيضاً. (يخاطب بوبتشينسكي).. تقول إنَّه شاب؟ بوبتشينسكي: شاب في الثالثة والعشرين أو أكثر من الرابعة والعشرين بقليل.

حاكم المدينة: هذا أفضل. الشاب أكثر انكشافاً، كلَّ شيء فيه ظاهر، ولكن المصيبة إذا كانت داهية عجوزاً. تهتأوا، أيها السادة، كلَّ في دائرة عمله، وسأخرج أنا لوحدي، أو مع بيتر إيفانوفيتش بشكل شخصي، للنزهة، والتعرَّف عمَّا إذا كان المازون في مدينتنا يلقون بعض المنقّصات. هاي، يا سفيستونوف!

سفيستونوف: ماذا تحبُّون؟

حاكم المدينة: استدع رئيس شرطة المدينة. أو، لا، أنت تلزمني، أطلب أن يُستدعى رئيس شرطة المدينة إليَّ بأسرع وقت، وتعال. (الشرطي يركض بعجالة).

أرتيمي فيليبوفيتش: لنذهب، لنذهب، يا أموس فيدروفيتش! قد تحصل مصيبة حقاً.

أموس فيدروفيتش: ولكنَّ ممَّ تخاف؟ تلبس مرضاك طاقيات نظيفة، وتغطّي على آثامك.

أرتيمي فيليبوفيتش: ليست مسألة طاقيات! الأوامر تنصّ على تقديم شوربة الشعير للمرضى، بينما رائحة الكرنب عندي مملاً الممرّات كلّها حتى تصدم الأنف.

أموس فيدروفيتش: أمّا أنا فمطمئن من هذه الناحية، إذا أردت

الواقع مَنْ يتذكّر محكمة البلدة فيطلّ عليها؟ وحتى إذا نظر في ورقة فيها، فإنه لن يرى الفرحة في حياته كلّها. أنا منذ خمسة عشر عاماً، أقعد على كرسي القضاء، ولكن ما إن أنظر في سجل الوقائع حتى أنفر منه وأعوفه. سليمان الحكيم نفسه لا يعرف الصحيح فيه من الكذب.

(يخرج القاضي، وراعي المؤسسات الخيرية، وناظر المؤسسات التعليمية، ومأمور البريد، فيصطدمون في الباب بالشرطي العائد)

المشهد الرابع

(حاكم المدينة، بويتشينسكي، دوبتشينسكي، والشرطي).

حاكم المدينة: هل العربية جاهزة؟

الشرطي: جاهزة.

حاكم المدينة: أخرج إلى الشارع... أو، لا، على مهلك... اذهب لجلب... ولكن أين الآخرون؟ هل معقول أنك وحدك؟ أو عزتُ بأن يكون بروخوروف هنا أيضاً. أين بروخوروف؟

الشرطي: بروخوروف في بيته، ولكنه لا يستطيع أن يشترك في عمله.

حاكم المدينة: وكيف هذا؟

الشرطي: جلبوه في الصباح كالميت. صبوا عليه جردلين من الماء، فلم يفق من سكره حتى الآن.

حاكم المدينة: (عمسك رأسه) أوه، يا ربّي، يا ربّي!

أخرج إلى الشارع على عجل. أو، لا. أركض إلى الحجرة أولاً، سامع! أجب منها السيف والقبعة الجديدة، هيا، يا بيتر إيفانوفيتش! بويتشينسكي: وأنا أيضاً، وأنا أيضاً... اسمح لي أنا أيضاً، يا أنتون أنتونوفيتش!

حاكم المدينة: لا، لا، يا بيتر إيفانوفيتش، غير ممكن، غير ممكن! هذا إحراج، كما أن ع ربتي الصغير لا نسع.

بويتشينسكي: لا بأس، لا بأس. سأجري وراءها، لا أحتاج إلا أن

أنظر إليه من خصاص الباب... وأرى تصرفاته...

حاكم المدينة: (للشرطي، وهو يتناول السيف) اذهب حالاً مع بعض المساعدين، وليأخذ كل واحد منهم.... آه، ما أكثر الخدوش على هذا السيف! اللعنة على التاجر عبدولين. يرى حاكم المدينة بحمل سيفاً عتيقاً، دون أن يرسل له آخر جديداً، آه، محتاولون! أظن هؤلاء الغشاشين يهيئون الآن الشكاوى خلسة. ليأخذ كل واحد في يده شارعاً... أوه، اللعنة، أقصد مكنسة! وليكنسوا كل الشارع المؤدي إلى الحانة، وليكنسوه بشكل جيد... تسمع! أنت فأحذرك، نعم، أنت، أنت. أنا أعرفك. سترفع الكلفة، وتسرق ملاعق فضية، وتخبيثها في عنق حذائك الطويل. احذر، فإن لي بصرأ حاداً! ماذا فعلت مع التاجر تشيرنياف؟ ها؟ أعطاك ذراعين من الجوخ لتفصلهما بزة لك، بينما لطشت أنت اللفة كلها، حذار، أنت تأخذ أكثر مما يناسب ربتك. اذهب!

المشهد الخامس

(نفس الأشخاص مع رئيس شرطة المدينة).

حاكم المدينة: آ... ياستييان إيليتش! قل لي بحق الرب، أين اختفيت؟ ماذا يعني هذا؟

رئيس الشرطة: كنت هنا، وراء البوابة.

حاكم المدينة: اسمع، يا ستييان إيليتش! وصل موظف من بطرسبورغ. فكيف تهيات لذلك؟

رئيس الشرطة: مثلما أمرت. أرسلت الشرطي بوغوفيتسين مع المساعدين لتنظيف الرصيف.

حاكم المدينة: وأين دير جيموردا؟

رئيس الشرطة: خرج على عربة الإطفاء.

حاكم المدينة: وبروخوروف سكران؟

رئيس الشرطة: سكران.

حاكم المدينة: وكيف تساهلت في ذلك.

رئيس الشرطة: لا أدري، والله، يوم أمس حصل عراك خارج المدينة فذهب إلى هناك ليعيد النظام، فعاد سكران.

حاكم المدينة: طيب، اسمع. افعل كالأتي: اجعل الشرطي بوغوفيتسين يقف على الجسر للوجاهة، لأنه طويل القامة. وأوعز بتفكيك السياج القديم القائم قرب الإسكاف بسرعة، ونصب عمود

من القش هناك، ليدل على مشروع بناء، لأنه كلما كثر الحطام كان أكثر دلالة على نشاط القائم على أمور المدينة. أوه، يا إلهي، نسيت أن بالقرب من هذا السياج مختلف القاذورات تكفي لأربعين عربية. أية مدينة حقيرة هذه! ما إن تقيم فيها نصباً تذكاريّاً، أو مجرد سياج، حتى تجد الناس يحملون إلى هناك وساخات لا أحد يعرف من أين جاءوا بها! (يتنهد). وإذا سأل الموظف المستخدم من عمّا إذا كانوا مرتاحين، فيقولوا: «مرتاحون، يا صاحب النبالة»، وإذا أعلن واحد منهم عن عدم رضاه فسيجد منّي، فيما بعد، مالا يحمد عقباه.... أوه، أوه، أوه هو! خاطي أنا، خاطي في أشياء كثيرة. (يتناول علبة القبّعة بدلاً من القبّعة).. لئن نجّانا الربُّ من هذه الغمة بأقرب وقت، فسأوقد له شمعة لم يوقد مثلها قطّ. سأفرض على كلّ محتال تاجر ثلاثة بودرات من الشمع. أوه، يا ربّي، يا ربّي! لنذهب، يا بيتر إيفانوفيتش. (يهتم بأن يضع العلبة الورقية بدلاً من القبّعة).

رئيس الشرطة: يا أنتون أنتونوفيتش، هذه علبة وليست قبعة.

حاكم المدينة: (يلقيها)، أهأ، علبة، عليها اللعنة! وإذا سأل الموظف: لماذا لم تُبن كنيسة المؤسسة الخيرية، وقد خصّص لها مبلغ من المال منذ خمسة أعوام، فلا تنسوا أن تردوا عليه بأننا قد بدأنا بنائها، ولكنها احترقت. وقد قدمت أنا تقريراً بذلك، أخشى أن يسهو أحدكم فيقول بحماقة أننا لم نشرع في بنائها. ثم أخبر دير جيموردا أيضاً بأن لا يستخدم قبضتيه كثيراً، فهو لحفظ النظام، يترك كدمات تحت عيون الناس المذنبين منهم وغير المذنبين. لنذنب، يا بيتر إيفانوفيتش! (يخرج ويعود) ثم لا تدع الجنود يخرجون إلى الشارع كالعرّة، فهؤلاء الأرذال من جنود الحامية يلبسون السترة الرسمية على القميص، ولا شيء في الأسفل.

(الجميع يخرجون).

المشهد السادس

(آنا أندريفنا. وماريا أنتونوفنا. تدخلان خشبة المسرح راكضتين).

آنا أندريفنا: أين هم؟ آه، يا إلهي!... (تفتح الباب).. زوجي! أنتوشا! أنتون! (تسرع في كلامها). العتب عليك، كل شيء بسببك. رحت تنبشين: أريد الدبوس، أريد المنديل. (تركض إلى النافذة، وتصيح). أنتون، إلى أين، إلى أين؟ يعني، وصل؟ المفتش العام؟ ذو شاربين! ما شكل شاربيه؟

صوت حاكم المدينة: فيما بعد، فيما بعد، يا سيدتي.

آنا أندريفنا: فيما بعد؟ نورّتي بي (فيما بعد) هذه. لا أريد فيما بعد.... كلمة واحدة فقط: هل هو عقيد؟ ها؟ (باستخفاف). ذهب! سأذكرك بهذا! تأخرنا بسببك أنت: «ماما، ماما، انتظري، لأدبس المنديل من الخلف. حالاً» وهذه هي نتيجة حالاً! لم نعرف أي شيء! كل ذلك بسبب الدلع اللعين. ما إن سمعت بأن مأمور البريد في البيت، حتى وقفت أمام المرأة متغنجة تتلوى على هذا الجانب وعلى ذلك الجانب. تصوّرين أنه يغازل لك. بينما هو يمحّط لك شفتيه سخرية، حالما تستديرين.

ماريا أنتونوفنا: وما العمل، يا ماما؟. لا يهتم، سنعرف كل شيء، بعد ساعتين.

آنا أندريفنا: بعد ساعتين! شكراً جزيلاً على هذا الجواب الوافي الشافي! كيف لم تخدسي أن تقولي بعد شهر سنعرف أحسن! (تخرج جسمها من النافذة).. يا آفدوتيا! ها؟ هل سمعت بوصول أحد؟

لم تسمعي؟ حمقاء! يעדك بذراعيه؟ وليكن، ولكن كان عليك أن تسأليه. لم تستطيعي أن تعرفي! رأسك معبأ بالتوافه لا تفكرين إلا بالزواج. ها؟ خرجوا بسرعة؟ كان عليك أن تركضي وراء العرب. اذهبي، اذهبي، الآن! اسمعي: اركضي واستفسري إلى أين ذهبوا، استفسري جيداً: مَنْ هو القادم وما هو شكله. هل تسمعين؟ بضّي من ثقب الباب، واعرفي كلّ شيء.. ما لون عينيه، سوداوان أم بلون آخر. وعودي حالاً. تسمعين؟ أسرع، أسرع، أسرع! (تصيح إلى أن تهبط الستارة فتحجب كلتا المرأتين عند النافذة)..

الفصل الثاني

(غرفة صغيرة في فندق. سرير، منضدة، حقيبة زجاجة فارغة، حذاء طويل العنق. فرشاة الثياب، وغير ذلك).

المشهد الأول

(أوسيب منطرح على سرير سيده).

اللجنة! جوعان تماماً. وبطني يقرقر، وكأن فوجاً كاملاً ينفخ بالأبواق. لا أظننا سنصل إلى موطننا! ما العمل إذا؟ هذا هو الشهر الثاني منذ أن خرجنا من بطرسبورغ! الحلو بذّر فلوسه في الطريق، وهو الآن يقعد فارغ الجيب ولا يهتم. بينما كان لديه ما يكفي ويزيد للتنقل، جنى عليه حبه للرفخفة في كل مدينة. (يقلّده): «يا أوسيب، اذهب وابحث لي عن أحسن غرفة، واطلب أحسن غداء. أنا لا أستطيع أن أكل الطعام الغث وأريد أحسن طعام». لا يهتم لو كان موظفاً معترأ، بالفعل، ولكنه من الدرجة الدنيا في الوظيفة! تعرّف على المسافرين، ويلعب القمار معهم، وها هي النتيجة! أوه، ضقت من هذه الحياة! العيش في الريف أحسن، بالتأكيد. صحيح، لا توجد حياة اجتماعية، ولكن الهموم أقل. تنزّوج ريفية، وتظلّ طول عمرك راقداً على جنبك، بل وتاكل فطائر علاوة على ذلك. طبعاً، الحياة في بطرسبورغ هي المثلى، إذا أردت الحقيقة. ولا أحد يناقشك في ذلك. فقط أن تكون لديك فلوس، حياة رقيقة مهذّبة. وطوال الوقت

تسمع كلاماً في غاية الرقة، لا أحسن منه غير كلام النبلاء. فانت تذهب إلى سوق شو كين، فتسمع التجار يصيحون: «يا محترم!». وعندما تعبر النهر تجلس مع الموظّفين في قارب واحد. وإذا كنت تحبّ العشرة دخلت حانة، واستمعت إلى جندي عجوز يقصّ لك عن المعسكر، ويفسر لك ما تعني كل نجمة في السماء، فترى كل شيء وكأنه في راحة يدك. وتصادف عجوزاً، هي زوجة ضابط، تبخر، ووصيفة في بيت نبيل ممر بك أحياناً... آه، ما أحلاها! (يكشّر، ويهزّ رأسه).. أدب.... يا ويلي، ولطافة! لن تسمع أية كلمة غير مهذّبة. والجميع يخاطبونك بـ «يا محترم». وحين تضجر من التمشّي توقف عربة، وتجلس فيها كالسيد المعتر، وإذا لم ترد أن تدفع أجرة الخوذي استطعت أن تزوغ. فلكلّ بيت منفذ من الجهة الأخرى، وتقدر أن تنسلّ منه ولا يستطيع أي عفريت أن يمسكك. شيء واحد مزعج هو أنّك تأكل أحياناً حتى الشبع، وتجموع أحياناً حتى تكاد تموت من الجوع، كما هي حالي الآن. وكلّ ذلك بسببه. فماذا أفعل معه؟ حين يرسل له أبوه نقوداً لن يحتفظ بها، ويبددها شرّ تبديداً ويركب عربات الأجرة، وأذهب كل يوم لأشتري له تذاكر للمسرح. وبعد أسبوع تكون الفلوس قد طارت. فيرسلني إلى السوق لأبيع له بدلة الفراك الجديدة. وأحياناً يبيع كلّ ما لديه ولا يبقى معه غير السترة الرسمية والمعطف... هذا صحيح، وحقّ الربّ، صحيح! الجوخ معتبر، إنكليزي، الفراك وحده يكلفه مئة وخمسين روبلاً. فيبيعه في السوق بعشرين. أما البناتيل فلا حاجة حتى لذكرها. يبيعها بقروش زهيدة. ولم كل ذلك؟ لأنه لا يزاول عملاً. وبدلاً من أن يذهب إلى وظيفته، يتنزّه في الشارع العام، ويلعب الورق. آه، لو عرف السيد العجوز هذا! لن ينظر إلى كونه موظّفاً، ويرفع قميصه ويجلده جلدأً يظلّ بعده ثلاثة أيّام يحكّ جلده. إذا كنت في وظيفة فداوم فيها.

صاحب الفندق الآن قال: لن أقدم لك ما تأكله حتى تدفع الحساب السابق، طيب، وإذا لم تدفع؟ (يتحسّر). آه، يا إلهي، على الأقل لو كانت عندنا شورية كرنب بسيطة! يبدو لي الآن أنني ألتهم العالم كله. أسمع طرقاتاً. نعم، ها هو قادم. (يسرع بالتزول من السرير).

المشهد الثاني

(أوسيب وخليستاكوف)

خليستاكوف: هاك، خذ، (يقدم له القبعة والعصا).. آه، مرة أخرى انظرحت على السرير؟

أوسيب: ولم أنطرح؟ اتحسبني لم أر سريراً في حياتي؟
خليستاكوف: تكذب. كنت منطرحاً عليه. انظر كيف هو مدعوك!

أوسيب: ولكن أي غرض لي به؟ كأنني لا أعرف ما هو السرير. عندي رجلان، واقدر أن أقف. فما حاجتي إلى سريرك؟

خليستاكوف: (يذرع الحجرة). انظر في الكيس، ربما يوجد تبغ؟
أوسيب: ومن أين يأتي هذا التبغ؟ أنت دخنّت آخر ما تبقى منه قبل أربعة أيام.

خليستاكوف: (يتمشّى ويضمّ شفّتيه بأوضاع مختلفة. وأخيراً يقول بصوت عال حازم). اسمع، يا أوسيب!

أوسيب: بماذا تتكلم؟

خليستاكوف: (بصوت عال، ولكن بلا حزم كبير). اذهب إلى هناك.

أوسيب: إلى أين؟

خليستاكوف: (بصوت خال من الحزم تماماً، وليس عالياً،

وقريب جداً من الرجاء). إلى المشرب، في الأسفل... وأبلغهم... أن يقدموا لي ما أتغدى به.

أوسيب: لا، لا أحب حتى أن أنحرّك.

خليستاكوف: كيف تجسر، يا أحمق؟

أوسيب: ولكن، بلا جدوى، حتى لو ذهبت لن نحصل على شيء... صاحب الفندق قال: لن أقدم أي طعام بعد الآن.

خليستاكوف: وكيف يجسر على ذلك؟ أي سخف هذا!

أوسيب: ويقول أيضاً: وسأذهب إلى حاكم المدينة: سيدك لا يدفع فلوساً منذ أسبوعين. ويقول: أنت وسيدك محتالان. وسيدك نصاب. ويقول نحن نعرف الطفيلين والأوغاد من أمثالكم.

خليستاكوف: وفرحان، أيها البهيمة، لتعيد لي كلّ ذلك الآن.

أوسيب يقول: «على هذا النحو يأتي من هبّ ودبّ، وينزل عندنا، ويفرق بالديون، فلا نستطيع أن نطرده بعد هذا. لن أتساهل، وسأرفع دعوى في الحال، لتساقوا إلى مركز الشرطة، وبعد ذلك إلى السجن».

خليستاكوف: كفى، كفى، يا أحمق! اذهب، واطلب منه. يالك من حيوان فظاً..

أوسيب: الأحسن أن أstdعي صاحب الفندق إلى حجرتك.

خليستاكوف: ولماذا تستدعيه؟ اذهب أنت، واطلب منه.

أوسيب: ولكن، يا حضرة...

خليستاكوف: اذهب، عليك اللعنة! واستدع صاحب الفندق.

(أوسيب يخرج).

المشهد الثالث

(خليستاكوف وحده).

كم أنا جائع! تمشيت قليلاً، وتصوّرت أن شهيتي ستسبّد. لا، عليها اللعنة، لا تنسبّد. آه، لو كنت لم أفرح وأعبت في بينزا، إذأ، لبقني عندي من الفلوس ما يكفيني للوصول إلى البيت. رائد المشاة خدعني خدعة محترمة. المحتال ينزل في الورق بشكل مذهل. جلس ربع ساعة لا أكثر، ولفلف كل شيء. ومع ذلك أودّ كثيراً لو أنازله مرة أخرى. ولكن الفرصة لم تسنح. أية بلدة حقيرة تلك! حوانيتها لا تباع بالدين. هذه وضاعة، تماماً، (يصفر في البداية لحن أوبرا «روبرت العفريت»، ثم أغنية شعبية روسية، وبعد ذلك ما يأتي على باله). لا أحد يريد أن يأتي.

المشهد الرابع

(خليستاكوف، أوسيب وخادم المطعم).

الخادم: طلب سيدي أن أسألك ماذا تحب؟

خليستاكوف: مرحباً، يا أخ، طيب، كيف صحتك؟

الخادم: الحمد لله.

خليستاكوف: وكيف الأمور في فندقكم؟ كل شيء على ما يرام؟

الخادم: نعم، والحمد لله، كل شيء جيد.

خليستاكوف: النزلاء كثيرون؟

الخادم: نعم، بما فيه الكفاية.

خليستاكوف: اسمع، أيها الفاضل، لحد الآن لم يجلبوا لي الغداء،

فاذهب، أرجوك، وعجل به، فإن لي شغلاً يجب أن أنجزه الآن، بعد الغداء.

الخادم: ولكن سيدي قال إنه لن يقدم له شيئاً بعد الآن. أظنه كان

يريد أن يذهب اليوم إلى حاكم المدينة ليقدم شكوى.

خليستاكوف: ولم الشكوى؟ أحكم بنفسك، أيها الفاضل،

كيف هذا؟ أنا أحتاج إلى غداء. وإلا يمكن أن أنحف كلياً. أنا جائع جداً.

الخادم: ولكنه يقول: «لن أقدم له طعاماً حتى يدفع لي الحساب

السابق». هذا كان جوابه.

خليستاكوف: ولكن إقنعه، جادله.

الخدام: ماذا أقول له؟

خليستاكوف: أفهمه بجد أنني بحاجة إلى طعام. الفلوس شيء
آخر منفصل... يتصور أن الآخرين يتحملون إذا كان هو، البهيمة
يتحمل الانقطاع عن الطعام يوماً. عجيبة!
الخدام: يمكن أن أقول له.

المشهد الخامس

(خليستاكوف وحده)

حقارة، حقاً، إذا كان لا يقدم لي شيئاً آكله. أنا جائع جوعاً لم أجابه بمثله قط. هل أتخلّى عن واحد من ثيابي؟ أبيع البنطلون؟ لا، الأحسن أن أجوع قليلاً، وأعود إلى بيتي في البدلة البطرسيورغية. خسارة أنّ أيوخيم لم يؤجرني عربية من عرباته، إذًا، لكان لطيفاً، وحقّ الشيطان، أن أصل إلى بيتي في عربية، وأن أسرح بها حتى أوقفها عند بوابة بيت من بيوت الجيران من أصحاب الأطيان وللعربة مصابيح، وأوسيب واقف في ظهر العربة في بزّة الخدم المرافقين. أتصوّر الجميع سيتهامسون: «من هذا، ماذا حدث؟» ويدخل الخادم (يرفع هامته ممثلاً الخادم): «إيفان الكسندروفيتش خليستاكوف من بطرسبورغ يستأذن بالمثل». وهؤلاء، الأجلاف، لا يعرفون ما تعني «يستأذن بالمثل». فإنّ أي صاحب أطيان أرعن يزورهم يدخل عليهم بلا استئذان. وربما أتقدّم من فتاة حلوة، وأقول: «يا آنستي أنا....» (يفرك يديه، ويشحط بقدمه).. تفوا! (ييصق) عندي رغبة في القيء من شدة الجوع.

المشهد السادس

(خليستاكوف، أوسيب والخادم فيما بعد).

خليستاكوف: ماذا؟

أوسيب: الغداء قادم.

خليستاكوف: (يصفق، ويقفز من على الكرسي بخفة) قادم!

قادم! قادم!

الخادم (يحمل صحنوناً وفوطاة): سيدي يقدم الغداء لآخر مرة.

خليستاكوف: أوه، سيّدك، سيّدك... بصقة على سيّدك! ماذا

جلبت؟

الخادم: حساء وصحناً من اللحم المقلي.

خليستاكوف: صحنان فقط؟

الخادم: فقط.

خليستاكوف: سخافة! أنا لا أقبل بذلك. قل لي ما يعني هذا في

الحقيقة! ... هذا قليل.

الخادم: لا، بل يقول سيدي "وهذا كثير عليه".

خليستاكوف: ولماذا لم تجلب صلصة؟

الخادم: لا توجد صلصة.

خليستاكوف: ولماذا لا توجد؟ رأيت بنفسي، حين مررت

بالمطبخ، إن الطبخ وافر هناك، في صباح اليوم رأيت في المطعم

رجلين دحدا حين يأكلان السلمون وكثيراً من الأشياء الأخرى.

الخادم: موجود، على ما أعتقد. ولكن غير موجود أيضاً.

خليستاكوف: كيف غير موجود؟

الخادم: غير موجود الآن.

خليستاكوف: السلمون، السمك والكفتة؟

الخادم: هذه للذين أكثر اعتباراً.

خليستاكوف: آه، يا أحمق! أنت خنزير قذر... كيف ياكلان،

ولا أكل أنا؟ لماذا لا أقدر أنا، عليك اللعنة؟ أليس مسافرين مثلي؟

الخادم: ليس، بالطبع.

خليستاكوف: مَنْ هما؟

الخادم: اعتياديان، يدفعان نقوداً، بالطبع.

خليستاكوف: لا أريد أن أجادل معك، أيها الأحمق. (يصب

الحساء ويأكل)... أي نوع من الحساء هذا؟ مجرد ماء صبيته في

سلطانية. لا طعم له على الإطلاق. مجرد رائحة عفنة. لا أريد هذا

الحساء، أعطني غيره.

الخادم: يمكن أن نعيده. سيدي قال إذا كنت لا تريده، فلا بأس.

خليستاكوف (يحمي الطعام بيده): كفى، كفى... اتركه،

أحمق... أنت تعودت أن تعامل الآخرين بهذا الشكل. ولكني

لست من صنفهم، يا أخ! لا أنصحك أن تفعل ذلك معي... (يأكل).

يا ربي، أي حساء هذا (يستمر في الأكل)... لا أظن هناك شخصاً

في الدنيا أكل مثل هذا الحساء قبلي. بدلاً من الدسم يعوم فيه ريش.

(يقطع الدجاجة). ياه، ياه، ياه، أية دجاجة هذه! هات اللحم

المقلية. لم يبق كثيراً من الحساء، خذ لك، يا أوسيب (يقطع اللحم

المقلية).. أية لحمة هذه؟ هذه ليست لحمة مقلية.

الخادم: وما هي، إذا؟

خليستاكوف: كل شيء إلا اللحم المقلية. فاس مقلية بدلاً من لحم البقر. (ياكل). بهذا يطعم الناس هؤلاء الغشاشون، المحتالون! إذا أكلت قطعة من هذه تأذى فكأك. (ينقب أسنانه بإصبعه).. أوغادا! كقشرة الخشب ممماً، لا يمكن أن تخرجها بشيء. ستسودّ الأسنان بعد هذا الطبق. غشاشون! (يمسح فيه بالفوطة).. لا يوجد شيء آخر؟

الخادم: لا.

خليستاكوف: محتالون، أوغادا! على الأقل لو كان هناك شيء من الصلصة، أو الكعك. طفيليون! لا همّ لهم غير ابتزاز المسافرين. (الخادم ينظف المائدة، ويحمل الصحون مع أوسيب).

المشهد السابع

(خليستاكوف وأوسيب فيما بعد).

خليستاكوف: كأتني لم أكل بالفعل، دغدغة شهية فقط. لو كان لديّ فراطة نقود، لأرسلت لشراء رغيف خبز من السوق، على الأقل. أوسيب (يدخل): وصل حاكم المدينة لا أعرف لماذا، وهو يستفهم ويستفسر عنك.

خليستاكوف (مذعوراً): هذه هي المفاجأة! يعني أن صاحب الفندق الرذيل أبلغ السلطات! ماذا لو ألقاني في السجن، بالفعل؟ لا بأس لو كان بطريقة مشرفة، لا يهم.... لا... لا، لا أريد! في المدينة يسرح الضباط والناس، وأنا، كما عن قصد، تباهيت أمامهم، وتغامزت مع واحدة من بنات التجار... لا، لا أريد. ثم كيف يفعل هذا؟ كيف يجرؤ حقاً؟ هل يتصورني تاجراً أو حرفياً؟ (يتشجع ويتصب).. سأقول له في وجهه: «كيف تجرؤ، كيف....» (مقبض الباب يتحرك. خليستاكوف يمتقع، وينكمش).

المشهد الثامن

(خليستاكوف، حاكم المدينة، دويتشينسكي، حاكم المدينة، يدخل، ويتوقف. أحدهما ينظر إلى الآخر في ذعر لبضع دقائق، والعيون جاحظة).
حاكم المدينة: (أسبل ذراعيه على جنبه، بعد أن تمالك نفسه).
تحياتي!

خليستاكوف: (ينحني). احتراماتي!..

حاكم المدينة: اعذروني.

خليستاكوف: لا بأس....

حاكم المدينة: واجبي كرئيس هذه المدينة، أن أحرص على أن لا يشعر المسافرون وجميع الأشراف بأية مضايقات...

خليستاكوف: (يتلعثم قليلاً في البداية، ولكنه في آخر كلامه يتكلم بصوت عال). وما العمل؟ لست ملوماً... بالشرف سادفع... سيرسلون لي من القرية.

(بويتشينسكي يطل من الباب).

اللوم عليه أكثر. يقدم لي قطعة لحم صلبة، كالخشب. والحساء لا أعرف ماذا يصب فيه. كان علي أن أرميه من الشباك. وهو يميتني من الجوع أياماً كاملة... والشاي عنده غريب، فيه رائحة سمك، وليس رائحة شاي.... وما علاقتي أنا... عجيبة!..

حاكم المدينة: (بتهيب). اعذروني ليس هذا ذنبي، حقاً، عندي، في السوق، لحم بقر جيد دائماً. يأتي به تجار من خولموغوري في الشمال. أناس معتبرون، وسلوكهم جيد. لا أدري من أين يأتي

صاحب الفندق بهذا اللحم. إذا كان لا يروق لكم شيء... يمكن أن أقترح عليكم، إذا سمحتم، أن تنتقلوا معي إلى سكن آخر.

خليستاكوف: لا، لا أريد! أنا أعرف ماذا يعني السكن الآخر، يعني السجن. ثم أي حق لك في هذا؟ وكيف تجرؤ أنا... أنا أخدم في بطرسبورغ. (يتشجع). أنا، أنا، أنا...

حاكم المدينة: (جانباً)^(١) أوه، يا ربتي، كم هو شديد الغضب. عرف كل شيء. التجار الملاعين حكوا له كل شيء!

خليستاكوف: (متشجعاً). لن أذهب، حتى لو جئت بكل من معك! سأتوجه إلى الوزير، رأساً! (يضرب المائدة بقبضته).. كيف هذا منك؟ كيف؟

حاكم المدينة: (ينتصب، ويرتجف بدنه كله). الرحمة، لا تهلكونا! لي زوجة، وأطفال صغار... لا تجعلوني تغيساً.

خليستاكوف: لا، لا أريد! هذا ما ينقصني! وما دخلي أنا؟ تريدني أن أدخل السجن، لأن لك زوجة وأطفالاً، شيء رائع! (بوتشينسكي يطل من الباب، ويختبئ بذعر).

لا، وشكراً جزيلاً، لا أريد.

حاكم المدينة: (مرتجفاً).. من قلة الخبرة، والله العظيم، من قلة الخبرة. قلة المورد... أحكموا بأنفسكم، رجاء. راتب الحكومة لا يكفي حتى للشاي والسكر. وإذا كانت هناك رشاوى، فأقل ما تكون: ما يضاف إلى المائدة، أو بعض الثياب. أما بخصوص زوجة

(١) مصطلح مسرحي قديم يعني أن الكلمات التي تقال بعد ذلك هي أفكار الشخصية التي تقولها. وكانت تُقال حين يشيع المثل وجهه عن المتحدث معه، ويتحدث مع نفسه. المغرب.

ضابط الصف، التي كانت تراول المتاجرة، والتي يزعمون أنني جلدتها، فما ذلك إلا افتراء، والله العظيم، افتراء. اختلاق من الأشرار عندي، المستعدين للاعتداء على حياتي.

خليستاكوف: ولكن ما هذا؟ لا شأن لي بهؤلاء. (في تفكير). على كل حال، لا أدري لماذا تتكلم عن الأشرار أو أرملة ضابط صف... زوجة ضابط الصف، شيء آخر. أمّا أنا فلن تجروا على جلدي. هيهات لك ذلك!... سأدفع، سأدفع نقوداً، ولكن ليس عندي الآن. ولهذا تراني قاعداً هنا، لأنني لا أملك كويكاً واحداً.

حاكم المدينة: (جانباً). أوه، الداهية! إلى أين غرّب! ليموه علينا! وتعال افهم! لا تعرف من أي جانب تأتيه. ولكن. سأحاول وليكن ما يكون. سأحاول فلعلّ وعسى. (بصوت مسموع). إذا كنتم بحاجة إلى فلوس، بالفعل، أو إلى أي شيء آخر، فأنا مستعدّ في هذه اللحظة. من واجبي أن أساعد المسافرين.

خليستاكوف: هات، أقرضني! وسأصفي فوراً حساب صاحب الفندق. لا أحتاج إلا لمائتي روبل، أو حتّى أقل.

حاكم المدينة: (يقدم النقود الورقية). متا روبل بالضبط، ولا تتعبوا أنفسكم في عدها.

خليستاكوف: (يتسلم النقود) شكراً جزيلاً. سأبعثها لك من القرية على الفور... تعرضت فجأة... أرى أنك رجل نبيل، الآن شيء آخر.

حاكم المدينة: (جانباً). حمداً لله أنه قبلَ الفلوس. يبدو أنّ القضية الآن ستسير بيسر. على كل حال دسست له أربعمئة بدلاً من مئتين.

خليستاكوف: يا أوسيب؟

(أوسيب يدخل).

استدع خادم المطعم! (حاكم المدينة ولدوبتشينسكي).. ولماذا تقفان؟ تكرّما بالجلوس. (لدوبتشينسكي). اجلس، أرجوك.

حاكم المدينة: لا بأس، سنقف.

خليستاكوف: تكرّم بالجلوس، أرى الآن مماساً صراحة خلقتك وشهامتك، بينما كنت أظنّ، وأقولها بصراحة، أنّك جئت لكي... (لدوبتشينسكي) اجلس!

(حاكم المدينة ودوبتشينسكي يجلسان. بوبتشينسكي يطل من الباب، ويتسمع).

حاكم المدينة: (جانباً). يجب أن أتصرف أجراً. يريد أن يُعتبر متخفياً. طيب، لنلجأ نحن إلى الحيلة أيضاً، ونظاھر بأننا لا نعرف هويته كلياً. (بصوت مسموع). كنّا نتفقّد شؤون عملنا، أنا وبيتر إيفانوفيتش دوبتشينسكي، وهو صاحب أطيّان من مدينتنا، فعزّجنا إلى الفندق عن قصد لنعرف ما إذا كانوا يحسنون معاملة المسافرين، ذلك لأنني لست من أولئك الحكام الذين لا يهتمهم أي شيء. فانا، إلى جانب ما تمليه عليّ وظيفتي، وأودّ بما لديّ من محبة مسيحية للناس أن يُستقبل كلّ فأن استقبلاً جيّداً. فأجد المصادفة قد أتاحت لي هذا التعرف الجميل، وكأنما لتكافئني على مسلكي.

خليستاكوف: وأنا أيضاً مسرور للغاية. وأقولها بصراحة لولاك لبقيت حبيس الفندق زمناً طويلاً. إذ لم أكن أعرف مطلقاً كيف أغطي الحساب.

حاكم المدينة: (جانباً). ياله من كذاب! يزعم أنه لم يكن يعرف كيف يغطي الحساب! (بصوت مسموع).. هل أجسر أن أسأل إلى أين وإلى أي الأماكن تتكرّهون بالسفر؟

خليستاكوف: أنا في طريقي إلى ولاية ساراتوف، إلى قريتي.

حاكم المدينة: (في ناحية، وقد اكتسى وجهه سيماء السخرية).
إلى ولاية ساراتوف! ها؟ ولا يحمر خجلاً آوه، يجب أن ترفف
أذنك معاً! (بصوت مسموع).. نَعَمْ ما تقوم به. ولكن إذا تحدّثنا
عن السفر فهو من ناحية، وكما تقول الناس، لا يخلو من متاعب
من جراء التأخير في تقديم الخيول للمسافرين، ولكنّه من الناحية
الأخرى ينشّط الذهن. أظنكم تسافرون للاستمتاع في الأكثر، أليس
كذلك؟..

خليستاكوف: لا، بل بناء على طلب والسدي. العجوز غاضب
لأنني حتّى الآن لم أترق في وظيفتي في بطرسبورغ. فهو يظنّ أنّ المرء
حالما يصل إلى هناك يعلّقون على صدره نيشان القديس فلاديمير. لا،
بوّدي لو أبعثه ليعمل هو نفسه في قلم الأوراق.

حاكم المدينة: (جانباً). انظروا، أي أكاذيب يلفق! أشرك أباه
العجوز أيضاً! (بصوت مسموع).. وهل ستمكثون مدة طويلة؟

خليستاكوف: لا أعرف حقّاً. فأبي عنود وبليد، عجوز نغضة
كالشوكة في الحلق. سأقول له بصراحة: لن أستطيع العيش بدون
بطرسبورغ، فافعل ما تشاء، لماذا عليّ أن أتلف حياتي مع الفلاحين؟
لي متطلبات أخرى الآن. روعي متعطّشة للعلم.

حاكم المدينة: (جانباً).. عمهارة ينسج! يكذب ويكذب، ولا ينقطع
منه خيط الكذب! في مظهره غير جذاب، قميء، ويمكن أن تقصعه
بأظفرك، على ما يتهيأ لك. طيب، على مهلك، سأجعلك تتكلّم!
وتقول ما تخفي. (بصوت مسموع) أنتم على حقّ. فماذا يمكن أن
يفعل الإنسان في قرية نائية؟ هنا، أيضاً لا أنام الليل، وأسعى في سبيل
الوطن، ولا أبخل بأي شيء، ولو كنت لا أعرف متى أكافأ على
عملي. (يجيل بصره في الحجرة).. أظنّ هذه الحجرة رطبة قليلاً؟
خليستاكوف: حجرة كريهة، وبقيها لم أر مثله قطّ. بعضك كالكلاب.

حاكم المدينة: تصوّروا! ضيف مثقف مثلكم، ويعاني، ومن أي شيء؟ من بق حقيّر لا يستحقّ حتّى أن يولد في هذه الدنيا. هذه الحجرة تبدو مظلمة أيضاً؟

خليستاكوف: نعم، مظلمة ممّاماً، صاحب الفندق تعود على الامتناع عن تزويدها بالشموع. أحياناً أرغب في أن أفعل شيئاً، أقرأ، أو يسرح بتر إيفانوفيتش الخيال فأؤلف شيئاً، ولكن لا أقدر. ظلام، ظلام.

حاكم المدينة: هل أجروا أن أسألكم... ولكن لا، لستُ أهلاً.

خليستاكوف: ولكن ماذا؟

حاكم المدينة: لا، لستُ أهلاً، لستُ أهلاً!

خليستاكوف: ولكن ماذا؟

حاكم المدينة: ستكون جسارة مني... في بيتي غرفة رائعة لك، منوّرة، وهادئة... ولكن لا، أحس أن ذلك شرف لي أكثر من اللازم.... لا تزعّلوا، والله، اقترحت ذلك بصفاء قلب.

خليستاكوف: بالعكس، تفضّل، بكلّ سرور، السكن في بيت خاصّ أروح لي بكثير من السكن في هذه الحانة.

حاكم المدينة: سأكون في غاية السرور! ستفرح زوجتي أيضاً. هذا هو خلقي حسن الضيافة منذ الصغر، لاسيّما إذا كان الضيف رجلاً مثقّفاً. لا تصوّروا أنّي أقول ذلك ممّلقاً. ليست لديّ هذه النقيصة. بل أقول ذلك من كلّ قلبي.

خليستاكوف: شكراً جزيلاً. وأنا أيضاً لأحبّ ذوي الوجهين، تعجّبتني كثيراً صراحتك وشهامتك، وأقول لك بصراحة، أنا لا أطلب غير الوفاء والاحترام، الاحترام والوفاء.

المشهد التاسع

(نفس الأشخاص، وخادم المطعم بصحبة أوسيب. بويتشينسكي يطل من الباب).

الخادم: هل تكزمت بطلبي؟

خليستاكوف: نعم، هات الحساب.

الخادم: من مدة قصيرة أعطيتك حساباً آخر.

خليستاكوف: لا أتذكر حساباتك الحمقاء. قل كم؟

الخادم: في اليوم الأول طلبت غداء، وفي اليوم التالي طلبت سلمون فقط، وبعد ذلك صرت تأخذ بالدين، فقط.

خليستاكوف: أحمق! أخذ يحسب الآن، كم مطلوب مني بالمجموع؟

حاكم المدينة: ولكن لا تقلقوا أنفسكم، أرجوكم، سينتظر.
(للخادم). أخرج، سيُدفع لك.

خليستاكوف: بالضبط، بمن هذا أيضاً.

(يخبيء الفلوس، يخرج الخادم. يطل بويتشينسكي من الباب).

المشهد العاشر

(حاكم المدينة، خليستاكوف، دوبتشينسكي)..

حاكم المدينة: لعلكم تحبون أن تشاهدوا بعض المؤسسات في مدينتنا، الخيرية وغيرها؟..

خليستاكوف: وماذا فيها؟

حاكم المدينة: سترون كيف تجري الأمور عندنا... النظام...

خليستاكوف: بكل سرور. (دوبتشينسكي يطل برأسه من الباب).

حاكم المدينة: ومدرسة المدينة، بعد ذلك، إذا كانت لديكم الرغبة، لتروا الطريقة التي تدرس بها العلوم عندنا.

خليستاكوف: تفضل، تفضل.

حاكم المدينة: وبعد ذلك، إذا كنتم تحبون أن تزوروا قلعة

المحكومين وسجون المدينة، وترون كيف يعيش المجرمون عندنا.

خليستاكوف: ولكن لم السجن؟ الأفضل أن نتجول في المؤسسات الخيرية.

حاكم المدينة: كما تحبون. هل تفضلون أن تذهبوا في مركبتكم أو

معي في عربتي الصغيرة؟

خليستاكوف: الأفضل أن أذهب معك في عربتك.

حاكم المدينة: (لدوبتشينسكي). طيب، يا بيتري إيفانوفيتش، لم

يبق الآن مكان لك.

دوبتشينسكي: لا بأس، أنا لوحدي.

حاكم المدينة: (لدوبتشينسكي، بخفوت). اسمع. أسرع بكل

خفة رجلك، واحمل رسالتين إحداهما لزيملانكا في المؤسسة الخيرية، والثانية لزوجتي. (لخليستاكوف).. هل أجروا على الاستئذان بكتابة سطر واحد لزوجتي بحضوركم، حتى تنهيا لاستقبال الضيف المحترم؟

خليستاكوف: ولم ذلك؟... على العموم يوجد حبر، ولا أعرف فيما إذا كان هناك ورق.... ربما على ورقة الحساب هذه؟

حاكم المدينة: ساكتب عليها. (يكب ويحدث نفسه في ذات الوقت).. سرى كيف تجري الأمور بعد الفطور وزجاجة متفخة البطن! عندنا خمرة «الماديرا» من ولايتنا، قبيحة في المظهر، ولكنها تطرح الفيل. فقط لو أعرف أي شخص هو، وإلى أي حد يُخيف (يفرغ من الكتابة، ويقدم الورقة لبوتشينسكي الذي يقترب من الباب، ولكن الباب ينخلع في ذلك الوقت، وبوتشينسكي الذي كان يتسمع في الجانِب الآخر، ينقذف معه على المسرح. الجميع يرسلون آهة التعجب. بوتشينسكي ينهض)..

خليستاكوف: ها؟ هل أصبت برض؟

بوتشينسكي: لا شيء، لا شيء، بدون أي خبطة دماغ. خدش صغير فوق الأنف فقط! سأخطف رجلي إلى خريستيان إيفانوفيتش. عنده لزقة، وسيزول.

حاكم المدينة: (يومئ لبوتشينسكي إيماءة تقريع. لخليستاكوف). لا بأس في هذا. تفضلوا أرجوكم. سأطلب من خادمكم نقل حقبتكم. (لأوسيب).. يا حضرة الفاضل، أنقل كل شيء إلى بيتي، بيت حاكم المدينة سيدلك أي واحد تسأل. تفضلوا رجاء! (يترك خليستاكوف ليتقدمه، ويسير وراءه، ولكنه يلتفت ويقول لبوتشينسكي معتفاً).. هكذا تفعل! لم تجد مكاناً تقع فيه إلا هنا! انبطحت بطحة كافرة.

(يخرج وبوتشينسكي وراءه).. (تسدل الستارة).

الفصل الثالث

(حجرة الفصل الأول).

المشهد الأول

(آنا أندرييفنا وماريا أنتونوفنا واقفتان عند النافذة في نفس الوضع السابق).

آنا أندرييفنا: ها قد انقضت ساعة كاملة في الانتظار. وتأخرنا بسبب تصنعك الأبله. أكملت زيتك مماساً، ولكنك كنت ستستمرين في التزيين.... ما كان عليّ أن أنتظرك... يا خسارة! لا يوجد أحد في الشارع كأنما نكاية! لا روح ولا نفس.

ماريا أنتونوفنا: ولكن تأكدي، يا ماما، سنعرف كل شيء بعد دقيقتين، بعد قليل ستعود آفدوتيا، حتماً، (تنظر من النافذة نظرة متفحصة، وتهتف).. آه، ماما، ماما! شخص قادم هناك، في أقصى الشارع.

آنا أندرييفنا: أين هو؟ دائماً لا يعوزك الخيال. ولكن نعم، قادم، من هذا القادم؟ متوسط القامة... في بدلة فراك... من هو؟ ها؟ إزعاج، على كل حال! من يمكن أن يكون؟

ماريا أنتونوفنا: هذا دوتشينسكي يا ماما.

آنا أندرييفنا: أي دوتشينسكي هذا؟ أنت دائماً تتخيلين ما يطرأ

في ذهنك! ليس دوتشينسكي على الإطلاق. (تلوح بمندبل)..
هاي، أنت، تعال إلى هنا! أسرع!

ماريا أنتونوفنا: دوتشينسكي. بالفعل، يا ماما.

آنا أندرييفنا: أنت تقصدين ذلك لتجادلي، قلت لك ليس
دوتشينسكي.

ماريا أنتونوفنا: مَنْ هو إذاً، يا ماما؟ ها أنت ترين أنه دوتشينسكي.

آنا أندرييفنا: أي، نعم، دوتشينسكي. أراه الآن، ولأي شيء
تجادلين؟ (تصبح من النافذة). أسرع، أسرع! أنت تماهل، طيب، أين
هم؟ ها؟ تكلم من هناك. لا يهتم. ماذا؟ صارم جداً؟ ها؟ زوجي،
زوجي؟ (تراجع قليلاً عن النافذة بانزعاج). أي بليد هو، لا يقول
شيئاً، حتى يدخل الحجرة.

المشهد الثاني

(المرأتان و دويتشينسكي).

آنا أندرييفنا: تكلم. ألا تخجل؟ اعتمدت عليك وحدك، كإنسان معتبر. الجميع خرجوا فجأة، وإذا بك تلحق بهم! وحتى الآن لم أفهم شيئاً نافعاً من أحد. ألا تستحي؟ عمّدت لك ابنتك وابنتك، بينما أنت تتصرّف بهذا الشكل معي!.

دويتشينسكي: والله، يا معصدة أطفالي. جئت راكضاً متقطع الأنفاس لأؤكد لك احتراماتي. احتراماتي. يا ماريّا أنتونوفنا.

ماريّا أنتونوفنا: مرحباً، يا بيتر إيفانوفيتش!

آنا أندرييفنا: تحدث ماذا وكيف هناك؟

دويتشينسكي: أنتون أنتونوفيتش. أرسل لك مذكرة.

آنا أندرييفنا: ولكن من هو؟ جنرال؟

دويتشينسكي: لا، ليس جنرالاً، ولكنه لا يقلّ مقاماً عن الجنرال.

ثقافة، وتصرفات وجيهة.

آنا أندرييفنا: أها! يعني هو الذي كتبوا الزوجي عنه؟

دويتشينسكي: حقيقي. أنا أول من اكتشف ذلك مع بيتر إيفانوفيتش.

آنا أندرييفنا: تحدث ماذا وكيف؟

دويتشينسكي: حمداً لله أن كل شيء بخير. في البداية استقبل

أنتون أنتونوفيتش. بشيء من الخشونة، فقد كان غاضباً ويقول: كلّ

شيء في الفندق سيئ. هو لا يأتي إليه، هو لا يريد أن يدخل السجن بسببه. ولكن حالما عرف براءة أنتون أنتونوفيتش، وتحدث معه بالغة أكثر، غير فكره في الحال، وسار كل شيء بشكل جيد، والحمد لله... ذهبوا الآن لتفقد المؤسسات الخيرية... بصراحة كان أنتون أنتونوفيتش. يظن أن هناك وشاية سرية.. وأنا أيضاً، خفت قليلاً.

آنا أندريفنا: ومّم تخاف؟ وهل أنت في وظيفة؟

دوبتشينسكي: ولكن الإنسان يشعر بالخوف، حين يتكلم صاحب سلطة.

آنا أندريفنا: لا بأس... كل هذا هراء، على كل حال. حدثني كيف شكله؟ عجوز أم شاب؟

دوبتشينسكي: شاب، في نحو الثالثة والعشرين. ولكنه يتكلم كالشيخ المجرب، تماماً، يقول: «سأذهب بكل سرور إلى هنا وإلى هنا»... (يشير بذراعيه).. كلامه رائع. ويقول: «أحب أن أكتب وأقرأ، ولكن الذي يعيقني أن الحجرة مظلمة قليلاً».

آنا أندريفنا: وما لون شعره؟ أسود فاحم أم أشقر؟

دوبتشينسكي: لا، بل كستناوي أكثر، وعيناه خفيفتان في حركتهما كوحشين صغيرين، حتى لثيرافيك الارتباك.

آنا أندريفنا: ماذا يكتب لي في هذه المذكرة؟ (تقرأ).. «أسرع فأبلغك، يا روعي، حالتي كانت بائسة للغاية، ولكنني بالتوكل على رحمة الرب، روبل وخمسة وعشرون كوبيكاً ثمن خيارتين مخملتين بطريقة خاصة ونصف صحن كافيار....» (تتوقف) أنا لا أفهم شيئاً. ما علاقة الخيارتين المخملتين والكافيار هنا؟

دوبتشينسكي: لأن أنتون أنتونوفيتش كتب ذلك على ورقة مستعملة بسبب استعجاله. على فاتورة حساب.

آنا آندرييفنا: نعم، بالضبط. (تستمر في القراءة). «ولكنني
بالشوك على رحمة الرب أظن كل شيء سينتهي نهاية حسنة. هيئي
بسرعة لضيف وجيه الحجرة المبطنة بورق الخيطان الأصفر، ولا تنعي
نفسك بإضافة شيء على الغداء، لأننا سناكل عند أرتيمي فيليوفيتش
في المؤسسة الخيرية، ولكن اطلبي مزيداً من الخمرة. أخبري التاجر
عبدولين بأن يرسل أفضل خمرة، وإلا فسأقلب كل سردابه عاليه على
سافله. أقبل يدك، يا روحى، وأظّل المخلص لك أنتون سكفوزنيك
دموخانوفسكي...» آه، يا إلهي! على كل حال، يجب أن يكون كل
ذلك بسرعة! هاي، من هناك؟ ميشكا!.

دوبتشينسكي: (يركض ويصيح في الباب). ميشكا! ميشكا!
ميشكا!.

(ميشكا يدخل).

آنا آندرييفنا: اسمع. أسرع إلى التاجر عبدولين... على مهلك،
سأعطيك رسالة (تجلس إلى الطاولة، وتكتب رسالة وتقول في أثناء
ذلك).. أعط هذه الرسالة للحوذي سيدور ليهرع بها إلى التاجر
عبدولين، ويجلب منه الخمرة، واذهب أنت لترتيب الحجرة للضيف
بشكل جيد. ضع فيها سريراً، ومغسلة، وغير ذلك.

دوبتشينسكي: آنا آندرييفنا سأسرع أنا الآن لأرى كيف يتفقد
الأمر هناك.

آنا آندرييفنا: اذهب، اذهب! أنا لا أمسكك.

المشهد الثالث

(آنا آندرييفنا و ماريا أنتونوفنا).

آنا آندرييفنا: علينا الآن أن نشتغل بزيئتنا. إنه قادم من العاصمة، وقد يهزأ من شيء ما، لا سمح الله، الأوجه لك أن تلبسي ثوبك الأزرق بحواشيه الرقيقة.

ماريا أنتونوفنا: أعفيني من الأزرق، يا ماما! لا أحبّه أبداً، ابنة القاضي ترتدي الأزرق أيضاً، وكذلك ابنة الراعي. لا، يا ماما، الأحسن أن ألبس المبرقش.

آنا آندرييفنا: المبرقش!... حقاً، أنت لا تتكلمين إلا لتعترضني. سيكون الأزرق أحسن بكثير، لأنني أريد أن ارتدي الثوب الأصفر الشاحب، أنا أحبّ الأصفر الشاحب كثيراً.

ماريا أنتونوفنا: آه، يا ماما، لا يناسبك الأصفر الشاحب.

آنا آندرييفنا: لا يناسبني؟

ماريا أنتونوفنا: لا يناسبك، أراهن على كلّ ما تريدين، إنه لا يناسبك، هذا اللون ينسجم مع عينين داكنتين تماماً.

آنا آندرييفنا: وليكن! أليست عيناك داكنتين؟ داكنتان كلياً كلياً. كلامك هراء! عيناك داكنتان وإلا فلماذا اختار ملكة السباتي عندما أستخير الورق؟

ماريا أنتونوفنا: آه، ماما، تناسبك ملكة الكوبة أكثر.

آنا آندرييفنا: سخافة، سخافة تماماً! لم أكن ملكة كوبة أبداً.

(تخرج على عجل مع ماريما أنتونوفنا وتشكلم من وراء المسرح).
دائماً تتخيل ما يطرأ على ذهنها! ملكة كوبة! الله يعلم ما هذا؟..
(بعد خروجهما يفتح الباب، وميشكا يلقي الوسادة منه، ومن
الباب الآخر يخرج أوسيب يحمل حقيبة على رأسه).

المشهد الرابع

(ميشكا وأوسيب).

أوسيب: أين أضعها؟

ميشكا: هنا، يا عمّ، هنا

أوسيب: انتظر. دعني أستريح أولاً. أوه، يا للعيشة النكدة! كلّ حمل يبدو ثقيلًا على بطن فارغ.

ميشكا: قل لي، يا عمّ، هل سيحضر الجنرال قريباً؟

أوسيب: أي جنرال؟

ميشكا: سيّدك.

أوسيب: سيّدي؟ وأي جنرال هو؟

ميشكا: معقول أليس جنرالاً؟

أوسيب: جنرال، ولكن من الجهة الأخرى.

ميشكا: يعني أكثر أم أقلّ من الجنرال الحقيقي؟

أوسيب: أكثر.

ميشكا: ياه! ولهذا ثار أسيادنا على هذه الدربة...

أوسيب: اسمع، يا حلو، أرى أنك فتى شاطر، هيئ لي شيئاً آكله.

ميشكا: لم يحضر لك شيء يا عمّ. لا أظنك ستقبل ببسيط الطعام.

ولكن حين يجلس سيّدك إلى المائدة سيقدّم لك نفس الطعام أيضاً.

أوسيب: طيب، ما هو بسيط الطعام عندكم؟

ميشكا: حساء كرنب، وعصيدة وفطائر.

أوسيب: هات حساء الكرنب والعصيدة والفطائر. لا بأس،
سناكل كل شيء، لنحمل الحقية، هل يوجد باب آخر؟
ميشكا: يوجد.

(الاثنان يحملان الحقية إلى حجرة جانبية).

المشهد الخامس

(شرطيان يفتحان كلتا ضلعتي الباب. يدخل خليستاكوف ووراءه حاكم المدينة وبعدهما راعي المؤسسات الخيرية، وناظر المدرسة، ودوبتشينسكي وبوبتشينسكي وعلى أنفه لصقة، حاكم المدينة يشير للشرطيين إلى ورقة في الأرض، فيركضان ويرفعانها يزحم أحدهما الآخر في عجل).

خليستاكوف: مؤسسات جيّدة. يعجبني أنكم تفرجون المسافرين على كلّ شيء في المدينة. في المدن الأخرى لم يفرجون على أي شيء.

حاكم المدينة: أجرو أن أقول في المدن الأخرى أكثر ما يهتم به الحكّام والموظفون هو منفعتهم بينما نحن هنا، إذا صغ القول، لا نفكر إلا بالاعتناء بالنظام وأن يكون حرصنا جديراً باهتمام الرؤساء. خليستاكوف: الفطور كان محترماً، شبعتم تماماً. هل الفطور عندكم بهذا الشكل دائماً؟

حاكم المدينة: خصيصاً لضيف كريم مثلكم.

خليستاكوف: أنا أحب الطعام. فالإنسان لا يعيش إلا لاقتطاف زهور اللذة. ماذا يسمّى هذا السمك؟

أرتيمي فيليوفيتش: سمك القد الطازج المملح.

خليستاكوف: لذيذ جداً. أين تناولنا فطورنا؟ في المستشفى؟ أليس كذلك؟

أرتيمي فيليوفيتش: بالضبط، في المؤسسة الخيرية.

خليستاكوف: أتذكر، أتذكر. كانت هناك أسرة. والمرضى هل شفوا؟ يبدو لي أنهم كانوا قليلين.

أرتيمي فيليوفيتش: لم يبق إلا عشرة، لا أكثر، والبقية شفوا. هذا هو النظام عندنا. منذ أن تسلمت الرئاسة ولربما يبدو لك ذلك غير معقول صار الجميع يمتلكون عافية. ما إن يدخل المريض الردهة حتى يشفى بالنزاهة والنظام أكثر منه بالأدوية.

حاكم المدينة: أحرص أن أقول لكم إن مسؤولية حاكم المدينة صعبة وأكثر من صعبة. كم من الأشغال في مجال النظافة وحدها، والترميم، والتصليح.... باختصار أقول حتى أذكى الناس يجد مشقة. ولكن الأمور تسير سيراً حسناً، والحمد لله. أي حاكم آخر كان سيهتّم بمنافعه الخاصة، طبعاً. ولكن، صدقني، حتى حين أرقد لأنام، أظّل أفكر: «يا إلهي، كيف أفعل لأجعل الرئاسة ترى مثابرتي وتكون مرتاحة؟...؟. الأمر متروك لها بالطبع، لتكافئني أو لا تكافئني، ولكنني، على الأقل، سأكون مرتاح الضمير. وهنا يسود النظام في المدينة في المجالات كلها والشوارع نظيفة، والمحجوزون في رعاية جيّدة، والسكراري قليلون... فماذا أريد غير هذا؟ لا أريد أكثر من هذا، قسماً لا أريد أي مكافأة. الإنسان يطمح، بالطبع، ولكن كلّ مكافأة هباء إلى جانب العفة».

أرتيمي فيليوفيتش: (جانباً). آه، الخامل، كيف يزوّق! موهبة هذه من نعم الله.

خليستاكوف: هذا صحيح. أنا أيضاً، بصراحة أحبّ التفلسف أحياناً، بالنثر مرّة، وبالقريض مرّة أخرى.

بوتشينسكي: (لدوتشينسكي) حق ما يقول يا بيتر إيفانوفيتش! يا لها من ملاحظات... الظاهر أنّه درس العلوم.

خليستاكوف: قل لي، من فضلك، هل توجد لديكم تسليات،
جماعات يمكن لعب الورق فيها، مثلاً؟

حاكم المدينة: (جانباً) أها، نعرف يا عزيزي إلاّ ترمي من هذه
الخدعة (بصوت مسموع). حاش لله. لا توجد مثل هذه الجماعات
هنا. لم أمسك بيدي شدة ورق قط. بل ولا أعرف كيف يلعبون
الورق. ولا أقدر أن أراه دون أن أغضب. وإذا صادف أن رأيت ملك
الديناري أو غيره يأخذني القرف حتى أبصق تقزراً. وذات مرة أردت
أن أسلي الأطفال، فبيت من الورق كشكاً، وبعد ذلك حلمت به
طوال الليل، عليه اللعنة، لا يهمني هذا، كيف يمكن تضييع الوقت
التمين بالورق؟

لوكا لوكيتش (جانباً): الوغد ربح مني أول الأمس مائة روبل.

حاكم المدينة: الأحسن أن أستغل هذا الوقت لفائدة الدولة.

خليستاكوف: لا، لا أظنك على حق... كل شيء يتوقف على
الطرف الذي ينظر منه المرء إلى المرء. فحين تكف عن زيادة الرهان،
مثلاً، في الوقت الذي يتعين عليك أن تزيد ثلاث مرات، سيكون
ذلك صحيحاً، بالطبع، لا، لا تقل هذا، فاللعب أحياناً مفر جداً.

المشهد السادس

(نفس الأشخاص مع آنا أندرييفنا و ماريا أنتونوفنا).

حاكم المدينة: لي الشرف أن أقدم لكم عائتي، زوجتي وابنتي.
خليستاكوف: (ينحني). كم أنا سعيد، يا سيّدتني في أن تكون لي
هذه البهجة برويتك.

آنا أندرييفنا: ونحن أسعد في رؤية وجيه مثلكم.
خليستاكوف: (يتبخر). عفوك، يا سيّدتني، على العكس ممّا.
آنا أسعد حظاً.

آنا أندرييفنا: ما هذا القول! أنتم تقولون ذلك للمجاملة. أرجوكم
اجلسوا.

خليستاكوف: الوقوف قربك سعادة، ولكنني سأجلس، إذا
أصريت على الجلوس. كم سعيد أنا بالجلوس قربك أخيراً.
آنا أندرييفنا: العفو. أنا لا أستحق ذلك... أظنّ السفر كان متعباً
لكم بعد العاصمة.

خليستاكوف: متعب للغاية. فأنا الذي تعودت على العيش في
المجتمع الراقى *comprenez vous*، أجد نفسي في سفر فجأة،
حانات قدرة، وظلام الجهل... وبصراحة لولا هذه المصادفة التي....
(ينظر إلى آنا أندرييفنا ويتغنج) جازتني على كلّ شيء....
آنا أندرييفنا: بالفعل، لا بدّ أن يكون متعباً لكم.

خليستاكوف: على كلّ حال، يا سيّدتني، أنا مرتاح جدّاً في هذه
اللحظة.

آنا آندريغنا: كيف يمكن. أنتم تولونني شرفاً كبيراً. أنا لا أستحق ذلك.

خليستاكوف: ولماذا لا تستحقين؟ أنت تستحقين، يا سيدتي.
آنا آندريغنا: أنا أعيش في الريف...

خليستاكوف: ولكن للريف أيضاً تلاله وجداوله. بالطبع، لا أحد يقارنه ببطرسبورغ. آه، بطرسبورغ! أي حياة هي، حقاً! ربما تظنين أنني أوسخ يدي بالاستنساخ. أبدأ. رئيس القسم على علاقة ودية معي. يربت على كتفي، ويقول: «تعال تناول غداءك عندي، يا أخ!» ولا أمكث في الشعبة إلا دقيقتين لأصدر هذا الأمر أو ذاك! يوجد هناك موظف شغلته الكتابة، مهمته أن يشغل ريشته.... يكتب، يكتب، بل أرادوا حتى أن يجعلوني كبير الموظفين. ولكن قلت لنفسني: لا حاجة. والحارس يركض ورائي على الدرج ومعه فرشاة، ويقول: «اسمح لي، يا إيفان الكسندروفيتش، أن أنظف حذاءك». (إلى حاكم المدينة).. لماذا أنتم واقفون، يا سادة؟ اجلسوا رجاء!

لوكا لوكيتش: لا تقلقوا أنفسكم.

أرتيمي فيليوفيتش: سنقف.

حاكم المدينة: سلّم الوظيفة لا يسمح.

خليستاكوف: لا تنقيدوا بالوظائف، واجلسوا.

(حاكم المدينة والجميع يجلسون).

آنا لا أحب الرسميات، بل على العكس، أحب دائماً أن أزوغ دون أن ألحظ. ولكن لا مجال للزوغان، غير ممكن! ما إن أخرج إلى مكان ما حتى يقول الناس: «هذا هو إيفان الكسندروفيتش يسير!» بل وذات مرة حسبوني القائد الأعلى. خرج الجنود مسرعين من ثكنة

الحجز. شاكي السلاح. وبعد هذا قال لي ضابط من معارفي: أو، يا أخ، ظنناك القائد الأعلى ممماً.

آنا آندرييفنا: تصوّروا!!

خليستاكوف: يعرفونني في كل مكان، أعرف بعض الممثلات الحسناوات، وأولّف أنواع الفودفيلات... وغالباً ما ألتقي بأدباء ولي علاقة ودّية مع بوشكين. غالباً ما أقول له: «كيف حالك يا أخ بوشكين؟» فيجيب: «هكذا، يا أخ، يعني....». نموذج عجيب.

آنا آندرييفنا: يعني تكتبون؟ أظنّ في ذلك متعة! وتنشرون في المجالات أيضاً؟

خليستاكوف: وأنشر في المجالات أيضاً. بالمناسبة، عندي مؤلفات كثيرة. «زواج فيغارو» و«روبرت العفريت» و«نورما». وغيرها لا أذكر حتّى عناوينها. وكلّ ذلك عفو الخاطر. لم أرد أن أكتب، ولكن إدارة المسارح تقول لي: «أرجوك، يا أخ، اكتب لنا شيئاً». فأقول لنفسى: «ممكن، تفضّل، يا أخ». وفي أمسية واحدة، على ما اعتقد، دبّجت كلّ شيء، وأدهشت الجميع. عندي فيض غير اعتيادي في الأفكار. كلّ ما كان باسم البارون برامبوس، «فرقاطة الأمل» و«تلغراف موسكو» كل ذلك من تأليفي.

آنا آندرييفنا: إذأ، فأنتم كنتم تكتبون باسم برامبوس؟

خليستاكوف: بالطبع، أصحح شعرهم جميعاً، سميردين يعطيني أربعين ألف على ذلك.

آنا آندرييفنا: هكذا، إذأ، و«يوري ميلوسلافسكي» من تأليفكم أيضاً.

خليستاكوف: نعم، من تأليفي.

آنا آندرييفنا: حدثت حالاً.

ماريا أنتونوفنا: آه، يا ماما، مكتوب عليه من تأليف السيد زاغوسكين.

آنا أندرييفنا: هذا ما عرفته، ستجادلين حتى في هذا.

خليستاكوف: آه، صحيح، من تأليف زاغوسكين بالضبط. ولكن هناك «يوري ميلوسلافسكي» آخر، من تألّفي.

آنا أندرييفنا: هذا صحيح. قرأت روايتكم. مكتوب بشكل جيّد! خليستاكوف: آنا أندرييفنا بصراحة أحياء على الأدب، بيتي الأول في بطرسبورغ. وهو معروف هناك باسم بيت إيفان الكسندروفيتش (يخاطب الجميع). اعملوا معروفاً، أيها السادة، وتفضّلوا بزيارتي، حين تكونون في بطرسبورغ، أنا أيضاً أقيم حفلات راقصة.

آنا أندرييفنا: أعتقد أنّكم تقيمون حفلات راقصة في منتهى الذوق والفخامة.

خليستاكوف: ولا حاجة إلى كلام. على المائدة، مثلاً، بطبخة بسبعمئة روبل. والحساء في قدره جاء من باريس مباشرة، بالباخرة. وحين يرفع غطاء القدر يخرج بخار لا مثيل له في الطبيعة كلّها. أنا كلّ يوم في حفلة راقصة. ولنا لعبة ورق خاصة بنا أيضاً، يشترك فيها وزير الخارجية، والمبعوث الفرنسي، والمبعوث الإنجليزي والمبعوث الألماني وأنا. وأظّل ألعب حتى أنهك. حالما أصعد السلم إلى الطابق الرابع أقول للطبّاخة: «خذي منّي المعطف يا مافروشكا...» أوه، ما هذا الكذب. نسيت. أنا أسكن في الطابق الأول... السلم وحده في بيتي يساوي... من المسلمّي أن تنظروا في رواق بيتي، حين أكون ما أزال نائماً. تجدون الكونتات والمراء هناك محتشدين يتحدثون ويطنون طنين النحل، ولا تسمعون إلا الطنين.. وأحياناً يوجد وزير...

(حاكم المدينة والآخرون ينهضون من مقاعدهم بهيب).

بل وحين توجه إليّ رسالة يكتبون على الظرف: «صاحب

المعالي». وفي أحد الأوقات كنت أدير مديرية كاملة في الوزارة! الغريب أن المدير العام رحل. إلى أين رحل؟ غير معروف. وطبيعي أن تدور أحاديث عن كيف ومن سيحتل مكانه. وكان الراغبون كثيرين بين الجنرالات الذين جاءوا، ثم تراجعوا لأنهم وجدوا المهمة صعبة. لأنها في الظاهر تبدو سهلة، ولكنها عند الممارسة لا تُحتمل أبداً... وحين تأكدوا من أنهم لا يستطيعون القيام بها جاءوا إلي... وفي الحال كان الشعاع يملأون الشوارع يروحون ويجيئون بالمساعي... تصوّروا وحدهم يقدرّون بخمسة وثلاثين ألف ساعة! وضع، وأي وضع! ويقولون لي: «يا إيفان الكسندروفيتش! ترأس المديرية العامة». ارتبكت قليلاً، بصراحة. وخرجت بالروب المنزلي، وأردت أن أرفض، ولكن فكّرت. سيسمع مولانا القيصر... ثم لا بدّ من الترقية في آخر الأمر... قلت: «طيب، أيها السادة، سأقبل الوظيفة، سأقبلها. وليكن، سأقبلها ولكنني سأجعلهم يرتجفون فأنا صارم متشدّد فإنّ لي أذنأ مرهفة! أنا....» وبالفعل، ما إن أدخل المديرية حتّى يبدأ الارتجاف والارتعاش، وكأنّه الزلزال... الجميع يهتزون كأوراق الشجر.

(حاكم المدينة والآخرون يرتجفون، ويزداد حماس خليستاكوف). آوه! أنا لا أحب المزاح، أصدرت توبيخاً بحق الجميع. حتّى مجلس الدّولة يخاف منّي. ولم لا؟ أنا هكذا! لا أبالي بأيّ إنسان... وأقول للجميع: «أنا أعرف نفسي، أعرفها» أنا في كلّ مكان، في كلّ مكان. أزور القصر كلّ يوم، غداً، حالاً، سأرقى إلى فيلدمارشال... (تنزل قدمه، ويكاد يقع على الأرض، ولكن الموظفون يسندونه باحترام)..

حاكم المدينة (يقترّب ويرتجف بكلّ جسده، ويجاهد لأن ينطق):

ص... ص... ص.....

خليستاكوف (بصوت حاد سريع): ما هذا؟

حاكم المدينة: ص... ص... ص.....

خليستاكوف (بنفس الصوت): لا أفهم شيئاً. مجرد هراء.

حاكم المدينة: ص... ص... صاحب المعالي، ألا تحبّون أن

تستريحوا... هذه الحجرة، وكلّ ما هو لازم.

خليستاكوف: هراء أن أستريح.. طيّب، مستعدّ أن أستريح.

فطوركم، يا سادة، جيّد... أنا راضٍ، أنا راضٍ. (بلهجة خطابية)..

سمك القد! سمك القد!

(يدخل في الحجرة الجانبية، وحاكم المدينة وراءه).

المشهد السابع

(نفس الأشخاص ما عدا غليستاكوف و حاكم المدينة).

دوبتشينسكي (لدوبتشينسكي): انظر، يا بيتر إيفانوفيتش، أي رجل هو، هذا هو الرجل الحق! في حياتي لم أكن في حضرة رجل مهمّ مثله، حتّى كدت أموت من الرعب. ما رأيك، يا بيتر غيفانوفيتش، من هو من حيث الرتبة؟

دوبتشينسكي: أظنه في مستوى جنرال.

دوبتشينسكي: أظن رتبة جنرال قليلة جداً في حقّه، وإذا كان في هذه الرتبة فهو جنراليسيموس. هل سمعت كيف ضيق على مجلس الدولة؟ لنذهب ونخبر أموس فيدروفيتش وكوروبكين بأقرب وقت. مع السلامة، يا أنا أندرييفنا.

دوبتشينسكي: مع السلامة، يا معمدة أولادي.

(يخرج الاثنان).

أرتيمي فيليوفيتش (للوكا لوكيتش): رعب حقيقي! ولا أعرف لماذا. حتّى بزاتنا الرسمية لم نلبسها. فماذا لو سيبلغ بطرسبورغ بعد أن يستيقظ ويزول عنه الشكر؟ (يخرج ساهماً مع ناظر المدرسة، ويقول): وداعاً، يا سيّدي!

المشهد الثامن

(أنا أندريفنا و ماريا أنتونوفنا)..

أنا أندريفنا: آه، ما اللطفه!

ماريا أنتونوفنا: آه، ما أحلاه!

أنا أندريفنا: وأي رقة في السلوك! تعرفين رأساً أنه شخصية من العاصمة. طريقة الكلام والمعاملة وكل شيء... آه، رائع! أهييم بمثل هؤلاء الشبان! أذوب فيهم. وأنا أيضاً أعجبت، على كل حال، لاحظته يرمقني طول الوقت.

ماريا أنتونوفنا: آه، يا ماما، كان يرمقني أنا.

أنا أندريفنا: أرجوك، أبعدي عني سخافتك! هذا لا يليق أبداً.

ماريا أنتونوفنا: لا يا ماما، حقاً!..

أنا أندريفنا: أهوه! لا بد أن تجادل! غير ممكن، وكفى! وأين له أن ينظر إليك؟ ولم عليه أن ينظر إليك؟

ماريا أنتونوفنا: حقاً، يا ماما، طول الوقت كان ينظر إليّ. حالما بدأ يتكلّم عن الأدب أخذ يرمقني، وبعد ذلك، حين كان يتحدّث عن لعب الورق مع المبعوثين، في هذه المرّة يرمقني أيضاً.

أنا أندريفنا: ربما مرّة واحدة، وحتى هذه من باب المسامحة وحدها يقول لنفسه: «لا بأس لو نظرت إليها».

المشهد التاسع

(الائتنان مع حاكم المدينة).

حاكم المدينة: (يدخل على أطراف أصابعه) شش.... ش.... ش....

آنا آندرييفنا: ماذا؟

حاكم المدينة: وحتى سُكره لم يجلب لي الفرحة. ولكن ماذا لو كان صحيحاً حتى نصف ما قاله؟ (يفرق في تفكير) ثم كيف لا يكون صحيحاً؟ الإنسان إذا سكر باح بكل ما في صدره. ما في قلبه يطفح على لسانه. كلامه لم يخلُ من كذب بالطبع؛ ولكن حين لا يكذب أحد يعني لم يتكلم. يلعب مع الوزراء، ويزور القصر... آوه، حقاً، كلما أفكر في الأمر... اللعنة، لا أعرف ماذا يحصل في رأسي. كأنني واقف على برج عال، أو أوشك أن أشتق.

آنا آندرييفنا: بينما أنا لم أشعر بأي تخوف. لا شيء سوى أنني وجدت فيه رجلاً مثقفاً من المجتمع الراقى آداب سلوكه رفيعة. أما الرتب فلست بحاجة إليها.

حاكم المدينة: أنتن نساء. وهذه الكلمة وحدها تكفي، فالأمر واضح، كل شيء لديكن هراء وتوافه. وفجأة تصدر منكن كلمة تستحق العقاب فعقابكن جلد لا أكثر، ولكن الزوج يتحمل التبعة. ويضيع. لا أثر له ولا خبر. كنت، يا روجي، تتصرفين معه وكأنه من صنف دويتشينسكي.

آنا آندرييفنا: أنصحك بأن لا تقلق على ذلك. لسنا جاهلات بكل شيء.... (تنظر إلى ابنتها)..

حاكم المدينة: (يخاطب نفسه). أوه، لا جدوى من الكلام معك... هذه مصادفة مزعجة في الحقيقة! حتى الآن لا أستطيع أن أسيطر على الفزع. (يفتح الباب، ويتحدث عند الباب).. يا ميشكا، استدع، الشرطين سفيستونوف ودير جيموردا. إنهما في مكان غير بعيد من هنا، وراء البوابة. (بعد صمت قصير). كل شيء انقلب في هذا العالم بشكل عجيب. على الأقل لو كان مهيب الطلعة، ولكنه نحيف هزيل. فكيف تعرف من هو العسكري يدل مظهره على ذلك ولكن حين يلبس بدلة الفراك يصير مثل ذبابة مقصوصة الجناحين. ظلّ يتخفى في الفندق وقتاً طويلاً، ولم يكشف عن نفسه. يلفق الحكايات ويلفّ ويناور حتى بدا وكأنه لن ينكشف أبداً. ولكنه وقع أخيراً. وانفلت لسانه حتى أكثر من اللازم. الظاهر أنه شاب غريب.

المشهد العاشر

(نفس الأشخاص مع أوسيب. الجميع يهرعون للقائه، مشيرين بالأصابع).

آنا أندرييفنا: تعال هنا، يا حضرة!

حاكم المدينة: شش! ماذا؟ ماذا؟ نائم؟

أوسيب: لا، لحد الآن! يتمطى قليلاً.

آنا أندرييفنا: ما اسمك؟

أوسيب: أوسيب يا مولاتي.

حاكم المدينة: (لزوجته وابنته). كفى، كفاكما؟! (لأوسيب).

طيب، يا صاحبي، هل أطعموك جيداً؟..

أوسيب: أطعموني، مع الشكر الجزيل، أطعموني جيداً.

آنا أندرييفنا: قل لي، أظن أن كونتات وأمرء كثيرين جداً يزورون

سيدك؟

أوسيب (جانباً): ماذا أقول؟ إذا كانوا الآن أطعموني بشكل

جيد. فسيطعمونني بشكل أحسن. فيما بعد. (بصوت مسموع).

نعم، وكونتات أيضاً.

ماريا أنتونوفنا: أوسيب الحلو، ما أجمل سيدك!

آنا أندرييفنا: قل لي، من فضلك، يا أوسيب كيف هو...

حاكم المدينة: ولكن كفى، رجاء! بأقوالكما الفارغة هذه تعيقانني

لا غير.. طيب، ماذا، يا صاحبي؟

آنا آندريفنا: وما رتبة سيدك.

أوسيب: رتبة اعتيادية.

حاكم المدينة: آوه، يا ربي، ما زلت على استفساراتك البلهاء!
لا تتركيني أتكلّم كلمة في الموضوع. طيب، يا صاحبي، كيف
سيدك؟... صارم؟ يحب إصدار التوبيخات أم لا؟

أوسيب: نعم، يحبّ النظام. وأن يكون كلّ شيء مضبوطاً.
حاكم المدينة: يعجبني وجهك كثيراً. أظنك إنساناً طيباً، يا
صاحبي. ماذا....

آنا آندريفنا: اسمع، يا أوسيب، هل سيّدك يلبس البرّة الرسمية
هناك؟

حاكم المدينة: كفّاك من هذه الثرثرات، حقّاً! توجد قضية مهمّة،
تعلّق بحياة إنسان... (لأوسيب).. حقّاً، يا صاحبي، أنت تعجبني
كثيراً. الجوّ الآن يميل إلى البرودة. فلا ضير أن تشرب قدحاً أو قدحين
من الشاي في الطريق. خذ هذين الروبلين الفضيّين للشاي.

أوسيب (ياخذ النقود): شكراً جزيلاً، يا سيّدي، جعلك الله
موفور الصحة، ساعدتم شخصاً باتساً.

حاكم المدينة: طيّب، طيّب، وأنا مسرور أيضاً، يا صاحبي...

آنا آندريفنا: اسمع، يا أوسيب، بأيّ العيون يعجب سيّدك أكثر؟

ماريا أنتونوفنا: أوسيب يا حلو! أيّ أنف لطيف لسيدك!

حاكم المدينة: توقفاً، اتركاني... (لأوسيب).. طيّب، خبّرني
رجاء، يا صاحبي: ماذا يلفت نظر سيّدك أكثر، أقصد أي شيء يعجبه
أكثر عند السفر؟

أوسيب: حسب الظروف. أكثر ما يحبّه أن يُستقبل جيّداً. وأن
تكون المائدة عامرة.

حاكم المدينة: عامرة؟

أوسيب: نعم، عامرة. وحتى أنا، القرن، يهتم بأن أعامل معاملة جيدة. وحقّ الربّ! يحدث أن نساfer إلى مكان ما، فيسألني: «هل استضافوك بشكل جيّد، يا أوسيب؟» فأقول: «لا، يا صاحب السيادة» فيقول: «آه، يا أوسيب، صاحب هذا البيت سيّء. ذكرني، حين نعود إلى بطرسبورغ». فأقول لنفسني (يلوُح بيده). «عفا الله عنه! أنا رجل بسيط».

حاكم المدينة: لطيف، لطيف، كلامك مضبوط. قبل حين أعطيتك فلوساً للشاي، وهذه علاوة للكعك.

أوسيب: ما هذا الكرم، يا صاحب السيادة؟ (يقبل النقود ويخفيها).. في هذه الحال سأشرب نخب صحتك.

آنا أندرييفنا: تعال إليّ، يا أوسيب، وسأعطيك أيضاً.

ماريا أنتونوفنا: أوسيب يا حلو، قبّل سيدك.

(يسمعون سعال خليستاكوف الخفيف من الحجرة الأخرى).

حاكم المدينة: شش! (يقف على أطراف أصابعه؛ المشهد كلّ بصوت خافت).. لا تثيرا ضجة. واذهبا. هذا يكفيكما..

آنا أندرييفنا: لنذهب، يا ماشينكا! سأخبرك بما لاحظته على الضيف. شيء لا يمكن التحدّث به إلا بيننا، الاثنتين.

حاكم المدينة: أوه، من هذا الكلام! تسمع وترهد وتسدّ أذنيك. (مخاطباً أوسيب). طيّب، يا صاحبي...

المشهد الحادي عشر

(نفس الأشخاص مع دير جيموردا وسفيستونوف).

حاكم المدينة: شش! هؤلاء الدببة العُرج كيف يدقّون الأرض بأحذيتهم! نحسّ وكأنّ أثقالاً تقذف من عربة. أين أخذكما الشيطان؟
دير جيموردا: كنت خارجاً بمهمة...

حاكم المدينة: شش (يفلق فمه).. كن عيق الغراب! (يقلّده) كنت خارجاً بمهمة! كأنه يزعم من برميل! (لأوسيب). طيّب، يا أخ، اذهب وهنّ ما يحتاجه سيّدك. كلّ ما في البيت يمكن أن تطلبه.
(أوسيب يخرج)

أمّا أنتما، فقفا على مدخل الباب، ولا تغادرا مكانكما! ولا تسمحا لأي غريب، ولا سيّما التجّار، بالدخول إلى البيت! ولو سمحتما، ولو لواحد منهم، فس... حالما تريان شخصاً قادماً بعريضة، حتّى ولو بدون عريضة، مجرّد رجل يُشتمُّ منه أنّه يريد أن يفعل ذلك، ادفعاه من قفاه! بشدّة! هكذا! (يدفع بقدمه).. هل تسمعان؟ شش!.. (يخرج على أطراف أصابعه وراء الشرطين)..

الفصل الرابع

(نفس الحجر في بيت حاكم المدينة).

المشهد الأول

(يدخل بعلز وعلى أطراف الأصابع تقريباً أموس فيدروفيتش، وأرتيمي فيليوفيتش ومأمور البريد، ولوكا لوكيتش، ودويتشينسكي وبوتشينسكي في بزتهم الرسمية الكاملة. كل المشهد يجري بأصوات خافتة) ..

أموس فيدروفيتش (يصف الجميع بنصف حلقة): بحق الرب، يا سادة، أسرعوا في الحلقة، وبأكثر ما يمكن من النظام! أعاذنا الله منه. يزور القصر، ويوتخ مجلس الدولة! اصطفوا بنظام عسكري، بنظام عسكري من كل بدا وأنت، يا بيتر إيفانوفيتش، استدر من تلك الناحية، وأنت يا بيتر إيفانوفيتش الآخر قف هنا.

أرتيمي فيليوفيتش: حسب ما تشاء، يا أموس فيدروفيتش، حبذا لو نتخذ شيئاً ما.

أموس فيدروفيتش: وما هو بالذات؟

أرتيمي فيليوفيتش: معروف ما هو.

أموس فيدروفيتش: ندمن يده؟

أرتيمي فيليوفيتش: نعم، على الأقل هذا.

أموس فيدروفيتش: خطر، والله يستر، سيصرخ. فهو رجل دولة، ربما نقوم بذلك على شكل تبرعات من جانب النبلاء لإقامة نصب تذكاري؟..

مأمور البريد: أو نقول له «هذه نقود جاءت بالبريد من مجهول». أرتيمي فيليوفيتش: أخشى أن يرسلك أنت بالبريد إلى مكان بعيد، اسمعوا، هذه الأمور تجري بشكل آخر في دولة يسودها النظام. لماذا جمعنا هنا بكل هيئتنا؟ يجب أن نقدّم أنفسنا كل على انفراد، وسيعطى له كل واحد ما يلزم لوحده... فلا يتسرّب شيء لأذن زائدة. هذا ما يجري في المجتمع المعبر. طيب، كن أنت الأول، يا أموس فيدروفيتش وابدأ.

أموس فيدروفيتش: الأفضل أن تبدأ أنت. الزائر العالي المقام ذاق الخبز والملح في مؤسستك.

أرتيمي فيليوفيتش: الأحسن أن يبدأ لوكا لوكيتش باعتباره مربّي الشباب.

لوكا لوكيتش: لا أقدر، لا أقدر، يا سادة، هكذا تربيت، بصراحة، حالما يتحدث معي شخص من رتبة أعلى حتى أتلبّخ روحاً ولساناً، وكأنني وقعت في وحل. لا، يا سادة، اعفوني، اعفوني حقاً!..

أرتيمي فيليوفيتش: نعم، يا أموس فيدروفيتش لا أحد غيرك. ما إن تنطق بكلمة، حتى يتدفق شيشرون على لسانك.

أموس فيدروفيتش: ما هذا الكلام من جنابك! شيشرون! أي بدعة هذه! أحياناً أحمّس في الكلام حين أصف كلاب الصيد، أو كلبة طراد...

الجميع (يلحون عليه). لا، ليس عن كلاب الصيد فقط. بل وعن

برج بابل أيضاً. لا، يا أموس فيدروفيتش لا تتخلّ عنا، كن أبانا! ...
لا، يا أموس فيدروفيتش.

أموس فيدروفيتش: اتركوني يا سادة!

(في تلك اللحظة يُسمع وقع خطوات ونحنحة في حجرة خليستاكوف، الجميع يندفعون نحو الباب يسبق بعضهم بعضاً، ويتزاحمون، ويحاولون أن يخرجوا متدافعين مضغوطين. تصدر هتافات واطئة).

صوت بوبتشينسكي: أوه! بيتر إيفانوفيتش، بيتر إيفافيتش!
دست على قدمي!

صوت زيملانيكا: أطلقوا سراحي يا سادة، حصرموني ممماً!
(تصدر بعض الهتافات «آه، آه!» وأخيراً يخرج الجميع مضغوطين وتبقى الحجرة فارغة) ..

المشهد الثاني

(خليلستاكوف وحده يخرج والنعاس في عينيه).

أظنتني نمت نومة لا بأس بها. من أين جاءوا بهذه الحشايا وفرشات الريش؟ جعلتني أتصبب عرقاً. أظنهم بالأمس دسوا لي شيئاً ما على الفطور. في رأسي مطارق حتى الآن. من الممكن قضاء وقت ممتع هنا حسب ما أرى. أحبّ حسن المعاملة والكرم. ويعجبني أكثر بصراحة، أن أضيّف عن نقاء سريرة، لا عن مصلحة. ابنة حاكم المدينة مليحة جداً، والأم أيضاً امرأة من الممكن أن... لا، لا أعرف، ولكن مثل هذه الحياة تعجبني حقاً.

المشهد الثالث

(خليستاكوف والقاضي أموس فيدروفيتش).

أموس فيدروفيتش (يدخل، ويتوقف، ويقول لنفسه): يا رب، يا رب، اجعلها تمرّ بسلام، ركبتيّ خائرتان، (بصوت مسموع، وقد انتصب بقامته، ووضع يده على سيفه).. لي الشرف أن أقدم نفسي: قاضي محكمة القضاء، الموظف من الدرجة الثامنة، ليايكن تيايكن.

خليستاكوف: تفضّل، اجلسن إذّا، فأنت قاضٍ هنا؟

أموس فيدروفيتش: منذ عام ١٨١٦ انتخبني النبلاء لفترة ثلاثة أعوام، ثم أعادوا انتخابي ثلاث مرات فبقيت في المنصب إلى هذا الحين.

خليستاكوف: يعني منصب القاضي نافع؟

أموس فيدروفيتش: خلال تسع سنوات رشحت لوسام فلاديمير من الدرجة الرابعة بتأييد من جانب الرئاسة. (جانباً). النقود في قبضتي، ولكنني أحسّ بها تلسعني كاللهب.

خليستاكوف: وسام فلاديمير يعجبني، ولكن إعجابي بوسام آندريفنا من الدرجة الثالثة كان أقل.

أموس فيدروفيتش: (يدفع قبضته المضمومة إلى الأمام قليلاً. جانباً). يا إلهي، لا أعرف أين أجلس، كأني على جمر متقد.

خليستاكوف: ما هذا الذي في يدك؟

أموس فيدروفيتش: (يرتبك ويسقط أوراق النقد على الأرض). لا شيء.

خليستاكوف: كيف لا شيء؟ سقطت نقود، كما أرى.
أموس فيدروفيتش: (يرتجف بكلّ كيانه). لا، مطلقاً! (جانباً).
ياربّي! سأحاكم. جاءوا بعربة لأخذي.
خليستاكوف: (يرفعها) نعم، هذه نقود.
أموس فيدروفيتش: (جانباً). آوه، كلّ شيء انتهى. وقعت!
وقعت!

خليستاكوف: هل تعرف؟ أقرضني إياها.
أموس فيدروفيتش: (بعجالة) بالطبع، بالطبع... بكلّ سرور
(جانباً) أجراً، أجراً! أنقذيني، أيتها الأم الطاهرة!
خليستاكوف: نفدت نقودي كلها أثناء السفر.... أنفقتها على
هذا أو ذاك... على كلّ حال، سأرسلها لك من القرية حالاً.
أموس فيدروفيتش: أرجوكم، كيف يمكن هذا! هذا شرف عظيم
بحدّ ذاته... أحاول أن أكون عند حسن الظنّ، بقوأيّ الهزيلة،
بالطبع، وبغيرتي، ونحتمّسي إلى الرؤساء (ينهض من المقعد، ويقف
بهيئة استعداد، وذراعااه مصفوفتان على جانبيه).. لا أجسر على
إزعاجكم بوجودي أكثر من ذلك، هل هناك أي أمر؟..
خليستاكوف: أي أمر؟

أموس فيدروفيتش: أقصد هل لديكم أي أمر لمحكمة القضاء هنا؟
خليستاكوف: ولم؟ لم أعد بحاجة إليها.
أموس فيدروفيتش: (ينحني، وينصرف. جانباً) انتصرونا!
خليستاكوف (لدى خروجه): القاضي رجل جيّد!...

المشهد الرابع

(خليستاكوف، يدخل مأمور البريد، منتصب الجذع في بزّته الرسمية، ممسكاً سيفه).

مأمور البريد: لي الشرف أن أقدم نفسي: مأمور البريد، الموظف بالدرجة السابعة شيكين.

خليستاكوف: ... آ.... تفضّل! أحبّ كثيراً العشرة اللطيفة. اجلس. أنت تقيم هنا دائماً؟
مأمور البريد: نعم.

خليستاكوف: مدينتكم تعجبني. ليست كثيرة السكّان. بالطبع. ولكن هل هذا يهمّ؟ ليست هي العاصمة. أليس صحيحاً إنّها ليست العاصمة؟

مأمور البريد: صحيح كلياً.

خليستاكوف: في العاصمة وحدها لغة الكلام المهذّبة، ولا يوجد فيها بَطّ الريف السارح، ألا توافقني على هذا الرأي؟
مأمور البريد: بالضبط. (جانباً). لا يبدو أنّه يستنكف أبداً. يسأل عن كلّ شيء.

خليستاكوف: من الممكن العيش بهناء في المدينة الصغيرة أيضاً أليس كذلك؟ قل لي بصراحة.
مأمور البريد: بالضبط.

خليستاكوف: ما هو الضروري، في رأيي؟ الضروري أن يحترمك الآخرون ويحبّونك بإخلاص. أليس كذلك؟

مأمور البريد: صحيح تماماً.

خليستاكوف: أنا، بصراحة، مسرور لأنك متفق معي في الرأي، الناس تنعني بغرابة الأطوار، بالطبع، ولكن هذا خلقي (ينظر في عينيه، ويتكلم في سره) سأطلب من مأمور البريد هذا قرصاً (بصوت مسموع).. أي ظرف غريب حصل معي. نفدت نقودي كلها في الطريق. ألا تقدر أن تقرضني ثلاثمئة روبل؟

مأمور البريد: وكيف لا؟ هذه سعادة عظيمة بالنسبة لي، ها هي تفضل. أنا مستعد لأن أخدم بكل قلبي.

خليستاكوف: شاكر كثيراً. أنا، بصراحة، أكره أن أقتر على نفسي في السفر. ثم لماذا؟ أليس كذلك؟

مأمور البريد: بالضبط. (ينهض، ويأخذ هيئة الاستعداد، يضع يده على السيف). لا أجروء على إزعاجكم بحضوري، أكثر من هذا. هل لديكم أية ملاحظة بخصوص إدارة البريد؟

خليستاكوف: لا، لا شيء.

(مأمور البريد ينحني، ويخرج).

(يشعل سيكارة). مأمور البريد أيضاً يبدو لي رجلاً جيّداً جداً. خدوم، على أقل تقدير، أنا أحب مثل هؤلاء.

المشهد الخامس

(خليستاكوف و لوكا لوكيتش الذي انقلب من الباب تقريباً، من الخلف بتردد صوت يكاد يكون مسموعاً «لماذا تتخوف؟»).

لوكا لوكيتش (ينتصب ولكن ليس بدون ارتجاف، ممسكاً السيف): لي الشرف بأن أقدم نفسي. ناظر المدرسة، الموظف بالدرجة التاسعة خلوبوف.

خليستاكوف: تفضل، اجلس، اجلس! ألا تريد سيكارة؟ (يقدم له سيكارة)..

لوكا لوكيتش (في سره وبتردد): أية مفاجئة! لم يخطر هذا على بالي قط. آخذها أو لا آخذها؟

خليستاكوف: خذها، خذها. إنها سيكارة معتبرة، بالطبع، ليست مثل السكاثر في بطرسبورغ. كنت أدخن هناك، يا مولاي، سكاثر، المئة منها بخمسة وعشرين روبلاً. ما أَلذها، تدخينها متعة، هذه نار، أشعل. (يقدم له عود شمعة).

(لوكا لوكيتش يحاول أن يشعل السيكارة، وهو يرتجف بكلية).

خليستاكوف: ولكن ليس من هذا الطرف!

لوكا لوكيتش (تسقط منه السيكارة من الذعر. يبصق، ويلوح بذراعه. مع نفسه): تخطف الشيطان كل شيء! يقتلني هذا التهيب اللعين!

خليستاكوف: لست مؤلماً بالسكاثر، كما أرى، ولكنها بصراحة موطن الضعف في. (وبخصوص الجنس اللطيف أيضاً لا أستطيع أن

أمرٌ به مرّ الكرام. فكيف أنت؟ مَنْ يُعجبك أكثر، سوداوات الشعر أم الشقراوات؟

(لوكا لوكيتش يتحيرّ تماماً ولا يعرف ماذا يقول).

خليستاكوف: لا، قل لي بصراحة، سوداوات الشعر أم الشقراوات؟

لوكا لوكيتش: هذا كثير عليّ.

خليستاكوف: لا، لا، لا تنهَرْ! لابد أن أستانس بذوقك.

لوكا لوكيتش: أجروء على القول.... (جانباً). ولكن لا أدري ماذا أقول!

خليستاكوف: ها! ها! لا تريد أن تقول. ربّما أوقعتك إحدى سوداوات الشعر في مقلب صغير. اعترف، هل أوقعتك؟ (لوكا لوكيتش يلزم الصمت).

ها! ها! احمررت. انظر! انظر! لماذا لا تتكلّم؟

لوكا لوكيتش: أخذتني الرهبة، يا صاحب النبا... المعاد... القداس... (جانباً) خائني لساني اللعين! خائني!

خليستاكوف: الرهبة؟ في عيني ما يوحى بالرهبة، حقّاً أعرف، على أقلّ تقدير، إن آية امرأة لا تستطيع أن تصمد أمامهما، أليس كذلك؟

لوكا لوكيتش: بالضبط.

خليستاكوف: طيّب، حصل لي ظرف عجيب، بددت نقودي أثناء السفر كلياً. ألا تقدر أن تقرضني ثلاثمئة روبل؟

لوكا لوكيتش (يختطف جيبه، مع نفسه): مصيبة، إن لم يكن معي! موجود، موجود! (يخرج الفلوس، ويقدمها مرتجفاً).

خليستاكوف: مع الشكر الجزيل.

لوكا لوكيتش (منتصباً ممسكاً بسيفه): لا أجروا أن أزعجكم
بوجودي أكثر.

خليستاكوف: مع السلامة.

لوكا لوكيتش (يتعد فيما يشبه الركض. جانباً). طيب، حمداً
لله، أظنه لا يزور المدرسة، الآن!

المشهد السادس

(خليستاكوف وأرتيمي فيليوفيتش منتصباً في هيئة استعداد، واضعاً يده على سيفه).

أرتيمي فيليوفيتش: لي الشرف أن أقدم نفسي، راعي المؤسسات الخيرية، الموظف بالدرجة السابعة زميلانيكا.
خليستاكوف: مرحباً، اجلس، أرجوك.

أرتيمي فيليوفيتش: كان لي الشرف بمرافقتكم واستقبالكم شخصياً في مؤسساتي الخيرية المناطة بي.

خليستاكوف: ها، نعم! أتذكر. ضيفتني على فطور جيد جداً.

أرتيمي فيليوفيتش: سرور في السعي لخدمة الوطن.

خليستاكوف: هذا موطن ضعفي، بصراحة، أحب الطعام الجيد. قل لي، من فضلك، يبدو لي أنك كنت في الأمس أقصر قامة بقليل، أليس كذلك؟

أرتيمي فيليوفيتش: محتمل جداً، (بعد صمت قصير).. أستطيع أن أقول إنني أبذل قصارى جهدي، وأؤدي واجبي بإخلاص. (يتقدم قليلاً مع مقعده، ويتكلم بصوت خافض). ها هو مأمور البريد هنا لا يفعل أي شيء إطلاقاً. كل أعماله في حالة من الإهمال الشديد، والرساليات تتأخر... تفضل. وتأكد بنفسك خصيصاً... وكذلك القاضي الذي كان هنا قبل مجيئي، ليس له هم غير صيد الأرانب، ويحتفظ بكلابه في غرفة دائرته. وتصرفاته، إذا كنت صريحاً معكم وأنا بالطبع، ملزم لأن أفعل لمصلحة الوطن، ولو أنه قريب لي وصديق

تصرفاته معيبة تماماً. يوجد هنا مالك أراضٍ، يُدعى دويتشينسكي وهو الذي سبق أن رأيته. ما إن يخرج دويتشينسكي هذا من البيت حتى يكون عند زوجته. أنا مستعدٌ إلى أن أقسم على ذلك. انظر إلى أطفاله خصيصاً، لن تجد واحداً منهم يشبه دويتشينسكي، ولكن الجميع، حتى البنت الصغيرة، يشبهون القاضي شبه الحبة للحبة.

خليستاكوف: يا لها من مفاجأة، بينما لم أكن أظن ذلك قط.

أرتيمي فيليوفيتش: وناظر المدرسة أيضاً... لا أعرف كيف أمكن للرئاسة أن تأمنه على مثل هذه الوظيفة. إنه أسوأ من اليعاقبة. يلقن الشبيبة قواعد الخروج على ما هو قائم بشكل يصعب تصويره. اليس من الأفضل أن أضع كل هذا على الورق؟ ماذا تأمر؟

خليستاكوف: طيب، وليكن على الورق، هذا مريح لي جداً. أنا أحب أن أقرأ في أوقات الضجر شيئاً مسلياً، ما اسم عائلتك؟ أنا أنسى دائماً.

أرتيمي فيليوفيتش: زيملانيكا.

خليستاكوف: آها، نعم! زيملانيكا. قل لي من فضلك، هل لديك أولاد؟

أرتيمي فيليوفيتش: بالطبع! خمسة. اثنان منهم راشدان.

خليستاكوف: راشدان، تصورا وكيف... كيف هم بـ...

أرتيمي فيليوفيتش: يعني تريدون أن تسألوا كيف هم بالأسماء؟

خليستاكوف: نعم، كيف هم بالأسماء؟

أرتيمي فيليوفيتش: نيقولا، غيفان، يليرافيتا، ماريا، بيربيتويا.

خليستاكوف: هذا لطيف.

أرتيمي فيليوفيتش: لا أجروء على إزعاجكم بحضوري، وأخذ وقتكم المندور للواجبات المقدسة. (ينحني ليخرج).

خليستاكوف: (يرافقه)، لا، لا بأس! كل ما قلته مضحك جداً.
تفضل، تعال في وقت آخر أيضاً... أنا أحب ذلك كثيراً (يعود،
وحين يفتح الباب يصيح في أثره) هاي، أنت! ما اسمك؟ أنسى
دائماً ما اسمك واسم أهلك.

أرتيمي فيليوفيتش: أرتيمي فيليوفيتش.

خليستاكوف: اعمل معروفاً، يا أرتيمي فيليوفيتش، حصل
لي ظرف غريب. أنفقت نقودي كلياً أثناء السفر. هل لديك نقود
لتقرضني أربعمئة روبل؟

أرتيمي فيليوفيتش: لدي.

خليستاكوف: يا للمصادفة الحسنة حقاً. شكراً جزيلاً.

المشهد السابع

(خليستاكوف وبوتشينسكي ودوتشينسكي).

بوتشينسكي: لي الشرف أن أقدم نفسي، بيترين إيفان بوتشينسكي من أهل هذه المدينة.

دوتشينسكي: مالك الأراضي بيترين إيفان دوتشينسكي.

خليستاكوف: آه، رأيتك من قبل، أظنك قد وقعت في حينها؟ كيف حال أنفك؟

بوتشينسكي: الحمد لله! لا تقلقوا أنفسكم. نشف. هو الآن ناشف تماماً.

خليستاكوف: لطيف أنه ناشف. أنا مسرور، (فجأة وبلهجة فيها حدة).. هل لديك فلوس؟

بوتشينسكي: فلوس؟ أي فلوس؟

خليستاكوف: ألف روبل قرصاً.

بوتشينسكي: لا يوجد هذا المبلغ، والله، ربما لديك، يا بيتر إيفانوفيتش؟

دوتشينسكي: ليس معي، لأن فلوسي، لو تفضلتم أن تعرفوا، موظفة في الصندوق الخيري.

خليستاكوف: طيب، إذا لا يوجد ألف، فمائة روبل.

بوتشينسكي: (يفتش في جيبه). هل معك، يا بيتر إيفانوفيتش مائة روبل؟ ليس معي غير أربعين من النقود الورقية.

دوبتشينسكي (ينظر في محفظة نقوده الورقية): خمسة وعشرين روبلاً فقط.

بوتشينسكي: ولكن فئتش أكثر، يا بيتير إيفانوفيتش! أنا أعرف، عندك في الجانب الأيمن من جيبك فتق، لابد أن سقط شيء في فتق الجيب.

دوبتشينسكي: في الفتق أيضاً لا يوجد، بالفعل.

خليستاكوف: طيب، لا يهم. مجرد سؤال. طيب، وليكن خمسة وستين روبلاً. هذا لا يهم. (يأخذ النقود).

دوبتشينسكي: أجزؤ أن أترجاكم بخصوص مسألة دقيقة جداً.

خليستاكوف: ما هي؟

دوبتشينسكي: المسألة ذات طابع حساس جداً. ابني الكبير، إذا سمحتم بالقول، أنجبته قبل الزواج.

خليستاكوف: صحيح؟

دوبتشينسكي: أقصد، هذا على حدّ تعبير الناس فقط. فقد أنجبته تماماً، وكأنتي متزوج، وكلّ ذلك قد توجّهت فيما بعد بعري الزواج الوثقي، وحسب الأصول وأنا أريد الآن، إذا سمحتم، أن يكون ابني الشرعي كلياً، وأن يحمل اللقب الذي أحمله "دوبتشينسكي".

خليستاكوف: طيب، ليحمله! هذا ممكن!

دوبتشينسكي: ما كنت سأزعجكم، ولكن خسارة أن تضيع قابلياته. غلام يشتر بآمال عظيمة. يستطيع أن ينشد أشعاراً متنوّعة عن ظهر قلب. وإذا وقعت في يده سكّين صنع على الفور لعبة تمثّل عربية صغيرة بمهارة فائقة وفتنة ساحرة. هذا بيتير إيفانوفيتش يعرف ذلك أيضاً.

بوتشينسكي: نعم، عنده قابليات كبيرة.

خليستاكوف: طيب، طيب! سأحاول في هذا الخصوص،
سأتكلم.... آمل... كل ذلك سيتم، نعم، نعم... (مخاطباً
بوتشينسكي) هل عندك شيء تقوله لي؟

بوتشينسكي: طبعاً عندي رجاء متواضع جداً.

خليستاكوف: ما هو؟

بوتشينسكي: أرجوكم بكلّ خضوع أن تخبروا، حال
وصولكم إلى بطرسبورغ، جميع الوجهاء على اختلافهم، والأعيان،
والادميرالات، بأن في المدينة الفلانية، يا أصحاب الفضيلة أو
الفخامة، أو ما إلى ذلك، يعيش بيتر إيفانوفيتش بوتشينسكي.. قل
لهم هكذا: "يعيش بيتر إيفانوفيتش بوتشينسكي".

خليستاكوف: حسن جداً.

بوتشينسكي: وإذا صادف وأن التقيت بمولانا القيصر، فقل
لمولانا أيضاً إن في المدينة الفلانية، يا صاحب الجلالة، يعيش بيتر
إيفانوفيتش بوتشينسكي.

خليستاكوف: حسن جداً.

دوتشينسكي: أعذرونا على مضايقتكم بحضورنا.

بوتشينسكي: أعذرونا على مضايقتكم بحضورنا.

خليستاكوف: لا بأس، لا بأس، سرور جداً، (يدفعهما
للخروج).

المشهد الثامن

(خليستاكوف وحده).

الموظفون كثيرون هنا. ويدولي، على كل حال، أنهم يعتبرونني رجلاً دولة، الظاهر أنني تباهيت كثيراً أمامهم بالأمس. أي حمقى هؤلاء! سأكتب عن كل شيء لثريا بيتشكين في بطرسبورغ. فهو يدبج مقالات. فليكتبهم بشكل محترم. هاي، يا أوسيب أعطني ورقة وحبراً.

(أوسيب يظل من الباب، وينطق «حالاً»).

ثريا بيتشكين هذا شديد إذا وقع أحد في يده، لا يرحم حتى أباه، ويحبّ الفلوس أيضاً، هؤلاء الموظفون أناس طيبون على العموم. والصفة اللطيفة فيهم أنهم أقرضوني. ترى كم عندي من الفلوس؟ لأنظر من جديد، للتسلية، ثلاثمائة من القاضي، وثلاثمائة من مأمور البريد، ستمئة، سبعمئة، ثمانمائة... أية ورقة مدهنة هذه! ثمانمائة، تسعمئة.... أهوه! تعدت الألف... تعال نلعب الآن، يا رائد، آه، لو وقعت في يدي الآن! سرى من يغلب الآخر.

المشهد التاسع

(خليستاكوف وأوسيب ومعه محبرة وورقة).

خليستاكوف: هل ترى، يا أحمق، كيف يستضيفونني ويستقبلونني؟ (يبدأ بالكتابة).

أوسيب: نعم، والحمد لله! ولكن هل تدرون، يا إيفان الكسندروفيتش؟

خليستاكوف: ماذا؟

أوسيب: لنرحل من هنا! آن الأوان، وحقّ الرب!

خليستاكوف (وهو يكتب): هراء! ولماذا..

أوسيب: هكذا! كفانا شرهم جميعاً! لهوتم هنا يومين، وكفى. فلماذا تطيلون علاقتكم بهم؟ أبصقوا عليهم! أخشى أن يطلّ شخص آخر غفلة... بحقّ الرب، يا إيفان الكسندروفيتش! فليعطونا خيولاً ممتازة، وسنطير بها.

خليستاكوف (وهو يكتب): لا، أحبّ أن أعيش هنا أكثر، ليكن في الغدا!

أوسيب: ولم في الغدا لنفادر، وحقّ الرب، يا إيفان الكسندروفيتش! صحيح أنهم يضيفونك ضيافة عظيمة، ولكن الأحسن أن نرحل بأقرب وقت ممكن. هم، في الحقيقة، تصوّروكم شخصاً آخر... والدكم سيفضّب من تأخرنا هذا... كم جميل أن نسرع بالخيل، حقاً! سيعطوننا هنا خيولاً معتبرة، بالتأكيد.

خليستاكوف: (يكتب) حسناً. ولكن احمل هذه الرسالة أولاً،

وفي طريقك خذ استمارة سفر أيضاً. واحرص على أن تكون الخيول جيدة! أخبر الخوذية أنني سأوزع على كل واحد منهم روبلاً فضياً، حتى ينطلقوا كساعي الحكومة، ويغنوا الأغاني أيضاً! (يستمر في الكتابة).. أتصور أن تريايتشكين سيموت من الضحك...

أوسيب: سارسلها مع شخص من عندهم، يا سيدي، فالأحسن أن أتفرغ أنا لإعداد الحقائق، حتى لا يضيع الوقت عبثاً.

خليستاكوف: (يكتب): جيد. ولكن اجلب شمعة.

أوسيب (يخرج ويتكلم وراء المسرح): هاي، اسمع، يا أخ! خذ الرسالة إلى البريد، وقل للأمور البريد أن يقبلها بلا فلوس، ثم أخبره أن يجلب إلى السيد فوراً أحسن ثلاثة خيول، من خيول البريد الحكومي المستعجل. وقل له: السيد لا يدفع أجرة الخيول، لأن المهمة حكومية. وليسرع بكل هذا، وإلا فسيغضب السيد. قف، تمهل، لم تكمل الرسالة بعد.

خليستاكوف (مستمراً في الكتابة): ثرى أين يعيش الآن في شارع البريد أم في شارع الحمص؟ هو أيضاً يجب أن يتنقل كثيراً من سكن إلى آخر، دون أن يدفع الأجرة بالكامل. اكتب على عنوان شارع البريد، تخميناً. (يطوي الرسالة ويكتب العنوان).

(أوسيب يجلب شمعة. خليستاكوف يدمغ الرسالة. في ذلك الوقت يسمع صوت دير جيموردا: «إلى أين، يا أبا لحية؟ قلت لك أمروني أن لا أسمح لأحد بالدخول»).

(يعطي الرسالة لأوسيب): خذ، ابعتها.

أصوات التجار: اسمح لنا، يا حضرة! لن تقدر أن تمنعنا. فقد جئنا في قضية.

صوت دير جيموردا: انصرفوا، انصرفوا! لا يستقبل أحداً. نائم.

(الضوضاء تزداد).

خليستاكوف: ماذا هناك، يا أوسيب؟ انظر ما هذه الضوضاء؟
أوسيب (ينظر من النافذة): تجّار يريدون الدخول، ولكن الشرطي يمنعهم. يلوّحون بأوراق، يبدو أنّهم يريدون مقابلتكم.

خليستاكوف (يقترّب من النافذة): ماذا تريدون، يا أفاضل؟
أصوات التجار: مقابلة حضرتكم، قولوا لهم، يا مولانا، أن يقبلوا العريضة.

خليستاكوف: أدخلوهم، أدخلوهم! ليدخلوا. أوسيب قل لهم ليدخلوا.

(أوسيب يخرج).

(يتلقّى العرائض من النافذة، يسطّ واحدة منها، ويقرأ).
«إلى صاحب النبالة والمقام الرفيع السيّد مدير الخزّانة من التاجر عبدولين....» الشيطان يعرف ما هذا. حتّى هذه الوظيفة لا وجود لها.

المشهد العاشر

(خليستاكوف والتجار ومعهم سلة نبيذ ورؤوس سكر).

خليستاكوف: ماذا، يا أفاضل؟

التجار: عندنا رجاء لسيادتكم.

خليستاكوف: ماذا تريدون؟

التجار: أشفق علينا يا مولانا؟ نتحمل المهانة بدون أي سبب.

خليستاكوف: ممن؟

أحد التجار: من حاكم المدينة هنا؟ لم نشهد مثل هذا الحاكم قط، يا مولانا. يعرضنا لمظالم لا يمكن أن توصف. أنهكنا كلياً بأوامر إيواء الجنود، حتى لا نعرف أين نوليّ بوجوهنا. تصرفاته لا تتناسب مع العطاء. يمسك باللحمية، ويقول: «آه منك، يا تري!» وحقّ الرب! وليتنا أسانا إليه بشيء! بل نقوم بالواجب دائماً. لا نبخل عليه بما ينبغي من الكسوة لزوجته ولا بنته. ولكن كل هذا لا يكفيه، صدّقني! يدخل الدكان، ويأخذ كلّ ما تقع عليه يده. ويرى لفّة الجوخ فيقول: «هذا جوخ فاخر، يا عزيزي، احمله إلى بيتي». وأحمل اللّفّة مضطراً. وفي اللّفّة ما لا يقلّ عن خمسين ذراعاً.

خليستاكوف: معقول؟ آه، أي نصّاب هو!

التجار: والله، لا أحد يتذكّر حاكم لمدينة مثله. حالما نراه نخفي كلّ شيء في الدكان. لأنه لا يقتصر على أخذ الأطايب فقط، بل ينتش أية بضاعة تافهة، حتى الإحاصّ المجفف الذي يظلّ سبعة أعوام وهو في برميله، والذي لا يأكله حتى الخادم، يدسّ حاكمنا يده في البرميل

ويغرف منه غرفة كاملة. ونحن نعرف أن قديسه الشفيع هو أنتون، فتحمل له في عيد هذا القديس أنتون كل ما يخطر وما لا يخطر على البال. ومع ذلك لا يشبع، ويقول قدّموا لي الهدايا في عيد القديس أونوفري أيضاً. فماذا نفعل؟ نقدّم له الهدايا في عيد القديس أونوفري أيضاً.

خليستاكوف: هذا حرامي تماماً.

التجّار: بالضبط، ولكن حاول أن تعترض عليه. فسيفرض عليك إيواء فوج كامل في بيتك. وإذا حصل شيء لا يحبه، يأمر بغلق الباب. يقول: «لن أعاقبك عقاباً جسدياً، أو أعرضك لتعذيب، القانون يحرم ذلك، ولكن سأجعلك تأكل الفسيخ، يا حضرة المحترم...»
خليستاكوف: آه، أي نصّاب هو! هذا يستحقّ النفي إلى سيبيريا رأساً.

التجّار: إلى أي مكان تشاؤون فسيكون ذلك أحسن، فقط أن ينزاح عنا. لا تستكف الخبز والملح، يا مولانا، جئناك بشيء من السكر وسلّة صغيرة من التبيذ.

خليستاكوف: لا، أبعدوا ذلك عن أذهانكم. أنا لا أقبل قط أية رشوة. ولكن لو عرضتم عليّ، مثلاً، أن تقرضوني ثلاثمئة روبل، فإنّ ذلك شيء آخر تماماً. أستطيع قبول القروض.

التجّار: تفضّل، يا مولانا! (يخرجون الفلوس).. ولكن لماذا ثلاثمئة. خذ خمسمئة وساعدنا. تساهل فقط.

خليستاكوف: تفضّلوا، لا اعتراض لي على القروض. سأخذها. التجّار (يحملون له النقود على صينية من فضة): تفضّلوا. خذوا الصينية معها.

خليستاكوف: والصينية ممكن أيضاً.

التجّار (ينحنون): وخذوا السكر دفعة واحدة.

خليستاكوف: لا. لا رشوة على الإطلاق...

أوسيب: يا صاحب النبالة! لماذا لا تأخذونه؟ خذوه! كلّ شيء في السفر ينفع، هاتوا رؤوس السكر، والسلّة! هاتوا كلّ شيء، كلّ شيء سينفع. ماذا هناك؟ جبل؟ هاتوا الجبل هو الآخر، سينفع في السفر. تنكسر العربّة أو ما إلى ذلك. يمكن شدّها به.

التجّار: ابدلوا جهدكم، يا صاحب السيادة. إذا كنتم أنتم لا تقدرون على تحقيق رجائنا، فإننا لا نعرف ماذا نصنع. لا نرى أي مخرج!..

خليستاكوف: حتماً، حتماً، سأحاول.

(التجار يخرجون، يسمع صوت امرأة: «لا، لن تجسر على منعي من الدخول! سأشكوك له، لا تدفعني هكذا، أنت توجعني!»).

خليستاكوف: مَنْ هناك؟ (يقترّب من النافذة).. ماذا بك يا عمة؟

صوتا امرأتين: عطفك يا محترم، رجاء! نرجوكم، يا مولانا أن تسمعونا.

خليستاكوف (عند النافذة): اتركوهما تدخلان.

المشهد الحادي عشر

(خليستاكوف، زوجة السمكري، زوجة ضابط الصف).

زوجة السمكري (تنحني إلى الأرض): استرحم....

زوجة ضابط الصف: أنظلم إليكم...

خليستاكوف: ولكن من أنما؟

زوجة ضابط الصف: أنا إيفانوفنا زوجة ضابط الصف.

زوجة السمكري: أنا فيفرونيا بيتروفنا بوشلييكيينا زوجة السمكري، من أهل هذه المدينة، يا مولانا...

خليستاكوف: على مهلك، قولي أنت أولاً: ماذا تريدن؟

زوجة السمكري: أنظلم إليكم. جئت أشكو من حاكم المدينة! عسى الله أن ينزل عليه مصائب الدنيا كلها! وأن لا يريه أي خير، لا هو، النصاب، ولا أبناءه، ولا أعمامه ولا عمّاته!

خليستاكوف: ولماذا؟

زوجة السمكري: أمر بتجنيد زوجي. مع أن النوبة لم تحل علينا! يا للنصاب حاكم المدينة! والقانون أيضاً لا يجيز تجنيد المتزوج.

خليستاكوف: وكيف أمكن أن يفعل ذلك؟

زوجة السمكري: فعل، النصاب، فعل، عسى الله أن يعذبه في الدنيا والآخرة! وأن يسلط البلايا على عمّته، إذا كانت له عمّة، وأن يمحق المحتال أباه، إذا كان ما يزال حياً، أو يكتم أنفاسه إلى الأبد، النصاب! كان يجب أن يجند ابن الخياط، فهو سكير، ولكن أبويه

أعطياه هدية كبيرة، فتحول إلى ابن بانتليفا، زوجة التاجر. ولكن بانتليفا هذه أرسلت إلى زوجته ثلاث لغات من القماش، فتحول إلي. ويقول لي: «وما حاجتك إلى زوج؟ لا ينفعك الآن» ولكنني أعرف منه إن كان ينفعني أو لا ينفعني. هذا شأني. النصاب! فيقول لي: «إنه لص، وإن كان لم يسرق الآن، ولكنه سيسرق في كل الأحوال. وسيجندونه على كل حال في السنة القادمة». ولكن أي شيء أنا بدون زوج! النصاب! أنا إنسانة ضعيفة، الوغدا عسى الله أن لا يري أهله جميعاً أية نعمة في الدنيا! وإذا كان له حماة ف.....

خليستاكوف: طيب، طيب، وأنت (يسير بالعجوز إلى باب الخروج)..
زوجة السمكري (خارجة): لا تنس، يا مولانا، لتكن بك رحمة!

زوجة ضابط الصف: جئت، يا محترم، لأشكو من حاكم المدينة. خليستاكوف: والسبب؟ ماذا حدث تكلمي باختصار.

زوجة ضابط الصف: جلدني، يا محترم!

خليستاكوف: كيف؟

زوجة ضابط الصف: عن طريق الخطأ، يا مولاي! تشاجرت نسوتنا في السوق وتعاركن، ولكن الشرطة تأخرت في الحضور. فأمسكني. وكالت لي بالصاع والذراع، حتى ظللت يومين لا أستطيع الجلوس.

خليستاكوف: وما العمل الآن؟

زوجة ضابط الصف: لا يجدي أي عمل، بالطبع، ولكن أطلب منه أن يدفع غرامة على الخطأ. ما وقع من نصيبي لا أستطيع رده، ولكن الفلوس ستنفعني الآن نفعاً كبيراً.

خليستاكوف: طَيِّب، طَيِّب! اذهبي اذهبي. سأصدر أمري.

(من النافذة تطلع أيد تحمل عرائض).

خليستاكوف: وَمَنْ بقي هناك؟ (يقترّب من النافذة) لا أريد،

لا أريد! لا لزوم، لا لزوم! (يتعبد). ضجرت، اللعنة! لا تدع أحداً يدخل، يا أوسيب..

أوسيب (يصيح من النافذة): انصرفوا، انصرفوا! فات الوقت،

تعالوا غداً!

(الباب يفتح، ويطلع شخص في معطف من الجوخ الرخيص

الخشن، غير حليق اللحية، متورّم الشفة، مشدود الخدّ، وفي الخلف منه يلوح بعض الشخص).

انصرفوا، انصرفوا، إلى أين؟ (يسند كلتا يديه على كرّش الشخص

الأول، وينقلع معه إلى الرواق، ويصفق الباب خلفه)..

المشهد الثاني عشر

(خليستاكوف و ماريا أنتونوفنا).

ماريا أنتونوفنا: آه!

خليستاكوف: لماذا ارتعبت بهذا الشكل، يا مولاتي؟

ماريا أنتونوفنا: لا، لم أرتعب.

خليستاكوف (يثنى): لطفك يا مولاتي، كم أنا مرتاح، لأنك اعتبرتي الشخص الذي... هل أجروا أن أسألك: إلى أين كنت تنوين أن تذهبي؟

ماريا أنتونوفنا: لم أكن ذاهبة إلى أي مكان، حقاً.

خليستاكوف: ولماذا لم تكوني ذاهبة إلى أي مكان؟

ماريا أنتونوفنا: كنت أفكر هل ماما هنا....

خليستاكوف: لا، أود أن أعرف لماذا لم تكوني ذاهبة إلى أي مكان؟

ماريا أنتونوفنا: أعفتم. كنتم مشغولين بأمور مهمة.

خليستاكوف (يثنى): ولكن عينيك أحسن من الأمور المهمة... لا يمكن أن تعيقني. لا يمكنك بأي شكل من الأشكال. وعلى العكس من ذلك يمكنك أن توفر لي متعة.

ماريا أنتونوفنا: أنتم تتكلمون على طريقة العاصمة.

خليستاكوف: لامرأة رائعة مثلك، هل أجروا أن أسعد بتقديم مقعد لك؟ ولكن لا، أنت تستحقين عرشاً وليس مقعداً.

ماريا أنتونوفنا: حقاً، لا أعرف... كنتُ بحاجة شديدة إلى الذهاب. (تجلس).

خليستاكوف: ما أجمل منديلك!

ماريا أنتونوفنا: أنتم تهزلون. لا يهتمكم إلا أن تضحكوا من بنات الأقاليم.

خليستاكوف: كم أودّ، يا مولاتي، أن أكون منديلك لأطوق عنقك الناصع.

ماريا أنتونوفنا: أنا لا أفهم أبداً، عمّ تتكلمون: منديل.... أي طقس غريب اليوم!..

خليستاكوف: ولكن شفتيك، يا مولاتي، أحسن من أي طقس. ماريا أنتونوفنا: كلامكم دائماً بهذا الشكل... لو أرجوكم أن تكتبوا أبياتاً من الشعر في الألبوم للذكرى. أظنكم تحفظون الكثير من الشعر.

خليستاكوف: كلّ ما تريدونه ميّسر لك، يا مولاتي، اطلبي أي أشعار تحبين.

ماريا أنتونوفنا: أبياتاً جيّدة، جديدة.

خليستاكوف: خذي قدر ما تشائين! أنا أعرف الكثير من الأشعار.

ماريا أنتونوفنا: طيّب، قل لي أي الأشعار ستكتب لي؟

خليستاكوف: وما الحاجة إلى هذا الكلام؟ أنا أعرفها بدون ذلك. ماريا أنتونوفنا: أنا أحبّها كثيراً.

خليستاكوف: وعندي الكثير من أصنافها، طيّب، تفضلي، خذي هذا البيت على الأقل. «أوه، يا إنسان، يا مَنْ تتدّمّر من الربّ، عند الضيم» وأبيات أخرى... لا أستطيع أن أتذكّرها الآن. وعلى

العموم كل ذلك لا يعني شيئاً، الأحسن أن أقدم لك بدلاً من هذا،
حتى الذي من نظرتك... (يقرب المقعد).

ماريا أنتونوفنا: حب! أنا لا أفهم الحب... لم أعرف قط ما هو
الحب.... (تبعد مقعدها).

خليستاكوف: ولماذا تبعدين مقعدك؟ الأحسن أن نجلس عن
قرب.

ماريا أنتونوفنا (تبتعد): ولماذا عن قرب؟ لا يهم عن بعد أيضاً.

خليستاكوف (يقترّب): ولماذا عن بعد؟ لا يهم عن قرب أيضاً.

ماريا أنتونوفنا (تبتعد): ولكن لم هذا؟

خليستاكوف (يقترّب): هذا مجرد توهم منك أنه عن قرب،
ولكن تخيلي أنه عن بعد. كم ساكون سعيداً، يا آنستي، لو أعصركِ
بين ذراعي!

ماريا أنتونوفنا (تنظر من النافذة): ما هذا الذي أحسبه طار هناك؟
عقّفق أم طائر آخر؟

خليستاكوف (يقبّل كتفها، وينظر من النافذة): هذا عقّفق.

ماريا أنتونوفنا (تنهض بحنق): لا، هذا أكثر من اللازم...
وقاحة!...

خليستاكوف (يمسكها): اعذريني، يا آنستي، فعلت ذلك عن
حب، عن حب بالضبط.

ماريا أنتونوفنا: أنتم تعتبرونني من بنات الأقاليم... (تحاول أن
تخرج).

خليستاكوف (ما يزال ممسكاً بها): عن حب، حقاً عن حب.
مجرد مزاح، يا ماريا أنتونوفنا فلا ترعلي، أنا مستعد أن أركع ملتمساً
المغفرة منك. (يركع) اغفري لي، اغفري لي! هذا أنتِ تربتي راکعاً.

المشهد الثالث عشر

(الشخصان ذاتهما مع آنا أندريفنا)

آنا أندريفنا (وقد رأت خليستاكوف راكعاً): آه، ما هذا المنظر!

خليستاكوف (ينهض): اللعنة على الشيطان!

آنا أندريفنا (لابتها): ما يعني هذا، يا آنسة؟ ما هذه التصرفات؟

ماريا أنتونوفنا: أنا، يا ماما...

آنا أندريفنا: اخرجي من هنا، تسمعين، اخرجي، اخرجي! ولا تجسري أن تريني وجهك.

(ماريا أنتونوفنا تخرج دامعة العينين).

اسمحوا لي بصراحة، أنا مندهشة...

خليستاكوف (جانباً): وهي أيضاً للذيذة جداً، مليحة جداً، (يركم) مولاتي، ها أنتِ ترينني أحترق من الحب.

آنا أندريفنا: كيف هذا، تركعون؟ آه، قوموا، قوموا! أرضية الحجرة غير نظيفة كلياً.

خليستاكوف: لا، بل أركع، لا بد أن أركع. أريد أن أعرف ما المكتوب لي، أن أحيأ أو أن أموت.

آنا أندريفنا: ولكن اعذروني، ما أزال غير فاهمة كلماتكم ممماً. أنتم، إذا لم أخطئ، تريدون أن تخطبوا ابنتي.

خليستاكوف: لا، بل واقع في غرامك. حياتي معلقة بشعرة،

وإذا لا تتوجين حبِّي المقيم فلست أهلاً لوجودي على الأرض.
أطلب يدك، واللهب يجتاح صدري.
آنا أندرييفنا: ولكن اسمحوا أن أذكركم بأنني إلى حدّ ما...
متزوجة.

خليستاكوف: هذا لا يعني شيئاً! لا فرق في الحبّ أقال كارامزين
«القوانين تُدان» سنفرّ تحت ضجيج النافورة... أطلب يدك. أطلب
يدك!.

المشهد الرابع عشر

(الشخصان ذاتهما و ماريا أنتونوفنا تدخل راكضة فجأة).

ماريا أنتونوفنا: ماما، بابا قال.... (تصيح بعد أن ترى خليستاكوف راكعاً) آه، ما هذا المنظر!

آنا أندرييفنا: ماذا بك؟ ما هذا الطيش! دخلت فجأة تركضين كالقطة المخبولة. أي شيء مدهش وجدت؟ ماذا خطر في بالك؟ أنت كطفلة في الثالثة، حقاً، لا يبدو عليها إطلاقاً أنها بلغت الثامنة عشرة. لا أدري متى ستكونين أعقل، متى ستصرفين كأنسة على حظ معتبر من الثقافة والتربية، متى ستعرفين ما هي الأصول الحميدة والرصانة في السلوك.

ماريا أنتونوفنا (من خلال الدموع): ماما، في الحقيقة، لم أكن أعرف.....

آنا أندرييفنا: دائماً عندك هوس في رأسك. تأخذين القدوة من بنات ليايكن تيايكن. لماذا تنظرين إليهن؟ لا حاجة لأن تنظري إليهن. عندك قدوات أخرى. أمامك أمك. عليك أن تأخذي بهذه القدوات.

خليستاكوف (بمسك يد الابنة): آنا أندرييفنا لا تقفي في طريق هنائنا. باركي الحب المقيم.

آنا أندرييفنا (بذهشة): يعني واقع فيها؟...

خليستاكوف: قرّري الحياة أم الموت؟

آنا آندريفنا: ها أنتِ ترين، يا حمقاء، ترين، من أجلكِ، يا حثالة،
تفضّل الضيف فركع. بينما أنتِ دخلتِ راکضة فجأة، كالمخبولة،
أنتِ في الحقيقة تستحقّين أن أرفض عن عمد، أنتِ لا تستأهلين هذه
السعادة.

ماريا أنتونوفنا: لن أفعل، يا ماما، لن أفعلها مرّة أخرى، حقيقة.

المشهد الخامس عشر

(نفس الأشخاص، وحاكم المدينة في عجالة واضطراب).

حاكم المدينة: يا صاحب السيادة لا تتشددوا معي!

خليستاكوف: ماذا بك؟

حاكم المدينة: التجار اشتكوا سيادتكم. أقسم لكم بشرفي لا وجود حتى لنصف ما يقولونه. هم أنفسهم يحتالون ويفشون الناس. وزوجة ضابط الصف كذبت عليكم حين زعمت أنني جلستها. إنها تكذب، وحق الرب، تكذب، هي التي جلست نفسها، بنفسها.

خليستاكوف: دعني من زوجة ضابط الصف. لا يهمني شأنها!

حاكم المدينة: لا تصدقوا بهم، لا تصدقوا! هؤلاء كذابون.. حتى الطفل الصغير لا يصدق بهم. المدينة كلها تعرف أنهم كذابون. أما بخصوص النصب، فأجروا على القول إن هؤلاء نصّابون لم يشهد العالم لهم مثيلاً.

آنا أندرييفنا: هل تدري أي شرف بمنحنا إيفان الكسندروفيتش؟ يطلب يد ابنتنا.

حاكم المدينة: قفي عند حدك!.. تخيلت، يا ست! لا تغضبوا، يا صاحب السيادة! فيها شيء من اللوثة، مثلما كانت أمها.

خليستاكوف: نعم، بالضبط، أطلب يدها. أنا عاشق.

حاكم المدينة: لا يمكن أن أصدق، يا صاحب السيادة.

آنا أندرييفنا: هذا ما يقولونه لك!

خليستاكوف: لست مازحاً في كلامي لك... يمكن أن يسلب الحب عقلي.

حاكم المدينة: لا أجرو أن أصدق أنني أهل لمثل هذا الشرف.

خليستاكوف: وإذا كنت غير موافق على أن تعطيني يد ماريأ أنتونوفنا فالشيطان وحده يعرف أنني مستعد....

حاكم المدينة: لا يمكن أن أصدق. أنتم عمزحون، يا صاحب السيادة!

آنا أندرييفنا: دماغ ناشف بالضبط. إذا كانوا يقولون لك.

حاكم المدينة: لا يمكن أن أصدق.

خليستاكوف: وافق، وافق. أنا إنسان نزيق، أقدم على كل شيء، إذا أطلقت النار على نفسي ستقدم إلى المحكمة.

حاكم المدينة: آه، يا إلهي! لست، والحق، ملوماً في هذا لا بالقلب ولا بالجسد، لا تغضبوا، ولكم أن تصرفوا كما تشاؤون. فإن في رأسي الآن، في الحقيقة أنا نفسي لا أعرف ماذا يحصل. صرت بليداً إلى حد لم أكن عليه من قبل.

آنا أندرييفنا: طيب، بارك!

(خليستاكوف يقترب مرافقاً ماريأ أنتونوفنا).

حاكم المدينة: الله يبارككما، وما أنا بمعلوم!

(خليستاكوف و ماريأ أنتونوفنا يتبادلان القبيل. حاكم المدينة ينظر إليهما).

أي شيء هذا! في الواقع! (يفرك عينيه) يتبادلان القبيل! آه، يا أولياء، يتبادلان القبيل! خطيب حقيقي! (يصيح، وهو يقفز من الفرحة).. حلوا، يا أنتون! حلوا يا أنتون! حلوا، يا حاكم المدينة! هذه في النتيجة!

المشهد السادس عشر

(نفس الأشخاص وأوسيب).

أوسيب: الخيول جاهزة.

خليستاكوف: آه، طيب... أنا حالاً.

حاكم المدينة: كيف؟ تسافرون؟

خليستاكوف: نعم، أسافر.

حاكم المدينة: ومتى يعني... أتم أنفسكم، أظنّ، لمَحتَم إلى

الرفاف؟

خليستاكوف: ولكن هذا... لدقيقة واحدة فقط... ليوم واحد

إلى عمّي، العجوز الثري، وغداً سأعود.

حاكم المدينة: لا نجرؤ على إعافتكم، أملاً في عودة ميمونة.

خليستاكوف: بالطبع، بالطبع، بسرعة البرق، مع السلامة، يا

حبّي... لا، غير قادر على التعبير! مع السلامة، يا روجي! (يقبّل

يدها)..

حاكم المدينة: ألا تحتاجون شيئاً للطريق؟ ربما تحتاجون إلى فلوس؟

خليستاكوف: لا، أبداً، ولم هذا؟ (بعد تفكير قصير).. على

العموم ممكن.

حاكم المدينة: كم تريدون؟

خليستاكوف: أعطيتموني مائتين، أقصد أربعمئة لا مائتين،

لا أريد أن أستغلّ خطأك. والآن، أعتقد نفس المبلغ، ليصير ثمانئة

بالضبط.

حاكم المدينة: حالاً!.. (يخرج من محفظته النقود).. وهذه خصيصاً أجّد النقود الورقية.

خليستاكوف: أي، نعم! (يأخذ النقود ويعاينها) هذا لطيف. يقولون النقود الورقية الجديدة تجلب سعادة جديدة.

حاكم المدينة: بالضبط.

خليستاكوف: مع السلامة، يا أنتون أنتونوفيتش! ا ممنون جداً على حسن الضيافة. وأعترف بكل قلبي: لم أحظ أبداً بمثل هذا الاستقبال اللطيف في أي مكان، مع السلامة، يا أنا أندريفنا: مع السلامة، يا روجي يا ماريا أنتونوفنا:

(يخرج الجميع).

(من وراء المسرح).

صوت خليستاكوف: مع السلامة، يا ملاك روجي، ماريا أنتونوفنا.

صوت حاكم المدينة: كيف هذا منكم؟ هل تسافرون على عربية يريد اعتيادية؟

صوت خليستاكوف: نعم، تعودت على ذلك. يصيني صدا ع من العربية ذات النوايض.

صوت الخوذي: تررر....

صوت حاكم المدينة: على الأقل لو فرشت بشيء، ولو ببساط صغير، هل أمر يجلب بساط؟

صوت خليستاكوف: لا، ولماذا؟ لا أهمية لذلك، ولكن على العموم، ممكن، ليجلبوا بساطاً.

صوت حاكم المدينة: يا أفدوتيا! اذهبى إلى حجرة المتاع، واخرجي منها أحسن بساط، الفارسي، الأزرق، أسرع!

صوت الحوذي: تررررر...

صوت حاكم المدينة: متى سنتظر كم؟

صوت خليستاكوف: غداً أو بعد «غدرون».

صوت أوسيب: آ... هذا بساط؟ هاتيه إلى هنا، افرشيه هكذا!
والآن لنضع التبن من هذا الجانب.

صوت الحوذي: ترررررر....

صوت أوسيب: من هذا الجانب! إلى هنا! أكثر! كفاية! ستكون
مريحة جداً! (يضرب البساط بيده). والآن، اجلس يا صاحب النبالة.

صوت خليستاكوف: مع السلامة، يا أنتون أنتونوفيتش.

صوت حاكم المدينة: مع السلامة، يا صاحب السيادة!

صوتان نسائيان: مع السلامة، يا إيفان ألكسندروفيتش!

صوت خليستاكوف: مع السلامة، يا ماما!

صوت الحوذي: هيّا، يا خفاف!

(صوت جرس، الستارة تنزل).

الفصل الخامس

(نفس الحجر).

المشهد الأول

(حاكم المدينة، أنا أندريفنا، ماريا أنتونوفنا).

حاكم المدينة: ماذا، يا أنا أندريفنا؟ ها؟ هل خطر ذلك على بالك؟ أية جائزة ثمينة، يا للجنة! اعترف بصراحة أن ذلك لم يراودك حتى في الحلم. مجرد زوجة حاكم مدينة وفجأة.... يا للجنة! ... مع مَنْ تناسب!

أنا أندريفنا: على العكس تماماً كنت أعرف ذلك منذ زمان! أنت الذي انبهرت به، لأنك رجل بسيط، لم تر الناس المعتبرين قط.

حاكم المدينة: أنا نفسي إنسان معتبر، يا ستي. ومع ذلك، يا أنا أندريفنا، إلى أين حلّقنا أنا وأنتِ! ها يا أنا أندريفنا؟ تخلّيق عالية، وحقّ الشيطان! لينظروا الآن كيف سأشيط كل هؤلاء المحبّين لتقديم الشكاوى والوشايات! هاي، يا مَنْ هناك.

(يدخل شرطي).

هذا أنت، يا إيفان كاربوفيتش! استدع التجار إلى هنا، يا أخ، سأري هؤلاء المحتالين! يتشكّون مني؟ هكذا يتصرفون، يا خونة المسيح الملاعين! انتظروا يا حلّوين! من قبل كنتُ أكيل لكم بالصاع،

والآن ساكيل لكم بالصاع والذراع. سجّل كلّ الذين كانوا يأتون
للتشكّي منّي، وفي المقدّمة أولئك الذين شخبطوا له العرائض،
والشكاوى وأبلغ الجميع ليعرفوا ما أرسل الربّ من فضل على حاكم
المدينة ليزف ابته لا إلى رجل بسيط، بل إلى رجل لم تر الدنيا مثيلاً
له من قبل، قادر على أن يفعل كلّ شيء، كلّ شيء، كلّ شيء! أبلغ
الجميع ليعرفوا ذلك. اهتف في الناس جميعاً، دقّ الناقوس، ياه! إذا
حلّ عيد، فاهلاً به.

(الشرطي يخرج)

هكذا إذاً، يا آنا أندريفنا: ها؟ أين سنعيش الآن؟ هنا أم في
بطرسبورغ؟

آنا أندريفنا: طبعي في بطرسبورغ. وكيف يمكن أن نبقى هنا!
حاكم المدينة: ما دام في بطرسبورغ، فليكن في بطرسبورغ ولو
أن العيش طيّب، هنا أيضاً، في هذه الحال ليذهب منصب حاكمية
المدينة إلى سقر، ها، يا آنا أندريفنا؟

آنا أندريفنا: طبعي، وما قيمته!

حاكم المدينة: لأنّ في الإمكان الآن اقتناص وظيفة كبيرة، لأنّه
على قدم المساواة مع جميع الوزراء، ويزور القصر أيضاً، ولهذا يمكنه
أن يرقّي ترقية كبيرة، حتّى أصل إلى رتبة جنرال. مرور الزمن. ما
رأيتك، يا آنا أندريفنا، هل يمكن الوصول إلى رتبة جنرال؟..

آنا أندريفنا: وكيف لا! ممكن، بالطبع.

حاكم المدينة: ياه، روعة أن يصير الإنسان جنرالاً فيعلّقون وشاح
وسام على كتفه. أي وشاح تفضّلين، يا آنا أندريفنا: أحمر أم أزرق؟
آنا أندريفنا: أزرق، بالطبع.

حاكم المدينة: ها؟ بالغت في مطلبك! الأحمر أيضاً جيّد. هل

تعرفين لماذا أريد أن أصير جنرالاً؟ لأنه يحدث أن يسافر الجنرال فلا يرى أمامه غير رُسل الحكومة والمرافقين يسبقونه يطلبون الخيول. بينما في المحطات لا يعطون الخيول إلا لهم، والجميع ينتظرون. كل هؤلاء الموظفين الصغار والضباط برتبة رائد، وحكام المدن. بينما لجنرال مطمئن البال. يتناول غداءه عند حاكم الولاية، أما أنت، يا حاكم المدينة، فابق في مكانك وانتظرا ها، ها، ها (يعرق في الضحك). يا للجنة هذا شيء مغر!

آنا أندرييفنا: أنت مولع بالفج دائماً. عليك أن تتذكر أن عليك أن تغير حياتك كلياً، فلا تصاحب قاضياً مولعاً بالكلاب تخرج لاصطياد الأرانب معه، أو زميلانيكابل على العكس سيكون أصحابك من ذوي السلوك الرقيق، الكوننات وكل وجهاء القوم.... ولكنتي خائفة عليك، حقاً. أنت أحياناً تنفوه بكلمة لن تسمعها أبداً في المجتمع الراقي.

حاكم المدينة: ثم ماذا؟ الكلمة لا تضر.

آنا أندرييفنا: هذا صحيح، حين كنت حاكم المدينة ولكن الحياة مختلفة تماماً هناك.

حاكم المدينة: نعم، يقولون هناك صنفان من السمك يجعلان لعابك يسيل، حالما تبدئين بالأكل.

آنا أندرييفنا: لا هم له غير السمك. بينما أريد أن يكون بيتنا الأول في العاصمة، وأن تفوح رائحة العنبر في حجرتي بشكل لا يستطيع الإنسان أن يدخل فيها دون أن يقلص عينيه هكذا (تقلص عينيها وتشمم). آه، ما أطفه!..

المشهد الثاني

(الشخصان ذاتهما مع التجار).

حاكم المدينة: آ... مرحباً، يا أحباب!

التجار (ينحنون): حياكم الله، يا مولانا!

حاكم المدينة: كيف الأحوال، يا أعزائي! كيف تسير تجارتكم؟ شكوتم يا خاملون يا خردوات؟ يا جذور النصب، وثعالب الاحتيال، وأوباش الخداع! شكوتم؟ وهل حصلتم على الكثير؟ تتصورون أنكم ستزججونني في السجن! هل تعرفون، يا نسل الشياطين، يا ضرع الجرب أن...

آنا آندرييفنا: آه، يا إلهي، ما هذه الكلمات التي تقولها، يا عزيزي أنتون!

حاكم المدينة (باستياء): لستُ معنياً بالكلمات الآن! هل تعرفون أن الموظف الذي شكوتم عنده سيتزوج ابنتي الآن؟ ها؟ ماذا؟ ماذا تقولون الآن؟ سأريكم الآن... تحتالون على الناس... تعقدون مقابلة لتزويد الحكومة، فتخدعونها بمئة ألف، حين تدسّون لها جوخاً متهزئاً، وبعد ذلك تتنازلون بعشرين ذراعاً هبة، وفوق ذلك تطالبون بوسام؟ آه، لو كانوا يعرفون، إذا... الواحد منهم ينفخ كرشه ليقول أنا تاجر، فلأعمسني. «نحن لا نقل شأننا حتى عن النبلاء.» ولكن النبيل... آه، الأوغادا النبيل يدرس العلوم، وإذا جلدوه في المدرسة، فذلك عن فائدة، ليعرف ما هو النافع. وأنتم؟ تبدوون حياتكم محتالين، وصاحب المال يضربكم إذا لم تحسنوا

الاحتياال ومنذ الصغر، وقبل أن تعرفوا «أبانا الذي في السماوات!» تطفون بالذراع، وحالما تكبر كروشكم، ومتملى جيوبكم بالمال، تختالون عظمة! تفو عليكم أبة عظمة هذه! تختالون عظمة، لأن الواحد منكم يشرب ستة عشر سماءوراً من الشاي في اليوم؟ بصقة على رؤوسكم وعلى عظمتكم!

التجار (ينحبون): مذبون، يا أنتون أنتونوفيتش!

حاكم المدينة: تشتكي؟ من ساعدك على الغش، حين بنيت جسراً، وسجلت عشرين ألف قيمة خشب، بينما لم يكلفك الخشب حتى مئة روبل؟ أنا الذي ساعدتك، يا ذقن العنزة! هل نسيت هذا؟ لو شهدت بذلك عليك، لأمكن أن تُنفي أنت أيضاً إلى سيبيريا. ما رأيك؟ ها؟

أحد التجار: مذبون أمام الرب، يا أنتون أنتونوفيتش. وسوس لنا الشيطان. ولن نشكو بعد الآن ونعاهدك على ذلك. خذ أي تعويض ولكن لا تغضب!

حاكم المدينة: لا تغضب الآن اركع أنت على قدمي. ولماذا؟ لأن كفتي هي التي رجحت. ولو كان الرجحان مال إلى كفتك قليلاً، لكنت، أيها النصاب، مرغتني بالوحل، بل ودست على خنقي.

التجار: (يكبون على قدميه). لا تشدد معنا، يا أنتون أنتونوفيتش!

حاكم المدينة: لا تشدد! الآن لا تشدد! وقبل؟ كنت سأريكم... (يلوح بذراعه). ولكن ليسا محكم الرب! كفى! أنا لا أضمر حقداً لأحد. ولكن خذوا حذركم الآن! أنا لا أزوج ابنتي لنيل اعتيادي. فلتكن التبريكات على قد المقام... فاهمون؟ لا دفع الشر بسمكة سلمون مملحة أو رأسلاً سكر... طيب، اخرجوا، عفا الله عنكم!.. (التجار يخرجون).

المشهد الثالث

(نفس الأشخاص، و أموس فيدروفيتش وأرتيمي فيليوفيتش وبعد ذلك راستاكوفسكي).

أموس فيدروفيتش (وهو ما يزال عند الباب): هل أصدق بالشائعات يا أنتون أنتونوفيتش؟ صحيح أن سعادة غير مألوفة هلت عليك؟

أرتيمي فيليوفيتش: أشرّف بالتهنئة بهذه السعادة غير المألوفة. فرحت من كل قلبي، حين سمعت. (يلثم يد آنا أندريفنا). آنا أندريفنا! (يلثم يد ماريا أنتونوفنا). ماريا أنتونوفنا!

راستاكوفسكي (يدخل): تهاني. يا أنتون أنتونوفيتش! أطال الله عمركم وعمر الزوجين الجديدين، ومنحكم ذرية كثيرة، أحفاداً! آنا أندريفنا! (يلثم يد آنا أندريفنا).. ماريا أنتونوفنا (يلثم يد ماريا أنتونوفنا).

المشهد الرابع

(نفس الأشخاص وكوروبكين وزوجته، وليوليو كوف).

كوروبكين: أتشرف بالتهنئة، يا أنتون أنتونوفيتش. ! أنا أندرييفنا
(يلثم يد آنا أندرييفنا). ماريّا أنتونوفنا! (يلثم يد ماريّا أنتونوفنا).
زوجة كوروبكين: أهنتك من كلّ قلبي، يا آنا أندرييفنا بالسعادة
الجديدة.

ليوليو كوف: أتشرف بالتهنئة، يا آنا أندرييفنا (يلثم يدها، وبعد
ذلك يدير وجهه إلى المتفرّجين، ويتمطّق بلسانه إمارة على الجسارة).
ماريّا أنتونوفنا. ! أتشرف بالتهنئة. (يلثم يدها، ويدير وجهه إلى
المتفرّجين بنفس الإمارة)..

المشهد الخامس

(عدد كبير من الضيوف في السترات الرسمية والفراخ يلثمون في البداية يد آنا أندرييفنا قائلين: «آنا أندرييفنا!» وبعد ذلك يد ماريا أنتونوفنا قائلين: «ماريا أنتونوفنا»).

(شق بوبتشينسكي ودوبتشينسكي طريقهما بين الضيوف).
بوبتشينسكي: أشرّف بالتهنئة.

دوبتشينسكي: أنتون أنتونوفيتش، أشرّف بالتهنئة!

بوبتشينسكي: بالخير واليمن!

دوبتشينسكي: آنا أندرييفنا!

بوبتشينسكي: آنا أندرييفنا!

(الاثنان يتقدّمان في وقت واحد فيتصادمان بالجبين).

دوبتشينسكي: ماريا أنتونوفنا! (يلثم يدها). أشرّف بالتهنئة.

سترين عزّاء، عزّاء كبيراً، وتلبسين ثوباً مذهّباً، وتاكلين أصنافاً مختلفة من الحساء المترّف، وستقضين وقتاً غاية في المتعة.

بوبتشينسكي: (يقاطعه) ماريا أنتونوفنا أشرّف بالتهنئة! كتب

الله لك كلّ الثراء والمال النفيس وطفلاً صغيراً بهذا القَدّ (يشير بيده)

حتّى يمكن أن يوضع على الكفّ، نعم! وطوال الوقت يصيح: واع! واع!

واع! واع!...

المشهد السادس

(بعض الضيوف الآخريين يلثمون أيدي المرائين، لوكا لو كيتش وزوجته).

لوكا لو كيتش أتشرف....

زوجة لوكا لو كيتش (تسبق زوجها راكضة). أهتلك، يا آنا

آندريفنا!

(تقبلها).

كم فرحت حقاً، يقولون لي «آنا آندريفنا تزوج ابنتها». فأقول في نفسي: «آه، يا إلهي!» وفرحت كثيراً، وأقول لزوجي: «اسمع، يا لوكا لو كيتش العزيز ما أسعد حظّ آنا آندريفنا.!» وأقول لنفسي: «طيب، حمداً لله!» وأقول له: «أنا في غاية الابتهاج تحرقني اللهفة لأعرب لآنا آندريفنا شخصياً.... وأقول لنفسي: «آه، يا إلهي! آنا آندريفنا بالفعل كانت تنتظر زيجة موفقة لابنتها، والآن جاء هذا الحظّ. تحقّق ما كانت تريده بالضبط». وفرحت بالفعل فرحة شلّت لساني، فأبكي، وأبكي، وتأخذني العبرة فأنتحب ممّاماً. ويقول لوكا لو كيتش «لماذا تنتحبن، يا عزيزتي؟» فأقول: «يا عزيزي أنا نفسي لا أدري ولكن الدموع تفيض من عيني أنهاراً».

حاكم المدينة: أرجوكم حارّ الرجاء، يا سادة، أن تجلسوا! يا ميشكا، اجلب مقاعد أكثر.

(الضيوف يجلسون).

المشهد السابع

(نفس الأشخاص، رئيس الشرطة، رجال الشرطة).

رئيس الشرطة: أتشرف بتهنئتك، يا صاحب النبالة، وأتمنى اليمن والرفاه لسنين طويلة!

حاكم المدينة: شكراً، شكراً، أرجو أن تجلسوا يا سادة.
(الضيوف يتخذون مقاعدهم).

أموس فيدروفيتش: ولكن قل لي، أرجوك، يا أنتون أنتونوفيتش.
كيف بدأ كل هذا، مجرى كل هذا، أقصد، مجرى الأمر، بالتسلسل.
حاكم المدينة: مجرى الأمر استثنائي. هو الذي طلب يدها من
تلقاء نفسه.

آنا أندرييفنا: بطريقة مهذبة جداً، وغاية في الرقة. ظل يتكلم
بفصاحة استثنائية. يقول: «أنا، يا آنا أندرييفنا من احترامي فقط
لمكارمكم...»، رجل رائع مثقف بأنبيل الأصول! «نقي، يا آنا
آندرييفنا أن الحياة بالنسبة لي شيء نافه، مجرد أنني أحترم خصالكم
النادرة».

ماريا أنتونوفنا: آه، ماما! هذا الكلام قاله لي.

آنا أندرييفنا: قفي عند حدك، أنست لا تعرفين شيئاً، فلا تتدخل
بما لا يعنيك! «آنا أندرييفنا مندهش، يا آنا أندرييفنا...» كان يتدفق
بمثل هذه الكلمات المريحة للنفس.... وحين أردت أن أقول: «لا
يمكن أن نجراً على الطموح إلى مثل هذا الشرف»، ركع فجأة،
وبطريقة غاية في النبيل: «يا آنا أندرييفنا لا تجعليني تعيساً! وافقي على

الاستجابة لمشاعري، وإلا فسأنهي حياتي».

ماريا أنتونوفنا: حقاً، يا ماما، هذا الكلام قاله عني.

آنا أندرييفنا: نعم، بالطبع... وعنك أيضاً، وأنا لا أنكر هذا قطّ.

حاكم المدينة: بل وأفزعنا، حين صار يقول: سأطلق الرصاص على نفسي. هكذا: «سأرمي نفسي، سأرمي نفسي!».

الكثير من الضيوف: عجيب!

أموس فيدروفيتش: حكاية عجيبة!

لوكا لوكيتش: حقاً، هكذا أراد القدر.

أرتيمي فيليوفيتش: ليس القدر فالقدر أعمى، ولكنها المؤهلات. (جانباً) الحظّ دائماً يضع اللقمة في فمّ من لا يستحقّها.

أموس فيدروفيتش: أعتقد، يا أنتون أنتونوفيتش. أنني سأبيعك الكلب الذي أردت أن تشتريه.

حاكم المدينة: لا، لا تهمني الكلاب الآن.

أموس فيدروفيتش: لا تريد هذا، تعال نتفق على كلب آخر، إذاً.

زوجة كوروبكين: آه، يا آنا أندرييفنا كم أنا مسرورة بسعادتك! لا يمكن أن تتصوّرني.

كوروبكين: أين الضيف المبحّل الآن، إذا سمحتم أن نعرف؟ سمعت أنّه سافر لغرض ما.

حاكم المدينة: نعم، سافر ليوم واحد. في شأن غاية الأهمية.

آنا أندرييفنا: إلى عمّه يطلب مباركته.

حاكم المدينة: يطلب مباركته، ولكنه غداً... (يعطس).

(التمنيات بالصحة^(١) تنصب في طنين واحد)

شكراً كثيراً! ولكته غداً سيعود... (يعطس)

(طنين التمنيات، تسمع من خلاله أصوات أقوى).

صوت مدير الشرطة: عامر الصحة، يا صاحب النبالة.

صوت بوبتشينسكي: مئة عام من العمر، وشليفاً من الذهب.

صوت دوبتشينسكي: أطال الله عمرك!

صوت أرتمي فيليوفيتش: في داهية!

صوت زوجة كوروبكين: يخطفك الشيطان!

حاكم المدينة: شكراً جزيلاً! أتمنى لكم نفس التمنيات.

آنا أندرييفنا: ننوي الآن الإقامة في بطرسبورغ. الهواء هنا،

بصراحة، قروي أكثر من اللازم!... إزعاج كبير، بصراحة...

وزوجي أيضاً سيحصل هناك على رتبة جنرال.

حاكم المدينة: نعم، بصراحة، يا سادة، أودّ من كلّ قلبي أن أكون

جنرالاً، وحقّ الشيطان.

لوكا لوكيتش: طيب، جعل الله هذه الرتبة من نصيبك.

راستاكوفسكي: إذا كان الإنسان غير قادر، فالله قادر.

أموس فيدروفيتش: أمام المركب الكبير رحلة كبيرة.

أرتمي فيليوفيتش: لكل ما يستحقه.

أموس فيدروفيتش: (جانباً). أعجوبة، لو يصير جنرالاً بالفعل!

لأنّ الجنرالية تليق به، بقدر ما يليق السرج ببقرة! ولكن، لا يا أخ، ما

(١) عندما يعطس الإنسان يقال له، حسب العادة الروسية القديمة: «مشافي» أو

«عندك العافية» المترجم.

يزال الشوط بعيداً. هناك مَنْ أكثر جدارة منك، ولم يصيروا جنرالات حتى الآن.

أرتيمي فيليوفيتش: (جانباً) أوه، عليه اللعنة، يرنو إلى الجنرالية! ولكن مَنْ يدري فقد يصير جنرالاً، لأنّ له، الملعون، ما يكفي من العظمة. (يخاطبه). إذاً، يا أنتون أنتونوفيتش. لا تنسنا، نحن أيضاً. أموس فيدروفيتش: وإذا حصل شيء، كأن نحتاج إلى مساعدة في أشغالنا، فلا تركنا بلا حمايتك.

كوروبكين: في السنة القادمة سأخذ ابني إلى العاصمة بخدمة الدولة، فاعمل معروفاً، واشمله برعايتك. وكن في مقام أبيه الغائب. حاكم المدينة: أنا مستعدّ من ناحيتي، مستعدّ لأبذل الجهد. آنا أندريفنا: أنت، يا عزيزي، دائماً مستعدّ لبذل الوعود. أولاً، لن يكون لك الوقت للتفكير بذلك. فكيف يمكن، وبأي موجب، ترهق نفسك بهذه الوعود.

حاكم المدينة: ولماذا، يا روحي؟ يمكن أحياناً. آنا أندريفنا: يمكن، بالطبع، ولكن الرعاية لا تقدّم لكل من هبّ ودبّ.

زوجة كوروبكين: هل سمعتم كيف تنظر إلينا؟ إحدى النساء: كانت دائماً بهذا الشكل، أنا أعرفها. إذا أجلسها إلى مائدة، وضعت عليها رجلها أيضاً...

المشهد الثامن

(نفس الأشخاص، يدخل مأمور البريد باستعجال وفي يده رسالة مفضضة).

مأمور البريد: أمر مذهل، يا سادة! الموظف الذي حسبناه مفتشاً عاماً. لم يكن مفتشاً عاماً.

الجميع: كيف لم يكن؟

مأمور البريد: لم يكن مفتشاً عاماً على الإطلاق. وقد عرفت ذلك من الرسالة.

حاكم المدينة: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ من أي رسالة؟

مأمور البريد: من رسالة بخط يده. جاءوا بهذه الرسالة إلي في البريد. وأنظر إلى العنوان فأرى «إلى شارع البريد».

فشعرت بمثل ديب النمل في جسمي، وقلت لنفسي: «آها، أظنه عثر على خروق في قسم البريد، فكتب يبلغ الرئاسة». وفككت الختم.

حاكم المدينة: كيف فعلت هذا؟

مأمور البريد: أنا نفسي لا أدري، قوة شريرة دفعتني.

وكنت قد دعوت رسولاً ليحمل الرسالة على جناح السرعة. ولكن فضولاً قوياً استولى عليّ، لم أشعر بأنني لن أصمد ولن أقاوم، هناك شيء يغريني ويغريني! في إحدى أذني أسمع هاتفاً يقول لي: «يا أنت لا تفكها. سيُقضى عليك، كما يُقضى على دجاجة»؛ وفي الأذن الأخرى أسمع شيطاناً يهمس لي: «فكها، فكها، فكها»!

وحالما ضغطت على شمع الختم، حتّى أحسست بالنار في عروقي.
ولكنني فضضته. وشعرت بقشعريرة، وحقّ الربّ، بقشعريرة.
ويداي ترتعشان وكل شيء غام.

حاكم المدينة: ولكن كيف تجاسرت على فض رسالة شخصية
مفوّضة مثله؟

مأمور البريد: هذه هي المسألة، ليس هو مفوّضاً، ولا شخصية.

حاكم المدينة: ومن هو، إذًا، في اعتقادك؟

مأمور البريد: لا بالعين، ولا بالنفیر. الشيطان يعلم أي شيء هو!
حاكم المدينة (مغتاظاً): كيف لا بالعين ولا بالنفیر؟ كيف تجسر أن
تعتقه لا بالعين ولا بالنفیر؟ وتقول أيضاً الشيطان يعلم أي شيء هو؟
سأعتقلك...

مأمور البريد: من؟ أنت؟

حاكم المدينة: نعم، أنا!

مأمور البريد: باعك قصير، فلا يصل!

حاكم المدينة: هل تعرف أنه سيتزوج ابنتي، وأنني أنا سأصير
صاحب مقام كبير، وأزجلك حتّى في سيبريا؟

مأمور البريد: آه، يا أنتون أنتونوفيتش. أي سيبريا؟ سيبريا بعيدة.
الأحسن أن أقرأ لك. أيها السادة! هل تسمحون بأن أقرأ الرسالة؟

الجميع: اقرأ، اقرأ!

مأمور البريد (يقرأ): «أسرع بأن أبلغك، يا عزيزي تريبائتشكين،
بالعجائب التي وقعت لي، في الطريق نظفني رائد مشاة من كلّ
نقودي، حتّى أن صاحب الحانة أراد أن يرسلني إلى السجن.
وفجأة، ومن سحتني البطرسبورغية ومن بزّتي تحسبني المدينة كلّها
جنراً والياً... وأنا الآن أعيش في بيت حاكم المدينة وأتمتع بلذائذ

الحياة وأغازل زوجته وابنته، كما أشتهي، سوى أنني لم أقرر بعد
 بمن أبدأ. وأظنني سأبدأ بالأم، لأنها، كما يبدو، مستعدة في الحال
 لكل الخدمات، هل تذكر كيف أصابنا الفقر، فكنا نتغذى متطفلين،
 وذات مرة أمسكني حلواني من تلايبي، بسبب قطع الحلوى التي
 أكلتها على حساب ملك الإنقليز؟ الآن تختلف الحال تماماً. الجميع
 يقرضونني المبالغ التي أريدها. نماذج عجيبة. تجعلك تموت من
 الضحك. أنا أعرف أنك تكتب مقالات، فادخل هذه النماذج في
 أدبك. أولاً: حاكم المدينة: أبله مكعب....»

حاكم المدينة: غير ممكن! لا وجود لهذا في الرسالة.

مأمور البريد: (يشير إلى الرسالة). اقرأ بنفسك.

حاكم المدينة (يقرأ): «مكعب» غير ممكن! أنت كتبت هذا.

مأمور البريد: وكيف أمكن أن أكتب؟

أرتيمي فيليوفيتش: اقرأ.

لوكا لوكيتش: اقرأ.

مأمور البريد (يستأنف القراءة): «حاكم المدينة: أبله مكعب...»

حاكم المدينة: أوه، اللعنة! لازم أن يعيدها أيضاً؟ وكأن ذلك غير

موجود فيها أصلاً.

مأمور البريد (يستمر في القراءة): ... إحسم.... إحسم....

إحسم.... «مكعب. ومأمور البريد رجل طيب أيضاً....» (يتوقف

عن القراءة). طيب، عني أيضاً يوجد تعبير غير محتشم.

حاكم المدينة: لا، اقرأه!

مأمور البريد: ولكن ما الجدوى؟

حاكم المدينة: لا، عليك اللعنة، إذا كنت تقرأ، فاقرأ كل شيء!

أرتيمي فيليوفيتش: اسمحوا أن أقرأ أنا. (يضع نظارته، ويقرأ)،
«مأمور البريد: نسخة طبق الأصل من حارس المديرية ميخيف.
الذيل سكر أصيل، كما أعتقد.»

مأمور البريد (نحو المتفرجين): أوه، صبي حقير، يستحق الجلد،
ولا أكثر..

أرتيمي فيليوفيتش: (مواصلاً القراءة) «راعي المؤسسات الخيرية
... ي... ي... ي... ي...» (بصيه حصر في الكلام)..

كوروبكين: ولماذا توقفت؟

أرتيمي فيليوفيتش: الخطّ غير واضح. على العموم يبدو أنه
سافل.

كوروبكين: هاتها لي! أظنّ بصري أقوى! (يمسك الرسالة).

أرتيمي فيليوفيتش: (لا يتركها له).. هذا الموضوع يمكن أن يفوّت،
وبعده يصير الخطّ واضحاً.

كوروبكين: ولكن اسمح. أنا أعرف.

أرتيمي فيليوفيتش: أقدر أن أقرأ أنا أيضاً. يتوضّح الخطّ بعد
ذلك، بالفعل.

مأمور البريد: لا، إقرأ كلّ شيء! السابق كلّهُ قُرئ.

الجميع: أعطها، يا أرتيمي فيليوفيتش: أعطِ الرسالة،
(لكوروبكين). إقرأها.

أرتيمي فيليوفيتش: الآن. (يعطي الرسالة).. خذها.... (يغطيها
بإصبعه).. إقرأ من هنا.

(الجميع يتقدّمون منه).

مأمور البريد: إقرأ، إقرأ! سخافة، إقرأ كلّ شيء!

كوروبكين (يقرأ): «راعي المؤسسات الخيرية زيملانيكا خنزير حقيقي في قُبعة مدوَّرة»

أرتيمي فيليوفيتش: (إلى المتفرّجين). تنقصه الحذاقة في التعبير! هل يوجد خنزير في قُبعة مدوَّرة؟

كوروبكين (مستمرّاً في القراءة): «ناظر المدرسة مشبّع كلّية برائحة البصل».

لوكا لوكيتش (إلى المتفرّجين): قسمّاً بالله، لم أضع البصل في فَمِّي قطّ.

أموس فيدروفيتش: (جانباً). حمداً لله، أنّه لم يمَسَّنِي، على الأقلّ.

كوروبكين (يقرأ): «القاضي....»

أموس فيدروفيتش: رأساً... (بصوت مسموع).. أيّها السادة، أظنّ الرسالة طويلة، ثمّ أّية أهمية لها، نقرأ مثل القذارة.

لوكا لوكيتش: لا!

مأمور البريد: لا، إقرأ.

أرتيمي فيليوفيتش: لا، واصل القراءة!

كوروبكين (مواصلًا): «القاضي ليايكين تيايكين موفي تون في أشدّ درجة...»^(١) (يتوقّف) يبدو أنها كلمة فرنسية.

أموس فيدروفيتش: الشيطان يعرف ماذا تعني! لا بأس لو كانت تعني نصّاباً، ولكن ربّما أسوأ من ذلك.

كوروبكين (يوصل القراءة): «ولكن الناس، على العموم

(١) عن الفرنسية mauvais ton وتعني التناغم السيئ أو النشاز، وقد استخدمها غوغول للتعبير عن إنسان غير المثقّف والذي لا يحسن التصرف في المجتمع. العرب.

مضيفون، لطفاء، ودعاء، يا عزيزي تريابيتشكين. أنا أيضاً أريد أن أحتذيك وأمارس الأدب. فالعيش بهذا الشكل مضجر، يا أخ. والإنسان، في آخر الأمر، يريد غذاءً لروحه. وأرى من الضروري حقاً أن يمارس الإنسان شيئاً، أكتب لي إلى ولاية ساراتوف. ومن هناك إلى قرية بودكاتيليفكا. (يقلّب الرسالة، ويقرأ العنوان). إلى حضرة السيد المحترم إيفان فاسيلفيتش تريابيتشكين، سانت بطرسبورغ، شارع البريد، رقم البيت ٩٧، في الفناء، الطابق الثالث إلى اليمين».

إحدى النساء: أية عاقبة غير متوقعة.

حاكم المدينة: طعن فأصاب المقتل! فانا الآن قتيل، قتيل ممماً! لا أرى شيئاً. أرى خطأً خنزيرية بدلاً من الوجوه، ولا شيء آخر... أعيدوه، أعيدوه! (يلوح بيده).

مأمور البريد: هيهات، أن يُعاد! أنا نفسي أوعزت للمشرف على المحطة خصيصاً بأن يعطيه أحسن الخيول. الشيطان وسوس لي فأعطيت توجيهات مماثلة على طول الطريق.

زوجة كوروبكين: ورطة، بالضبط، ورطة فريدة!

أموس فيدروفيتش: خسارة، يا سادة، تسلف مني ثلاثمائة روبل. أرتيمي فيليوفيتش: ومني أيضاً ثلاثمائة روبل.

مأمور البريد (يزفر): أوه! ومني أيضاً ثلاثمائة روبل.

بوتشينسكي: ومني ومن بيتر إيفانوفيتش خمسة وستين من النقد الورقي. نعم.

أموس فيدروفيتش: (يسط يديه بحيرة). كيف هذا، يا سادة؟ كيف انجررنا إلى هذا، حقيقة؟

حاكم المدينة (يضرب جبينه): وكيف أنا، الأبله العجوز؟ خرّفت، أنا التيس الأخرق! منذ ثلاثين سنة وأنا في الوظيفة، دون أن

يقدر تاجر أو مقاول على التفرير بي. كنت أخدع النصابين وأساتذة النصابين، وأوقع بالمصيصة المخاتلين والمحتالين المستعدين لسلب العالم كله. خدعت ثلاثة من حكام الولايات!... وما أسهل ذلك! (يشمر ذراعه).. خداع حكام الولايات لا يستحق حتى الإشارة... أنا أندرييفنا: ولكن هذا غير ممكن، يا عزيزي، أعلن خطبته على ابنتنا.

حاكم المدينة: (في غضب). أعلن خطبته! انقعي الخطبة واشريها، فقد تنفعلك! تخش في عيني بالخطبة!... (في غاية التهيج). انظروا، انظروا، العالم كله، المسيحية كلها، انظروا جميعاً، كيف استهبل حاكم المدينة اسموه الأهل، الأهل، الوغد العجوز! (يلوح بقبضته مهذداً نفسه). آه، يا ذا الأنف الضخم! مخطئة، خرقة اعتبرتها رجلاً مهتماً. وهو الآن ينشر الخبر في الطريق كله! وينشر الحكاية في الدنيا كلها. لا يكفي أن نصير أضحوكة... بل يطلع لك كؤُوب أرعن، محرّ ورق، ويضعك في تمثيلية هزلية. هذا هو الموضع! سيهزأ بالرتب والألقاب وسيضحك الجميع، ويصفقون، ثم يضحكون؟ يضحكون من أنفسكم! آه، الويل لكم!... (يضرب الأرض بقدميه من شدة الغيظ).. بوذي لو أشد جميع محبّي الورق هؤلاء والكويبتين الرعناء والليبراليين الملاحين أعوان الشياطين. بوذي لو أشدكم في صرة، وأطحنكم طحناً، وأحشركم في بطانة الشيطان، بل في قبعته! (يضرب الهواء بقبضته، ويدق الأرض بكعبه. وبعد قليل من الصمت). لكنني لحد الآن لم أهدأ، صحيح. إذا أراد الله أن يعاقب أحداً انتزع منه عقله، قبل كل شيء. طيب، أي شيء كان لذلك الأرهن بالمفتش العام؟ لا شيء، حتى ولا نصف خنصر. ولكن الجميع يهتفون فجأة: المفتش العام! المفتش العام طيب، من أول من أشاع أنه مفتش عام؟ أحب أن يتحمل التبعة.

أرتيمي فيليوفيتش (باسطاً ذراعيه): لا أستطيع أبداً أن أوضح كيف حصل ذلك. كفضاوة غطت على العيون فجأة، أو وسوسة شيطان.

أموس فيدروفيتش: مَنْ أشاع.... هذان الشاطران أشاعا (يشير إلى دوتشينسكي وبوتشينسكي).

بوتشينسكي: والله، لست أنا، ولم يخطر ببالي....

دوتشينسكي: أنا لم... أبداً لا...

أرتيمي فيليوفيتش: طبعاً، أنتما.

لوكا لوكيتش: طبعي، جئتما من الحانة كالمجانين «وصل، وصل، ولا يدفع نقوداً....» وجدتما لقطة معتبرة!

حاكم المدينة: بالطبع، أنتما! يا رؤوس الثرثرة في المدينة، أيها الكاذبان اللعينان!

أرتيمي فيليوفيتش: يخطفكما الشيطان. عفتشكما العام وبحكاياتكما.

حاكم المدينة: لا همّ لكما سوى الجري في المدينة، وإثارة الجميع، أيها المهذاران اللعينان! تبّان الأكاذيب، أيها العقعقان المبربران!

أموس فيدروفيتش: المذرقان اللعينان!

لوكا لوكيتش: الطرطوران!

أرتيمي فيليوفيتش: برغوثة البحر العفنان!

(الجميع يحيطون بهما).

بوتشينسكي: لست أنا، والله، هذا بيتر إيفانوفيتش

دوتشينسكي: لا، يا بيتر إيفانوفيتش أنت أوّل...

بوتشينسكي: لا، أبداً، كنت أنت البادئ....

المشهد الخامس

(نفس الأشخاص مع جنדרمة).

الجنדרمة: الموظف الذي وصل من بطرسبورغ بأمر من القيصر يطلب حضوركم في الحال، إنه نزل في الفندق.

(تنزل هذه الكلمات نزول الصاعقة على الجميع. صوت الدهشة يتدفق من أفواه السيدات، المجموعة كلها تغير أوضاعها فجأة، وتحمد متحجرة).

(حاكم المدينة يقف في الوسط كالعمود، ذراعاه ميسوطان، ورأسه ملقى إلى الخلف. وإلى يمينه زوجته وابنته بحركة اندفاعية نحوه في كل جسدتهما. وإلى جانبهم مأمور البريد وقد تحول إلى علامة استفهام، موجهة إلى المترجمين، وإلى جانبه لوكا لوكيتش مذهولاً بطريقة غاية في السذاجة وإلى جانبه، عند حافة خشبة المسرح تماماً ثلاث نساء من المدعوات يلتصق بعضهن ببعض، وقد ارتسم على وجوههن تعبير هجائي إلى أقصى حدٍّ موجه مباشرة إلى عائلة حاكم المدينة.. وإلى يسار حاكم المدينة. المدينة زيملانيكا مميلاً رأسه قليلاً إلى جنب، وكأنما يستمع لشيء ما، وإلى جانبه القاضي ملقياً ذراعيه إلى جانبه، مدلياً جذعه إلى الأرض تقريباً، يحرك شففيه، وكأنما يريد أن يصفر أو يقول: «أردته عوناً فطلع فرعوناً». وإلى جانبه كوروبكين موجهاً إلى المترجمين عيناً متقلصة، وبإعلاء لاذعة إلى حاكم المدينة، وخلفه، على حافة خشبة المسرح تماماً بويتشينسكي ودويتشينسكي وذراعا أحدهما متجهتان إلى ذراعي الآخر، والفمان فاغران وعينا أحدهما تبخلقان في عيني الآخر والضيوف الآخرون يظلون متحجرين فقط، ولدقيقة ونصف تقريباً تظل الجماعة المتحجرة على وضعها هذا، وتنزل الستارة).

بعد عرض مسرحية جديدة

(رواق مسرح، يظهر من ناحية سلم يؤدي إلى المقصورات والطوابق العلوية، وفي الوسط مدخل إلى القاعة والقسم الخلفي، وفي الناحية الثانية باب خروج. يسمع صوت تصفيق بعيد) ..

مؤلف المسرحية^(١) (يخرج). كأنني خرجت من حماة! هذه هي، أخيراً، الهتافات والتصفيقات! المسرح كله يهدر! ...

هذا هو المجدا... يارب، كم كان سيخفق قلبي لو كان ذلك قبل سبع أو ثماني سنوات، كم كان سيتحرك كل شيء في داخلي! ولكن ذلك منذ زمن بعيد. حينذاك كنت شاباً، جريء التفكير كالصبي. حمداً للعناية الإلهية التي تكتب لي أن لا أتذوق المسرات والإطراءات المبكرة! الآن... يرد العمر الرشيد يزرع الحكمة في أي إنسان، فتعرف، أخيراً، أن التصفيق لا يعني الكثير. ويصلح أن يكون مكافأة لكل إنسان: للممثل إذا نفذ إلى كل سر الروح والقلب الإنساني، وللمراقص إذا بلغ القدرة على الترميز بالقدمين، وللحاوي أيضاً، لكل هؤلاء يتصاعد التصفيق! سواء للرأس وهو يفكر، أو للقلب وهو يشعر، أو لأعماق الروح وهي تصدح، أو للأقدام وهي ترقص أو للأيدي وهي تقلب الأقداح، الكل يشمله تصفيق متساو.

(١) من الطبيعي أن يكون المؤلف شخصية مثالية تنعكس عليه وضع الكوميدي في المجتمع، الكوميدي الذي جعل سوء الاستعمال والتصرف في محيط مختلف الفئات والوظائف مادة للإضحاك. (الملاحظة لنيقولا ي غوغول).
المعرب.

لا، لست الآن براغب في أن أغير مكاني، وأنتقل إلى مقصورة، إلى طابق علوي، إلى قاعة، إلى شرفة، أنفذ إلى كل مكان، وأستمع إلى مختلف الآراء والانطباعات، وهي ما تزال طرية، طازجة، قبل أن تخضع لاجتهادات ونقاشات هواة الفن والصحفيين، حين يكون كل إنسان ما يزال تحت تأثير حكمه الخاص. أنا بحاجة إلى هذا. أنا كوميدي. كل الأعمال والأشكال الأدبية الأخرى تخضع لحكم القلة. والكوميدي وحده يخضع لحكم الجميع. لكل متفرج الحق عليه. كل إنسان مهما كانت رتبته يصير أحد قضااته. آه، كم أود لو يرني كل شخص نقائصي وعبوبي! لا يهم حتى لو يضحك مني، لا يهم لو يحرك شفتيه شعور غير سليم النية، متحامل، مستاء، كره، كل ما يخطر على باله، فقط أن يعلن عن نفسه. لا يمكن أن تصدر كلمة بدون سبب، وفي كل مكان يمكن أن تنفدح شرارة الحقيقة. ومن يعزم على إظهار الجوانب المضحكة للآخرين يجب، بالطبع، أن يتقبل بعقل سليم الإشارة إلى الجوانب الضعيفة والمضحكة فيه. لأحاول، وأظل هنا في الرواق، طوال خروج الناس من المسرح. لا يمكن أن لا توجد تعليقات على مسرحية جديدة. والإنسان تحت تأثير الانطباع الأول منفعل دائماً، ويتعجل طرحه على آخر. (يتنحي ناحية)..

(يظهر بعض الناس في ملابس معتبرة. يقول أحدهم مخاطباً آخر):

الأفضل أن ننصرف الآن، سيمثلون الآن فودفيل نافهاً.

(الاثنتان ينصرفان)

(رجلان معتبران^(١) ركيئا البنيان ينزلان من السلم).

(١) وردت هذه التسمية بالفرنسية. المترجم.

الرجل المعتر الأول: جيد لو أن الشرطة لم تبعد مركبتي إلى مسافة بعيدة. ألا تعرف ما اسم تلك الممثلة الشابة.

الرجل المعتر الثاني: لا، ولكنها حلوة جداً.

الرجل المعتر الأول: نعم، حلوة، ومع ذلك ينقصها شيء ما، طبيب، اقترح أن نذهب إلى المطعم الجديد. البارحة قدموا لنا بازلاء طازجة (يقبل أطراف أصابعه) روعة!

(الاثنتان ينصرفان)

(يجري ضابط بمسكة آخر من يده).

الضابط الثاني: لنبق!

الضابط الأول: لا، يا أخ. الفودفيل لا يمكن أن يستهويني بأي شيء. نحن نعرف هذه المسرحيات التي تقدم المأكولات الخفيفة، والخدم بدلاً من الممثلين، والنساء قبح في قبح.

(ينصرفان).

رجل راق أنيق الثياب (عند نزوله من السلم). الخياط المحتال فضل البطلون ضيقاً عليّ. طوال الوقت كنت متضايقاً جداً في الجلوس. ساعاقبه على ذلك فأماطل في دفع ديوني سنتين. (ينصرف).

رجل راق آخر أكثر اكتنازاً (يقول لصديقه بحيوية): صدقني، لن ولن يقعد معك على طاولة القمار. إنه لن يلعب بأقل من مئة وخمسين روبلاً. أنا أعرف ذلك جيداً، لأن صهري بافتوتيف، يلعب معه كل يوم.

مؤلف المسرحية (مع نفسه): حتى الآن لم ينطق أحد بكلمة عن الكوميديا.

موظف في أواسط العمر (يخرج باسطاً ذراعيه): الشيطان يعلم أي شيء هذا! شيء... شيء... لا شبه له مطلقاً. (ينصرف).

سيد قليل الاهتمام بالأدب (يخاطب آخر): على أية حال، يبدو أنها مترجمة!

الآخر: يا سلام! كيف أنها مترجمة! الحدث يجري في روسيا، وفيها عاداتنا وربنا أيضاً.

السيد القليل الاهتمام بالأدب: على أية حال، أتذكر شيئاً منها باللغة الفرنسية، ليس تماماً من هذا القبيل.
(ينصرفان).

واحد من متفرجين اثنين (خارجين أيضاً): الآن لا يمكن أن نعرف شيئاً. انتظر ماذا سيقولون في المجلات، وعندئذ ستعرف.
اثنان في معطفين مخوصرين (أحدهما للآخر): طيب، كيف؟
بودي لو أسمع رأيك في الكوميديا.

المعطف الثاني (يحرك شفثيه حركات دالة وترسم على سيمائه علائم الوقار): نعم، بالطبع، لا يجوز القول إنها تخلو من.... إلى حد ما... ثم مَنْ يعارض، بالطبع، أن لا يكون هناك... أين، كما يمكن أن يقال... ولكن عموماً.... (يطبق شفثيه بإيجاب نعم، نعم!...)
(ينصرفان).

المؤلف (لنفسه): طيب، هذان لم يقلوا الشيء الكثير... ولكن ستكون تعليقات: أرى إلى الأمام قليلاً من يلوحون بأذرعهم بحرارة.
(ضابطان).

الأول: لم أضحك قط مثلما ضحكت هنا.

الثاني: أظنها كوميديا ممتازة.

الأول: لا، لا. لنتظر ماذا سيقولون في المجلات. يجب الخضوع لحكم النقد... انظر، انظرا (يلكزه من يده).

الثاني: ماذا؟

الأول (يشير إلى واحد من اثنين ينزلان من السلم): أديب!

الثاني (باستعجال): مَنْ؟

الأول: ذاك! شش! لنسمع ماذا سيقول.

الثاني: ومن الآخر الذي معه؟

الأول: لا أعرف. شخص نكرة.

(الضابطان يتحيان جانباً ليفسحا لهما المجال).

النكرة: لا أستطيع أن أحكم على قيمتها الأدبية، ولكن يبدو لي

أن فيها ملاحظات لاذعة الذكاء، لاذعة، لاذعة.

الأديب: عفوك، ما هو اللاذع الذكاء فيها؟ ما هؤلاء الناس

الوضعاء المصورون فيها، وأية لهجة؟ النكات مسطحة للغاية، بل

وسفية.

النكرة: هذا شيء آخر، قلت لا أستطيع أن أحكم على قيمتها

الأدبية. لاحظت فقط أن المسرحية مضحكة، جلبت المتعة.

الأديب: بل وليست مضحكة. عفوك، ما هو المضحك فيها.

وما هو الممتع؟ الموضوع غير محتمل الوقوع. كل شيء متناقض مع

التفكير السليم. بلا حبكة، ولا حدث، ولا شيء يستحق الاعتبار.

النكرة: أي نعم، ليس لدي أي اعتراض على ذلك. من الناحية

الأدبية، من الناحية الأدبية ليست مضحكة، ولكن من الناحية، إذا

أمكن القول، من جهة فيها....

الأديب: ولكن ماذا فيها؟ أرجوك، حتى هذا غير موجود! ثم أية

لغة حوار؟ مَنْ يتكلم بهذا الشكل في مجتمعنا الراقي؟ طيب، قل لي

أنت، هل أنا وأنت تتكلم بهذا الشكل؟

النكرة: هذا صحيح. ملاحظتك دقيقة جداً. في هذا بالذات فكرت مع نفسي، الحوار يفتقر إلى النبل. كل الشخصيات تبدو وكأنها لا تقدر أن تخفي طبيعتها الوضيعة. هذا صحيح.

الأديب: أها، ومتمدحها أيضاً!

النكرة: ومن يتمدحها؟ أنا لا أتمدحها. أرى الآن بنفسى أن المسرحية نافهة. ولكن لا يمكن الإلمام بذلك دفعة واحدة. أنا لا أستطيع أن أحكم على القيمة الأدبية.

(الاثنان ينصرفان).

أديب آخر (يدخل بصحبة متفرجين يحدثهم مشمراً ذراعيه): صدقوني أنا أعرف هذا الأمر. مسرحية مقرزة! مسرحية قذرة، قذرة! لا يوجد فيها أي شخص حقيقي. الكل كاريكاتور! لا يوجد هذا في الواقع. صدقوني. لا يوجد، وأنا أعرف ذلك أحسن. أنا نفسى أديب. يقولون: حيوية، حدة البصيرة... ولكن كل ذلك هراء، إنهم أصحابه لا غير، أصحابه يتمدحونه، أصحابه فقط! سمعت أنهم يكادون يرفعونه إلى مصاف فونفيزين وكوميدياته. ولكن المسرحية لا تستحق حتى أن تسمى كوميديا. إنها مهزلة، مهزلة، ثم مهزلة، وأفضل مهزلة. أسوأ وأتفه كوميديا لكونتسيو^(١) هي بالقياس إليها مونبلان أمام مرتفعات بولكوفو. سأبرهن على ذلك لهم جميعاً، أبرهن حساباً مثل اثنين في اثنين. مجرد أن أصدقاء وأصحابه يتمدحونه أكثر من اللازم والظاهر أنه الآن يعتبر نفسه شكسبير تقريباً. الأصحاب عندنا يتمدحون دائماً. فمثلاً. هذا بوشكين أيضاً. لأي شيء، نتحدث كل روسيا عنه الآن؟ كل ذلك من الأصحاب. هتفوا،

(١) كونتسيو كاتب رجعي كانت أعماله الدرامية تتسم بالزيف ورومانسية الشخصيات. المترجم.

وهتفوا، وبعد ذلك صارت روسيا كلها تهتف في أثرهم. (ينصرف مع المتفرجين).

(الضابطان يتقدمان، ويحتلان مكانهم).

الأول: هذا حق، هذا حق، حق تماماً. مهزلة بالضبط. كنت أقول ذلك من قبل. مهزلة غبية مسنودة من قبل الأصحاب. بصراحة كنت حين أتقزز من التفرج على أشياء كثيرة فيها...

الثاني: ولكن كنت تقول لم أضحك قط مثلما ضحكت هنا؟

الأول: مرة أخرى أقول هذا شيء مختلف. أنت لا تفهم، وتحتاج إلى توضيح. ماذا في هذه المسرحية؟ أولاً بلا حبكة تماماً، والحدث غير موجود أيضاً، ولا شيء يستحق الاعتبار إطلاقاً، كل شيء غير محتمل الوقوع، وكل شيء كاريكاتوري فضلاً عن ذلك. (ضابطان آخران في الخلف).

أحدهما (للآخر): من يناقش في ذلك؟ واحد من جماعتك، كما يبدو؟

(الآخر بعد أن نظر إلى وجه المتحدث، لَوَّح بيده).

- يعني، بليد؟

الثاني: لا، لا بشكل... عنده عقل، ولكن لدى صدور المجلة، وإذا ما تأخرت المجلة في الصدور، يفرغ رأسه من كل شيء. ولكن لنذهب على العموم. (ينصرفان).

(اثنان من هواة الفن).

الأول: لست على الإطلاق من الذين يلجأون إلى الكلمات البديئة فقط، من مثل قذرة، مقرزة، من أسلوب سيء. أمر مثبت تقريباً أن مثل هذه الكلمات، في معظم الأحيان، تخرج من أفواه الذين هم

أنفسهم من أسلوب مشكوك فيه، يتحدثون عن الصالونات، ولكن الرواق هو أقصى ما يسمح لهم بدخوله. غير أنني لا أقصدهم في كلامي. أنا أتحدث عن خلو المسرحية من الحبكة مماماً.

الثاني: نعم، إذا فهمت الحبكة بالمعنى الذي تفهم به عادة، أي بمعنى وجود عقدة غرامية، فهي غير موجودة بالفعل. ولكن الوقت قد حان كما أظن للكف عن التثبث حتى الآن بتلك الحبكة الأبدية. يكفي أن نتمعن فيما حولنا لنعرف أن كل شيء في الدنيا قد تغير منذ زمان. الدراما تحبك الآن بشكل أقوى بالترعة إلى الحصول على منصب نافع، بتمجيد النفس وخط الآخر مهما كلف الأمر، والثأر من الإهمال أو من السخرية. أليست الرتبة، الرأسمال النقدي، الزواج المصلحي أكثر نفعاً من الحب الآن؟...

الأول: كل ذلك جيد. ولكن في هذه الناحية أيضاً لا أجد حبكة في المسرحية، على كل حال.

الثاني: لا أريد أن أؤكد الآن هل الحبكة موجودة في المسرحية أو غير موجودة. بل أقول فقط إن الناس يبحثون عن الحبكة الخاصة، ولا يريدون أن يروا الحبكة العامة. الناس الآن تعودوا، ببساطة نفس، على أولئك العشاق الدائمين الذين لا يمكن أن تنتهي مسرحية دون أن يتزوجوا. هذه حبكة، بالطبع، ولكن أية حبكة؟ كحبكة منديل معقود من طرفه بالضبط. ولكن، يجب أن تحبك الكوميديا تلقائياً، وبكل مجموعها، في عقدة واحدة كبيرة وشاملة. يجب أن تعم الحبكة جميع الشخصيات، لا واحداً أو اثنين منهم، وممس ما يقلقهم بهذا الشمول أو ذاك. جميع الشخصيات أبطال هنا. انسياب وسير المسرحية يحدثان رجّة في الآلة كلها، وما من دولا ب يظل واقفاً باعتباره صدنات، ولا يشترك في العملية.

الأول: ولكن الجميع لا يمكن أن يكونوا أبطالاً. واحد أو اثنان منهم يسيران الآخرين.

الثاني: لا يسيّر انهم قطعاً، بل يتفوّقان عليهم. في الآلة توجد دواليب تتحرك بشكل أقوى وأكثر ظهوراً، وبمذك أن تسمى بالرئيسة فقط، ولكن الفكرة وحدها تسيّر المسرحية. وبدونها لا توجد وحدة في المسرحية. وكل شيء يصلح أن يكون حبكة: الرعب نفسه، خوف التوقع، خطر القانون المقبل من بعيد...

الأول: ولكن ذلك يعني إعطاء الكوميديا دلالة أكثر شمولاً.

الثاني: ولكن أليس ذلك هو رسالتها المباشرة والحقيقية؟ منذ البداية كانت الكوميديا إبداعاً اجتماعياً شعبياً، أو هذا، على الأقل، ما أبداه أبوها الشرعي أرسطو فان، وبعد ذلك دخلت في المضيق الضيق للحبكة الخاصة. وأدخلت موضوع الحب حبكة واحدة لازمة. ومع ذلك فما أضعف هذه الحبكة عند أحسن الكوميديين! وما أتقه أولئك العشاق المسرحيين في حبهم الكارتوني!

الثالث (يقترّب ويضربه على كتفه ضربة خفيفة): لست على حق. الحب مثل أية عاطفة أخرى يمكن أن يدخل أيضاً في الكوميديا. الثاني: أنا لا أقول لا يمكن أن يدخل. ولكن الحب والعواطف الأخرى الأكثر سموً، لا تستطيع أن تترك انطباعاً رفيعاً، إلا حين تتطور بكل عمقها. وإذا ما انشغلت بها، فإنك ستضحّي حتماً بكل الأشياء الأخرى. عند ذاك سيتضاءل كل ما يشكل بالذات جوهر الكوميديا، وتختفي أهمية الكوميديا الاجتماعية بالتأكيد.

الثالث: يعني لا بد أن يكون موضوع الكوميديا وضعياً؟ إذا، ستكون الكوميديا نوعاً وضعياً أيضاً.

الثاني: هذا يبدو للذي سينظر إلى الكلمات، ولا ينفذ إلى صلب القضية. ولكن ألا يمكن للإيجابي والسلبي أن يخرجا هدفاً واحداً. ألا يمكن للكوميديا والتراجيديا أن تعبّرا عن نفس الفكرة السامية؟ ألا

ترسم تقلبات نفس الخسيس النذل، كلها حتى أصغر الصغائر، صورة للإنسان النزيه؟ ألا يتيح كل هذا التراكم للحقارات والتجاوزات على القوانين والخروج عن العدالة معرفة واضحة بما يتطلب منا القانون، والواجب والعدل؟ الماء البارد والساخن في يدي طبيب ماهر يعالج نفس الأمراض بنجاح متساو، وفي يدي الموهوب يمكن لكل شيء أن يكون أداة لما هو جميل، شرط أن يستهدي بالفكرة السامية لأن يخدم الجميل.

الرابع (يقرب): ماذا يمكن أن يخدم الجميل؟ عمّ تتحدثون؟
الأول: نشأ نقاش بيننا عن الكوميديا. نحن جميعاً نتكلم عن الكوميديا بشكل عام، وحتى الآن لم يقل أحد شيئاً عن الكوميديا الجديدة. فماذا تقول أنت؟

الرابع: أقول: توجد فيها موهبة، حدة البصيرة للحياة، والكثير من الأشياء المضحكة والصادقة، المستقاة من الواقع ولكن بشكل عام ينقص المسرحية شيء. فأنت لا ترى عقدة ولا حل العقدة. والغريب أن كتابنا الكوميديين لا بد أن يتطرقوا إلى الحكومة. بغيرها لا نتعقد عندنا أية كوميديا.

الثالث: هذا صحيح. ولكن هذا من الناحية الأخرى شيء طبيعي جداً. فنحن جميعاً تابعون للحكومة، كلنا تقريباً نخدم. ومصالحنا كلها مرتبطة بالحكومة بهذا القدر أو ذاك. يعني ليس من الغريب أن ينعكس ذلك في أعمال كتابنا.

الرابع: حسناً، لتكون هذه الرابطة محسوسة. ولكن المضحك أن أية مسرحية لا يمكن أن تنتهي بدون الحكومة. إنها تظهر حتماً مثل قدر لا محيص عنه في المسرحيات التراجيدية عند الإغريق القدامى.

الثاني: يعني أن هذا شيء لا إرادي عند كتابنا الكوميديين، يعني

أن هذا يشكل صفة مميزة لمسرحياتنا الكوميديّة. صدورنا تنطوي على إيمان خف بالحكومة وماذا في ذلك؟ لا ضير فيه، ياليت الحكومة تسمع دائماً وفي كل مكان تذكيراً لرسالتها لأن تكون مثل العناية الإلهية على الأرض، وأن نؤمن نحن بها، كما آمن القدامى بالقدر الذي كان يعاقب الجرائم.

الخامس: مرحباً. يا سادة! لا أسمع إلا كلمة «حكومة».
الكوميديا أثارت الهتافات والأحاديث...

الثاني: الأفضل أن نتحدث عن هذه الأحاديث والهتافات في بيتي. لا هنا، في رواق المسرح.
(ينصرفون).

(بعض المحترمين الحسني الثياب يظهرون واحداً وراء الآخر).
رقم ١: طيب، هذا رأيي. هذا صحيح وصحيح أن ذلك وما أ سوأ منه يحدث عندنا أيضاً في بعض الأماكن. ولكن ما الغاية، ولأي شيء يبرز ذلك؟ ولم هذه العروض ما الفائدة منها؟ وضحوالي ذلك! أي حاجة لي في أن أعرف أن في مكان ما يوجد محتالون؟ أنا بكل بساطة... لا أفهم ضرورة مثل هذه العروض. (ينصرف).

رقم ٢: لا، هذا ليس استهجاناً للعيوب، بل ازدراء مقزز لروسيا. هذا هو. هذا يعين إظهار الحكومة نفسها في مظهر سيئ. لأن كشف الموظفين السيئين، وأعمال استغلال النفوذ التي تحصل في مختلف الفئات يعني كشف حكومة نفسها. قطعاً لا ينبغي حتى السماح بمثل هذه العروض. (ينصرف).

(يدخل السيد أ والسيد ب، وهما رجلان من رتبتين معتبرتين).
السيد أ: أنا لا أتكلم عن هذا. على العكس نحن بحاجة إلى إظهار أعمال استغلال النفوذ. يجب أن نرى تجاوزاتنا. وأنا لا أشاطر أبداً

آراء الوطنيين الكثيرين المتحمسين أكثر من اللازم، ولكن يبدو لي قد يكون فيها الكثير جداً مما هو محزن.

السيد ب: وددت كثيراً لو كنت قد استمعت إلى ملاحظة رجل متواضع الثياب جداً كان يجلس على مقربة مني في مقاعد القاعة.... آه، هذا هو نفسه!

السيد أ: مَنْ؟

السيد ب: هذا هو الرجل المتواضع الثياب جداً. (يخاطبه) نحن لم ننه بعد الحديث الذي كانت بدايته طريفة بالنسبة لي.

الرجل المتواضع الثياب جداً: وأنا بصراحة، مسرور جداً بأن أوصله. قبل لحظة فقط سمعت كلاماً يقول إن كل ذلك غير صحيح، وإنه استهزاء بحكومتنا، وبعادتنا، وما كان ينبغي عرضه إطلاقاً. وقد جعلني ذلك أسترجع في ذهني، وأحتوي المسرحية كلها. وأعترف أن ما تعبر عنه الكوميديا يبدو لي الآن أكثر روعة. ففيها، كما يلوح لي، يُنحر النفاق بالضحك أشد وأعظم من أي شيء آخر قناع الاحتشام الذي تختفي وراءه الوضاعة والخسة، المحتال الذي يعوج خده ليتخذ سمة الإنسان الموالي. بصراحة شعرت بالفرح، وأنا أرى كلمات الولاء تخرج مضحكة من شفتي محتال، والقناع الذي يلبسه يثير الضحك الشديد لدى الجميع من أول القاعة إلى أعلى طابق في المسرح. ويوجد بعد هذا أناس يقولون لا حاجة إلى إخراج ذلك على المسرح؟ لقد سمعت ملاحظة أبداها رجل معتبر جداً كما بدا لي: «ماذا سيقول الشعب حين يرى أن مثل هذه الأعمال لا استغلال النفوذ تحصل عندنا؟».

السيد أ: بصراحة، وأرجو المَعذرة، أنا أيضاً أطرح على نفسي هذا السؤال لا إرادياً، ماذا سيقول شعبنا، وهو يرى كل هذا؟

الرجل المتواضع الثياب جداً: ماذا سيقول؟ (يتنحى)
(يدخل اثنان في قفطانين).

القفطان الأزرق (للقفطان الرمادي): أعتقد أن الرؤساء كانوا
شطاراً، ولكنهم امتنعوا جميعاً، حين أطل السيف القيصري.
(ينصرفان).

الرجل المتواضع الثياب جداً: هذا ما سيقوله الشعب، هل سمعتم.
السيد أ: ماذا؟

الرجل المتواضع الثياب جداً: سيقول: «أعتقد الرؤساء كانوا
شطاراً، ولكنهم امتنعوا جميعاً، حين أطل السيف القيصري!» هل
سمعتم كم أن الإنسان يصدق بحاسته الطبيعية وبشعوره؟ وكم
أن العين البسيطة للغاية صادقة، إذا لم تضيقها النظريات والأفكار
المستقاة من الكتب، بل تستقيها من طبيعة الإنسان نفسها! ولكن
أليس واضحاً بجلاء أن الشعب بعد مثل هذا العرض يحصل على
إيمان أكثر بالحكومة؟ إنه بحاجة إلى مثل هذه العروض. ويفصل
الحكومة عن السيئين من القائمين بشؤونها. ولير أن أعمال استغلال
النفوذ لا تأتي من الحكومة، بل من الذين لا يفهمون متطلبات
الحكومة، ومن الذين لا يريدون الاستجابة للحكومة. ولير أن
الحكومة شريفة، وأن عينها الساهرة تراقب الجميع بالتساوي، وأنها
ستلاحق عاجلاً أم آجلاً المتجاوزين على القانون وعلى الشرف
وواجب الإنسان المقدس، وسيمتنع أمامها ذور الضمائر الملوثة.
نعم، يجب على الشعب أن يرى هذه العروض. صدقوني. حتى وإن
كان قد عانى بنفسه من التضييقات والمظالم فإنه سيخرج منفساً عن
نفسه، بعد مثل هذا العرض، وبإيمان قوي بالقانون السامي الذي
لا تأخذه سنة من نوم. وتعجني أيضاً ملاحظة أخرى: «سيكون

للشعب رأي سيئ في رؤسائه». يعني أنهم يتصورون أن الشعب هنا فقط وهو في المسرح، يرى لأول مرة رؤسائه، وإذا كان أحد العمد المحتالين يعصره بين مخالبه في مكان سكناه، فإنه لن يفطن إلى ذلك، ولكنه يذهب إلى المسرح ليلتم بالأمر ويفطن. إن هؤلاء في الحقيقة، يعتبرون شعبنا أغبي من خشبة، غيباً إلى درجة أنه لا يستطيع أن يفرق بين الفطيرة المحشوة باللحم، والفطيرة المحشوة بالعدس. نعم، الآن يبدو لي حتى خلو المسرح من شخصية نزيهة شيئاً جيداً. إذا قدمت للرجل العزيز النفس وسط كثرة من الجوانب السيئة جانباً واحداً حسناً، فإنه سيخرج من المسرح بكبرياء. نعم، جيد أن المسرحية قدمت فقط الشواذ والعيوب التي هي مجلبة عار شديدة، إلى درجة أن الناس لا يريدون أن يتواطؤوا معها، ويخجلون حتى من الاعتراف بأن ذلك ممكن.

السيد أ: ولكن هل يعقل أن يوجد عندنا مثل هؤلاء الناس بالضبط؟

الرجل المتواضع الثياب جداً: اسمحوا لي بأن أقول لكم بخصوص ذلك. أنا لا أدري لماذا أشعر بالحزن، كلما أسمع مثل هذا السؤال. أستطيع أن أتحدث معكم بصراحة: فأنا أرى في ملامح وجهيكما ما يشجعني على الصراحة. الإنسان قبل كل شيء يطرح السؤال: «هل يعقل أن يوجد مثل هؤلاء الناس؟» ولكن هل سمعنا إنساناً يطرح هذا السؤال: «هل يعقل أنني نفسي خال تماماً من هذه العيوب؟» لم نسمع قط، لم نسمع! طيب، سأحدث معكم بقلب مفتوح، فإن لي قلباً طيباً، وصدري ينطوي على الكثير من الحب، ولكن ليتكم تعرفون أية جهود نفسية وصدمات روحية اقتضتني لتجنب السقوط في انحرافات معيبة كثيرة، يسقط فيها الإنسان لا إرادياً، في عيشه مع الناس! وكيف يمكن أن أقول الآن إنني في هذه اللحظة مبرأ من

تلك الانحرافات التي كنا نضحك منها جميعاً قبل عشر دقائق فقط، وضحكت أنا أيضاً منها.

السيد أ: (بعد برهة من الصمت). كلماتك تدعو إلى التفكير الشديد، بصراحة، ولما أتذكر كلماتك، أتمثل لنفسي كيف جعلتنا التربية الأوروبية متكبرين، وكيف حجبنا عن أنفسنا ذاتها، وكيف ننظر باستعلاء وبازدراء شديد إلى الذين لم يحصلوا على تلميع ظاهري مثلنا، وكيف يعتبر كل واحد منا نفسه قديساً إلا شعرة ويتحدث دائماً عن الأعمال والأفعال السيئة عند الآخرين، تغتم نفسي لا إرادياً، بصراحة... ولكن اعذرني على عدم تواضعي فأنت، على كل حال، غير مبرأ منه أيضاً هل لي أن أعرف مع من يسعدني أن أتحدث؟ الرجل المتواضع الثياب جداً: لست سوى واحد من أولئك الموظفين الذين تتقمص شخصيات المسرحية وظائفهم ومناصبهم، وقد قدمت من بلدتي منذ يومين.

السيد ب: ما كان هذا ليخطر على بالي. وهل يعقل أنك لا تتصور أن من المهين، بعد هذا، أن تعيش وتخدم مع هؤلاء الناس؟ الرجل المتواضع الثياب جداً: من المهين؟ هذا ما سأقوله لك بهذا الخصوص، أعترف بأنني في أحيان كثيرة أفقد صبري. في بلدنا ليس كل الموظفين من الصنف النزيه، وغالباً ما تعمل المستحيل لكي تفعل شيئاً طيباً. وقد فكرت في ترك الوظيفة عدة مرات، ولكن الآن، وبعد هذا العرض بالذات، أشعر بهمة ونشاط مع قوة جديدة على مواصلة بحال عملي. وجدت سلوأي في التفكير بأن النذالة عندنا لن تظل مستورة، أو طليقة العنان، وأنها على مرأى من جميع الناس الشرفاء مذبوحة بالسخرية، وأن هناك قلماً لا يتماهل عن فضح تصرفاتنا النذلة، على الرغم من أن ذلك لا يرضي كبرياءنا القومية، وأن هناك حكومة شريفة تسعى إلى أن تجعل جميع الذين يعينهم الأمر

يرون ذلك رأي العين، وهذا وحده يمدني بالحماس لمواصلة وظيفتي النافعة.

السيد أ: اسمح لي بأن أعرض عليك اقتراحاً، أنا أشغل وظيفة في جهاز الدولة مهمة إلى حد ما. وأحتاج إلى معاونين شرفاء ونزيهين حقاً. أقترح عليك وظيفة ستوفر لك مجالاً موسعاً للعمل، ومنفعة أكثر بما لا يقاس، وستكون في موقع مرموق.

الرجل المتواضع الثياب جداً: اسمح لي بأن أشكرك بكل ما في قلبي وروحي على هذا العرض، واسمح لي، في الوقت ذاته، بأن أرفضه. فإذا كنت أشعر بأنني نافع في عملي، فهل من النبل من جانبي أن أتخلى عنه؟ وكيف أستطيع أن أتركه، ليست لدي الثقة الراسخة في أن الذي سيخلفني لن يكون شاطرأ سياًخذ بارتكاب مظالم؟ أما إذا كنت قد عرضت عليّ ذلك بشكل مكافأة، فاسمح لي بأن أقول لك إنني صفقت لمؤلف المسرحية كما صفق الآخرون على حد سواء، ولكنني لم أطلب أن يظل على الجمهور زيادة في الثناء. فما حاجته إلى مكافأة؟ مسرحيته راقت للناس، فأنثروا عليها. أما هو، فقد أدى واجبه لا غير. ولكن الوضع قد وصل عندنا في الحقيقة إلى حد أن الإنسان، ليس فقط حين يجترح ماثرة، بل لمجرد أنه لا يلحق بأحد أذى في الحياة وفي الوظيفة، يعتبر نفسه فاضلاً لا يضارع، ويغضب عن جد، حين لا يلتفت إليه، ولا يكافأ. فتراه يقول: «أواه، لقد عشت طوال عمري بنزاهة، ولم أقدم على أية ندالة تقريباً، فكيف لا أمنح رتبة ولا نيشاناً؟» لا، أعتقد أن الذي لا يقدر أن يكون نبيلاً بدون تشجيع، غير أهل لأن أثق بنبله. فإن نبلة المزيف لا يساوي فلساً واحداً.

السيد أ: على الأقل لا تبخل عليّ بالتعاون معك؟ اعذرني على لجاحتي، فأنت ترى أنها نتيجة احترامي الصادق. أعطني عنوانك.

الرجل المتواضع الثياب جداً: تفضل هذا عنواني. ولكن كن على ثقة بأنني لا أسمع لك باستغلاله، فسأجيء إليك غداً في الصباح. أرجو المَعذرة، لست متربياً على المجتمع الراقي، ولا أحسن الكلام.... ولكنني صادفت مثل هذا الاهتمام الأريحي في رجل دولة، هذا الطموح إلى الخير... عسى الله أن يحيط كل عاهل بأمثالك من الناس. (ينصرف مستعجلاً).

السيد أ (يقلب البطاقة في يده): ها أنا أنظر إلى هذه البطاقة، وإلى هذا الاسم المكتوب عليها، والذي لا أعرفه، فأشعر بالانشراح في صدري، فقد انقشع الانطباع المحزن الأول من تلقاء نفسه. حفظك الله، يا روسيا، يامن لا نعرفك إلا قليلاً! في أصقاعك البعيدة، في ركن منسي منك، ينزوي رجل فريد كاللؤلؤة، وليس هو الوحيد، في أغلب الظن. إن هؤلاء، مثل التماعات الأحجار الكريمة، منتشرون وسط غرائته الغليظ الداكن. هناك إحساس عميق بالسلوى من هذه الظاهرة، وقد تنورت روحي بعد اللقاء مع هذا الموظف، مثلما تنورت روحه بعد العرض. وداعاً! شكراً لك على إتاحة هذا اللقاء لي. (ينصرف).

السيد ج (يقترّب من السيد ب): من هذا الذي كان معكم؟ يبدو أنه وزير؟

السيد د (يقترّب من الجهة الأخرى): رحماك، يا أخ، ما هذا؟
خبرني بحق الرب!

السيد ب: ماهو؟

السيد د: طيب، كيف يخرجون ذلك على المسرح؟

السيد ب: ولم لا؟

السيد د: طيب، احكم بنفسك، كيف هذا حقاً؟ دائماً عيوب في

عيوب. وأي قدوة يقدم هذا للمشاهدين؟

السيد ب: ولكن من يتباهى بالعيوب؟ إنها معروضة للسخرة.

السيد د: ومع ذلك، يا أخ، فالاحترام واجب... وهذا العرض يفقد الاحترام نحو الموظفين والوظائف.

السيد ب: هذا لا يفقد الاحترام لا نحو الموظفين ولا نحو الوظائف، بل نحو الذين يسيئون أداء وظائفهم.

السيد ج: ولكن اسمح لي بأن أذكر، على أية حال، أن في كل ذلك قدراً معيناً من الإهانة التي تشمل الجميع إلى هذا الحد أو ذاك.

السيد د: بالضبط. هذا ما أردت أن أبديه بنفسني. هذه إهانة شاملة بالذات. اليوم مثلاً يعرضون على المسرح موظفاً من مرتبة دنيا، وغداً... أظنهم سيعرضون آخر من مرتبة أرقى.

السيد ب: وماذا في ذلك؟ الفرد وحده لا يُمس. ولكن إذا ابتكرت أنا شخصية لا على التعيين ونسبت لها العيوب التي تنشأ بيننا عادة، ومنحتها المرتبة التي طرأت على بالي، ولتكن مرتبة أرقى، وقلت إن هذا الموظف من هذه المرتبة الراقية ليس كما يجب، فماذا في ذلك؟ ألا يوجد محتال من بين موظفي المرتبة الراقية؟

السيد د: ذهبت بعيداً، يا أخ، كيف يمكن أن يكون الموظف في المرتبة الراقية محتالاً؟ الموظف من المرتبة الدنيا، ربما... لا، ذهبت بعيداً!...

السيد ج: لماذا يعرضون السيئ، ولماذا لا يعرضون الحسن، اللائق بأن يُحتذى؟

السيد ب: لماذا؟ سؤال غريب: «لماذا؟» أشياء كثيرة يمكن أن تضع قبال «لماذا» هذه. لماذا لم يلجأ أحد الآباء إلى الكلمات والمواعظ، بغية انتشال ابنة من الحياة غير المستقيمة، بل أخذه إلى مارستان،

حيث برزت أمامه الآثار الرهيبة للحياة غير المستقيمة بكل فظاعتها؟
لماذا أقدم على ذلك؟

السيد ج: ولكن اسمح لي بأن أقول: إن هذه، إلى حد ما، قروحنا الاجتماعية التي يجب أن تخفى، ولا أن تعرض.

السيد د: هذا صحيح. أنا موافق على ذلك كلياً. يجب أن يخفى السيئ عندنا، لا أن يعرض على الملأ.

السيد ب: لو كان أحد غيرك قال هذه الكلمات، لقلت إنها من الرياء، وليس من الحب الحقيقي للوطن. يعني، في رأيك، ينبغي فقط إخفاء هذه التي سميتها قروحاً اجتماعية، وعلاجها من الخارج على نحو ما، حتى لا تكون مرئية في هذه اللحظة، ولا يهم أن نستشري العلة في الداخل. لا يهم أن تنفجر، وتكشف عن أعراض لا ينفع معها عند ذاك أي علاج. لا يهم هذا. أنت لا تريد أن تعرف أننا بدون العظة المخلصة الصادقة، بدون الفهم المسيحي لخطايانا، بدون تضخيمها في عيوننا، لا غللك القوة على الارتفاع فوقها، ولا القوة على السمو بالروح إلى أعلى ما هو محتقر في الحياة. إنك لا تريد أن تعرف ذلك! وليبق الإنسان أصم، وليقض حياته غافياً، ولا يحرك ساكناً حين يرى الفظائع، دعه لا يبكي في أعماق قلبه، دعه يخدر نفسه، إلى حد لا تحركها الزعازع! لا.... وأرجو المَعذرة! الأناية الباردة هي التي تحرك شفتين تنطقان بمثل هذه الأقوال، لا حب الإنسانية الطاهر التقى. (ينصرف).

السيد د: (بعد صمت قصير). لماذا أنت صامت؟ ياله من شاطر! أية كلمات كبيرة تفوه بها!

(السيد ج يصمت).

(يتابع) يستطيع أن يقول كما يقال ما يشاء، ولكن هذه هي

قروحنا المشتركة كما يقال.

السيد ج (جانباً): أوه، أعجبه النطق بهذه القروح! وسيقولها للغادي والرائح!..

السيد د: بهذا الشكل أستطيع أن أقول ما شئت من هذه الأقوال. ولكن ما الفائدة؟... آه، هذا الأمير ن: تمهل، يا أمير! الأمير ن: ما الخير؟

السيد د: لنحدث قليلاً، توقف! ما رأيك في المسرحية؟ الأمير ن: مضحكة.

السيد د: ولكن لماذا يعرض؟ أي شيء هو؟ الأمير ن: ولماذا لا يعرض؟

السيد د: ولكن احكم بنفسك، كيف يجرو هذا؟ نفاعاً بمحتال على المسرح. ولكن هذه قروحنا. الأمير ن: أية قروح؟

السيد د: هذه قروحنا، قروحنا الاجتماعية، إذا أمكن القول.

الأمير ن (بأنزعاج): خذها لك! ولتكن قروحك، لا قروحي! لماذا تدسها عليّ؟ عليّ الآن أن أعود إلى البيت. (ينصرف).

السيد د (يتابع): ولكن ما هذا الهراء الذي قاله هنا؟ يريد أن يقول: الموظف من المرتبة الراقية يمكن أن يكون محتالاً. طيب، يمكن التساهل مع الموظف من المرتبة الدنيا...

السيد ج: على كل حال لنذهب. كفى كلاماً. أظن الجميع عرغوا الآن أنك موظف من المرتبة الراقية. (جانباً) هناك أناس عندهم فن التشهير بكل شيء. وهم يقدرّون أن يجعلوا فكرتك، عندما تكررّها، مبتذلة إلى حد أنك تحمرّ خجلاً منها. وإذا أطلقت قولاً أحرق قديم

دون أن يلحظ، ولكن يطلع هاو وصديق يظل يكرره، حتى يجعله أسوأ مما هو. إن هذا شيء مزعج حقاً، وكأنما أوقعك في وحلة.
(ينصرفان)

(عسكري ومدني يتقدمان سوياً)

المدني: هذا أنتم، السادة العسكريين! تقول «هذا ينبغي عرضه على المسرح»، وأنت مستعد مرتين أن تضحك من موظف مدني. ولكن إذا مسوا عسكريين، أو قالوا فقط إن في الفوج الفلاني ضباطاً، ولا حاجة إلى ذكر الانحرافات المعيبة، بل مجرد القول إن هناك ضباطاً من لون سيئ، بسلوكيات غير لائقة، فأنت مستعد، لهذا وحده، أن ترفع شكوى إلى مجلس الدولة نفسه.

العسكري: ولكن اسمع. مَنْ أنا باعتبارك؟ بالطبع، بيننا دون كيشوتيون وعلى شاكلتهم، ولكن صدق أيضاً بأن هناك أناساً حصيفين حقاً سيرون إذا عُرض للسخرية العامة من يشين ربتهم. وما الضير في ذلك؟ اعرضوه، وسنكون مستعدين إلى مشاهدته كل يوم.

المدني (جانباً): المرء دائماً يصيح: «اعرضوه، اعرضوه!»

وحين يعرض يغضب.

(ينصرفان).

(معطفان مخوصران).

المعطف الأول: عند الفرنسيين أيضاً، على سبيل المثال، ولكن كل ذلك عندهم لطيف جداً. أنت تذكر الفودفيل الذي رأيناه يوم أمس. تخلع ثيابها، وتستلقي في فراشها، وتأخذ سلطانية السلاطة من الطاولة، وتضعها تحت السرير. هذا بالطبع غير لائق، ولكنه لطيف. كل ذلك يمكن أن يشاهد، وليست فيه إهانة... زوجتي

وأولادي يذهبون كل يوم للمسرح. أما هنا، فماذا في الحقيقة؟
خسيس، ريفي، ماكنت سأدخله حتى إلى رواق بيتي، يستلقي وهو
في حذائه الطويل، ويتشاءب أو يسلك أسنانه. فأى شيء هذا حقاً؟
على أي منوال؟

المعطف الآخر: عند الفرنسيين شيء آخر هناك société mon cher . وهذا عندنا مستحيل. فالمؤلفان عندنا بلا ثقافة كلياً.
معظمهم تعلم في مدرسة دينية. فتراه ميّالاً إلى السكر وفاجراً في
نفس الوقت. كان يزور خادمي أيضاً أحد هؤلاء المؤلفين. فمن أين
تأتيه مفهوم المجتمع الجيد؟
(ينصرفان).

سيدة راقية (بصحبة رجلين أحدهما في بدلة فراك والآخر في
بزة رسمية): ولكن ما هؤلاء الناس، ما هذه الشخصيات المقدّمة
على الأقل لو كان بينهم واحد جذاب... ولماذا لا يكتبون عندنا
مثلما يكتب الفرنسيون، مثل ديوما مثلاً والآخرين؟ أنا لا أطالب
بنماذج للفضيلة، مثلوا لي امرأة أضلّت سواء السبيل، بل وحتى
خانت زوجها، ولنقل استسلمت لحب غاية في العيب والاستهجان،
ولكن مثلوها بشكل جذاب، يثير عطفها عليها، وحبها لها... أما في
هذه المسرحية فجميع الشخصيات أحدها أبغض من الآخر.

الرجل في البزة الرسمية: نعم، مبتذل، مبتذل.

السيدة الراقية: قل لي لماذا كل شيء عندنا في روسيا ما يزال مبتذلاً
بهذا الشكل؟

الرجل في بدلة الفراك: فيما بعد، يا روجي، نعرف سبب
الابتذال. ينادون الآن على عربتنا.

(ينصرفون)

(يدخل ثلاثة رجال دفعة واحدة).

الأول: ولماذا لا نضحك؟ ممكن أن نضحك. ولكن أي ضحك على موضوع استغلال النفوذ والعيوب؟ ما وجه السخرية هنا؟
الثاني: ولكن مم نضحك؟ من الفضائل، من مكارم الإنسان؟
الأول: لا، ولكن هذا ليس موضوعاً للكوميديا، يا عزيزي! هذا يمس الحكومة، على نحو ما، وكأنما لا توجد مواضيع أخرى يمكن الكتابة عنها؟

الثاني: ماهي المواضيع الأخرى؟

الأول: وهل قلت المصادفات الدنيوية المضحكة؟ طيب، لنضرب مثلاً أنني خرجت للتنزه في جزيرة ابتيكارسكي، ولكنني أجد سائق عربتي قد أخذني إلى ناحية فيبورغ أو إلى دير سمولني. وهل المفارقات المضحكة قليلة؟

الثاني: يعني تريد أن تنفي عن الكوميديا أية دلالة جدية. ولكن لم يشترع القانون الذي لا غنى عنه؟ هناك كثرة من الكوميديات على الذوق الذي ترغب فيه. ولماذا لا يسمح بوجود اثنتين أو ثلاث من مثل هذه الكوميديا التي مثلوها الآن؟ وإذا كان يعجبك الكوميديات من النوع الذي تتحدث عنه فما عليك إلا أن تذهب إلى المسرح فإنك ستري كل يوم مسرحية يختبئ فيها شخص تحت المقعد، وآخر يجره من رجله من مخبئه.

الثالث: ولكن يا سادة، ليس هذا المقصود، لكل شيء حدوده. وهناك أشياء لا يجوز، إذا صح القول، الضحك منها، أشياء مقدسة إلى حد معين.

الثاني: (مع نفسه، بسخرية مريرة). هذا ما يحصل دائماً في الدنيا: تضحك على النبيل حقاً، على ما يمثل مقدسات النفس

السامية فلا تجد مدافعاً، وتضحك على الفاسد، الرذيل، الوضع،
فإذا بالجميع يهتفون: «إنه يضحك على المقدسات!».

الأول: ها أنا أرى أنك الآن مقتنع، فانت لا تنفوه كلمة واحدة.
صدقني لا بد من الاقتناع، فإنها الحقيقة. أنا نفسي رجل منصف،
وأقول ليست كما... ولكن هذا ليس من شأن المؤلف، ليس موضوعاً
للكوميديا. (ينصرفان).

الثاني (مع نفسه): بصراحة ما كنت سأقبل بأن أكون في مكان
المؤلف، مهما يكن من شيء. أعوذ بالله! إذا تناول مواضيع دينية
قليلة الأهمية قال الجميع: «يكتب سخافة، وليس له أي هدف خلقي
عميق» وإذا تناول موضوعاً فيه هدف خلقي جدي نوعاً ما، قالوا:
«هذا ليس شأنه، دعه يؤلف سفاهاً!»...

(ينصرف)

(سيدة شابة من المجتمع الراقي برفقة زوجها).

الزوج: لا أظن عربتنا بعيدة، نستطيع أن نستقبلها قريباً.

السيد (يقرب من السيدة): يا سلام! جئتم لمشاهدة مسرحية

روسية!

السيدة الشابة: وماذا في ذلك؟ يعني ليست لدي ذرة من الوطنية؟

السيد: وإذا كان الأمر كذلك فانت لم تشبعي وطنيتك كثيراً.

أظنك تشتمين المسرحية؟

السيدة الشابة: لا، أبداً، أرى فيها الكثير جداً من الصدق:

ضحكت من كل قلبي.

السيد: لأي شيء ضحكت؟ ألا أنك تحبين الضحك من كل

ما هو روسي؟

السيدة الشابة: لأنها فيها ما يضحك حقاً، ولأنها تعري النذالة

والوضاعة، اللتين ستظلان نذالة أو وضاعة مهما كان الثوب الذي
تتحليان به، ولو أنهما لم تكونا في بلدة إقليمية، بل هنا، فيما حولنا،
وهذا هو ما أضحكني.

السيد ن: قبل حين كانت سيدة ذكية جداً تقول لي إنها ضحكت
أيضاً، ولكن المسرحية مع كل هذا تركت في نفسها انطباعاً حزيناً.

السيدة الشابة: لا أريد أن أعرف بماذا شعرت سيدتك الذكية
جداً، ولكن أعصابي ليست حساسة جداً، وأنا دائماً مسرورة من
الضحك مما هو مضحك ضمناً. أعرف أن هناك طائفة منا مستعدة
على أن تضحك من كل قلبها من أنف الإنسان الأعوج ولكن ليست
لها القوة الخلقية على أن تضحك من نفس إنسان عوجاء.

(من بعيد تبدو سيدة شابة أخرى مع زوجها).

السيد ن: ها هي صاحبتك قادمة. وددت لو أعرف رأيها.

(السيدتان ممدان يديهما الواحدة للأخرى).

السيدة الأولى: رأيت من بعيد كيف كنت تضحكين.

السيدة الثانية: ومن لم يضحك؟ الجميع كانوا يضحكون.

السيد ن: ألم تشعر بشعور محزن؟

السيدة الثانية: بصراحة، شعرت بالحزن بالضبط، أنا أعرف أن
كل ذلك صادق جداً، وأنا نفسي رأيت الكثير مما يشبه ذلك، ومع
كل هذا أحسست بثقل في صدري.

السيد ن: يعني لم تعجبك الكوميديا؟

السيدة الثانية: ولكن اسمع: من يقول ذلك؟ لقد قلت لك إنني
ضحكت من كل قلبي، بل وأكثر من الآخرين. أعتقد أنهم اعتبروني
مجنونة... ولكن كان محزناً لي، حتى كنت أود لو استقر نظري على
وجه واحد طيب. إن هذا الإفراط والإكثار في ما هو وضع...

السيد ن: استمري، استمري!

السيدة الثانية: اسمع، انصح المؤلف بأن يصور ولو إنساناً واحداً نزيهاً، قل له إنهم يطلبون منه ذلك، وأن ذلك سيكون لطيفاً، حقاً.
زوج السيدة الأولى: هذا بالذات لا تنصح به، السيدات يهوين أن يكون هناك فارس حتماً، ليظل يكرر لهن كل كلمة عن النبل، ولو بأكثر الأساليب ابتداءً.

السيدة الثانية: لا، أبداً! ما أقل معرفتكم بنا! هذا من عندياتكم! أنتم بالفعل لا تحبون إلا الكلام والحديث عن النبل. لقد سمعت رأي أحدكم. شخص سمين صرخ صرخة جعلت الجميع، على ما أظن، يلتفتون إليه، قائلاً إن كل ذلك افتراء، وأن مثل هذه الموضوعات والندالات لا وجود لها بيننا. ومن كان يقول ذلك؟ إن أوضع وأنذل إنسان، مستعد لبيع روحه وضميره وكل ما لديه. لا أريد فقط أن أذكر اسمه.

السيد ن: طيب، قولي من هو؟

السيدة الثانية: ولماذا تريد أن تعرف؟ ولكن لم يكن وحده. كنت أسمع باستمرار كيف كانوا يصرخون قربنا: «هذه سخرية مقرفة من روسيا، سخرية من الحكومة! وكيف يسمحون بذلك وماذا سيقول الشعب؟» لماذا كانوا يصرخون؟ لأنهم كانوا يتصورون ويشعرون بذلك بالفعل؟ آسف، لا أظن! بل لأنهم يريدون أن يثيروا ضجة، ليمنعوا المسرحية، لأنهم، ربما وجدوا فيها شبهاً بهم، هؤلاء هم فرسانكم الحقيقيون، اللا مسرحيون.

زوج السيدة الأولى: أوه! بدأ يظهر عليك غيظ صغير!

السيدة الثانية: غيظ، غيظ بالذات! نعم، أنا مغتازة، مغتازة جداً. ولا يمكن أن لا يشعر المرء بالغيظ، وهو يرى الندالة تظهر تحت كل الأقنعة.

زوج السيدة الأولى: أي، نعم، كنت تودين أن يطلع فارس الآن،

ويقفز عبر هاوية، وتنكسر رقبتة....

السيدة الثانية: معذرة.

زوج السيدة الأولى: هذا طبيعي! ماذا تريد المرأة؟ تريد حتماً أن تكون في الحياة علاقات غرامية.

السيدة الثانية: لا، ولا ولا! مستعدة أن أكرر لا مثني مرة! هذه فكرة مبتذلة قديمة، تفرضونها علينا دائماً. للمرأة من الشهامة الأصيلة أكثر مما للرجل. المرأة لا تقدر، ليس لها القوة على ارتكاب النذالات والحفارات التي ترتكبونها أنتم. المرأة لا تستطيع أن تنافق، حيث تنافقون أنتم، ولا تقدر التفاضي عن الموضوعات التي تتفاوضون أنتم عنها. عندها من النبل ما يكفي لتفصح عن ذلك كله دون التلفت في الجانبين لترى هل يروق هذا لأحد أم لا لأن ذلك يجب الإفصاح به. الخسة هي الخسة، مهما غطيتم عليها، وأي مظهر أعطيتموها. ستبقى خسة، خسة، خسة!

زوج السيدة الأولى: ولكنني أراك قد غضبت من كل النواحي.

السيدة الثانية: لأنني صريحة، ولا أستطيع التحمل حين يقولون كذباً.

زوج السيدة الأولى: طيب، لا تغضبي، وهاتي يدك! كنت أمزح.

السيدة الثانية: هاك يدي، لست غاضبة. (تخاطب السيد ن)

اسمع، انصح المؤلف بأن يضيف للكوميديا شخصاً شريفاً نزيهاً.

السيد ن: وكيف سيفعل هذا؟ طيب، يضيف شخصاً نزيهاً، وإذا

طلع هذا الشخص النزيه يشبه فارساً مسرحياً؟

السيدة الثانية: لا، فإن كان سيشعر بقوة وعمق، فإن بطله لن

يكون فارساً مسرحياً.

السيد ن: أظن أن ذلك ليس بالأمر السهل.

السيدة الثانية: الأحسن أن تقول ببساطة إن مؤلفك تنقصه العواطف القلبية العميقة والقوية.

السيد ن: ولم ذاك؟

السيدة الثانية: الذي يضحك دائماً وباستمرار ليست له عواطف رفيعة جداً، ولا يستطيع التعرف على ما يشعر به القلب الرقيق وحده.

السيد ن: هذا حسن! يعني في رأيك أن المؤلف لا يمكن أن يكون إنساناً نبيلًا؟

السيدة الثانية: ها أنت تفسر الكلام بطريقة أخرى. أنا لم أقل كلمة واحدة تشير إلى أن الكوميدي كان مفتقراً إلى النبل والإدراك الواعي للشرف بكل ما في هذه الكلمة من معنى. بل قلت فقط إنه غير قادر على... أن يذرف دمعة صادقة، وأن يحب بقوة، وبكل أعماق قلبه.

زوج السيدة الثانية: ولكن كيف تستطيعين أن تثبي قولك هذا؟...

السيدة الثانية: أستطيع، لأنني أعرف. كل الذين ضحكوا أو كانوا ساخرين، كانوا جميعاً مغرورين. كلهم تقريباً أنايون. أنايون شرفاء، بالطبع، ولكنهم أنايون، على أية حال.

السيد ن: يعني، أنت تفضلين كلياً ذلك النوع من التأليف الذي لا يعرض إلا عواطف الإنسان الرفيعة؟

السيدة الثانية: نعم، بالطبع! أنا دائماً أسمى بها، وأؤمن إيماناً أكبر بمثل هذا المؤلف، صراحة.

زوج السيدة الأولى: (مخاطباً السيد ن) ألا ترى الآن؟ نفس النتيجة هذا هو ذوقهن. أكثر التراجيديات ابتذالاً هي، بالنسبة لهن، أسمى من أحسن كوميديا، لمجرد أنها تراجيديا....

السيدة الثانية: اسكت. سأغضب ثانية (تخاطب السيد ن) طيب، قل لي أليس كلامي صحيحاً. لأن روح الكاتب الكوميدي لا بد أن تكون باردة حتماً؟

زوج السيدة الثانية: أو حارة، لأن الطبع السريع التهيج يثير أيضاً السخریات والانتقادات الهجائية.

السيدة الثانية: طيب، أو سريعة التهيج، ولكن ما يعني هذا؟ هذا يعني أن سبب هذه المؤلفات كانت دائماً الروح الصفراوية. التصلب، السخط وقد تكون لها تبرير من جميع النواحي. ولكن لا دليل على أن ذلك وليد الحب الرفيع نحو الإنسانية، وليد الحب بصفة عامة. أليس صحيحاً؟

السيد ن: هذا صحيح.

السيدة الثانية: طيب قل لي أليس مؤلف الكوميديا بهذه الصورة؟ السيد ن: كيف أقول لك؟ أنا لا أعرفه معرفة قريبة، لأستطيع أن أحكم على روحه. ولكن حين أتمثل إلى ماسمعت عنه فلا بد أن يكون أنانياً أو رجلاً سريع التهيج جداً.

السيدة الثانية: ألا ترى أنني كنت على معرفة جيدة بذلك؟

السيدة الأولى: لا أعرف السبب، ولكنني لا أحب أن يكون أنانياً.

زوج السيدة الأولى: هذا هو خادمنا قادم، يعني أن عربتنا جاهزة وداعاً، (يصافح السيدة الثانية) ألا تأتون إلينا؟ تشربون الشاي عندنا؟

السيدة الأولى (منصرفه): أرجوكم!

السيدة الثانية: بالتأكيد.

زوج السيدة الثانية: أظن عربتنا أيضاً جاهزة

(ينصرفان وراءهما)

(يدخل مشاهدان).

الأول: أريد أن تفسّر لي، إذا أخذت أي حدث أو شخصية أو نموذج على انفراد وجدت كل ذلك صحيحاً، حياً، مأخوذاً من الواقع، أما إذا أخذتها مجتمعة بدت لك مضخّمة، مبالغاً فيها، كاريكاتورية إلى درجة أنك تسأل نفسك لدى مغادرة المسرح: هل مثل هؤلاء الناس موجودون حقاً؟ ومع ذلك فليسوا هم أشراراً.

الثاني: ليسوا أشراراً على الإطلاق. بل ينطبق عليهم المثل القائل: «ليس بالشرير ولكنه على النصب قدير»

الأول: ثم هناك شيء آخر. أليس هذا التراكم المضخم، هذا الإفراط هو نقیصة الكوميديا؟ قل لي أين ذلك المجتمع الذي يتألف من هؤلاء الناس فقط، وليس فيه، إن لم نقل النصف، أو على الأقل، جزء يسير من الناس الأسوياء؟ وإذا كانت الكوميديا يجب أن تكون لوحة ومرآة لحياتنا الاجتماعية، فيجب أن تعكسها بكل حقيقتها.

الثاني: أولاً، في رأيي أن هذه الكوميديا ليست لوحة مطلقاً، بل صورة إيضاحية بالأحرى، أنت ترى أن المشهد ومكان الحدث مثالان. وإلما كان المؤلف سيأتي بأخطاء واضحة ومفارقات تاريخية، ولما وضع على لسان بعض الأشخاص أقوالاً لا تعود لهم سواء من حيث طبيعتهم، أو من حيث مرتبتهم ومنصبهم. الانفعال الأول فقط هو الذي شخص ما ليس له أي ظل لشخصية معينة، وما يعود لهذا القدر أو ذاك إلى الناس كلهم. إن هذه الكوميديا مكان تجميع. من كل أصقاع روسيا تقاطرت إليها الشذوذات عن الحقيقة والضلالات وأعمال استغلال النفوذ لتخدم فكرة واحدة، وهي إثارة النفور النبيل القوي في المشاهد إزاء كل ما هو ضيع. ومما زاد هذا الانطباع قوة أن أي واحد من الأشخاص الممثلين على المسرح لم يفقد مظهره الإنساني. فإن الجوهر الإنساني يتبدى في كل مكان.

وهذا ما جعل خفقان القلب أعمق. والمشاهد، وهو يضحك، يجد نفسه يلتفت إلى الوراء دون أن يدري، وكأنما يشعر بأن ما ضحك منه قريب إليه، وأن عليه أن يظل متيقظاً في كل لحظة حتى لا ينفذ إلى روحه. ولعلّ أضحك ما يوجه إلى المؤلف من انتقادات هو: «لماذا شخصوه وأبطاله غير جذابين» في حين أنه استخدم كل شيء لينفر عنهم. ولكن لو كانت الكوميديا تضم ولو شخصاً واحداً نزيهاً، ومصوراً بكل ما له من جاذبية، لتحوّل الجميع قاطبة إلى جانب هذا الشخص النزيه، ولنسوا كل شيء عن أولئك الذين أربوهم الآن هذا الرعب. ولربما ما كانت هذه الشخصوس ستبقى في خيال المشاهدين باستمرار أناساً أحياء، إلى نهاية المسرحية. ولما تولد لدى المشاهد شعور بالحزن، ولما قال «هل مثل هؤلاء الناس موجودون حقاً؟».

الأول: ولكن ذلك، على أية حال، لا يفهم دفعة واحدة.

الثاني: طبيعي جداً. أن المغزى الضمني يُدرك دائماً فيما بعد، كلما كانت الشخصوس التي يتجسد فيها ويتوزع بينها أكثر حيوية وأشد سطوعاً كلما صار الانتباه إلى هذه الشخصوس أعمّ وأشمل. إن محصلة الإبداع ومغزاه لم يتكونا إلا بعد صياغتها سوية. ولكن فهم هذه المفردات وتوضيها بسرعة، وقراءتها بنظرة شاملة ودفعة واحدة لا تيسر لكل إنسان. وحتى ذلك الحين ولوقت طويل سيظل هذا الإنسان يرى المفردات فقط. وسترى، وأنا أقول لك ذلك مقدماً: قبل كل شيء ستغضب كل بلدة إقليمية في روسيا، وتؤكد بأن ذلك هجاء حاقد، افتراء مبتذل وضيع موجه إليها بالذات.

(ينصرفان)

موظف: هذا افتراء مبتذل، وضيع. هذا هجاء، طعن!

موظف آخر: الآن، إذأ، لم يبق أي شيء، لا حاجة إلى قوانين، ولا حاجة إلى وظيفة. ولا حاجة إلى البزة الرسمية التي عليّ ويجب

رميها. هي الآن خرقه.

(يركض شابان).

أحدهما. أوه، الجميع مملكتهم الغضب، سمعت من الأحاديث،
ما يجعلني، إذا نظرت إلى أي إنسان، أن أحس ما يفكر في نفسه
عن المسرحية.

الآخر: طيب، ماذا يفكر هذا؟

الأول: الذي يضع ذراعه في كم معطفه؟

الآخر: نعم.

الأول: هذا يفكر «على مثل هذه الكوميديا تستحق النفي إلى
نيرتشينسك^(١)» على كل حال، يبدو أن المشاهدين في طبقات
المسرح العليا أخذوا يخرجون. الظاهر أن الفوديل انتهى. سيتدفق
عامة الناس الآن لنخرج.

(ينصرفان).

(يتزايد الضجيج، وتصدر كركبة الأرجل من جميع السلام.
تراكض القفاطين، والمعاطف المدبوغة، والقلنسوات النسائية،
وقفاطين التجار الألمانية الطويلة، والقبعات الثلاثية، والقبعات
المريشة، والمعاطف من شتى الأصناف، اعتيادية وعسكرية
ومستهلكة وذات ياقات فرائية. الجمع يدفع سيداً يضع ذراعه في
ردن معطفه، فيتحنى السيد، ويواصل لباس معطفه في ناحية. يظهر
في الحشد سادة وموظفون من كل الأنواع والأصناف خدم في بزة
خدم يزبحون الناس عن طريق سيداتهم، تردد صيحة نسائية: «يا
أولياء، حصروني من كل الجهات»)

(١) منطقة في سيبيريا، حيث نفي الديسمبريون. المترجم.

موظف شاب ذو طبع مراوغ. (يتقدم من السيد الذي يلبس معطفه). يا صاحب السعادة، اسمحوا لي بأن أسندكم! السيد ذو المعطف: آه، مرحباً، أنت هنا، جئت لمشاهدة المسرحية؟ الموظف الشاب: نعم، يا صاحب السعادة. مسلية بملاحظاتنا الدقيقة.

السيد ذو المعطف: هراء! ليس فيها ما يُسلي. الموظف الشاب: هذا صحيح، يا صاحب السعادة، ليس فيها ما يسلي إطلاقاً.

السيد ذو المعطف: مثل هذه الأشياء تستحق الجلد، لا الثناء. الموظف الشاب: هذا صحيح، يا صاحب السعادة.

السيد ذو المعطف: إنهم يسمحون للشباب بالدخول إلى المسرح. لا أراهم يجنون من ذلك فائدة كبيرة. ها أنت مصلاً، ستذهب إلى دائرتك غداً، وتغلف القول بلا حياء، أليس كلامي صحيحاً؟

الموظف الشاب: غير ممكن، يا صاحب السعادة!... اسمح لي بأن أزيح الناس عن طريقكم! (يدفع هذا وذاك من الناس ويصبح على الجميع). يا هؤلاء، تنحوا، الجنرال قادم! (يقترّب باحترام مبالغ من رجلين حسني الهمد). أيها السادة، اعملوا معروفًا، واجعلوا الجنرال يمرّ.

(الرجلان الحسنان الهمد يتحيان ويفسحان الطريق).

الأول: ألا تعرف أي جنرال هو؟ ربما هو مشهور؟

الثاني: لا أعرف. لم أره من قبل.

موظف كثير الكلام (يتقدم منهما من الخلف): مجرد مستشار مدني، مسجل على الدرجة الرابعة بأحقّيته. يالها من سعادة! في خمسة عشر عاماً من الخدمة منح وسام فلاديمير، وآنا، وستانسلاف،

وثلاثة آلاف روبل مرتباً، وألفين إضافة للمصروفات الجانبية، ثم ما يطلع له من المجلس، ومن اللجنة، ومن الدائرة.

الرجلان الحسنان الهندام (أحدهما للآخر): لنصرف!

(ينصرفان)

الموظف الكثير الكلام: أظنهما مدللين من أمهما. ربما يشتغلان في نظارة الخارجية. أنا لا أحب الكوميديا، ذوقي يميل إلى التراجيديا أكثر. (ينصرف).

صوت من الزحام: ياه، ما أكثر الناس!

ضابط (يشق طريقه متباطئاً ذراع سيدة): هاي، يا أبا لحية، ما هذا التدافع؟ ألا ترى السيدة؟

التاجر (متباطئاً ذراع سيدة): عندنا أيضاً سيدة.

صوت من الزحام: هاهي استدارت، هل تراها؟ ازدادت قبحاً، ولكن قبل ثلاثة أعوام....

أصوات متنوعة: وثلاث قطع نقدية، تسمع، أخذت منه البقية مسرحية حقيرة شنيعة! مسرحية مسلية! مالك تدوس على خناقِي؟

صوت من أحد طرفي الزحام: كل هذا سخافة! أين أمكن أن يحدث هذا؟ مثل هذا لا يمكن أن يحدث إلا في جزيرة تشوكوتكا.

صوت من الطرف الآخر: مثل هذا الحادث بالضبط حدث في بلدتنا. من المحتمل أن يكون المؤلف قد سمع به، إن لم يكن نفسه موجوداً هناك.

صوت التاجر: ولكنه هنا لا مؤاخذه، يُشدّد على الناحية «الأخلاقية» أكثر، إذا صح القول. ثم ما أكثر ما يحدث في الدنيا، في الحقيقة! هذا قد يقع للرجل النزيه أيضاً، لا مؤاخذه... أما من الناحية «الأخلاقية» فيحصل للنبلاء أيضاً.

صوت سيد مشجع: لابد أنه مؤلف مكار غشاش، جرّب كل شيء، ويعرف كل شيء!

صوت موظف مقتناظ: ولكنه مجرّب، على ما يبدو. ماذا يعرف؟ لا يعرف شيئاً إطلاقاً! إنه يكذب، يكذب. كل ما كتبه، كل ذلك أكاذيب. والرشاوى لا تؤخذ بهذا الشكل، إذا أردنا الحقيقة....

صوت موظف آخر من الزحام: مالك تكرر: «مضحكة، مضحكة»! هل تعرف لماذا هي مضحكة؟ كلها عن أشخاص معينين. عرض على المسرح جداته وعماته. ولهذا فهي مضحكة.

صوت مجهول: الحقوني، سرقوا المنديل!

(ضابطان يعرف أحدهما الآخر يتكلمان عبر الزحام).

الأول: ميشيل، إلى هناك؟

الثاني: إلى هناك؟

الأول: وأنا ساكون هناك أيضاً.

موظف وجيه المظهر: لو كان الأمر بيدي لمنعت كل شيء. لا حاجة إلى نشر أي شيء. استفيدوا من التعليم، واقروا، ولكن لا تكتبوا. كُتب ما يكفي من الكتب ولا حاجة إلى المزيد.

صوت من الجمهور: إذا أنت وغد، فأنت وغد على كل حال وحين لا تكونه لا أحد يضحك منك.

سيد جميل مكتنز (يتحدث بحرارة مع آخر دميم قصير): الأخلاق، الأخلاق تعانين هذا هو أهم شيء!..

السيد الدميم القصير واللاذع اللسان: ولكن الأخلاق شيء نسبي.

السيد الجميل المكتنز: ماذا تعني بصفة «النسبي» هذه؟

السيد الديميم والسلاذع اللسان: أقصد أن كل إنسان يقيس الأخلاق على نفسه. وأحد يرى الأخلاق أن يرفع الناس له قبعاتهم عند التقائه في الشارع، والآخر يرى الأخلاق في التفاضل عما يسرقه هو، والثالث يرى الخلاق في الخدمات التي تقدم لمحضيته. أليس من المألوف أني قول أي واحد منا لمروسيه بتعال: «يا حضرة المحترم، اسع إلى القيام بواجبك لما فيه خير ربك والقيصر والوطن». وتعال فكر بعد ذلك مع نفسك فيما هو هذا الخير. وعلى العموم هذا ما يحصل في الأقاليم، ولا وجود له في العواصم. أليس كذلك؟ وإذا صار لأحد الأشخاص هنا بيتان فجأة في ظرف ثلاث سنوات فما سببه؟ أظنه نزاهة لا غير أليس كذلك؟

السيد الجميل المكتنز (جانبا): دميم كالشيطان، ولكن له لسان الأفعى.

السيد الديميم السلاذع اللسان (يلكز ذراع رجل غريب عليه مماماً، مشيراً إلى السيد الجميل): أربعة بيوت في شارع واحد، ارتفعت واحداً جنب الآخر خلال ستة أعوام! انظر أي تأثير للنزاهة على مخلوق خامل. ها؟

الغريب (يتعد مسرعاً): اعذرني، لم أسمع كل كلامك.

الديميم السلاذع اللسان (يلكز ذراع جاره الغريب عليه): كيف استشرى الطرش الآن في المدينة! إنه المناخ الرطب غير السليم يخلف أثره.

الجار الغريب: والزكام استشرى كذلك! جميع أولادي أصيبوا به!

الديميم السلاذع اللسان: نعم، الزكام والطرش. والتهاب اللوزتين أيضاً (يختفي في الزحام).

(حديث في مجموعة في ناحية)

الأول: يقولون إن الحادث ذاته وقع للمؤلف نفسه. قضى مدة طويلة في سجن إحدى البلدات.

سيد في الطرف الآخر من المجموعة (يعلق على كلامه): لا، لم يكن هذا في سجن، بل في برج، وقد رآه الذين مروا من هناك. يقولون كان شيئاً عظيماً. تصوّروا شاعراً على أعلى برج، وحوله جبال ومناظر خلّابة، وهو ينشد الأشعار من هناك، أليست هذه ميزة خاصة بالشاعر؟..

سيد إيجابى: لا بد أن يكون المؤلف ذكياً.

سيد سلبى: ليس ذكياً أبداً أعرف أنه كان في وظيفة، وكاد يُطرد منها، لأنه لم يكن يعرف كتابة الرجاءات.

مجرد كذاب. دماغ فطن، فطن! ظلوا زمناً طويلاً يرفضون إعطاءه وظيفة. فماذا تتصورون؟ كتب رسالة إلى الوزير مباشرة. وأية رسالة! على طريق الإطناب والإسهاب. حالما بدأ بـ «يا صاحب المعالي...» حتى سال القلم وسال.... وحبر ثماني صفحات. وعندما قرأها الوزير قال «شكراً، شكراً!، ها أنا أرى أن لك أعداء كثيرين: ساعينك رئيس قسم!» وهكذا انتقل رأساً من صنف الكتبة إلى رئيس قسم. السيد الطيب القلب (مخاطباً شخصاً آخر بارد الأعصاب): الله يعلم. من يصدق الإنسان! هذا يقول: كان في السجن، وذاك صعد على برج! وهذا طرده من الوظيفة، وذاك أسندوا له رئاسة قسم! السيد البارد الأعصاب: خذ الكلام على عواهنه؟.

السيد الطيب القلب: كيف على عواهنه؟

السيد البارد الأعصاب: أقصد هم أنفسهم لا يعرفون ماذا سيسمعون من ألسنتهم بعد دقيقتين. اللسان يلوك الأخبار بلا رقابة من صاحبه. وصاحبه مرتاح يعود إلى البيت، وكأنه شبع من اللوك.

وفي اليوم التالي يكون قد نسي ما لفقه. يتصور أنه سمعه من آخرين
فينشره في المدينة كلها.

السيد الطيب القلب: ولكن من المخجل أن تكذب دون أن تحس
أنت بذلك.

السيد البارد الأعصاب: وهناك حساسون أيضاً هناك من
يحسبون بأنهم يكذبون، ولكن يرونه ضرورة للحديث، على المثل
القائل: السنايل زينة الحقل، والكذب زينة الحديث.

سيدة من مجتمع وسط: ولكن لا بد أن يكون هازئاً شديد الحقد
هذا المؤلف! لا أريد بصراحة أن تقع عيناه عليّ. فقد يلحظ شيئاً
مضحكاً فيّ.

سيد ذو اعتبار: أنا لا أعرف أي إنسان هو. هذا، هذا، هذا.....
لا شيء مقدس عند هذا الرجل. اليوم يقول هذا الموظف سيئ. وغداً
سيقول الله غير موجود. بين هذا وذلك خطوة واحدة.

سيد ثان: استهزاء! ولكن لا يجوز المزاح بالاستهزاء. هذا يعني
هدم كل احترام. هذا معناه. وبعد هذا كله سيضربني أي شخص في
الشارع ويقول: «إنهم يضحكون منكم، فأنت تحمل نفس الرتبة،
تلق هذه الصفعة إذا!»، هذا معناه.

سيد ثالث: بالطبع هذا شيء خطير! يقولون «هذه العوبة، أمر
تافه، تمثيل مسرحي». لا، هذه ليست ألعيب بسيطة، ويجب النظر
إليه باهتمام صارم، مثل هذه الأشياء توجب الوعي إلى سييريا. لو
كانت لي سلطة لجعلت هذا المؤلف لا ينطق بحرف، ولأرسلته إلى
مكان لا يرى فيه حتى ضوء النهار.

(تظهر جماعة من الناس من غط غريب، ولكنهم ذوو مظهر
نبيل، وملبس معتبر).

الأول: الأحسن أن نقف هنا، حتى ينجلي الزحام، ما هذا في الحقيقة! ضجة وتصفيق وكان في الأمر معجزة أو شيئاً لا يعرفه إلا الله. مسرحية تافهة، فارغة المضمون، ولكنهم يثيرون الضجيج ويصرخون، ويدعون المؤلف إلى الظهور على المسرح. فأي شيء هذا!...

الثاني: المسرحية. على العموم، أشاعت المرح، وأثارت التشويق. الأول: أي، نعم، أشاعت المرح، مثلما يثيره أي عبث. ولكن لماذا تسبب هذه الصرخات والأقاويل؟ يتناقشون، وكأنما في شيء مهم، ويصفقون.... ولكن ما هذا؟ طيب، أنا أفهم، إذا كان على المسرح مغن أو راقصة. هذا مفهوم، لأن الناس تعجب بالفن، باللدانة، بالخفة، بالموهبة الأصلية. ولكن ماذا هنا؟ يصيحون: «أديب! أديب! أديب! كاتب!» وأي شيء هو الكاتب؟ كلمة نابهة ترد هنا وهناك، وتصوير منقوش من الواقع.... وأي جهد في هذا؟ ماذا فيه؟ هي أباطيل لا أكثر.

الثاني: صحيح، إنها مسرحية تافهة.

الأول: خذ الراقص، مثلاً، فن، على كل حال. ولا تستطيع أن تقوم بما يقوم به. قد تكون لدي الرغبة، مثلاً، ولكن رجلي لا تستجيبان لي. أريد أن أقفز، ولكن هيهات. ولكن الكتابة ممكنة حتى لغير المتعلم. أنا لا أعرف من هذا المؤلف، ولكنني سمعت أنه إنسان جاهل تماماً، ولا يعرف أي شيء. يبدو أنه مطرود من وظيفته.

الثاني: ولكن لا بد أن يعرف شيئاً. فبدون ذلك يستحيل أن يكتب.

الأول: أوه، يا صاحبي وماذا يمكن أن يعرف؟ أنت نفسك تعرف ماهو الأديب: أفرغ إنسان. العالم كله يعرف أنه لا يصلح لأي شيء. حاولوا استخدام هؤلاء الناس، وتركوهم. طيب، قل لي، ما هذا الذي

يكتبونه؟ سفاسف، وأباطيل! أنا إذا أردت كتبت حالاً، وأنت أيضاً تقدر، وهو يقدر، وأي شخص يقدر.

الثاني: نعم، بالطبع، ولم لا، ذرة من العقل ونقدر.

الأول: حتى العقل لا حاجة له. وما علاقة العقل هنا؟ هذا مجرد تلفيق أباطيل، قد تكون هناك حاجة إلى العقل إذا كان الأمر يتعلق بعلم ودراسة، مثلاً، بمادة لا تعرفها بعد، أما هذا، فأبي شيء هو؟ يعرفه كل مَنْ هب ودب. تراه في الشارع كل يوم. وما عليك إلا أن تجلس عند النافذة، وتكتب كل ما يحصل. وهذا كل ما في الأمر! الثالث: هذا صحيح. تصوّر، يضيعون الوقت على مثل هذه السخافة!

الأول: ضياع الوقت بالذات، ولا أكثر! هؤلاء صانعو أباطيل وخزعبلات. وما عليك إلا أن تمنعهم من أن يمسكوا الريشة والمحبرة في أيديهم. على كل حال، الناس يخرجون، فلنذهب! ضجيج، وصياح، وتشجيع! بينما لا شيء غير التفاهة! أباطيل! (ينصرفون. انفضّ الزحام وبعض المتأخرين يركضون).

موظف طيب القلب. على كل حال، لو مثلوا لنا شخصاً واحداً نزيهاً! ولكن الجميع نصابون، ونصابون! واحد من الشعب: اسمع، انتظري عند مفرق الطريق! وسأخذ أنا قفازي بسرعة.

واحد من السادة (ينظر في ساعته): الساعة الواحدة بعد منتصف الليل تقريباً. لم أناخر قط في الخروج من المسرح هذا التأخير. (ينصرف).

موظف متأخر: ضاع الوقت هباء! لا، لن أذهب إلى المسرح بعد الآن! (ينصرف). (الرواق يفرغ).

مؤلف المسرحية (يتقدم): سمعت أكثر مما كنت أنتظر. مجموعة شتى من الأقوال! سعيد ذلك الكوميدي الذي يولد في أمة حيث المجتمع لم يتكوّر بعد في كتلة واحدة جامدة، ولم يتغلّف بقشرة واحدة من النعرة القديمة التي تحصر أفكار الجميع في قالب واحد، ومقياس واحد، وحيث لكل إنسان رأيه، وكل إنسان يخلق شخصيته بنفسه. تنوع كبير في هذه الآراء، وتآلق شامل لهذا العقل الروسي الركين الصافي، سواء في الطموح النبيل لرجل الدولة، أو في التفاني السامي للموظف المنزوي في صقع ناء! أو في الجمال الرقيق للمرأة الأريحية النفس! في الشعور الجمالي لهواة الفن! وفي الإحساس البسيط والأصيل للشعب! وحتى في تلك الآراء السلبية الناكرة الكثير مما ينبغي أن يعرفه الكوميدي! أي درس حيّ هذا! نعم، أنا مرتاح. ولكن لماذا يثقل الحزن على قلبي؟ من الغريب أن أحداً لم يلحظ، مع الأسف، وجود أي شخص نزيه في مسرحيتي. بينما فيها شخص واحد نزيه شهم يظهر طوال المسرحية كلها. إن هذا الشخص النزيه الشهم هو الضحك. كان شهماً، لأنه عزم على المشاركة في التمثيل، على الرغم من الأهمية الضئيلة التي تُعطى له في الحياة. كان شهماً، لأنه عزم على المشاركة، على الرغم من أنه ألحق بالكوميدي صفة مهينة، صفة الأناني البارد، بل وجعل الآخرين يتشككون حتى في امتلاكه العواطف القلبية الرقيقة. إن أحداً لم يقف إلى جانب الضحك هذا. وأنا كوميدي، خدمته بإخلاص، ولهذا يجب أن أقف إلى جانبه. إن الضحك أكثر أهمية وأعمق مما يتصور الناس. وأنا لا أعني ذلك الضحك الذي يولده التهيج المؤقت، والمزاج الصفراوي المرضي، ولا ذلك الضحك الخفيف الذي يستخدم للتسلية الرخيصة وإلهاء الناس. بل ذلك الضحك النابع بكليته من طبيعة الإنسان الوضاعة، النابع منها، لأن في قاعها يوجد ينبوعه المتدفق أبداً، الضحك الذي يعمق الموضوع، ويخرج من الباطن ويجعل ما سبضيع حتماً يتآلق ساطعاً، ولولا قوته النافذة، لما أفرغت

الحياة الإنسانية هذا الفرع الرهيب بصغائرها وخوائها. ولما تضخم ما يصادفه كل يوم من مزدري وتافه، وهو غير مكترث، لينمو أمامه بتلك القوة الرهيبة، الكاريزماتورية تقريباً، ولما صرخ مرتعداً: «هل من المعقول أن هناك مثل هؤلاء الناس؟» بينما يوجد، في وعيه الذاتي، أناس أسوأ. لا. ليسوا منصفين أولئك الذين يزعمون أن الضحك يزعجهم. فالزعج هو الكتيب وحده، أما الضحك فيبهج النفس. أشياء كثيرة لو مثلت في عريها أزعجت الإنسان، ولكنها ستثير الطمأنينة في النفس لو نورتها قوة الضحك. والذي كان من الممكن أن ينتقم من الشرير سيتسامح معه، إذا رأى حركات نفسه الدنيئة موضع إضحاك للناس. وليسوا على حق أولئك الذين يقولون بأن الضحك لا يؤثر في الذي يُشهر ضده، والمحتال سيكون أول من يضحك من المحتال الذي يُمثل على المسرح. إن المحتال القادم قد يضحك، ولكن ليس في مقدور المحتال الذي غابش الأحداث الممثلة في المسرحية أن يضحك! فهو يسمع أنه صار لدى جميع الناس صورة ثابتة لا تتغير، وإن أية حركة وضيعة من جانبه تكفي لأن تعلق به هذه الصورة إلى الأبد. إن السخریات مخيفة حتى لمن لا يخاف أي شيء في الدنيا. أجل، إن النفس الطيبة من الأعماق وحدها قادرة على أن تضحك الضحك الطيب المشرق. ولكن الناس لا تستمع إلى قوة هذا الضحك الجبارة فالمجتمع الراقى يقول: «كل ما هو مضحك وضيع»، والسمو لا يطلق إلا على ما ينطق بالصوت الصارم المتوتر. ولكن، أواه! كم يجرّ أماننا كل يوم من الذين لا يستشعرون السمو في أي شيء في الدنيا! فكل ما أبدعه الإلهام الروحي هو، بالنسبة لهم، سفاسف، وأباطيل. أعمال شكسبير عندهم أباطيل، خفقات الروح القدسية عندهم أباطيل. وأنا لا أقول ذلك ثاراً للكبرياء الكاتب المهانة التافهة، ولا لأن أعمالي الضعيفة وصفت قبل لحظات بالأباطيل، بل أرى عيوبي، وما يستحق العتاب والاستنكار، ولكن روحي السمحة لم تستطع أن تتحمل بلا اكتراث، حين وصفت أكمل الإبداعات

بالسفساف والأباطيل ولم يعترف بنجوم المجتمع وأساطينه بغير صانعي الأباطيل! روحي توجعت، حين رأيت كم هم كثيرون هنا أيضاً، وسط الحياة نفسها، أولئك الشؤقة اللامبالين، الأنفس الميتة، المرعبين ببرود روحهم، وعقم قلبهم الفارغ. توجعت روحي، حين لم يرف على وجوههم الخالية من العطف حتى طيف إحساس بما كان يجعل النفس العميقة الحب تذرف الدموع السماوية، ولم يخمد لسانهم من تردد كلمته المستديمة «سفساف وأباطيل»! أباطيل!... وقد مرّت القرون، واندثرت المدن والشعوب، وامت من وجه الأرض، وتلاشى كل ما كان كالمدخان، وهذه «أباطيل» حية، وتعاد حتى اليوم، ويستلهمها القياصرة الحكماء، والحكام المتبصرون، الشيخ الجليل، والشاب المفعم بالطموح النبيل. «أباطيل»!.. ولكن ها هي شرفات المسارح وسلالمها تنن، فقد اهتز كل شيء من الأسفل إلى فوق، وتحول إلى شعور واحد، إلى لحظة واحدة، إلى شخص واحد، والتقى جميع الناس، كالأخوة، في عاطفة قلبية واحدة، وينشد التصفيق الجماعي الهادر نشيد الامتنان لذلك الذي غادر الدنيا منذ خمسمئة عام. فهل تسمع هذا النشيد عظامه النخرة في القبر؟ وهل ترد روحه التي عانت من شظف الحياة الفظ؟ «أباطيل»!... وهنا بين صفوف الحشد المتأثر رجل سحقته المصيبة، ورهق الحياة الذي لا يحتمل، وهياه اليأس للانتحار، حضر العرض، وطفرت الدموع المنعشة المطهرة من عينيه فجأة، وخرج مطمئناً ومتصالحاً مع الحياة، يسترحم السماء بأن تمتحنه مرة أخرى ببليّة وعذابات، لمجرد أن يعيش ويذرف الدموع مرة أخرى من مثل هذه «الأباطيل». «أباطيل»!.. ولكن العالم سيفغفو بدون هذه «الأباطيل»، وتضلح الحياة، ويخيم على النفوس العفن والحماة. «الأباطيل»!.. ألا فلتبق مخلدة مقدسة في الأجيال القادمة أسماء الذين استلهموا هذه «الأباطيل» بإخلاص وعطف. ولتظل يد العناية الإلهية تبارك مبدعها أبد الآبدين. وحتى في لحظات المآسي والمضايقات كانت تجد الحماية، قبل كل شيء،

لدى أنبل من في الدولة: لدى العاهل المتوج الذي كان يحميها
بدرع مُلكه من علياء عرشه المنيع.

فسر في طريقك أكثر حيوية! ولا تتكدر روحك من اللوم
والعتاب، ولكن تقبل بسماحة نفس الإشارة إلى النقائص، ولا
يحزنك حتى لو أنكرت عليها الخلجات السامية، وحب الإنسانية
المقدس! إن الدنيا كالدوامة تتقلب فيها الآراء والأقوال دائماً. ولكن
الزمن يطحن كل شيء. الكاذب منها يتطاير كالقشور، وتبقى
الحقائق الدامغة كالحبوب الصلبة. وقد يكتسب أهمية بالغة في
المستقبل ما كان يسمى تافهاً ومجرداً من المغزى وقد تنشأ في عمق
الضحك البارد الشرارات اللاهبة للحب الأبدي الجبار. ومن يدري،
فقد يعترف الجميع فيما بعد بمفعول القوانين التي تجعل الإنسان
المتكبر القوي تافهاً وضعيفاً عند البلية، ويشتد الضعيف بين النكبات
ويصير كالعملاق. قد يعترفون بموجب تلك القوانين ذاتها بأن: من
يذرف الدموع القلبية الصادقة غالباً، يكون أكثر الناس ضحكاً، على
ما يبدو!

فطوية

قصة غير محتملة الوقوع إطلاقاً في فصلين
(كُتبت في ١٨٣٣).

الشخصيات

آغافيا تيخونوفنا	ابنة تاجر، الخطيبة.
أرينا بانتيليمونوفنا	عمتها.
فيكلا ايفانوفنا	الخطابة.
بودكليسين	موظف من الدرجة الراقية.
كوتشكاريوف	صديقه.
بايتشنيتسا	مسؤول إدارة.
انوتشكين	ضابط مشاة متقاعد.
جيفاكين	بحارز
دونياشكا	وصيفة.
ستاريكوف	تاجر في سوق المدينة.
ستيان	خادم بودكليسين.

الفصل الأول

المشهد الأول

(غرفة أعزب).

بودكليسین (یرقد وحده على الأريكة يدخن غليوناً).

حالمًا تخلو إلى نفسك في أوقات الفراغ لتفكر حتى ترى من الضروري أن تتزوج في آخر المطاف. وماذا في ذلك في الواقع؟ أنت تقضي أيامك ولياليك، إلى أن تسوء حالتك في النهاية. آه، فوّت عليّ عيد الفطر مرة أخرى. يبدو أن كل شيء جاهز، والخطابة تتردد عليّ منذ ثلاثة أشهر. أشعر بالخجل من نفسي حقاً. أسمع، يا ستيبان.

المشهد الثاني

(بودكليسین و ستيان).

بودكليسین: ألم تأتِ الخطابة؟

ستيان: لا.

بودكليسین: هل كنتَ عند الخياط؟

ستيان: كنتُ.

بودكليسین: هل هو يشتغل في خياطة الفراك؟

ستيان: نعم.

بودكليسین: وأنجز كثيراً؟

ستيان: نعم، إلى حد ما. بدأ يدرز العروات.

بودكليسین: ماذا تقول؟

ستيان: أقول بدأ يدرز العروات.

بودكليسین: ألم يسأل لماذا يحتاج سيدك إلى بدلة فراك؟

ستيان: لا، لم يسأل.

بودكليسین: ربما قال ألا يحب السيد أن يتزوج؟

ستيان: لا، لم يقل شيئاً.

بودكليسین: على كل حال، هل رأيت عنده بدلات فراك أخرى؟

فهو يخيط للآخرين أيضاً؟

ستيان: نعم، عنه بدلات فراك كثيرة معلقة.

بودكليسین: علی العموم اظن قماشها أسوأ من قماش بدلتی؟

ستیان: نعم، قماش بدلتك یدو أكثر رونقاً.

بودكليسین: ماذا تقول؟

ستیان: أقول قماش بدلتك یدو أكثر رونقاً.

بودكليسین: طیب، طیب. ألم یسأل لماذا یفصل سیدك بدلة فراك

من قماش ناعم فاخر؟

ستیان: لا.

بودكليسین: ولم یطرق إلى أنني أريد أن أتزوج؟

ستیان: لا، لم یذكر ذلك.

بودكليسین: علی كل هل قلت ما هي ربتی، وفي أي دائرة

أعمل؟

ستیان: قلت.

بودكليسین: وماذا علّق؟

ستیان: یقول سأبدل جهدي.

بودكليسین: طیب، اطلع، الآن.

(ستیان ینصرف).

المشهد الثالث

(بودكليسين وحده).

أعتقد بدلة الفراك السوداء أكثر اعتباراً، الملوّنة تليق أكثر بذوي
الرتب الصغيرة، بأناس تافهين. وذوو الرتب الأعلى يجب أن يراعوا
ماذا يسمونه... أوه، نسيت الكلمة! كلمة لطيفة، ولكن نسيها.
نعم، يا مولاي، مهما قلّبت الأمر مع نفسك فإن رتبتك تعادل رتبة
عقيد. سوى أن بزّتك بلا كتابيات. ستيان، تعال!.

المشهد الرابع

(بودكليسین وستیان).

بودكليسین: اشتریت دهاناً للحذاء؟

ستیان: اشتریت.

بودكليسین: من أين اشتریته؟ من الدكان الذي قلت لك عنه، في شارع فوزنسينسكي؟

ستیان: نعم، منه بالضبط.

بودكليسین: والدهان جيد؟

ستیان: جيد.

بودكليسین: وهل جربت دهن الجزمة به؟

ستیان: جرّبت.

بودكليسین: وتلمع؟

ستیان: تلمع جداً، على أحسن ما يرام.

بودكليسین: وحين أعطاك الدهان ألم يسأل لماذا يحتاج سيدك

إلى مثل هذا الدهان؟

ستیان: لا.

بودكليسین: ألم يقل أن سيدك ينوي الزواج؟..

ستیان: لا، لم يقل شيئاً.

بودكليسین: طيب، اطلع.

المشهد الخامس

(بودكليسين وحده).

الجزمة تبدو لا شيء في الوهلة الأولى، ولكن، إذا كان فصالها رديئاً، والدهان علاوة على ذلك أصفر على أحمر، عند ذاك لا تجد احتراماً في المجتمع الراقى. لا يستقبلونك بالقدر اللائق من الاحترام... ولكن لا شيء أكثر إزعاجاً حين تخلف في قدميك مسامير. أنا مستعد أن أتحمّل كل شيء ما عدا مسامير القدم. تعال، يا ستيان!

المشهد السادس

(بودكليسین و ستيان).

ستيان: ماذا تأمر؟

بودكليسین: هل قلت للإسكاف أن يصنع جزمة لا تخلف
مسامير في القدم؟

ستيان: قلت.

بودكليسین: وماذا يقول؟

ستيان: يقول، حسناً.

(ستيان ينصرف).

المشهد السابع

(بودكليسين، وبعد ذلك ستيان).

بودكليسين: الزواج شيء متعب، عليه اللعنة! تقوم بهذا وتفعل ذلك. ليكون سليماً صالحاً. آوه، ما ألعنه، ليس بالسهولة التي يتصورها الناس. اسمع، يا ستيان!

(ستيان. يدخل).

أردت أن أقول لك أيضاً...

ستيان: العجوز وصلت.

بودكليسين: ها، وصلت، أدعها إلى هنا.

(ستيان ينصرف).

آوه، هذا شيء... يعني شيء... شيء صعب.

المشهد الثامن

(بودكليسين وفيكلا)

بودكليسين: أهلا، أهلا، يا فيكلا إيفانوفنا. طيب؟ كيف؟ تناولي مقعداً، واجلسي، واحكي لي. طيب، كيف وكيف؟ كيف هي، اللي اسمها... نسيت... ملانيا؟
فيكلا: أغافيا تيخونوفنا.

بودكليسين: نعم، نعم، أغافيا تيخونوفنا. أظنها آنسة في الأربعين؟
فيكلا: لا، أبداً. يعني إذا تزوجتها ستمتدحني وتشكرني طوال عمرك.

بودكليسين: تكذابين يا فيكلا إيفانوفنا.

فيكلا: كبرت على الكذب، يا عم، الكلب يكذب.

بودكليسين: وجهاز العروس، الجهاز؟ أعيدي الكلام عنه مرة أخرى.

فيكلا: جهاز العروس بيت آجري في الحي الجنوبي، من طابقين، يأتي بأرباح تفتح النفس، أحد التجار يدفع سبعمئة على حانوته فيه. وحانة في سرداب تجذب الزبائن الراقسين. وملحقان من الخشب، الملحق الأول خشبي كله، والملحق الثاني له أساس من الحجر. كل واحد منهما يعطي أربعمئة روبل ربح. ويوجد أيضاً بستان خضراوات في ناحية فيرغسكايا استأجره تاجر قبل سنتين كان يزرع الكرنب فيه، ويا عيني عليه من تاجر، لا يضع قطرة خمر في فمه، وله ثلاثة أبناء. زوُج اثنين منهم، والثالث يقول عنه ما يزال صبياً،

ويتركه في حانوته ليساعده في البيع. يقول أنا عجوز فليجلس في الدكان ليسهل عليّ البيع.

بودكليسين: وهي، كيف هي؟

فيكلا: مثل السكر الصافي! بيضاء موردة، جمال وعافية. آخر حلاوة! يعجز اللسان. ستكون مرتاحاً إلى هنا (تشير إلى حنجرتها). أقصد ستقول للصديق والعدو: «الشكر، الشكر الجزيل لفيكلا ايغانوفنا».

بودكليسين: ولكنها ليست من عائلة راقية.

فيكلا: ابنة تاجر عال العال، حتى الجنرال لا يأنف من الزواج منها. لا تريد حتى أن تسمع باسم تاجر إذا تقدم لخطبتها. تقول لي: «أريد زوجاً من الأشراف حتى لو كان دميم الخلقة». وأي ظرف وكياشه! وفي أيام الآحاد حين تلبس فستانها الحريري وتهفّف به وحق المسيح لا تحسبها إلا أميرة.

بودكليسين: أنا أسألك لأنني مستشار برتبة مقدم، يعني أريد، أنت تفهمين...

فيكلا: أكيد أفهم وكيف لا أفهم. كان عندنا خطيب برتبة مقدم أيضاً، ولكنهم رفضوه، لم يعجبهم. وكان له طبع عجيب غريب، لا يقول كلمة إلا ويكذب، بينما كان لطيف الشكل من الخارج. ما العمل؟ هكذا خلقه الله. هو نفسه غير مرتاح من ذلك، يعني من كذبه المستمر ولا يقدر أن يقاوم نفسه، هذه إرادة ربنا.

بودكليسين: طيب، غيرها، لا توجد أخريات؟

فيكلا: ولماذا تريد غيرها؟ هذه أجمل البنات.

بودكليسين: تظنّنها أجمل البنات؟

فيكلا: حتى ولو فتشت الدنيا كلها، لن تجد مثلها.

بودكليسين: سنفكر يا امرأة سنفكر. تعالي بعد غد. أنا وأنت بهذا الشكل، يعني تعرفين. أنت تحكين لي، وأنا مستقل...
فيكلا: ولكن، اعذرني يا محترم! أنا منذ شهرين أجيء إليك. وما من فائدة، أراك دائماً في روبيك، تدخن الغليون، ولا يطلع منك شيء.

بودكليسين: وأنت تتصورين الزواج مثلما أقول للخادم «اسمع، يا ستيان، هات الجزمة!» والبسها وفي أمان الله؟ يجب أن أفكر، أعاين.

فيكلا: ولم لا؟ عاين، إذا كنت تريد. ما وجدت البضاعة إلا لهذا. اطلب قفطانك مادام الوقت صباحاً، واذهب وعائين.
بودكليسين: الآن؟ انظري أي جو ماطر الآن. أخرج وبصيني المطر فجأة.

فيكلا: ولكن ستندم! الشيب يطل في رأسك، وعن قريب إذا فاتك الزواج لا تعتب علي. وكأن الدنيا قحطت من رتبة مقدم! مثلك من العرسان نغرفهم غرفاً، أما خطيبتنا فنختار لها عريساً فاخراً.

بودكليسين: ما هذه الثثرة؟ ماذا جرى لك لتقولي فجأة أن الشيب قد خط رأسي. أين الشيب في شعري؟ (يتلمس شعره)..
فيكلا: لا يمكن بدون شعر أشيب، هذا مصير الإنسان. فلا تتعنت! هذه لا تعجبك وتلك لا تعجبك. عندي ضابط قبطان لا تصل أنت حتى إلى كتفه. وإذا تكلم كان عالي الصوت كالبوق. يشتغل في الأميرالية.

بودكليسين: أنت تكذابين، سأنظر في المرأة، من أين اختلقت الشعر الأشيب؟ يا ستيان، هات المرأة! لا، انتظر، سأذهب بنفسي. لا سمح الله، هذه أسوأ من الجدرى. (ينصرف إلى حجرة مجاورة).

المشهد التاسع

(فيكلا وكوتشكاريوف يدخل راكضاً).

كوتشكاريوف: كيف الحال يا بودكليسين؟.. (يرى فيكلا)
كيف، أنت هنا؟ آه، يا لك! ... يا رب! لماذا زوجتي؟

فيكلا: وما وجه العيب؟ قمت بما يقتضي الشرع.

كوتشكاريوف: قمتُ بما يقتضي الشرع! وكان الزوجة روح
الحياة! ألم يكن في إمكاني الاستغناء عنها؟

فيكلا: ولكن أنت الذي كنت تلح! زوّجيني يا جدة، زوجيني.

كوتشكاريوف: آه منك، أيتها الفارة الملعونة... طيب، ولماذا
أنت هنا؟ هل معقول بودكليسين يريد...

فيكلا: ولم لا؟ نعمة من الله.

كوتشكاريوف: الله! آه، الحقير، لم يقل لي شيئاً عن هذا. أي
شخص هو؟ شاطر! يعني بالخفية؟..

المشهد العاشر

(نفس الشخصين و بودكليسین يحمل مرآة يمرّی فیها باهتمام شديد).

بودكليسین: أين الشعر الأشيب؟ لماذا تكذبین؟ لا أثر له أبداً.

كوتشكاریوف: (يتسلل من الخلف، ويثب عليه) بوم!

بودكليسین (يصرخ وتقع المرأة من يده): مجنون! لِمَ لم هذا.. ما

هذه السخافة؟ أرعبتني، حقاً، حتى طفرت روحي إلى حلقي.

كوتشكاریوف: طيب، لا بأس، كنت أمزح.

بودكليسین: وأي مزاح هذا؟.. حتى الآن لم أصبح من خوفي.

والمرأة انكسرت، ولم يأتني بها أحد هدية. مشتاة من المخزن الإنجليزي.

كوتشكاریوف: طيب، يكفي. سأجد لك مرآة أخرى.

بودكليسین: أي نعم، تجدد. وأنا أعرف المرايا الأخرى. تجعلك

أكبر من عمرك عشر سنين بالتمام، وتعوج خلقتك.

كوتشكاریوف: اسمع، كان بالأحرى أن أزعل أنا عليك أكثر.

فانت تخفي عني كل شيء، وأنا صديقك. نويت أن تتزوج؟..

بودكليسین: آوه، هراء. لم أنو إطلاقاً.

كوتشكاریوف: دليل الاتهام موجود. (يشير إلى فيكلا، ها

هي واقفة. ومعروف مَنْ هي، طيب، لا بأس، لا بأس. لا يوجد ما

يخرج. هذا ما أمر به الدين، بل وضروري للوطن. كلّفني بالأمر.

سأقوم أنا بكل شيء نيابة عنك. (إلى فيكلا). طيب، تكلمي عن

الحشيات، كيف وكيف؟ أهى من الأشراف، أو من عائلة موظفين،
أو من أهل التجارة، وما اسمها؟..
فيكلا: أغافيا تيخونوفنا.

كوتشكاريوف: أغافيا تيخونوفنا. براند اخليستوفا؟
فيكلا: لا، كوبر دياغينا.

كوتشكاريوف: تسكن في شارع الدكاكين؟..
فيكلا: لا، قطعاً، أقرب إلى شارع بيسكي، في زقاق ميلني.
كوتشكاريوف: أي، نعم، في زقاق ميلني، وراء الدكان مباشرة،
بيت خشبي؟

فيكلا: لا وراء الدكان، وراء حانة في سرداب.
كوتشكاريوف: كيف وراء حانة في سرداب. لا أعرف ذاك.
فيكلا: اسمع حين تستدير إلى الزقاق سيكون أمامك كشك،
و حين تعبر الكشك، انعطف إلى الشمال، وسيكون أمامك، يعني
سيكون أمامك بيت خشبي تسكن فيه خياطة كانت تعيش من قبل
مع سكرتير في المحكمة العليا لا تدخل إلى بيت الخياطة، ولكن وراء
بيتها رأساً بيت ثان، حجري، هذا هو بيتها، أقصد الذي تسكن فيه
العروسة أغافيا تيخونوفنا.

كوتشكاريوف: طيب، طيب، سأصرف أنا بكل هذه الأشياء.
والآن انصرفي. لا نحتاج إليك بعد الآن.

فيكلا: كيف كيف؟ يعني أنت الذي سيقوم بالخطوبة؟
كوتشكاريوف: أنا، أنا، شرط أن لا تعرقليني.
فيكلا: آه، يا كافر! هذا ليس من عمل الرجال. تخل، يا شيخ،
أرجوك.

كو تشكاريوف: اطلعي، اطلعي! أنت لا تفهمين شيئاً، لا
تعرف قلبي! قفي عند حدك. انصرفي.
فيكلا: لا تعرف إلا قطع رزق الناس، أيها الكافر! بدخل نفسه
في هذه الوحلة. لو كنت أعرف لما قلت له. (تنصرف مغتظة).

المشهد الحادي عشر

(بودكليسين وكوتشكاريوف).

كوتشكاريوف: طيب، يا أخ، لا يجوز تأجيل هذه المسألة لنذهب.

بودكليسين: ولكنني لم أقرر بعد. مجرد أنني فكرت...

كوتشكاريوف: بسيطة، بسيطة. فقط أن لا تترك سأزوجك قبل أن تعرف. سنذهب إلى العروسة الآن، وسترى كيف يتم كل شيء في لحظة خاطفة.

بودكليسين: وما الداعي الآن!

كوتشكاريوف: طيب، وماذا في ذلك، أرجوك وماذا في ذلك؟ انظر إلى حالك: أي فائدة من حالة العزوبية؟ انظر إلى غرفتك. أي شيء فيها؟ ها هي جزمته غير منقّفة. وها هو حوض الغسيل، وكومة من التبغ على الطاولة. وأنت راقد كالحلْد في حجره طوال النهار على جنبك.

بودكليسين: هذا صحيح. أموري بلا ترتيب. أنا أعرف ذلك.

كوتشكاريوف: طيب، وحالما تكون لك زوجة يتغير عندك كل شيء فلا تعرف حتى نفسك. ستكون لديك أريكة، وكلية صغيرة وحسنون صغير في قفص، وشغل إبرة.. وتخيل أنك جالس على الأريكة، وإذا بابونه حلوة تجلس قربك، وتأخذ بيدها...

بودكليسين: نعم، وحق الشيطان. أية أيد حلوة، بالفعل كالخليب، يا أخ، حقيقة.

كوتشكار يوف: وأين أنت من هذا! وكأنما الأيدي فقط!..

لهن، يا أخ... طيب، لا فائدة من التعداد!... عندهن أكثر مما يعرفه الشيطان نفسه.

بودكليسين: إذا أردت الحقيقة. أنا أحب أن تجلس حلوة بقربي....

كوتشكار يوف: انظر كيف استوعبت الموضوع... والآن ما عليك إلا أن تقرر. لن تتعب نفسك بأي شيء. أنا الذي سأرتب مآدبة الزفاف وغير ذلك... دوزينة من قسائي الشمبانيا، ولا يمكن أقل من ذلك في أي حال من الأحوال، ولك أن تفعل ما تشاء. ونصف دوزينة من نبيض «الماديرا» الحلو من كل بلد. لأن للعروسة، على الأغلب، جمعاً من العمات والخالات والقريبات. وهن لا يتنازلن عن شرب النبيذ. أما نبيذ الرين، فسأهمله، وإلى جهنم. كلامي صحيح؟ ها؟ أما فيما يتعلق بالطعام فأنا أعرف نادلاً لدى القصر، يملك، ابن الكلب، قدرة على الإشباع حتى لا يجعلك تقدر أن تقوم من المائدة.

بودكليسين: عجيب، أنت تتكلم بحرارة شديدة، وكأن الزفاف صار أمراً واقعاً.

كوتشكار يوف: ولمَ لا؟ ولمَ التأجيل؟ فأنت موافق؟

بودكليسين: أنا؟ لا، أبداً... أنا حتى الآن لم أوافق نهائياً.

كوتشكار يوف: غريبة جداً! ولكنك قبل لحظات أعلنت أنك تريد.

بودكليسين: كنت أقول فقط لا ضرر منه!

كوتشكار يوف: كيف هذا، أرجوك! كانت المسألة كلها... ثم كيف؟ معقول أن الحياة الزوجية لا تعجبك؟

بود كليسين: لا... تعجبني.

كوتشكار يوف: ماذا، إذاً، ما الذي أوقفك؟

بود كليسين: لم يوقفني شيء... ولكن غريب...

كوتشكار يوف: ما وجه الغرابة؟

بود كليسين: غريب طبعاً، كنت طول عمري أعزب. والآن على غفلة أصبح متزوجاً.

كوتشكار يوف: آوه، آوه، ألا تخجل من نفسك؟ يتهاى لي أن الكلام معك يجب أن يكون بجذ. سأتكلم بصراحة، كما يتكلم أب مع ابنه، طيب، انظر، انظر إلى نفسك بإمعان، كما تنظر إلى الآن، مثلاً، أي شيء أنت الآن؟ مجرد خشبة، وليست لك أية أهمية. طيب، أي شيء أنت الآن؟ مجرد خشبة، وليست لك أية أهمية. طيب، لأي شيء تعيش؟ طيب، انظر إلى نفسك في المرأة، ماذا ترى أمامك؟ وجه أبله ولا أكثر. في حين، ولك أن تتخيل، سيكون حولك أطفال، وليس اثنين أو ثلاثة، بل ستة، رعاء، وكلهم يشبهونك شبه قطرة بقطرة. أنت الآن وحيد، موظف من الدرجة الراقية، رئيس أو مدير إدارة والله أعلم. ولكن عندما ستتزوج، تصوّر، سيحوم حولك ستة صغار ممن سيكونون موظفين من الدرجة الراقية، ومدراء إدارات ورؤساء أقسام، وصغير آخر عفريت بمد لك يديه الصغيرتين يريد أن يمسك فودك، بينما أنت تنبح عليه كالكلب لتخيفه: واو، واو، واو! طيب قل لي: هل هناك أحسن من هذا؟..

بود كليسين: لن يكونوا إلا شاطرين في المشاكسة. يثلفون كل شيء، ويعثرون الأوراق.

كوتشكار يوف: ليشاكسوا. ولكنهم سيكونون مثلك في الشكل. وهذه هي النعمة.

بودكليسین: صحیح، بالفعل، بل ومضحك. الشيطان يعلم.
وربما سيكون لي طفل صغير، ذو وجه مدور، جرو، يشبهني في
الشكل.

كوتشكاریوف: وكيف لا، مضحك بالطبع، طيب، لنذهب.
بودكليسین: اتفقنا، لنذهب.

كوتشكاریوف: يا ستیان! أسرع وساعد سيدك على ارتداء
ملابسه.

بودكليسین (يرتدي ملابسه أمام المرأة): أظن أحسن لو لبست
الصدر الأبيض.

كوتشكاریوف: سخافة. لا أهمية لذلك.

بودكليسین: (يلبس الياقة) الغسالة الملعونة نشت الياقة بشكل
سيء فلا تنتصب على رقبتی. قل لهذه الحمقاء يا ستیان، إذا كانت
ستكوي البياضات بهذا الشكل فستستخدم غسالة أخرى. أظنها
تقضي وقتها مع عشيقها ولا تكوي.

كوتشكاریوف: طيب، يا أخ، استعجل! أنت بطيء...

بودكليسین: حالاً، حالاً (يلبس سترة الفراك، ويجلس) اسمع، يا
إيليا فوميتش، أتدري؟ اذهب أنت لوحدك.

كوتشكاریوف: معاذ الله، هل فقدت عقلك؟ اذهب لوحدی!
ولكن من سيتزوج من بيننا: أنا أم أنت؟

بودكليسین: في الحقيقة، ليست لدي رغبة، الأفضل أن نؤجلها
إلى الغد.

كوتشكاریوف: هل لديك ذرة من العقل؟ أهيأ أنت أم كيف؟
تهيات ممأماً، وفجأة «ليس لدي رغبة!» قل لي أرجوك ماذا أسمىك
بعد هذا، خنزير أم وغداً؟

بودكليسین: ولم هذه الشتيمة؟ بأي موجب؟ ما فعلت لك؟

كونشكار يوف: أحمق، أحمق مكعب. كل إنسان سيصفك بذلك. بليد، بليد تماماً، ولو أنت رئيس قسم. ولأي شيء أجاهد أنا؟ لفائدتك. اللقمة تستل من فمك. الأعزب الملعون مستلق على فراشه! خيرني أرجوك، أي شيء أنت؟ خرقة، طرطور، كنت أريد أن أستعمل كلمة أخرى... ولكن لا يليق بي. حرمة! أسوأ من حرمة! بودكليسین: وأنت صاف مصفى! (بصوت خافت) هل عقلك معك؟ الخادم واقف هنا، وأنت تشتم في حضوره، وبأية كلمات أيضاً. لم تجد مكاناً آخر تشتم فيه.

كونشكار يوف: وكيف لا أشتك؟ ومن يمكن أن لا يشتك؟ ومن يسطير عليك ولا يشتك؟ أنت كرجل معتبر قررت أن تتزوج، واستهديت بالعقل والحصافة، وفجأة، فقدت رشذك، يا رأس الخشب...

بودكليسین: طيب، يكفي. أنا ذاهب، فلم هذه الشتيمة؟..

كونشكار يوف: ذاهب! بالطبع. لا بد أن تذهب (لستيان) أعطه القبة والمعطف.

بودكليسین: (عند الباب) أي إنسان غريب، حقاً! معاشرته مستحيلة تماماً. يشتم فجأة بلا سبب ولا موجب. لا يفهم أية معاملة. كونشكار يوف: بالطبع، لا أشتم الآن. (ينصرفان).

المشهد الثاني عشر

(غرفة في بيت أغافيا تيخونوفنا).

آغافيا تيخونوفنا تستخير الورق، ومن فوق يدها تنظر عمتها أرينا بانتيليمونوفنا)..

آغافيا تيخونوفنا: مرة أخرى يكشف الورق عن طريق، يا عمة، وملك ديناري مهمم، دموع، ورسالة غرام. ومن الجانب الأيسر ملك آخر اسباتي يظهر حنية كبيرة. ولكن إحدى الشريرات تعيقه.

أرينا بانتيليمونوفنا: ومن سيكون الملك الاسباتي حسب ظنك؟ آغافيا تيخونوفنا: لا أعرف.

أرينا بانتيليمونوفنا: ولكن أنا أعرف من؟

آغافيا تيخونوفنا: من؟

أرينا بانتيليمونوفنا: التاجر اللطيف في سوق الأقمشة، الكسيدميترييفيتش ستاريكوف.

آغافيا تيخونوفنا: قطعاً لا! أراهن بكل شيء على ذلك.

أرينا بانتيليمونوفنا: لا تجادلني، يا آغافيا تيخونوفنا. شعره أشقر كنائي، لا يوجد ملك اسباتي غيره.

أرينا بانتيليمونوفنا: آه، يا آغافيا تيخونوفنا. ماكنت ستقولين ذلك، لو كان المرحوم أبوك تيخون بانتيليمونوفيتش على قيد الحياة. كان سيضرب بكل أضابعه الخمس على الطاولة ويصرخ قائلاً: «ابصق على الذي يخجل من كونه تاجراً، ولن أزوج ابنتي على

عقيد. وليفعل الآخرون ذلك. وابني أيضاً لن أسمح له بأن يخدم.
يعني ألا يقدم التاجر خدمة للدولة كأبي شخص آخر؟». ومرة ثانية
كان سيضرب بكل أصابعه الخمس على الطاولة، وينتهي الأمر.
كانت يده بحجم الجردل، عملاقة! إذا أردت الحق هو الذي أهلك
أملك من الضرب المستمر. ولولاه لعاشت المرحومة والدتك أكثر.
آغافيا تىخونوفنا: وتريدين أن يكون لي مثل هذا الزوج الغليظ
القيح! لن أتزوج تاجراً أبداً.

أرينا بانتيليمونوفنا: ولكن ألكسي دميترييفيتش ليس كذلك.
آغافيا تىخونوفنا: لا أريد، لا أريد! له لحية^(١)، وحين يأكل يسيل
كل شيء على لحيته، لا، لا، لا أريد!..
أرينا بانتيليمونوفنا: ولكن من أين نحصل على نبيل جيد. لن
نجديه مبذولاً في الشارع.
آغافيا تىخونوفنا: ستجده فيكلا ايفانوفنا. وعدتني بأن تجد لي
أحسن نبيل.
أرينا بانتيليمونوفنا: ولكنها كذابة، ياعمري.

(١) كان التجار في ذلك العهد يطلقون لحاهم. المترجم.

المشهد الثالث عشر

(الانسان وفيكلا).

فيكلا: لا، يا أرينا بانتيليمونوفنا. عيب عليك أن تقترى عليّ بدون داع.

آغافيا تيخونوفنا: آه، هذه فيكلا ايفانوفنا! هيا، حدثيني! هل يوجد؟

فيكلا: يوجد، يوجد، دعيني ألتقط أنفاسي أولاً. تعبت من المشاوير! بناء على ما طلبت مني مررت على كل البيوت وبحثت في الدوائر، وفتشت في الوزارات، ومشيت إلى الحرس... وليتك تعرفين، يا ابنتي، كادوا يضربونني، وحق الرب! والعجوز التي زوجت ابن افيروف هاجمتني شائمة: «أنت يا كذا وكذا، تقطعين الرزق عني، تخولي في حدود منطقتك». فقلت لها على المشكوف: «أنا مستعدة لمولاتي، فلا تغضبي، مستعدة دائماً لإرضاء رغبتها». على كل حال، وفرت لك عرساً وأي عرساً! أقصد الدنيا كانت قائمة، وما تزال قائمة، لكن لم تشهد مثلهم قط، اليوم سيزورك بعضهم. جئت خصيصاً لأنبهك.

آغافيا تيخونوفنا: كيف اليوم؟ يا روحين يا فيكلا ايفانوفنا. أنا خائفة.

فيكلا: لا تخافي، يا ابنتي المسألة بسيطة. سيأتون ويعاينون، ولا أكثر. وأنت أيضاً عابني، وإذا لم يعجبوك، اتركيهم يذهبون. أرينا بانتيليمونوفنا: أظن الذين أغريتهم أناس معتبرون.

آغافيا تيخونوفنا: وكم عدددهم؟ كثيرون؟

فيكلا: ستة رجال.

آغافيا تيخونوفنا: (تندّ عنها صرخة) آوه!

فيكلا: ولم هذه الرفرفة، يا بنتي؟ الاختيار أحسن. إذا لا يعجبك هذا، يعجبك ذاك.

آغافيا تيخونوفنا: وهل هم نبلاء؟

فيكلا: واحد أحسن من الآخر. نبلاء كبار بلا مثل.

آغافيا تيخونوفنا: طيب، كيف هم، كيف هم؟

فيكلا: أماجد كلهم، لطيفون، مهندمون، الأول بالتازاروفيتش جيفاكين، ممتاز، خدم في البحرية. على مرامك تماماً. يقول إنه يحتاج إلى عروس ممثلة الجسم، ولا يحب النحيفات أبداً. وإيفان بافلوفيتش، الذي يعمل مسؤول إدارة، في غاية الوقار يخاف الناس حتى الاقتراب منه. مهيب الشكل سمين، يصيح بي على حين غرة: «لا تثرري علي بأنها كذا وكيت! وقولي صراحة كم لديها من المنقولات وغير المنقولات؟» فأقول: «كذا، وكذا، يا مولانا» فيقول: «تكذابين، يا بنت الكلب!» وشتمني بكلمة عيب علي أن أقولها لك. وحدثت رأساً أنه سيد وجيه من كل بد.

آغافيا تيخونوفنا: طيب، ومن بعد؟

فيكلا: يوجد، بعد، نيكانور ايفانوفيتش انوتشكين. وهو مهذب جداً وشفته حمرة مثل الرمان تماماً، يا بنتي! لطيف ظريف. يقول لي: «أريد عروساً حلوة متعلّمة، تعرف الكلام بالفرنسي». صحيح، رجل صافي الأخلاق، تحفة ألمانية! وهو نحيف، ورجله نحيلة، عصاية.

آغافيا تيخونوفنا: لا، هؤلاء النحاف لا يحلوون في العين... لا أعرف... لا أرى فيهم شيئاً.

فيكلا: إذا كنت تريدین اسمن، خذي إيفان بافلوفيتش بايتشنييتسا^(١).

آغافيا تيخونوفنا: أي اسم هذا؟

فيكلا: اسمه هكذا.

آغافيا تيخونوفنا: آوه، يا ربي، أي اسم عائلة هذا! كيف إذاً، يا فيكلا، إذا تزوجته وأخذت اسم عائلته يسمونني آغافيا تيخونوفنا بايتشنييتسا؟ أي شيء هذا!

فيكلا: ولكن في روسيا، يا عزيزتي، ألقاب إذا سمعتها تبصقین فقط وترسمین علامة الصليب. تفضلي، إذا كان اللقب لا يعجبك خذي بالتازاروفيتش جيفاكين عريس ممتاز.

آغافيا تيخونوفنا: وای شعر له؟

فيكلا: شعر لطيف.

آغافيا تيخونوفنا: وأنفه؟

فيكلا: وأنفه لطيف أيضاً. كل شيء في مكانه. وهو نفسه لطيف. لكن لا تغضبي. في شقته لا يوجد غير غليون واحد، ولا أي أثاث.

آغافيا تيخونوفنا: ومن بعد؟

فيكلا: إكينف ستيانوفيتش بانتلييف، موظف من رتبة متوسطة، ولكنه يتمتم قليلاً، ومقابل ذلك متواضع بالشكل...

أرينا بانتلييمونوفنا: ما هذا الإلحاح، موظف، موظف! خير لك أن نخبرينا: يحب أن يشرب أم لا؟

(١) بالعربية تعني البيض المقلّي.

فيكلا: يشرب، ولا أنكر. ولماذا لا يشرب فهو موظف من رتبة متوسطة ولكنه صموت لا ينطق بكلمة.

آغافيا تيخونوفنا: لا، لا أريد أن يكون لي زوج سكير.

فيكلا: كما تريد، يا بنتي! إذا لا تريد واحداً خذي آخر. على العموم لا يهم إذا شرب أكثر من اللازم أحياناً، ما هو طول الأسبوع سكران. في بعض الأيام يكون صاحباً.

آغافيا تيخونوفنا: طيب، ومن بعد؟

فيكلا: يوجد آخر، ولكن ليس عليه حسرة! هؤلاء أنبل وأحسن.

آغافيا تيخونوفنا: طيب، من هو؟

فيكلا: ما أردت أن أتكلم عنه، أظنه برتبة مقدم. ويحمل شارة، لكنه ثقيل جداً في الحركة، لا يخرج من البيت.

آغافيا تيخونوفنا: ومن بعد؟ هؤلاء خمسة فقط. وأنت قلت ستة.

فيكلا: قليلون عليك؟ عايني كيف انفتحت شهيتك على غفلة. بينما كنت في الأول خائفة.

أرينا بانتيليمونوفنا: وماذا في هؤلاء، أصحابك النبلاء؟ ولو كانوا ستة تجار واحد يعادل الجميع فعلاً.

فيكلا: لا، يا أرينا بانتيليمونوفنا. النبيل أكثر احتراماً.

أرينا بانتيليمونوفنا: وماذا يعني الاحترام؟ هذا الكسي دميتريفيتش يلبس قبعة من فراء السمور، وله زلاجة يروح ويجيء فيها...

فيكلا: والنبيل يمر به والنوجرم تلمع على كتفه، ويقول: «ما هذا يا تاجر حقير؟ اطلع عن طريقتي!» أو «يا معلّم، أرني قوام أحسن محمل عندك!» والتاجر يقول: «يا مولاي، تفضل!» ويقول له النبيل: «اخلع قبعتك يا قليل الأدب!»

أرينا بانتيليمونوفنا: ولكن إذا أراد التاجر امتنع عن البيع له، عند
ذاك سيسير النبيل عارياً، ولا يجد ما يلبسه!
فيكلا: النبيل سيظعن التاجر.

أرينا بانتيليمونوفنا: والتاجر سيشتكيه عند الشرطة.
فيكلا: والنبيل سيشتكي على التاجر عند الحاكم.
أرينا بانتيليمونوفنا: والتاجر عند الوالي حاكم الولاية.
فيكلا: والنبيل....

أرينا بانتيليمونوفنا: تكذابين، تكذابين... النبيل... حاكم الولاية
أعلى من الحاكم. انظري إلى أين صعدت بنبيلك! بينما نبيلك هذا
هو، عند الحاجة، يرفع قبعته أيضاً.
(رنين جرس في الباب).

ينتهي لي أن الجرس يدق.

فيكلا: ياه، هؤلاء هم!

أرينا بانتيليمونوفنا: مَنْ هم؟

فيكلا: هم.... واحد من الخطّاب.

آغافيا تيخونوفنا: (تندُّ عنها صرخة) العياذ!

أرينا بانتيليمونوفنا: يا قديسون، ارحمونا، نحن المذنبين!
الحجرة غير مرتبة أبداً. (تلتقط كل ما على المائدة وتركض متململة
في الحجرة). والفوط، والفوط على المائدة سوداء من الوساخة.
دونياشكا، دونياشكا!

(تظهر (دونياشكا)..)

هاتي فوطه نظيفة بسرعة! (ترفع الفوطه وتتململ في الحجرة).
آغافيا تيخونوفنا: آه، يا عمة، ماذا أفعل؟ ليس عليّ غير قميص
النوم!

أرينا بانتيليمونوفنا: آه، يا بنتي، أسرعي والبسي ثيابك! (تركض في الحجرة).

(دونياشكا. تجلب فوطة، رنين جرس في الباب).

اذهبي وقولي. «حالا»!

(دونياشكا. تصيح من بعيد: «حالا»!).

آغافيا تيخونوفنا: ولكن فستاني بلا كوي، يا عمتي.

أرينا بانتيليمونوفنا: آه، يارب يا ساتر، لا تركنا نضيع. البسي فستاناً آخر.

فيكلا: (تدخل راكضة). لماذا لا تأتين؟ آغافيا تيخونوفنا. أسرعي، يا بنتي!

(رنين جرس).

ياه، لسه ينتظر على الباب!

أرينا بانتيليمونوفنا: دونياشكا. أدخليه، وترجيه أن ينتظر قليلاً.

(تهرع دونياشكا إلى السرواق، وتفتح الباب. تسمع أصوات:

«الآنسة موجودة؟» تفضلوا إلى الغرفة، النساء الثلاث يحاولن

جميعاً النظر من ثقب المفتاح).

آغافيا تيخونوفنا: (تصيح) آه، سمين جداً!

فيكلا: إنه يقرب!

(جميعهن يهرولن).

المشهد الرابع عشر

(إيفان بالفوفيتش يابتشيتسا والخادمة).

الخادمة: انتظروا هنا. (تخرج).

يابتشيتسا: تفضلي، ننتظر، فقط أن لا يطيلوا. تغييت عن الدائرة لبعض الوقت فقط. ربما سيقول الجنرال^(١) «أين مسؤول الإدارة؟» «ذهب لبعائين عروسة». وستقوم القيامة! على كل حال لأنظر في قائمة الموجودات مرة أخرى. (يقرأ) «بيت آجري على أساس حجري... (يرفع ناظريه إلى الأعلى ويفحص الغرفة) موجودا (يتابع القراءة) «جناحان: «جناح بأساس حجري، وجناح خشبي...» الجناح الخشبي في حالة سيئة. «عجلة صغيرة، زلاجة ذات مقعدين فيها نحوت ببساط كبير، وبساط صغير...» ربما تكون غير صالحة إلا للخردة؟ على كل حال، العجوز تؤكد أنها من أول صنف. طيب، ولتكن من أول صنف. «دزيتان من الملاعق الفضية...» بالطبع، البيت يحتاج إلى ملاعق فضية. «معطفان من فراء الثعلب....» احم.... «أربع حشايا من الريش كبيرة، واثنان صغيرتان...» (يطبق شفثيه بدلالة). ستة من الفساتين الحريرية، وستة من الفساتين القطنية، وروبان للنمام، واثنان...». هذه الخانة لا تهمني! «بياضات، فوط...» ليكن ذاك كما تريد. على العموم يجب التأكد من ذلك كله بعيني. اليوم يعدون البيوت والعربات، ولكن حالما تنزوج لا تجد غير حشايا ومخدات الريش.

(١) كان للمسلك العسكري والمدني في الجهاز القيصري نفس الرتب. المترجم.

(رنين جرس. تركض دونياشكا خلال الحجرة على عجل، وتفتح الباب. يتردد صوتان: «الآنسة موجودة؟»، «نعم، موجودة»)

المشهد الخامس عشر

(إيفان بالفلوفيتش وأنوتشكين).

دونياشكا: انتظروا هنا. الآنسة ستحضر حالاً. (تنصرف).

أنوتشكين: هل الذي أتشرف في الحديث معه والد ربة البيت الفاتنة؟

يايتشنيتسا: لا، أبداً. ليس لي أولاد بعد.

أنوتشكين: آه، أرجو المَعذرة! المَعذرة!

يايتشنيتسا: (جانباً). خلقه هذا الرجل تريينز ربما جاء لنفس الغرض الذي جئت من أجله. (بصوت مسموع).. لعلك تحتاج إلى ربة البيت في شأن من الشؤون؟

أنوتشكين: لا... أبداً... لا يوجد أي شأن. مجرد أنني مررت بعد النزهة.

يايتشنيتسا: (جانباً). يكذب، يكذب. بعد النزهة! السافل يريد أن يتزوج!

(رنين جرس. تركض دونياشكا. عبر الحجرة لتفتح الباب. صوتان في الرواق: «الآنسة موجودة؟»، «نعم، موجودة»)

المشهد السادس عشر

(نفس الشخصين مع جيفاكين ترافقه الخادمة).

جيفاكين (للخادمة): أرجوك، يا روجي، نظفيني قليلاً... أنت تعرفين: الغبار في الشارع كثير. هنا، أرجوك، انفضي تلك الريشة الصغيرة. (يستدير).. حسناً، شكراً، يا روجي! وانظري هناك، أحس وكأن عنكبوتاً صغيراً يدب! وفي الخلف، ألا يوجد شيء على الطرفين؟، شكراً، يا عزيزتي! وهنا أيضاً، على ما يبدو. (يمسك بيده على رदन فراكه، ويختلس النظر إلى أنوتشكين ويايتشيتسا). الجوخ إنكليزي! ممتاز متين!... في عام ١٧٩٥ عندما كانت عمارتنا الحربية راسية في صقلية، اشترته وأنا ما أزال ضابط صف آنذاك، وفصلت منهزة. في عام ١٨٠١، في عهد القيصر بافل بيتروفيتش كنت قد ترقيت إلى ملازم، والجوخ ما يزال جديداً للغاية. في عام ١٩١٤ قمت بجولة حول العالم، عند ذاك فقط ظهر تأكل بسيط على الدروز. في عام ١٩١٥ تقاعدت فبعد هذا فقط قلبته على وجهه الآخر، وهاقد مضيت عشر سنين وأنا ألبسه، فهو حتى الآن جديد تقريباً. شكراً، يا روجي، يا... ست الحسن! (ويريت على خدها، ويتقدم من المرأة، وينفش شعره قليلاً)..

أنوتشكين: وكيف صقلية، لو سمحت بأن نعرف؟.. فانت تكرمت وقتلك صقلية. أهى بلاد جميلة؟

جيفاكين: آه، رائعة! بقينا هناك أربعة وثلاثين يوماً. أوكد لكم إنها فاخرة! جبال هنا وشجرة رمان هناك.. والإيطاليات في كل مكان، الورد آخر حلاوة تود لو تقبلهن.

أنوتشكين: وثققات جيداً؟

جيفاكين: بشكل فاخر جداً! ثققات في مستوى الكونتيسات عندنا ولا أقل. أحياناً أسير في الشارع، يعني ملازم روسي... بالطبع، كثافة هنا وكثافة هنا، (يشير إلى كتفيه).. مطرزة بالذهب... وتطل الحسناوات السمر اوات.. عند كل بيت لهن شرفة صغيرة، والسطوح مثل أرض الغرفة هذه مسطحة كلياً. وألقي نظرة كالعادة، فأرى حسناء مثل الوردة قاعدة. وأنحني... طبعي لا أمرغ وجهي بالوحد... هكذا (ينحني ويرسل قراعه في الهواء). وهي أيضاً نفس الحركة. (يحرك يده حركة انسيابية ليصور رد التحية).. ملبسها تحفة: قطعة قماش ناعم وخيوط وأقراط نسائية متنوعة... يعني باختصار، قطعة حلوى...

أنوتشكين: هل يمكن أن أطرح على حضرتك سؤالاً: بأية لغة يتفاهمون في صقلية؟

جيفاكين: الجميع بالفرنسية، بالطبع.

أنوتشكين: وجميع الأوانس يتكلمون دون استثناء الفرنسي؟

جيفاكين: الجميع دون استثناء. بل وربما لا تصدقونني حين أقول لكم: بقينا أربعة وثلاثين يوماً، وطوال هذه المدة لم نسمع منهم ولا كلمة واحدة بالروسي.

أنوتشكين: ولا كلمة؟

جيفاكين: ولا كلمة. وأنا لا أتحدث عن النبلاء والسينوريين الآخرين، أقصد ضباطهم من مختلف المراتب، ولكن خذوا أي موجيك، أي فلاح بسيط على سبيل المثال، وهو يحمل على عاتقه مختلف الأشياء الحقيمة، وحاولوا أن تقولوا له بالروسية: «أعطني، يا أخ، قطعة من الخبز». لن يفهمك قطعاً، لن يفهمك والله العظيم،

ولكن قولوا له بالفرنسية: DATECI DEL PANE PORTATE VINO^(١) يفهم، ويركض ويجلب لكم ما تريدون بالضبط.

يايتشنيتسا: من كلامك لا بد أن تكون صقلية هذه بلاد ممتعة تثير الفضول. أنت تقول موجيك. فكيف هو.... مثل الموجيك الروسي عريض المنكبين للغاية ويحرث الأرض؟

جيفاكين: لا أستطيع أن أجيئك. لم ألحظ ما إذا كان يحرق الأرض أم لا. ولكن إذا سألتني عن استنشاق السعوط، فأقول لك عن علم: كلهم جميعاً لا يستشقون السعوط فقط، بل يضعونه خلف شفاههم. النقل أيضاً رخيص جداً. المياه في كل مكان تقريباً، والجنودولات...، طبيعي أن ترى إيطالية، مثل الوردية، لابسة صداراً حلواً وشالاً لطيفاً. وكان معنا ضباط إنكليز. خلق مثل رجالنا، بحارة، في البداية كانت الحالة غريبة جداً. أحدنا لا يفهم الآخر. ولكن فيما بعد تعارفنا جيداً. بدأنا نتفاهم بطلاقة. حين تشير إلى زجاجة أو قدح، يعرفون حالاً أن ذلك يعني تريد أن تشرب، وحين تضم قبضتيك قرب فمك بهذا الشكل، وتحرك شفتيك فقط: باف، باف، يعني تريد تدخين الغليون. وعلى العموم اللغة الإنكليزية سهلة جداً. بحارتنا خلال ثلاثة أيام صاروا يتفاهمون تماماً.

يايتشنيتسا: يعني من كلامك، الحياة في البلدان الأخرى رائعة جداً. أنا مسرور للغاية بمعاشرة رجل شاف الدنيا. هل لي أن أعرف مع من أتشرف بالكلام؟

جيفاكين: جيفاكين ملازم متقاعد. ومن جانبي اسمح لي أن أسأل مع من أسعد بمبادلة الكلام؟

(١) أعطني خبزاً... اجلب لي نبيذاً. (بالإيطالية).

يايتشنيتسا: مسؤول الإدارة إيفان بافلوفيتش يايتشنيتسا.

جيفاكين (لم يسمع جيداً): نعم، وأنا أيضاً أكلت^(١). أنا أعرف الطريق سيكون مرهقاً نوعاً ما. والجويميل إلى البرودة. فأكلت سمك رنجة مع الخبز.

يايتشنيتسا: يبدو لي أنك أخطأت الفهم. اسم عائلتي يايتشنيتسا. جيفاكين (ينحني): آه، اعذرني! أنا ثقيل السمع قليلاً. فتصورت بالفعل أنك أكلت بيضاً مقلباً، يايتشنيتسا.

يايتشنيتسا: ما العمل؟ أردت أنا أن أطلب من الجنرال أن يسمح بأن يدعوني «يايتشني تسين». ولكن زملائي منعوني من ذلك قائلين أنه سيشبه «سباتش سين»^(٢).

جيفاكين: على كل حال، هذا يحصل! عمارتنا الحربية الثالثة كلها، جميع الضباط والبحارة كانت لهم أسماء عوائل غاية في الغرابة! المزبل، سكيروف، الملازم متغنوف. كان المرحوم ألكسي إيفانوفيتش قائد عمارتنا يقول عادة: «يبدو أن الشيطان قد عمد جميع أفراد عمارتي البحرية الثالثة!» بل إن أحد ضباط الصف، وكان ضابط صف جيداً، كان يدعى «الثقب». فكان القبطان، يناديه «أنت، يا ثقب، تعال إلى هنا»، وكانوا يمزحون معه دائماً ويقولون: «آه، منك، يا ثقب!».

(رنين جرس في الرواق، تركض فيكلا عبر الحجرة لتفتح الباب)
يايتشنيتسا: مرحباً، يا محترمة!

جيفاكين: مرحباً، كيف الحال، يا روحي؟

(١) فهم من اسم العائلة معناه المباشر: «البيض المقلبي». المترجم.

(٢) بالروسية، تعني ابن الكلبة. المترجم.

أنوتشكين: مرحباً، يا ست فيكلا ايفانوفنا.

فيكلا: (تركض مستعجلة).. شكراً، يا حضرات! بخير، بخير.
(تفتح الباب)..

(يصدر في الرواق صوتان: «الآنسة موجودة؟»، «موجودة».)
ثم بعض الكلمات غير المسموعة تقريباً ترد عليها فيكلا في انزعاج:
«آه، يالك!».

المشهد السابع عشر

(نفس الأشخاص وكوتشكاريوف و بودكليسين وفيكلا).

كوتشكاريوف: (لبودكليسين). تذكر، ما عليك إلا التظاهر بالشجاعة، ولا أكثر (يتلفت، ويوزع الانحناءات في شيء من الاستغراب، يقول مع نفسه). أوه، كم من الناس! ماذا يعني هذا؟ كلهم خطاب؟ (يلكز فيكلا، ويقول لها بخفوت).. من كل القيعان جمعت الغربان. ها؟

فيكلا: (بصوت خافت).. لا يوجد غربان هنا، كلهم أناس نزيهون.

كوتشكاريوف: (لها). الضيوف أرتال والقفاطين أسمال. فيكلاز انظر إلى غطاك ولا تحاسب سواك. ليس لك ما تفخر به. هندام بلا ادام.

كوتشكاريوف: أظن زبائنك النبلاء الموسرون هؤلاء بجيوب فارغة. (بصوت مسموع). طيب، ماذا تفعل الآن؟ أظن هذا الباب يؤدي إلى مخدعها؟ (يقترّب من الباب).

فيكلا: عديم الحياء! قيل لك ما تزال تلبس ثيابها. كوتشكاريوف: وكأنها مصيبة! ماذا في ذلك؟ انظر، ولا أكثر. (ينظر في ثقب المفتاح)..

جيفاكين: اسمح لي أن أتطلع أيضاً.
يايتشنيثسا: اسمح لي أنا أن ألقى نظرة.

كو تشكار يوف: (يتابع النظر). ولكن لا شيء يرى، يا سادة، غير
معروف ما هذا الأبيض هناك: امرأة أم محدة؟
(ومع ذلك يتجمهر الجميع في الباب ويتزاحمون لينظروا).
شش... شخص قادم.
(الجميع يتراجعون).

المشهد الثامن عشر

(نفس الأشخاص مع أرينا بانتيليمونوفنا وآغايا تيخونوفنا، الجميع يتبادلون الانحناءات).

أرينا بانتيليمونوفنا: أية مناسبة دعتكم إلى تكريمنا بالزيارة؟
يايتشنيتسا: عرفت من الجرائد أنكم ترغبون في الحصول على مقالة تزويد أخشاب وحطب، وبما أنني أشغل وظيفة مسؤول إدارة في دائرة حكومية، فقد جئت لأستفسر عن نوع الخشب وكميته، والموعد الذي يمكن أن تنجزوا فيه هذه العملية.

أرينا بانتيليمونوفنا: نحن مسرورون بالمجيء، وإن كنا لا نتمتع بدأية مقاولات. ما اسم حضرتك؟

يايتشنيتسا: إيفان بافلوفيتش يايتشنيتسا مسؤول إدارة.
أرينا بانتيليمونوفنا: تفضلوا بالجلوس. (تتحول إلى جيفاكين. وتنظر إليه).. وهل يمكن أن أعرف...

جيفاكين: أنا أيضاً قرأت في الجرائد عن شيء ما. فقلت لنفسي، لأذهب وأرى. والجو جميل. وفي كل مكان في الطريق يطلع عشب غرض...

أرينا بانتيليمونوفنا: وكيف أدعوك؟

جيفاكين: الملازم المتقاعد بالتأخر بالتأخر وفيتش جيفاكين. الثاني. كان عندنا جيفاكين الأول، وقد خرج إلى التقاعد قبلي، جرح، يا محترمة، تحت الزكبة، والرصاصة، وهذا شيء غريب، مرت دون أن تصيب الزكبة، ولكنها أصابت العرق، وكأنما خيطته بإبرة،

فكان الواحد، إذا وقف جنبه، يتصور دائماً أنه يريد أن يرفسه بركبته من الخلف.

أرينا بانتيليمونوفنا: تفضلوا بالجلوس (تلفتت إلى أنوتشكين).
وانتم بأي مناسبة؟

أنوتشكين: بدافع الجوار. أنا قريب جداً منكم...

أرينا بانتيليمونوفنا: أعلّكم تسكنون في بيت زوجة التاجر
تولوبوفا، المقابل لبيتنا؟

أنوتشكين: لا، أنا ما أزال في مسكني القديم في بيسكي، ولكن
لديّ نية أن أنتقل، بمرور الزمن، إلى جواركم هنا في هذا الجزء من
المدينة.

أرينا بانتيليمونوفنا: تفضلوا، بالجلوس. (تحول إلى
كوتشكاريوف). واسمع لي بأن أعرف....

كوتشكاريوف: ولكن هل معقول أنك لم تعرفيني؟ (ملتفتاً إلى
آغافيا تيخونوفنا.) وأنت، أيضاً، يا آنسة؟

آغافيا تيخونوفنا: بقدر ما يتهايا لي لم أرك من قبل قط.

كوتشكاريوف: على كل حال تذكري. أعتقد أنك رأيتني في
مكان ما.

آغافيا تيخونوفنا: في الحقيقة، لا أدري، إلا إذا عند آل بيروشكين؟
كوتشكاريوف: بالضبط، عند آل بيروشكين.

آغافيا تيخونوفنا: آه، ربما لا تعرف أي حكاية حصلت لها.

كوتشكاريوف: بالطبع. تزوجت.

آغافيا تيخونوفنا: لا، سيكون ذلك جيداً، لو حصل. ولكن
رجلها انكسرت.

أرينا بانتيليمونوفنا: والكسر شديد. كانت عائدة إلى البيت في
عربة. في ساعة متأخرة إلى حد ما، وكان الحوذي سكران، فأسقطها
من العربة.

كوتشكاريوف: بالضبط، هذا ما أتذكره: أما أن تكون قد
تزوجت أو انكسرت رجلها.

أرينا بانتيليمونوفنا: ما اسم حضرتك؟

كوتشكاريوف: كيف، اسمي إيليا فوميتش كوتشكاريوف:
نحن أقارب. زوجتي تتحدث دائماً عن... عن إذنك، عن إذنك
(ياخذ بيد بودكليس، ويقربه) هذا صديقي بودكليس إيفان
كوزميتش الموظف من الدرجة الراقية، رئيس شعبة، وحده يقوم
بكل الأعمال، ويحسن القسم المناط به بشكل ممتاز جداً.

أرينا بانتيليمونوفنا: ولقبه؟

كوتشكاريوف: بودكليس. إيفان بافلوفيتش المدير نصب لمجرد
الرتبة، بينما هو يقوم بكل الأعمال، إيفان بافلوفيتش بودكليس.
أرينا بانتيليمونوفنا: طيب، تفضلوا بالجلوس.

المشهد التاسع عشر

(نفس الأشخاص مع ستاريكوف).

ستاريكوف (ينحني بحوية وعجل، على طريقة التجار، متخوصراً قليلاً): مرحباً، أيتها المحترمة أرينا بانتليمونوفنا. الزملاء في سوق المدينة قالوا إنك تعرضين صوفاً للبيع، يا محترمة!.
آغافيا تيخونوفنا: (تستدير عنه باستهانة، وتقول بصوت خافت، ولكنه مسموع له).. ليس بيتنا دكان بيع وشراء!
ستاريكوف: عجيبة! لم نأت في الوقت المناسب؟ أم الطبخة تمت بدوننا؟

أرينا بانتليمونوفنا: تفضل، تفضل، يا الكسي دميترييفيتش. ولو أننا لانباع صوفاً، ولكننا مسرورين بقدمك، تفضل اجلس.
(جلس الجميع. صمت).

بايتشنيتسا: الطقس غريب اليوم. في الصباح، كان ينذر بالمطر ممماً، والآن يبدو وكأن الغيوم قد تبددت.

آغافيا تيخونوفنا: نعم، هذا الطقس متقلب جداً. صاح أحياناً، ومطر كلياً في أحيان أخرى. شيء غير مريح مطلقاً.

جيفاكين: في صقلية، يا محترمة، كنا مع العمارة الحربية في فصل الربيع، وهو قياساً إلى ما عندنا مثل شهر شباط. أحياناً كنا نخرج لتتزه، والنهار مشمس، وبعد ذلك ينزل مطر خفيف. وبالفعل ننظر، فإذا بالجو ماطر.

بايتشنيتسا: أزعج الحالات، حين ينغلق الإنسان في بيته وحيداً
في مثل هذا الطقس. حالة المتزوج تختلف تماماً، لا يضجر، بينما في
الوحدة، المسألة تماماً...

جيفاكين: أوه، موت، موت، موت مؤكداً

أنوتشكين: نعم، يمكن أن يقال...

كوتشكاريوف: يا ويلاه! عذاب أليم! لن تسرك الحياة. الله يعوذنا
من ذلك الوضع...

بايتشنيتسا: طيب، ماذا، يا آنستي، لو كان عليك أن تختاري
القريب إلى قلبك؟ اسمحي لنا أن نعرف ذوقك، واعذريني على
الصراحة. أي وظيفة تعتبرها أليق بزواجك؟

جيفاكين: أتريدين، يا آنستي، أن يكون لك زوج شهد العواصف
البحرية؟

كوتشكاريوف: لا، لا، في رأيي أحسن زوج هو الرجل الذي
يدير لوحده تقريباً كل شؤون الدائرة.

أنوتشكين: ولم هذا التحامل؟ لماذا تريد أن تستهين بالرجل
الذي، وإن كان قد خدم في سلاح المشاة، إلا أنه، مع ذلك، يحسن
التصرف في المجتمع الراقى.

بايتشنيتسا: يا آنستي، كوني حكماً!

(إيفان بافلوفيتش تصمت).

فيكلا: أجيبني، يا كريمتي. قولي لهم شيئاً.

بايتشنيتسا: كيف، يا محترمة؟...

كوتشكاريوف: ما رأيك، يا أغافيا تيخونوفنا.

فيكلا (تقول لها بصوت خافت): قولي، قولي، أشكركم، أنا

سعيدة جداً، غير لطيف أن تسكتي هكذا.

آغافيا تيخونوفنا: (بخفوت).. اخجل، صحيح، اخجل،
سأنصرف، انصرف حقاً، اجلسي، يا عمّة، نيابة عني.

فيكلا: ياه، لا تفضحينا، هذه الفضيحة. لا تنصرفي. يا له من
عيب، الله يعلم ماذا سيفكرون.

آغافيا تيخونوفنا (بنفس الصوت الخافت): لا، سأنصرف، حقاً،
انصرف، انصرف! (تركض هاربة).

(فيكلا و أرينا بانتليمونوفنا تنصرفان في أثرها).

المشهد العشرون

(نفس الأشخاص ما عدا النساء).

يايتشنيتسا: عجيبة! انصرفن كلهن! ماذا يعني هذا؟

كوتشكاريوف: أظن شيئاً قد حصل.

جيفاكين: شيء يتعلق بزينة السيدات. يعني، يعدلن شيئاً...

يدبسن... قبة صدار.

(تدخل فيكلا. يسألونها جميعاً «وماذا حصل؟»).

كوتشكاريوف: هل حدث شيء؟

فيكلا: وكيف يمكن أن يحدث. لم يحدث شيء، والله!

كوتشكاريوف: فلماذا خرجت إذا؟

فيكلا: أربكنوها، ولهذا خرجت، ارتبكت تماماً، فلم تقدر أن

تبقى في مكانها. ترجو الاعتذار. تفضلوا على قدح شاي في المساء.

(تنصرف).

يايتشنيتسا: (جانباً) يا ويلي من قدح الشاي هذا! للسبب ذاته لا

أحب الخطوبة. تطويل دائم. اليوم غير ممكن، تفضل غداً، ثم بعد غد

على قدح شاي، ثم لازم أن أفكر. بينما القضية بسيطة، ولا تحتاج

إلى وجع دماغ. اللعنة، وأنا صاحب وظيفة، وليس عندي وقت.

كوتشكاريوف: (لبودكليسین) العروسة حلوة، ها؟

بودكليسین: نعم، حلوة.

جيفاكين: العروسة جميلة.

كوتشكاريوف: (جانباً) عليه اللعنة. وقع الأحقق في غرامها. أظنه قد يعرقلنا. (بصوت مسموع) غير جميلة مطلقاً، غير جميلة أبداً.

يايتشيتسا: أنفها كبير.

جيفاكين: لا، أبداً، الأنف لم يلفت نظري، إنها مثل... الوردة. أنوتشكين: رأيي من رأيهما. ليست كما يجب، لا... بل واستبعد أنها تحسن التصرف في المجتمع الراقى. ثم هل تعرف الكلام بالفرنسي؟..

جيفاكين: طيب، لو سمحت أن أسأل لماذا لم تجرب ولم تتكلم معها بالفرنسي؟ ربما هي تعرف.

أنوتشكين: وتحسبني أعرف فرنسي؟ لا، لم يسعدني الحظ لأتلقى هذا التعليم. كان أبي حقيراً، بهيمة، فلم يخطر على باله قط أن يعلمني اللغة الفرنسية. كنت آنذاك ما أزال طفلاً، وكان من السهل تعليمي. ما كان سيكلفه الأمر إلا أن يجلدني جلدأ جيداً، وعند ذلك سأتعلم. سأتعلم حتماً.

جيفاكين: طيب، وإذا كنت لا تعرف الفرنسي، فماذا ستربح، إذا كانت...

أنوتشكين: لا، لا. الأمر مع المرأة يختلف تماماً، يجب أن تعرف حتماً، بدون هذا، عندها كذا وكذا... (يشير بإيماءات) غير مناسب قطعاً.

يايتشيتسا (جانباً): دع غيري بهذا. سأذهب أنا إلى الفناء لأتفقد البيت، والجناحين، وإذا كان كل شيء على ما يرام، سأتم المسألة اليوم مساءً. هؤلاء الخطاب غير خطرين عليّ أناس خفاف. لا وزن لهم تقريباً، والعرائس لا يحببن مثل هؤلاء.

جيفاكين: أنا ذاهب لأدخ غليونني. ألا يوجد أحد في طريقي؟ أين تسكن، لو سمحت؟
أنوتشكين: في بيسكي، زقاق بيتروفسكي.
جيفاكين: آها فيها ألفة لو مشينا سوية، أنا في جزيرة فاسيليفسكي، الشارع الثامن عشر، ومع ذلك سأرافقك.
ستاريكوف: لا، الجو كله عجرفة. فيما بعد ستذكرينا نحن أيضاً، يا أغافيا تيخونوفنا: احتراماتين يا سادة (ينحني مودعاً وينصرف).

المشهد الحادي والعشرون

(بودكليسين و كوتشكاريوف)

بودكليسين: طيب، لنتصرف نحن أيضاً، فماذا أنتظر؟

كوتشكاريوف: بالفعل العروسة جميلة، أليس كذلك؟

بودكليسين: يعني! بصراحة لم تعجبني

كوتشكاريوف: عجيبة! ما هذا؟ أنت نفسك وافقت على أنها

جميلة

بودكليسين: ولكنها ليست كما يجب، أنفها طويل، ولا تتكلم

بالفرنسي.

كوتشكاريوف: أي شيء هذا بعد؟ وما يهمك أن تتكلم

بالفرنسي؟

بودكليسين: على كل حال، العروسة لازم تعرف فرنسي.

كوتشكاريوف: ولماذا؟

بودكليسين: لأنه... لا أعرف لماذا، ولكن لن تكون كما يجب.

كوتشكاريوف: هكذا، أحد الحمقى قال ذلك قبل لحظات،

فالتقف كلامه، إنها ست الحسن، ست الحسن تماماً، لن تجد مثل هذه

العروسة في الدنيا كلها.

بودكليسين: أنا أيضاً أعجبني شكلها في البداية، ولكن بعد

أن أخذوا يقولون: أنفها طويل، أنفها طويل، دقت النظر فرأيت

بنفسي أنفها طويلاً.

كوتشكار يوف: آه، منك، نصاب، لم تعثر على الباب! هم يقولون ذلك عن عمد ليصرفوك، وأنا أيضاً لم أمتدحها. هذه هي الأصول. إنها، يا أخ، آنسة وأية آنسة! أمعن النظر في عينيها: الشيطان وحده يعرف أية عيني لها! نطقان، تنفسان! والأنف، أحر كيف أصفه، في نصاعة المرمر الأبيض! ولكن كيف يمكن تشبيه المرمر به. فمعن بنفسك جيداً.

بودكليسين: (مبتسماً) أي نعم، يبدو لي ثانية أنها جميلة.

كوتشكار يوف: طبعي، جميلة! اسمع، ماداموا قد انصرفوا كلهم، تعال نذهب إليها، ونطرح عليها الموضوع، وننهي كل شيء. بودكليسين: أوه، لن أفعل هذا.

كوتشكار يوف: والسبب؟

بودكليسين: ما هذه الوقاحة منا؟ نحن كثيرون، فليكن الاختيار لها.

كوتشكار يوف: ولأي شيء تكثرت بهم. تخاف المزاحمة؟ هل تريد أن أصرفهم جميعاً في لحظة واحدة؟

بودكليسين: وكيف ستصرفهم؟

كوتشكار يوف: هذا شأن يخصنيز فقط أن تقطع لي عهداً بأنك لا تمتنع بعد ذلك.

بودكليسين: ولم لا أقطع؟ تفضل. لا أمتنع. أريد أن أتزوج. كوتشكار يوف: هات يدك!

بودكليسين: (بعد يده) هاك!

كوتشكار يوف: هذا الذي أريده بالضبط.

(ينصرفان).

الفصل الثاني

(حجرة في بيت آغافيا تيخونوفنا).

المشهد الأول

(آغافيا تيخونوفنا. لوحدها، ثم كوتشكاريوف).

آغافيا تيخونوفنا: صحيح، أي صعوبة في الاختيار! لو كان رجل واحد، اثنان، ولكنهم أربعة، فتفضلي واختاري. نيكانور إيفانوفيتش ليس قبيحاً، ولو أنه نحيف، بالطبع، وإيفان كوزميتش ليس قبيحاً أيضاً. وكذلك إيفان بافلوفيتش، إذا أردت الحقيقة، ولو أنه سمين، ولكنه بارز الطلعة جداً، فماذا أفعل، يا ترى؟ وبالتازار بالتازاروفيتش هو الآخر رجل له محاسن، الاختيار صعب بشكل لا يوصف، صعب، فلو تجمع شفتان نيكانور إيفانوفيتش مع أنف إيفان بافلوفيتش وشيء من طلاقة بالتازار بالتازاروفيتش، ثم تضاف إلى ذلك ضخامة إيفان بافلوفيتش، لاتخذت قرار في الحال! ولكن الآن عليّ أن أقعد وأفكر! رأسي صار يوجعني حقاً، أحسن طريقة، في رأيي أن أسحب قرعة. وأترك كل شيء لمشئته الله وأتوكل عليه! ومن يطلع اسمه بالقرعة أتزوجه. سأكتب أسماءهم جميعاً على قصاصات ورق، وألقها، وليكن ما يكون. (تقرب من الطاولة، وتأخذ من هناك مقصاً وورقة، وتقصها إلى قصاصات، وتلفها، ماضية في الكلام) ما أعس حظ الفتاة، لاسيما إذا كانت

عاشقة. لا أحد من الرجال يفهم ذلك، بل ولا يريد أن يفهمه. الآن
هياتهم جميعاً، ولم يسق إلا أن ألقهم في حقيبة يدوية، وأغمض
عيني، وليكن ما يكون. (تضع قصاصات الورق في حقيبة يدوية،
وتخلطها بيدها).. أنا خائفة... آه، لو أن الله جعلني أسحب نيكاتور
إيفانوفيتش. لا، ولم هو بالذات؟ إيفان كوزميتش أحسن. ولم إيفان
كوزميتش؟ وهل الآخرون سيئون؟ وبأي شيء؟ لا، لا أريد... من
يطلع في يدي سيكون هو الفائز. (تخلط قصاصات الورق بيدها
في الحقيبة، وبدلاً من أن تخرج قصاصة واحدة تخرج القصاصات
كلها) أوه! طلع الجميع! وقلبي شديد الخفقان! لا، واحد واحداً.. لا
بد أن أسحب واحداً.. (تضع قصاصات الورق في الحقيبة اليدوية
وتخلطها)..

(في ذلك الوقت يدخل كوتشكاريوف خلصةً، ويقف وراءها).
آه، لو أسحب بالتازار... ماذا جرى لي؟ أردت أن أقول نيكاتور
إيفانوفيتش... لا، لا أريد، لا أريد... ليقرر القدر من!..

كوتشكاريوف: اختاري إيفان كوزميتش. فهو أحسنهم.
آغافيا تيخونوفنا: آه! (تندّ عنهم صرخة، وتغطي وجهها بيديها،
خائفة من النظر إلى الخلف)..

كوتشكاريوف: ولم ارتعبت؟ لا تخافي، هذا أنا، صحيح،
اختاري إيفان بافلوفيتش.

آغافيا تيخونوفنا: آه، أنا خجلانة. كنت تسمع وأنا لا أدري.
كوتشكاريوف: لا شيء، لا شيء! فأنا من الأهل، من أقربائكم،
ولا حاجة إلى الخجل مني. اكشفي عن وجهك.

آغافيا تيخونوفنا: (تكشف نصف وجهها) صحيح، أنا خجلانة.
كوتشكاريوف: طيب، اختاري إيفان بافلوفيتش.

آغافيا تيخونوفنا: آه! (تند عنها صرخة فتغطي وجهها يديها من جديد) ..

كوتشكاريوف: رجل رائع حقاً، كم أنيط به من أعمال... رجل عجيب حقاً.

آغافيا تيخونوفنا: (تكشف وجهها تدريجياً). كيف هذا، والآخر؟ نيكانور إيفانوفيتش؟ هو أيضاً رجل جيد.

كوتشكاريوف: أرجوك، هذا تافه بالقياس إلى إيفان بافلوفيتش آغافيا تيخونوفنا: والسبب؟

كوتشكاريوف: السبب واضح، إيفان بافلوفيتش رجل بصراحة، رجل... لن تجدي له مثيلاً.

آغافيا تيخونوفنا: طيب، وإيفان بافلوفيتش؟...

كوتشكاريوف: إيفان بافلوفيتش تافه هو الآخر! كلهم تافهون. تافهون.

آغافيا تيخونوفنا: معقول كلهم؟

كوتشكاريوف: نعم، وما عليك إلا أن تحكمي، أن تقارني. هذا هو إيفان بافلوفيتش، على كل حال، وليس تافها من يدعي إيفان بافلوفيتش، أو نيكانور إيفانوفيتش، ومن على هذه الشاكلة!

آغافيا تيخونوفنا: صحيح أنهم... متواضعون جداً.

كوتشكاريوف: أي متواضعين هم! إنهم معربدون متهورون للغاية. وكأنك تريد أن تضربي في اليوم الثاني بعد الزفاف.

آغافيا تيخونوفنا: آه، يا ربي! هذه مأساة! هذا أتعس ما يمكن أن يكون.

كوتشكاريوف: بالطبع! لا يمكن أن تتصور شيئا أتعس من ذلك.

آغافيا تيخونوفنا: إذأ، تنصحنى باختيار إيفان بافلوفيتش؟
كوتشكاريوف: إيفان بافلوفيتش طبيعى إيفان بافلوفيتش (جانبا)
اظن المسألة مشت. بودكليسين جالس في محل حلويات، ساذهب
وأجىء به.

آغافيا تيخونوفنا: إذأ، تعتقد أن اختار إيفان بافلوفيتش؟
كوتشكاريوف: من كل بد، إيفان بافلوفيتش
آغافيا تيخونوفنا: وارفض الآخرين؟
كوتشكاريوف: ارفضهم، بالطبع.
آغافيا تيخونوفنا: ولكن كيف أفعّل ذلك؟ اخجل.
كوتشكاريوف: ولماذا تخجلين؟ قولى لهم: ما زلت شابة، ولا
أريد الزواج.

آغافيا تيخونوفنا: ولكنهم لا يصدقون. سيسألون: كيف ولماذا؟
كوتشكاريوف: طيب، إذا كنت تريد أن تنهى المسألة دفعة
واحدة قولى: «اغربوا عني، يا حمقى!».
آغافيا تيخونوفنا: وكيف يمكن أن أقول ذلك؟..
كوتشكاريوف: طيب، حاولي. أؤكد لك أنهم سيولون هارين
جميعاً.

آغافيا تيخونوفنا: ولكن هذه كالشتيمة في حقهم.
كوتشكاريوف: أنت لن تريهم بعد ذلك. فما الفرق عندك؟
آغافيا تيخونوفنا: على كل غير لطيف... سيفضبون.
كوتشكاريوف: وماذا بهم، إن غضبوا؟ لو كان سينجم شيء
عن ذلك، لكان الأمر يختلف، ولكن أسوأ الاحتمالات أن يبصق
أحدهم في عينيك، لا أكثر.

آغافيا تيخونوفنا: ها أنت ترى!

كو تشكاريوف: أية مشكلة في هذا؟ هناك أشخاص تلقوا
البصقات عدة مرات، وحق الرب! بل أعرف أحدهم. وهو رجل
رائع الجمال، متورد الخدين تماماً، كان يزعج ويتزلف إلى رئيسه
ليظفر بزيادة في مرتبه، حتى ضجر الرئيس، ونفذ صبره أخيراً،
فبصق في وجهه فعلاً، والله، قائلاً: «هذه هي الزيادة لك، فحلّ عني،
يا شيطان!»، ولكنه خصص له الزيادة على كل حال. يعني ماذا لو
بصقوا؟ سيختلف الأمر لو كان المنديل بعيداً، ولكن المنديل موجود
في الجبين فأخرجه، وامسح البصقة.

(رنين جرس في الرواق).

الجرس يرن. أظن أحدهم قادماً. لا أحب أن ألتقي بهم الآن، هل
في بيتكم مخرج آخر؟

آغافيا تيخونوفنا: يوجد سلم خلفي. ولكن جسمي كله يرتعش،
حقاً.

كو تشكاريوف: لا بأس. المهم أن تسيطر على نفسك. إلى
اللقاء! (جانباً) سأسرع في الإتيان ببودكليس.

المشهد الثاني

(آغافيا تيخونوفنا و يايتشنييتسا) ..

يايتشنييتسا: جئت، يا سيدتي، مبكراً قليلاً عن قصد، لأتحدث إليك على انفراد، في وقت الفراغ، طيب، يا سيدتي، أفترض أنك تعرفين رتبتي: أنا موظف من الدرجة الراقية، محبوب من الرؤساء، مطاع من المرووسين.. ينقصني فقط رفيقا حياة لي.

آغافيا تيخونوفنا: نعم.

يايتشنييتسا: والآن أجد هذه الرفيقة. رفيقة حياتي أنت. قولي لي بصراحة: نعم أم لا؟ (ينظر من خلال كتفها. ويقول جانباً) آها، ليست هي كالألمانيات التحيلات. يوجد عليها شيء!.

آغافيا تيخونوفنا: أنا ما أزال في أول الشباب، ولا يجدر أن أتزوج في الوقت الحاضر.

يايتشنييتسا: يا سلام! ولماذا تتعب الخطابة نفسها؟ ولكن ربما تريد أن تقولي شيئاً آخر؟ وضحني...

(رنين جرس).

اللعنة، لن يتركوني أشوف شغلي.

المشهد الثالث

(نفس الشخصين وجيفاكين).

جيفاكين: اعذريني، يا سيدتي، ربما جئت مبكراً جداً. (يلتفت ويرى ياتشنيتسا).. آه، يوجد زائر... احتراماتي لايفان بافلوفيتش! ياتشنيتسا: (جانباً) أوه، ليأخذك الشيطان أنت واحتراماتك! (بصوت مسموع) إذأ، يا سيدتي؟ قولي كلمة واحدة: نعم أم لا؟ (رنين جرس. ياتشنيتسا. ييصق في غيظ).
الجرس مرة أخرى.

المشهد الرابع

(نفس الأشخاص مع أنوتشكين)..

أنوتشكين: بما، يا سيدتي، أبكر مما تقتضي وتسمح أصول اللياقة... (و حين يرى الآخرين تند منه آهة استغراب، وينحني لهما)، احتراماتي!

بايتشنيتسا: (جانباً) ابق احترامك لك! لعنة الله على الذي جاء بك. أتمنى أن تنكسر رجلاك المصوصتان! (بصوت مسموع) قرري، إذأ، يا سيدتي، أنا رجل مرتبط بوظيفة، ووقتي قليل. نعم أم لا؟

آغافيا تيخونوفنا: (في الارتباك) غير لازم.... غير لازم.... (جانباً) لا أفهم شيئاً مما أقول.

بايتشنيتسا: كيف غير لازم؟ بأي خصوص غير لازم؟

آغافيا تيخونوفنا: لا شيء، لا شيء... لم أرد... (تستجمع شجاعته) اغرب عني!... (جانباً) آه، يا إلهي، ما هذا الذي قلته؟
بايتشنيتسا: كيف «اغرب عني»؟ ماذا يعني «اغرب عني»؟
اسمحي لي أن أعرف ماذا تقصدين بهذا؟ (يتخوَصر، ويتقدم نحوها مهدداً).

آغافيا تيخونوفنا: (بعد أن تحديق في وجهه تصيح). أوه، بضربني بضربني! (تخرج راكضة).

(بايتشنيتسا يقف فاغر الفم. تركض أرينا بانتيليمونوفنا داخلة

على الصيحة، وتحقق في وجهه، وتصيح أيضاً «أوه، يضربني!»
وتخرج راكضة)

يايتشنييتسا: أي لغز هذا. والله حكاية!

(رنين جرس في الباب، وأصوات تسمع).

صوت كوتشكاريوف: ادخل، ادخل، لماذا توقفت؟

صوت بودكليسسين: ادخل أنت في المقدمة. سأتأخر دقيقة، أصلح
هندامي، انحلت حمالة الجورب.

صوت كوتشكاريوف: وتهرب من جديد.

صوت بودكليسسين: لا، لن أهرب! وحق الرب لن أهرب!

المشهد الخامس

(نفس الأشخاص مع كوتشكاريوف).

كوتشكاريوف: وكأنه ضروري جداً أن يشدّ الحمالة.

يايتشنيتسا: (مخاطباً إياه) قل لي من فضلك: هل العروس بلهاء أم

ماذا؟

كوتشكاريوف: وكيف؟ هل حصل شيء حقاً؟

يايتشنيتسا: تصرفات غير مفهومة. ركضت، وهي تصرخ

«يضر بني، يضر بني!» الشيطان يعرف ما هذا!

كوتشكاريوف: أي نعم، هذا ما يلاحظ عليها. إنها بلهاء.

يايتشنيتسا: قل لي هل أنت قريبها؟

كوتشكاريوف: قريبها، بالطبع.

يايتشنيتسا: وأية قرابة، لو سمحت أن أعرف؟

كوتشكاريوف: في الحقيقة لا أعرف. إحدى عمات أُمي هي

إحدى أقارب أبيها، أو أبوها أحد أقارب عمتي. زوجتي تعرف

ذلك. هذا شغلهم.

يايتشنيتسا: والبله عندها منذ زمان؟

كوتشكاريوف: منذ الصغر.

يايتشنيتسا: نعم، كان الأفضل بالطبع، لو كانت أكثر ذكاء. ومع

ذلك فالبلهاء أيضاً مقبولة. شرط أن يكون صداقها في حالة جيدة.

كوتشكاريوف: ولكنها لا تملك شيئاً.

يايتشنيستا: وكيف ذاك، والبيت الآجري؟

كوتشكاريوف: بيت آجري بالاسم فقط. ولكن ليتك تعرف كيف بُني، الجدران أقيمت بقشرة من الآجر فقط، وفي الوسط حشيت بمختلف النفايات ونشارة الخشب.

يايتشنيستا: معقول؟

كوتشكاريوف: طبعي. وكأنك لا تعرف كيف ينون البيوت في هذه الأيام؟ لا لشيء إلا ليرهنوها في المصرف العقاري.

يايتشنيستا: على كل، البيت غير مرهون.

كوتشكاريوف: ومن قال لك؟ هذا هو صلب الموضوع. ليس فقط مرهوناً، بل ولم توضع عليه الفوائد المصرفية المفروضة لمدة سنين. كما أن لها أخاً في المحكمة العليا يضع عينه على البيت أيضاً، لا مثيل له في الولع بإقامة الدعاوى في المحاكم. انتزع، الكافر، من أمه آخر تنورة لها.

يايتشنيستا: وكيف قالت لي العجوز الخطابية.... آه، إنها مكاراة، حثالة جنس البش.... (جانباً) ومع ذلك يمكن أن يكذب... سأستجوب العجوز استجواباً عسيراً، ولو طلع ذلك حقيقة... طيب... ساريها النجوم في الضحى.

أنوتشكين: اسمح لي أيضاً أن أضايقك بسؤال، بصراحة لكوني لا أعرف الفرنسية يصعب عليّ جداً أن أعرف بنفسني ما إذا كانت المرأة تعرف الفرنسية أم لا، فكيف ربة البيت، هل تعرف؟...

كوتشكاريوف: لا، ولا حرف.

أنوتشكين: صحيح؟

كوتشكاريوف: وكيف لا؟ أنا أعرف ذلك جيداً. كانت تتعلم مع

زوجتي في مدرسة داخلية واحدة، وكانت معروفة بالكسل. كانت دائماً تعاقب. بل كان معلم الفرنسية يضطر إلى ضربها بالعصا. أنوتشكين: تصور أنني أول ما رأيته كنت أتحسس أنها لا تعرف الفرنسية.

يايتشنيثسا: طيب، لتذهب الفرنسية إلى الجحيم! ولكن كيف الخطابية الملعونة... آه، أيتها المكارة، يا مشعوذة! ليتك تعرف بأية كلمات رسمتها لي. كما يرسم رسام بالضبط! «بيت، جناحان على أسس، ملاعق فضية، زلاجة» والآن اجلس فيها وتتنزه! وباختصار نادر ما تجد مثل هذه البلاغة في رواية. آه، منك، أيتها السافلة الهرمة! فقط لو أظفر بك...

المشهد السادس

(نفس الأشخاص مع فيكلا).

(حين يرونها يخاطبونها جميعاً بهذه الكلمات).

يايتشنيثسا: آي! هذه هي! تعالي إلى هنا، أيتها الزنديقة العجوز!

تعالي إلى هنا!

أنوتشكين: كيف خدعتني، يا فيكلا إيفانوفنا؟

كوتشكاريوف: أي نعم، شددوا الخناق عليها!

فيكلا: لا أفهم أي كلمة، طرشت تماماً!

يايتشنيثسا: البيت مبني بقشرة من الآجر، أيتها السافلة الهرمة.

بينما كذبت وقلت بشرفات وبهذا وذاك.

فيكلا: لا أدري بذلك، لم ابنه أنا، ربما كان من الضروري أن ينوه

بقشرة آجر فقط، فبنوه بهذا الشكل.

يايتشنيثسا: ومرهون أيضاً! عسى أن يتلعلك الشيطان، يا

مشعوذة، يا ملعونة! (يضرب الأرض بقدمه).

فيكلا: قف عند حدك! غيرك كان سيسكرني بارتياح على همتي

نحوه.

أنوتشكين: نعم، يا فيكلا إيفانوفنا. ولي أيضاً قلت إنها تعرف

اللغة الفرنسية.

فيكلا: تعرف، يا عزيزي، كل شيء تعرف، بالألماني وبكل شيء،

تعرف تتصرف بأية طريقة تريدها.

أنوتشكين: لا، أظنها لا تتكلم إلا بالروسي.

فيكلا: وما العيب في ذلك؟ الإنسان بالروسي يفهم أحسن، ولهذا تتكلم بالروسي. وإذا كانت تعرف بالأعجمي، سيكون أسوأ لك. لن تفهم منها شيئاً. ليس هناك داع لأن تثرثر عن الإنسان الروسي! معروف أي لسان هو. كل القديسين كانوا يتكلمون بالروسي.

بايتشنيتسا: تعالي هنا، يا ملعونة! اقتربي مني!

فيكلا (تراجع باتجاه الباب): لا تقرب، أنا أعرفك، أنت رجل قبيح، تضرب بدون أي سبب.

بايتشنيتسا: طيب، انتظري، يا حلوة، لن تسلمي من ذلك! عندما أحيلك إلى الشرطة ستعرفين أي جزاء ستلقين من خداع الناس الشرفاء. سترين! وقولي للعروس إنها سافلة! قولي لها من كل بد. (ينصرف).

فيكلا: قف عند حدك! يا للشجاعة! لأنه سمين يتصور لا أحد يوازيه. طيب، أقول لك أنت نفسك سافل، هكذا!

أنوتشكين: بصراحة، يا محترمة، ما كنت أتصور أنك ستخدعين بهذا الشكل. لو كنت أعرف أن العروس بهذا المستوى من التعليم ما كنت... نعم، ما كانت قدمي تطأ هذا البيت. هكذا! (ينصرف).

فيكلا: هل جنوا أو شربوا أكثر من اللازم! يا لهم من متحذلقين! القراءة والكتابة لخبطت عقولهم.

المشهد السابع

(فيكلا و كوتشكار يوف و جيفاكين)

(كوتشكار يوف يضحك. عملء حنجرتة، وهو ينظر إلى فيكلا ويشير إليها بإصبعه).

فيكلا (في غيظ): مالك ممزق حنجرتك؟

(كوتشكار يوف ماضٍ في قهقهته. أصابته نوبة!)

كوتشكار يوف: أمّا والله خطابة! خطابة! أستاذة في الزواج! تعرف كيف تدير الأمور! (ويعمضي في قهقهته).

فيكلا: ساح في الضحك، يبدو أن المرحومة أمك فقدت عقلها، ساعة ولدتك! (تخرج مغتاظة).

المشهد الثامن

(كوتشكاريوف وجيفاكين)..

كوتشكاريوف (وهو ما يزال يقهقه): أوه، ساموت من الضحك، أموت، حقاً طاقتي لا تتحمل، أشعر بالضحك بمزقني! (يمضي في ضحك).

(جيفاكين يبدأ بالضحك أيضاً، وهو ينظر إليه).

(يسقط على المقعد من الإعياء) أوه، صحيح، قواي خارت. أشعر بأن آخر عروقي ستمزق لو واصلت الضحك.

جيفاكين: يعجبني مرح طبعك. كان عندنا في عمارة القبطان بولديريف ضابط صف يدعى بيتوخوف أنتو إيفانوفيتش. هو أيضاً كان مرح الطبع. كان ما إن تريه إصبعاً واحدة هكذا دون أي شيء آخر، حتى ينفجر ضاحكاً، وحق الرب، يضحك حتى المساء. وإذا نظرت إليه تشعر أنت نفسك برغبة في الضحك، وإذا بك الآخر تضحك بعد برهة، نعم، في الحقيقة.

كوتشكاريوف: (يلتقط أنفاسه). أوه، يا إلهي، ارحمنا، نحن الخاطئين! طيب، ماذا تصورت، الحمقاء؟ هيهات أن تزوج أحداً، وهل هي بقادرة على ذلك؟ أنا إذا أخذت على عاتقي، سأزوج حسب الأصول.

جيفاكين: الله؟ يعني تقدر أن تزوج بجد؟

كوتشكاريوف: مؤكداً! أي رجل على أي امرأة.

جيفاكين: طيب، إذا كان كذلك زوجني ربة البيت هذه.

كوتشكاريوف: أزوجك أنت؟ ولكن لماذا تريد أن تتزوج؟
جيفاكين: كيف لماذا؟ دعني أقول لك: سؤال فيه بعض الغرابة!
معروف لماذا.

كوتشكاريوف: ولكنك سمعت أنها بلا جهاز بالمرّة.
جيفاكين: وليكن ما دام هو والعدم سواء. بالطبع، هذا شيء
مؤسف. ولكن يمكن بلا جهاز أيضاً لما للآنسة من لطف شديد
وحسن سلوك. الحجرة صغيرة (يقيسها بذراعيه). يعني هنا رواق
صغير، وحاجز نوم صغير، أو شيء فاصل...

كوتشكاريوف: وما الذي أعجبك فيها بهذا الشكل؟
جيفاكين: إذا أردت الحقيقة، أعجبتني لأنها امرأة مثلك. وأنا غاو
كبير من ناحية امتلاء المرأة.

كوتشكاريوف: (ينظر إليه من طرف عينه، ويقول جانباً).. هو
نفسه لا يملأ العين أبداً، مثل كيس تبغ أفرغت منه محتوياته. (بصوت
مسموع)، لا، لا يجوز لك أن تتزوج إطلاقاً.

جيفاكين: ولماذا؟

كوتشكاريوف: هكذا. وأي قوام لك، إذا كان الكلام بيننا؟
الساق كساق الديك...

جيفاكين: ساق الديك؟

كوتشكاريوف: بالطبع. وأي شكل لك!

جيفاكين: كيف ساق الديك على كل حال؟

كوتشكاريوف: بالضبط، ساق الديك.

جيفاكين: يبدو لي، على أية حال، أنك تهين كرامتي..

كوتشكاريوف: وأنا أقول ذلك لأنني أعرف أنك رجل متفهم.

لغيرك ما كنت سأقوله أبداً. تفضل، سأزوجك، ولكن امرأة أخرى.
جيفاكين: لا، لم أطلب أن أزوج امرأة أخرى، اعمل معروفاً
زوجني هذه.

كوتشكاريوف: تفضل، أزوجك! فقط على شرط أن لا تتدخل
في أي شيء، وأن لا تقع عين العروسة عليك. وسأفعل كل شيء
بدونك.

جيفاكين: كيف تقوم بكل شيء بدوني؟ على كل حال لازم أريها
نفسي.

كوتشكاريوف: غير لازم أبداً، اذهب إلى بيتك وانتظر هناك.
وفي هذا المساء سيتم كل شيء؟

جيفاكين: (يفرك يديه) هذا شيء لا أروع منه! يعني لا تلزم
الشهادة بالمؤهلات ولا سجل الخدمة؟ ربما العروسة تحب الاطلاع؟
سأهرب لجلبها حالاً.

كوتشكاريوف: لا لزوم لأي شيء. المهم أن تتوجه إلى البيت.
واليوم أخبرك بالنتيجة. (يرافقه في الخروج) العين بصيرة واليد
قصيرة، لن يكون ذلك! ما هذا؟ لماذا لا يأتي بودكليسين. شيء
غريب، على كل حال. معقول لحد الآن مشغول بشدّ الحماله؟ يعني
لازم أركض وراءه؟...

المشهد التاسع

(كوتشكار يوف و آغافيا تيخونوفنا).

آغافيا تيخونوفنا: (تجمل النظر فيما حولها) يعني انصرفوا؟ لا يوجد أحد؟

كوتشكار يوف: انصرفوا، انصرفوا، لا يوجد أحد.

آغافيا تيخونوفنا: آه، ليتك تعرف كم كنت أرتجف بكل جسمي. لم يحدث هذا معي قط. ولكن أي إنسان مخيف ياتشنيشسا هذا! لا بد أنه سيكون طاغية على زوجته. حتى الآن يبدو لي أنه سيعود من لحظة إلى أخرى.

كوتشكار يوف: أوه، لن يعود أبداً. أراهن على رأسي، إذا مد واحد منهما أنفه هنا.

آغافيا تيخونوفنا: والثالث؟

كوتشكار يوف: أي ثالث؟

جيفاكين: (بعد رأسه من الباب) كم أود أن أعرف ماذا ستقول عني بفهما الجميل يا وردة الحب!

آغافيا تيخونوفنا: وبالتازار بالتازاروفيتش؟

جيفاكين: حلت اللحظة! حلت اللحظة! (يفرك يديه).

كوتشكار يوف: أوه، أزعجتني! تصورت أنك تكلمين عن إنسان محترم. الشيطان نفسه يعرف أي شخص هو. أحقق راسخ.

جيفاكين: ما هذا؟ بصراحة، لا أفهم أي شيء هذا.

آغافيا تيخونوفنا: ولكنه من حيث الشكل يبدو إنساناً جيداً جداً.
كوتشكاريوف: سكير!

جيفاكين: لم افهم، وحق الإله!

آغافيا تيخونوفنا: وعلاوة على ذلك سكير؟ معقول؟

كوتشكاريوف: صدقيني، حقير متاصل في حقارته.

جيفاكين: (بصوت عال)، لا، يا حضرة المحترم. لم أرد منك أن تقول هذا أبداً. مسألة أخرى أن تقول شيئاً لصالحني. أن تمتدحني. أما هذه الطريقة، هذه الكلمات فأطلقها على شخص آخر غوري، أما بخصوصي فلا مؤاخذه، لا داعي!

كوتشكاريوف: (جانباً) ما الذي وسوس له ليعود؟ (لاغافيا تيخونوفنا بصوت خافت) عاينسي عايني، لا يكاد يقف على قدميه. كل يوم يترنح بهذا الشكل. اطرديه، وينتهي الأمر! (جانباً) و بود كليسين لم يأت لحد الآن، آه، الحقير! سأنتقم منه! (يخرج).

المشهد العاشر

(آغافيا تيخونوفنا و جيفاكين).

جيفاكين (جانباً): أردته عوناً طلع لي فرعوناً! رجل في منتهى
الغربة! (بصوت مسموع) يا سيدتين لا تصدقي...
آغافيا تيخونوفنا: اعذري. أنا متوعدة... عندي صدام (تهم
بالخروج).

جيفاكين: ربما يوجد شيء لا يعجبك في؟ (يشير إلى رأسه) لا
تنظري إلى بقعة الصلع الصغيرة في رأسي. إنها لا شيء، آثار حمى
ولت، وسينمو الشعر حالاً.

آغافيا تيخونوفنا: لا يهمني أي شيء عندك.

جيفاكين: أنا، يا سيدتي، إذا ارتديت بدلة فراك سوداء لاح لون
وجهي أكثر بياضاً.

آغافيا تيخونوفنا: هذا أحسن لك. مع السلامة. (تخرج).

المشهد الحادي عشر

(جيفاكين. وحده، يقول في أثرها).

سيدتي، من فضلك، قولي السبب، لماذا؟ لأي شيء؟ هل عليّ
مأخذ كبير؟ انصرفت!... غريبة جداً! هذا يحدث لي للمرة السابعة
عشرة، في كل مرة بنفس الطريقة تقريباً. في البداية يبدو كل شيء
على ما يرام، وما إن تصل المسألة إلى نقطة الحسم، حتى أجد بنفسي
مرفوضاً. (يروح ويجيء في الحجرة في تأمل)، نعم، هذه هي الخطيئة
السابعة عشرة، بالتأكيد! على كل حال، ماذا تريد؟..

ماذا كانت يعني، مثلاً... السبب والمسبب. (بعد تفكير قصير).
مسألة تحير، تحير إلى أبعد حد! لا بأس لو كان لي عيب أو نقیصة
(يجيل البصر فيما حوله) لا أظن أن هذا موجود، كل شيء بحمد الله،
الطبيعة لم تبخل عليّ بشيء. غريبة! ربما أذهب إلى البيت، وأفتش في
صندوقتي؟ كانت فيه أشعار، تعويذة، لا تصمد أية امرأة أمامها...
والله، هذا لا يتقبله العقل! في البداية وفقت، فيما بدا... والظاهر
أنني سأعود بخفي حنين. خسارة، بالفعل خسارة! (ينصرف).

المشهد الثاني عشر

(بودكليسين و كوتشكار يوف يدخلان، والاثنان يلتفتان إلى الخلف).

كوتشكار يوف: لم يلحظنا! هل رأيت كيف طلع خائباً؟

بودكليسين: معقول أنه رفض أيضاً مثل هؤلاء؟

كوتشكار يوف: رفض رفضاً باتاً.

بودكليسين: (بابتسامة الرضى عن النفس) على كل حال، لا بد

أن يكون مربكاً جداً أن يرفض من الخاطب.

كوتشكار يوف: بالطبع!

بودكليسين: لحد الآن لا أصدق أنها أعلنت صراحة بأنها تفضلني

على الجميع.

كوتشكار يوف: لا تفضلك فقط! بل هي مدلهة بك كلياً. حب

مشبوب. أنت لا تدري بأي أسماء تحب سمّتك! غرام عاصف

فوار، بالفعل!

بودكليسين: (فاغراً فمه بارتياح) صحيح، إذا أحببت المرأة لن

تبخل بالكلمات. تتكر ما لا تتكره أنت طول عمرك من أسماء

الولع: يا حلاوة بوزك، يا صريصور، يا سمرمر...

كوتشكار يوف: قليلة هذه الكلمات! ستزوج وسترى بنفسك

في الشهرين الأولين أي أسماء ستطلق عليك. تجعلك تدوب، يا أخ،

بالتأكيد.

بودكليسين: (يبتسم بشيء من التشكك) معقول؟

كوتشكار يوف: كلمة شرف من إنسان شريف! على كل حال،
اسمع الآن، لندخل الموضوع بسرعة. ابع لها بحبك، واكشف لها
مشاعرك على الفور، واطلب يدها.

بودكليسين: ولكن كيف على الفور؟ ما هذا منك!..
كوتشكار يوف: على الفور، حتماً... هاهي نفسها قادمة.

المشهد الثالث عشر

(نفس الشخص مع آغاليا تيخونوفنا)..

كوتشكاريوف: جنتك يا سيدتي، بعبدك الذي تريه، لم يقع أحد في العشق الذي وقع فيه مطلقاً. الله يستر، لا أريد ذلك حتى لعدوي. بودكليسين: (يلكز من يده، ويقول بخفوت) أوه، يا أخ، زودتها كثيراً..

كوتشكاريوف: (له) لا بأس، لا بأس. (لها، بخفوت) كوني أجراً. إنه وديع جداً. حاولي أن تكوني معه على أكثر ما يمكن من الطلاقة. يعني، اقلبي حاجبيك بهذا الشكل، خفّضي بصرك، ارفعيه عليه، السافل، أو مطي كتفك بشكل ما، ودعي هذا الرذيل، يرى! خسارة إنك لم تلبسي فستاناً بردنين قصيرين. ولكن هذا جميل، على كل حال. (بصوت مسموع). طيب، سأترككم في صحبة لطيفة! لحظة لألقي نظرة على غرفة الطعام عندكم، وعلى المطبخ. يجب أن أدبّر الأمور. بعد قليل سيأتي النادل الذي أوصيته ليخدمنا في العشاء. وقد تكون زجاجات النبيذ قد وصلت. إلى اللقاء! (لبودكليسين). شد حيلك، تجزأ أكثر. (يخرج).

المشهد الرابع عشر

(بود كليسين و آغافيا تيخونوفنا).

آغافيا تيخونوفنا: تفضل بالجلوس.

(يجلسان ويصمتان).

بود كليسين: أتحبين الركوب، يا سيدتي؟

آغافيا تيخونوفنا: ماذا تقصد بالركوب؟

بود كليسين: في الريف كم يحلو ركوب الزورق صيفاً!

آغافيا تيخونوفنا: نعم، أحياناً ننتزه مع الأصحاب.

بود كليسين: غير معروف أي صيف سيكون هذا العام.

آغافيا تيخونوفنا: حبذا لو كان لطيفاً.

(الاثنان يصمتان).

بود كليسين: أية زهور تحبين أكثر يا سيدتي؟

آغافيا تيخونوفنا: التي لها أريج أكثر، زهور القرنفل.

بود كليسين: السيدات تناسبهن الزهور كثيراً.

آغافيا تيخونوفنا: نعم، هواية تحلو للنفس.

(صمت).

آغافيا تيخونوفنا: في أية كنيسة صليت يوم الأحد الماضي؟

بود كليسين: في كنيسة فوزنيسينسكي. وقبل أسبوع صليت في

كاتدرائية كازان. على العموم، لا يهم في أي كنيسة يصلي المرء.

سوى أن الزينات فيها أجمل.

(صمت، بودكليسین ينقر بأصابعه على الطاولة).

عن قريب سيحل موعد الحفلة في ايكاترينغوف.

آغافيا تيخونوفنا: نعم، أظن بعد شهر.

بودكليسین: وحتى أقل من شهر.

آغافيا تيخونوفنا: لابد أن تكون حفلة ممتعة.

بودكليسین: اليوم الثامن من الشهر. (يعد بأصابعه) التاسع،

العاشر، الحادي عشر... بعد اثنين وعشرين يوماً.

آغافيا تيخونوفنا: تصور، قريب جداً!

بودكليسین: وأنا لم أحسب هذا اليوم.

(صمت)

أي شعب جسور هذا الشعب الروسي!

آغافيا تيخونوفنا: كيف!

بودكليسین: أقصد الشغيلة. واحد يقف في الأعلى تماماً. كنت

أمر أمام البيت، فرأيت ملاطاً هناك، ولا يخاف شيئاً.

آغافيا تيخونوفنا: غير معقول! في أي مكان؟

بودكليسین: في الطريق الذي أسلكه كل يوم في الذهاب إلى

الدائرة. فأنا كل يوم أذهب للدوام.

(صمت. ويعود بودكليسین ينقر بأصابعه من جديد، وأخيراً

يتناول قبعته، وينحني مودعاً).

آغافيا تيخونوفنا: يعني تنصرف...

بودكليسین: نعم، اعذريني، ربما أضجرتك.

آغافيا تيخونوفنا: مستحيل! على العكس يجب أن أشكرك على

مضية الوقت بهذا الشكل.

بودكليسین: (مبتسماً) بينما، في الحقيقة، ظننت أنني اضجرتك.

آغافيا تيخونوفنا: لا، بالفعل.

بودكليسین: طيب، إذا كان لا، فاسمح لي أن أزورك مرة

أخرى، في إحدى الأماسي...

آغافيا تيخونوفنا: مسرورة جداً.

(يتبادلان الانحناءات، بودكليسین ينصرف).

المشهد الخامس عشر

(أغاليا تخبونوفنا وحدها).

أي رجل معتبر! الآن فقط عرفته جيداً. حقاً، لا يمكن إلا أن تقع في حبه. متواضع وحصيف. وصديقه كان محقاً في قوله قبل حين. خسارة فقط إنه انصرف بهذه السرعة، بينما كنت أريد أن أستمع إليه أكثر. ما أطف الحديث معه! المهم واللطيف فيه أنه لا يتكلم أبداً كلاماً فارغاً. وكنت أيضاً أريد أن أقول له كلمة أو كلمتين، ولكنني تهيئت، بصراحة، وصار قلبي يدق بسرعة... رجل ممتاز حقاً! لأذهب إلى عمتي، وأحكي لها (تخرج).

المشهد السادس عشر

(بودكليسين و كوتشكاريوف، يدخلان).

كوتشكاريوف: ولم ذهابك إلى البيت؟ أي سخافة هذه! لم إلى البيت؟

بودكليسين: ولماذا أبقى هنا؟ قلت كل شيء حسب الأصول.

كوتشكاريوف: يعني فتحت قلبك لها؟

بودكليسين: إلا هذا، لم أفتح قلبي بعد.

كوتشكاريوف: يا سلام! لماذا لم تفتحه؟

بودكليسين: كيف تريدني أن أعلن لها دفعة واحدة «دعيني

أتزوجك يا سيدتي» دون مقدمات عن أشياء أخرى؟

كوتشكاريوف: ماهي التوافه التي تحدثت عنها طوال نصف

ساعة؟

بودكليسين: طيب، تحدثنا عن كل شيء، وأنا مرتاح جداً

بصراحة، قضيت الوقت بمتعة كبيرة.

كوتشكاريوف: طيب، اسمع، احكم بنفسك متى سنلحق أن

تقوم بكل هذا؟ بينما يجب علينا أن نذهب إلى الكنيسة بعد ساعة

لعقد القران.

بودكليسين: هل جنت؟ اليوم عقد القران!

كوتشكاريوف: ولم لا؟

بودكليسين: اليوم عقد القران!

كوتشكار يوف: ولكن أنت الذي قطعت العهد، وقلت سأ تزوج
حالما يطرد الخطاب.

بود كليسين: وأنا الآن أيضاً عند عهدي. ولكن ليس حالاً. بعد
شهر، على الأقل. يجب أن أعطي فترة استراحة.

كوتشكار يوف: لشهر!

بود كليسين: نعم، بالطبع.

كوتشكار يوف: هل فقدت عقلك أم كيف؟

بود كليسين: نعم، لا يمكن أقل من شهر.

كوتشكار يوف: ولكنني أوصيت النادل على عشاء، يا بليدا
طيب، أرجوك، يا إيفان كوزميتش، لا تعاند، يا روجي، وتزوج
الآن.

بود كليسين: أرجوك، يا أخي، ما هذا الذي تقوله؟ كيف الآن؟
كوتشكار يوف: إيفان كوزميتش، أتوسل إليك، إذا كنت لا تريد
لنفسك، فلخاطري على الأقل.

بود كليسين: ولكن غير ممكن، وحق الرب.

كوتشكار يوف: ممكن، يا روجي، كل شيء ممكن. طيب،
أرجوك، لا تترك رأسك، يا قلبي!

بود كليسين: ولكن غير ممكن فعلاً. فيه إحراج. إحراج خالص.
كوتشكار يوف: ماهو الإحراج؟ من قال لك هذا؟ احكم
بنفسك، فأنت رجل ذكي. وأنا أقول لك ذلك لا ترتفعاً إليك، ولا
لأنك رئيس شعبة، بل عن حب لا غير... طيب، كفاية، يا روجي،
قرر، وانظر بعين الرجل الحصيف.

بود كليسين: لو كان ذلك ممكناً لما...

کوتشکاریوف: ایفان بافلوفیتش! یا حیاتی، یا روحی! هل تريد ان ارفع امامك؟

بودکلیسین: ولم هذا؟...

کوتشکاریوف: (یرکع) طیب، ها انا ذا اراکع! ها انت ترى، انوسل إليك. لن أنسى فضلك مدى العمر، لا تعاند، یا روحی!

بودکلیسین: غير ممكن، یا أخ، غير ممكن حقاً.

کوتشکاریوف: (ینھض، غاضباً) خنزیر!

بودکلیسین: تفضل، اشم كما تريد.

کوتشکاریوف: غبی! لم ارمثك في حیاتی.

بودکلیسین: اشم، اشم.

کوتشکاریوف: لمن إذا جاهدت، لأي شيء بذلت قصارى جهدي؟ كل ذلك لمنفعتك، أيها الأحق. فأی مصلحة لي بذلك؟ سأتركك حالاً، فماذا يهمني؟

بودکلیسین: ومن طلب منك أن تتعب نفسك؟ تفضل، اتركني.

کوتشکاریوف: ولكنك ستهلك، بدوني لا تستطيع أن تفعل شيئاً، إذا لم أزوجك، ستظل أحرق طول عمرك.

بودکلیسین: وما يخصك في هذا؟

کوتشکاریوف: أنا أسعى لصالحك، یا رأس الخشب.

بودکلیسین: لا أريد مساعيك.

کوتشکاریوف: طیب، اذهب في ستين داهية!

بودکلیسین: طیب، اذهب.

کوتشکاریوف: هيا، اطلع.

بودکلیسین: طیب، سأذهب.

كوتشكار يوف: اذهب، اذهب، عسى أن تنكسر رجلك حالاً.
من صميم قلبي أتمنى لك أن يفرز عريجي سكران عريش عربته في
لوزنك! أنت خرقة، لا رجل! أقسم لك أن كل شيء بيننا قد انتهى،
فلا ترني وجهك بعد الآن.

بودكليسين: طيب. لن أريك. (ينصرف).

كوتشكار يوف: إلى جهنم، سلم على الذي هناك! (يفتح الباب،
ويصيح في أثره) أحرق!...

المشهد السابع عشر

(كوتشكاريوف لوحده، يسر رواحاً ومجئاً في انفعال شديد).

معقول أن الدنيا شهدت في يوم ما مثل هذا الرجل؟ أحمق حقيقة! أي نعم، ولكن الحقيقة أنا أيضاً لا أصنّف مع الرجال الأسوياء. قولوا لي من فضلكم وأنا أستشهدكم جميعاً، ألسنت أهيل، ألسنت أحمق. لأي شيء أجاهد، أصبح، حتى جفّنت حنجرتي؟ قولوا لي: من هو بالنسبة لي؟ قريبي؟ وهل أنا له دادة، عمّة، حماة، عرابة؟ أي شيطان، أي شيء جعلني أتعب نفسي من أجله، ولا يقر لي قرار، عساه يروح في داهية؟ لا أدري لأي شيء وحق الشيطان! حاولوا أن تسألوا إنساناً لماذا يفعل هذا أو ذاك! يا وضع! يا بوز الحقارة والسفالة! بوذي لو أمسكتك، يا بهيمة الغباء، وأنفرك بإصبعي على أنفك، على أذنيك، على فمك، على أسنانك، وعلى كل كيانك! (ينقر بأصابعه عدة نقرات في الهواء بغضب). والمزعج أنه خرج غير مبالٍ بشيء، صافياً مصفى وكأن لم يكن شيء، وهذا الذي لا يحتمل! وسيذهب إلى شقته، ويتمدد، ويشعل غليونيه. أي مخلوق كرهه! أحياناً تصادف سحنات كرهية، ولكن لا يمكنك أن تتكرر مثل سحنته، مستحيل أن تركبها، مستحيل، والله! ولكن سأذهب قصداً، وأعيده، الحامل. ولن أتركه يزيع، أنا ذاهب لأجلب السافل.

المشهد الثامن عشر

(أغاليا تبحر نوفنا تدخل).

هذا الخفقان الشديد في قلبي يصعب عليّ أن أدركه حقاً. أينما أدير وجهي أرى إيفان بافلوفيتش مائلاً أمامي. صحيح ما يقال، لا مفر من القدر. قبل حين، كنت أريد أن أفكر في شيء آخر، والآن، مهما وبأي شيء اشتغلت ألف خيوطاً أو أخيط محفظة أجد إيفان بافلوفيتش يمثل أمامي. (تصمت قليلاً) ها أنذا أجابه أخيراً بتغير في حالتي! سيأخذونني، ويقودونني إلى الكنيسة... وبعد ذلك يتركونني لوحدي مع رجل. أوف! كياني يرتجف كله. وداعاً، يا حياة بكارتي السابقة! (تبكي) كم من سنة قضيتها بهدوء... عشت، وعشت، والآن عليّ أن أتزوج! المشاغل وحدها ما أكثرها: أطفال، صبيان، مشاكسون مبالغون إلى العراك، وقد أرزق بنات أيضاً. ويكبرن، وتعالى زوجيهن. لطيف، لو تزوجن طيبين، ولكن ماذا لو تزوجن سكيراً أو شخصاً مستعداً في الحال أن يقامر بكل ما لديه وعليه! (تعود شيئاً فشيئاً إلى النحيب مجدداً) لم ألحق أن ألتصع بحالة العزوبة، حتى الآن لم أتم السابعة والعشرين... (تغير صوتها) لماذا تأخر إيفان بافلوفيتش هذه المدة الطويلة؟

المشهد التاسع عشر

(آغافيا تېخونوفنا و بودكليسین)..

(کوتشکاریوف یدفعه من الباب إلى المسرح بکلتا یدیه).

بودکلیسین (یتلعثم): جئت، یا سیدتی، لأوضح لك أمراً... أود فقط أن أعرف قبل هذا ألا يبدو ذلك غريباً لك؟

آغافيا تېخونوفنا: (تخفض بصرها) ما هو؟

بودکلیسین: لا، یا سیدتی، قولي مقدماً ألا يبدو غريباً لك؟

آغافيا تېخونوفنا: (في نفس الوضعية) لا أقدر أن أعرف ما هو. بودکلیسین: ولكن أجيبني هل يبدو لك غريباً بالفعل ما سأقول لك.

آغافيا تېخونوفنا: أرجوك، كيف يمكن أن يكون غريباً، كل ما أسمع منك لطيف.

بودکلیسین: ولكن هذا لم تسمعيه مني قط.

(آغافيا تېخونوفنا تغض بصرها أكثر، وفي تلك اللحظة يدخل کوتشکاریوف خلصة، ويقف وراء كفيه).

بودکلیسین: المسألة... ولكن الأحسن أن أخبرك فيما بعد.

آغافيا تېخونوفنا: ولكن ما هو؟

بودکلیسین: هو... بصراحة كنت أريد أن أعلنه لك الآن. لكن ما زلت متشككاً.

کوتشکاریوف (مع نفسه، طاوياً ذراعيه): أوه، یا ربی، أي

رجل هذا! هذا مجرد جزمة نسائية بالية، لا إنسان بل أضحوة من الإنسان، هجاء للإنسان.

آغافيا تيخونوفنا: ولماذا تتشكك؟

بودكليس: الشك يساورني على أية حال.

كوتشكاريوف (بصوت مسموع): ما أسخف هذا، ما أسخف! ولكنك يا سيدتي ترين، أنه يطلب يدك، يريد أن يعلن إنه لا يستطيع العيش بدونك، لا يستطيع البقاء في الوجود. وهو لا يسأل إلا: موافقة أنت على إبعاده؟..

بودكليس: (يكاد يكون مذعوراً، يلكره وينبس ببعض الانفعال) أرجوك، ما هذا منك!

كوتشكاريوف: كيف، إذًا، يا سيدتي! هل تعزمين على توفير السعادة لهذا العبد الفاني.

آغافيا تيخونوفنا: لا أجروا أبداً أن أتصور أن في إمكاني أن أوفر سعادة... ولكنني موافقة.

كوتشكاريوف: رائع! عظيم! كان الأخرى أن يكون ذلك منذ زمان. هاتا يديكما!

بودكليس: حالاً! يريد أن يسر له شيئاً في أذنه. كوتشكاريوف، يلوح له بقبضته، ويعقد حاجبيه. (بودكليس يعطي يده).

كوتشكاريوف: (يجمع اليدين) الله يبارككما! أنا موافق وأصادق على رباطكما. الزواج قضية مهمة... وهو ليس مثل استئجار عربة، وركوبها إلى حيث يريد المرء. إنه التزام من نوع مختلف تماماً، إنه التزام... طيب، ليس لي وقت الآن، وفيما بعد سأخبرك أي التزام هو. حسناً، يا إيفان بافلوفيتش، قبل عروستك. الآن تقدر أن تفعل ذلك، بل الآن يجب أن تفعل ذلك.

(آغافيا تيخونوفنا تخفض بصرها).

لا شيء، لا شيء، يا سيدتي. هذا ما ينبغي. دعيه يقبلك.

بودكليسين: نعم، يا سيدتي، لازم أن تسمحي لي الآن. (يقبلها ويمسك يدها) أية يد جميلة! لماذا لك هذه اليد الجميلة يا سيدتي؟... نعم، اسمحي لي، يا سيدتي، أريد أن أعقد القران عليك الآن، والآن بكل تأكيد.

آغافيا تيخونوفنا: كيف الآن؟ ربما سيكون ذلك استعجالاً بالغاً. بودكليسين: لا أريد أن أسمع شيئاً أريد أسرع، ليعقد القران في هذه اللحظة.

كوتشكاريوف: أحسنت! ممتاز! رجل نبيل. وبصراحة كنت دائماً أنتظر منك الكثير في المستقبل! بالفعل، يا سيدتي، استعجلي الآن، والبسي بسرعة. وإذا أردت الحقيقة فقد أرسلت في طلب مركبة، ودعوت الضيوف. وجميعهم الآن في الطريق إلى الكنيسة مباشرة. وملابس الزفاف جاهزة عندك على حد معرفتي... آغافيا تيخونوفنا: نعم، جاهزة منذ زمان، سألبس حالاً.

المشهد العشرون

(كوتشكار يوف و بود كليسين).

بود كليسين: شكراً، يا أخ! الآن أستطيع أن أقدر أية خدمة قدمت لي. ما كان أبي الحقيقي سيفعل ما فعلته أنت. وأنا متأكد أنك كنت تنصرف بوحى الصداقة. شكراً، يا أخ، سأظل أتذكر فضلك طول عمري. (متأثراً) في الربيع القادم سأزور قبر أبيك مؤكداً.

كوتشكار يوف: لا بأس، يا أخ، أنا نفسي مسرور، طيب، تقرب لأقبلك. (يقبله من هذا الخد ثم من الخد الآخر) حفظك الله لتعيش في رغد (يتبادلان القبلات) في راحة واكتفاء، وأن يرزقك بالكثير من الأطفال...

بود كليسين: أشكرك، يا أخ، الآن فقط عرفت أخيراً ماهي الحياة. الآن انفتح أمامي عالم جديد تماماً. الآن أشعر أن كل شيء يتحرك، يحيا، يشعر، فيتصاعد منه البخار، هكذا، بحيث لا تعرف نفسك ماذا يجري. من قبل لم أكن أرى شيئاً من هذا، ولا أفهم، يعني كنت مجرد إنسان محروم من أية معرفة، لم أكن أناقش، لا أتعلم، وكنت أعيش كأبي إنسان يعيش.

كوتشكار يوف: مسرور، مسرور. الآن أنا ذاهب لأرى كيف رتبوا المائدة، وسأعود حالاً. (جانباً) الأفضل أن أخبئ قبعتي، للاحتياط. (يتناول القبعة ويأخذها معه).

المشهد الحادي والعشرون

(بودكليسين وحده).

صحيح ماذا كنت إلى هذه اللحظة؟ هل كنت أفهم معنى الحياة؟ لم أكن أفهم، لم أكن أفهم شيئاً. وماذا كانت حياتي العزوبية؟ ماذا كنت أساوي، ماذا كنت أعمل؟ كنت أعيش، وأعيش، وأخدم، وأتردد على الدائرة وأتغذى، وأنا، وباختصار كنت أفهم إنسان في الدنيا وأكثر الناس ابتداءً. والآن فقط، أرى كم هم حمقى أولئك الذين لا يتزوجون، ولكن إذا أمعنت النظر وجدت كم من الناس ما يزالون في عماهم هذا. ولو كنت ملكاً أو قيصراً لأصدرت أمري بأن يتزوج الجميع، كلهم دون استثناء، فلا يبقى في دولتي أعزب واحد... صحيح، يصعب أن أتصور، بعد بضع دقائق أصير متزوجاً. وأتذوق النعيم الذي لا يوجد إلا في الحكايات، والذي لا يمكن أن تصفه، ولا تجد الكلمات للتعبير عنه. (بعد صمت قصير) مع ذلك، فمهما قلت، فإنه لشيء رهيب، إذا فكرت في المسألة جيداً. فأنت على كل حال، ستربط نفسك طول الحياة، طول العمر وبعد ذلك لا تنفع ذرائع ولا حجج، ولا توبة، ولا حاجة. حسم الأمر وانتهى إلى الأبد الأبدن. وحتى الآن لا يمكن التراجع إطلاقاً، بعد دقيقة، سيعقد القران، ولا رجوع عن الموضوع. وصلت المركبة وكل شيء جاهز وعلى أهبة الاستعداد. يعني صحيح لا يمكن الرجوع عن الموضوع؟ بالطبع، لا يمكن. الناس واقفون على الأبواب وفي كل مكان. وسيسألونك ما هذا؟ ممنوع. ولكن الشباك مفتوح. ماذا لو من الشباك؟ لا، لا يجوز، غير لائق، والشباك مرتفع أيضاً. (يتقدم من الشباك) أوه،

ليس مرتفعاً جداً، في مستوى الأساس فقط، والأساس واطئ، لا، لا يمكن. حتى القبعة ليست معي. وكيف أخرج بدون قبعة؟ غير لائق. طيب، وماذا تعني بدون قبعة؟ وماذا لو أجرب؟ أجربها؟ (يقف على قاعدة الشباك، بعد قوله: «باركني، يارب» يقفز إلى الشارع. يتنحنح ويتأوه وراء خشبة المسرح)، أوه، صحيح مرتفع! هاي، يا عربجي! صوت العربجي: إلى أين؟

صوت بودكليسين: إلى كانوفكا، قرب جسر سيمينوفسكي.

صوت العربجي: عشرة كوبيكات، بدون بقشيش.

صوت بودكليسين: موافق. تحرك!

(تردد قرعة عربية مبتعدة).

المشهد الثاني والعشرون.

(آغافيا تيجونوفنا تدخل في ثوب العرس خجولة مطرقة الرأس).

أنا نفسي لا أعرف ماذا يحصل لي! من جديد أشعر بالخجل، وأرتجف بكل كياني. آه! أتمنى أن لا يكون الآن في الحجرة، ولو لدقيقة، أتمنى أن يكون قد خرج لشأن من الشؤون! (تجمل بصرها بتهيب) نعم، أين هو؟ لا يوجد أحد، إلى أين خرج؟ (تفتح الباب المؤدي إلى المدخل، وتقول لمن هناك) أين خرج إيفان بافلوفيتش يا فيكلا؟

صوت فيكلا: موجود هناك.

آغافيا تيجونوفنا: وأين هناك؟

فيكلا (داخلة): كان جالساً هنا، في الحجرة.

آغافيا تيجونوفنا: ولكنه غير موجود، ها أنت ترين.

فيكلا: لم يخرج من الحجرة أبداً. كنت جالسة في المدخل.

آغافيا تيجونوفنا: ولكن أين هو؟

فيكلا: لا أدري أين. ربما خرج من منفذ آخر، من السلم الخلفي،

أم لعله يجلس في حجرة أرينا بانتيليمونوفنا؟

آغافيا تيجونوفنا: يا عمة، يا عمة!

المشهد الثالث والعشرون

(المرأتان مع أرينا بانتيليمونوفنا)..

أرينا بانتيليمونوفنا: (في ثياب أنيقة) ماذا هناك؟

آغافيا تيخونوفنا: إيفان بافلوفيتش عندك؟

أرينا بانتيليمونوفنا: لا، لا بد أن يكون هنا، لم يأتِ إلى حجرتي.

فيكلا: وفي المدخل لم يكن أيضاً. كنت جالسة هناك.

آغافيا تيخونوفنا: غير موجود هنا إطلاقاً، هل أنتما تريان.

المشهد الرابع والعشرون

(نفس الأشخاص مع كوتشكاريوف)..

كوتشكاريوف: ماذا حصل؟

آغافيا تيخونوفنا: إيفان كوزميتش غير موجود.

كوتشكاريوف: كيف غير موجود؟ خرج؟

آغافيا تيخونوفنا: لا ولم يخرج أيضاً.

كوتشكاريوف: كيف غير موجود ولم يخرج أيضاً؟

فيكلا: وأين يمكن أن يروح؟ هذا لا يدخل في عقلي. طوال

الوقت كنت جالسة في المدخل، ولم أترك مكاني.

أرينا بانتيليمونوفنا: من غير الممكن أن يطلع من السلم الخلفي

أبداً.

كوتشكاريوف: وكيف إذا؟ ومن غير الممكن إطلاقاً أن يختفي،

إذا لم يخرج من الحجرة. ربما اختبأ؟ يا إيفان بافلوفيتش! أين أنت؟

لا تتحامق، يكفي، اخرج بسرعة! ما هذه الألعاب؟ وقت التحرك

إلى الكنيسة حان منذ زمان. (ينظر وراء الدولاب، بل وينظر من

طرف عينه تحت المقاعد) غير مفهوم! من غير الممكن أن يكون قد

خرج، غير الممكن إطلاقاً. إنه هنا. وقبعته في الحجرة المجاورة أيضاً.

وضعتها هناك خصيصاً.

أرينا بانتيليمونوفنا: هل نسأل الخادمة؟ كانت طوال الوقت في

الشارع، فلربما تعرف... دونياشكا! دونياشكا!

المشهد الخامس والعشرون

(نفس الأشخاص مع دونياشكا)..

أرينا بانتيليمونوفنا: أين إيفان بافلوفيتش ألم تريه؟

دونياشكا: قفز من الشباك.

(آغافيا تيخونوفنا تصرخ، وتبسط يديها).

الثلاثة جميعاً: من الشباك؟

دونياشكا: نعم، وبعد أن قفز استقل عربة، ورحل.

أرينا بانتيليمونوفنا: أصبح ما تقولينه؟

كوتشكاريوف: تكذب! غير ممكن!

دونياشكا: والله، قفز! والبائع في دكان الخرداوات رآه أيضاً،

اتفق مع العربي على عشرة كويكات، ورحل.

أرينا بانتيليمونوفنا: (تتقدم من كوتشكاريوف). ما هذا، يا

حضرة؟ ضحك على الذقون؟ عن لكم أن تضحكوا منا؟ هل تريد

أن تفضحنا أمام الناس؟ أنا الآن في العقد السادس من عمري،

ولم أشهد حتى الآن مثل هذا العار. على ذلك سأبصق بوجهك،

يا حضرة المحترم، إذا أنت إنسان شريف. ولكنك سافل بعد هذه

الفعلة، وإن كنت إنساناً شريفاً. تشين فتاة أمام العالم كله! أنا من

أصل فلاح، ولكني لا أقدم على ذلك. وتقول إنك نبيل! الظاهر

أن نبلك لا يكفي إلا للخساسة والنصب، لا أكثر (تنصرف غاضبة،

وتأخذ معها العروسة).

(كوتشكار يوف يقف كالمصعوق).

فيكلا: ها؟ هذا الذي يعرف كيف يقوم بالأمر! يطبخ عرساً بدون خطابة! طيب، ليكن خطابي مَنْ هب ودب، منفوشي الريش، وغير ذلك، ولكن أن يطفروا من الشباك؟ لا والعياذ بالله.

كوتشكار يوف: هذا غير معقول، لابد في المسألة خطأ، سأجري وراءه وأعيدة! (يخرج).

فيكلا: أي نعم، يعود! كأنك لا تعرف كيف تتم الخطبة؟ شيء آخر لو هرب من الباب، وإن يطفّر العريس من الشباك يعني خلاص! ومع السلامة!

شارع نيفسكي

لا أفضل من شارع نيفسكي، في بطرسبورغ على الأقل، فهو كل شيء بالنسبة لها، وبأي شيء لا يتألق هذا الشارع، درة عاصمتنا أنا أعرف أن أي ساكن من سكانه الشاحبي الوجوه وذوي المناصب العالية لا يستبدل بشارع نيفسكي كل خيرات الدنيا. ليس فقط من له من العمر خمسة وعشرين عاماً، وشاربين جميلين، وبزة مفضلة بشكل رائع، بل ومن تطلع الشعرات البيض على ذقنه، ورأسه أملس كماعون من فضة، فحتى هذا في غبطة عظيمة بشارع نيفسكي. والسيدات آوه، إنه أكثر متعة وجاذبية بالنسبة للسيدات. ولكن من الناس لا يجد متعة في شارع نيفسكي؟ ما إن تخرج إليه حتى تراه يعبق بالنزهة وحدها. وحتى لو كان لديك شغل شاغل لا غنى عنه، فإنك عندما تطلع إليه ستنسى، في الغالب، أي شغل لديك. إنه المكان الوحيد الذي يظهر فيه الناس لا بحكم الضرورة ولا بدافع الحاجة والمنفعة التي تأكل بطرسبورغ كلها. والرجل الذي تلقاه في شارع نيفسكي يبدو أقل أنانية من الذي تلقاه في شارع مورسكايا، وغوروخوفايا، وليتينسي، وميشانسكايا، وفي الشوارع الأخرى، حيث ينعكس الطمع والجشع والمنفعة على السائرين والمنطلقين في المركبات والعربات. وشارع نيفسكي موضع تلتقي فيه بطرسبورغ كلها.

فساكن ناحية بطرسبورغ أو ناحية فيبورغ الذي لم يزر صديقه في بيسكي أو بوابة موسكو، لسنين عديدة قد يكون متأكداً من أنه

سيلتقيه هناك لا محالة. ما من دليل عناوين ولا مكتب استعلامات يقدم الخبر الصحيح مثلما يقدمه شارع نيفسكي. شارع نيفسكي القدير على كل شيء! السلوى الوحيدة لبطرسبورغ الفقيرة إلى الحفلات والتزهر! ما أنظف أرصفته المكنوسة جيداً، وما أكثر الأقدام التي تترك آثارها عليه! جزمة قدرة بالية للجندي متقاعد يبدو وكأن الغرائث نفسه يتصدع تحت ثقلها، وحذاء صغير، خفيف كال دخان، لسيدة شابة تدير رأسها الجميلة نحو نوافذ مخزن لأمعة، مثلما يدير عباد الشمس رأسه إلى الشمس، وسيف مجلجل لضابط صغير مفعم في الآمال، يترك فيه حزناً حاداً كل شيء، يخلف آثاره من جبروت قوة إلى سلطان ضعف. وما أسرع ما يجري فيه من تقلبات عجيبة خلال اليوم الواحد! وكم من التغيرات يتحمل خلال نهار وليلة! نبدأ من بكرة الصباح، حيث تكون بطرسبورغ كلها فواحة برائحة الخبز الساخن المخبوز لتوه، مملوءة بعجائز في ملابس ممزقة يقمن بغزواتهن على الكنائس والسابلة الحنونين. شارع نيفسكي خالٍ في تلك الساعة. أصحاب المخازن المكتزون ومساعدوهم ما يزالون نائمين في قمصانهم الهولندية أو يصوبنون خدودهم الكريمة، ويحتسون القهوة. والمتسولون يجتمعون عند أبواب حوانيت الحلويات، حيث الخادم الناعس الذي جرى وركض البارحة كالذباب بالشوكولاته، يخرج والمكنسة في يده بلا ربطه عنق، ويقذف لهم بالكعك اليابس، والفضلات. والشعب العامل يسير في الشوارع في وني، وأحياناً يقطعه حرفيون روس مسرعون إلى العمل في جزم ملطخة بالجلس لا تستطيع أن تغسلها حتى مياه قناة يكاترينا المعروفة بنقاها. وفي هذا الوقت لا يليق عادة بالسيدات أن يخرجن إلى الشارع، لأن الشعب الروسي يجب أن يستخدم تعابير حادة لا تسمع، في أغلب الظن، حتى في المسرح. وأحياناً يمر موظف ناعس متأبطاً محفظته، إذا كان

طريقه إلى دائرته يمر عبر شارع نيفسكي. ويمكن القول بثقة إن شارع نيفسكي، في هذا الوقت، أي حتى الساعة الثانية عشرة قبل الظهر، لا يُستهدف من قبل أحد، أبداً كان، فهو ليس إلا معبراً، يمتلئ شيئاً فشيئاً بأناس لهم أشغالهم، وهمومهم، ومتاعبهم غير مفكرين به أبداً، الريفى الروسى يتحدث عن قطع زهيدة من النقود، والشيوخ والعجائز يشمرون أذرعهم أو يتكلمون مع أنفسهم، وأحياناً بإشارات دقيقة بما فيه الكفاية، ولكن أحداً لا يستمع إليهم ولا يضحك منهم ما عدا الصبيان من الخدم في جلايبهم المخططة من القماش الخشن حاملين الدنان الفارغة أو الأحذية الجاهزة، راكضين خطفاً في شارع نيفسكي. في ذلك الوقت لا يلحظ أحد ما أنت لابسه، حتى ولو كان على رأسك ما يشذ عن بقية هندامك، أو كان طرفاً يافتك بارزين عن ربطة عنقك أكثر من اللازم.

في الساعة الثانية عشرة يتعرض شارع نيفسكي إلى تدفق موجات من مربى الأطفال الخصوصيين من مختلف الأمم، ومعهم تلامذتهم بياقاتهم الشفافة. الإنجليز من غرار «جونس» والفرنسيون من غرار «كوك» يسرون متأبطين أذرع الصغار الذين عهدت إليهم رعايتهم الأبوية، ويوضحون لهم برصانة محتشمة أن اللافتات تعلق فوق المخازن لكي يكون في الإمكان أن يعرف الناس بواسطتها ما يوجد داخل المخازن. والمربيان سواء الإنجليزيات الشاحبات أو السلافيات المنوردات يسرن بعظمة ووقار وراء فتياتهن الخفيفات الكثيرات الحركة، مشيرات لهن بأن يرفعن أكتافهن قليلاً إلى الأعلى، ويسرن منتصبات. وخلاصة القول إن شارع نيفسكي تربيوي في هذا الوقت. ولكن كلما دنت الساعة من الثانية قل عدد المربين والمعلمين والأطفال، وأخيراً تصبح الغلبة لآبائهم الأرقاء الذين يسرون متشابكي الأذرع مع زوجاتهم المبرقشات الملونات، الضعيفات

الأعصاب. وشيئاً فشيئاً ينضم إليهم جميع الذين أنهوا أشغالهم البيتية المهمة بما فيه الكفاية، من مثل التحدث مع طبيهم عن الطقس وعن بثرة صغيرة طلعت على الأنف، والتعرف على صحة خيولهم وأطفالهم الذين ظهرت عليهم، بالمناسبة، مخايل مواهب كبيرة، وقراءة الإعلانات ومقالة مهمة في الجرائد عن القادمين والمغادرين، وشرب فنجان من القهوة أو الشاي أخيراً، يلتحق بهم أولئك الذين شاء القدر الأريحي أن يحملوا الرتبة المباركة، رتبة الموظفين للمهام الخاصة. وينضم إليهم أيضاً أولئك الذين يعملون في نظارة الشؤون الخارجية، ويتميزون بنبل أشغالهم وعاداتهم، آوه، يا رب، كم من الوظائف والمناصب الرائعة! وكم تسمو بالنفس وتؤنسها! ولكن، واحسرتاه! لست موظفاً، وأنا محروم من الاستمتاع برؤية الرؤساء يعاملونني هذه المعاملة الرقيقة. إن كل ما تلقاه في شارع نيفسكي يطفح حشمة: الرجال في سترات طويلة، وأيديهم في جيوبهم، والسيدات في ردينغوتات من الأطلس الوردية والأبيض والأزرق الشاحب، وقلنسوات. وتجد في الشارع أفواذاً فريدة، مرسله إلى تحت ربطة العنق بحذق عجيب مذهل، أفواذاً مخملية، ملساء، سوداء كفراء السمور أو الفحم، ولكنها، وأسفاه وقف على موظفي نظارة الخارجية فقط. فإن العناية الإلهية حرمت الموظفين في الدوائر الأخرى من الأفواذ السود، وصار عليهم أن يطلقوا أفواذاً صهباء، على الرغم من كل ما يسبب ذلك لهم من إزعاج. وتلتقي في الشارع بشوارب في منتهى الروعة لا تستطيع أية ريشة أو فرشاة أن ترسمها، وشوارب كُرس لها النصف الأفضل من العمر، وصارت موضع رعاية أبدية في الليل والنهار، شوارب سكبت عليها عطور وطيبوب في منتهى السحر، وطلبت بكل صنوف المراهم الشذية الغالية والنادرة إلى أقصى حد، شوارع تغلف في الليل بدرق رقيق

أبيض، وتشبي بافتتان أصحابها المؤثر والكلي بها، وتثير حسد المارة. آلاف الأصناف من الفلنسات والفساتين والمناديل الزاهية، الخفيفة، التي تظل صاحباتها مفتونات بها خلال يومين أحياناً، تغشي بصر أي إنسان في شارع نيفسكي. فكأن بحرأ متكاملأ من الفرشات قد ارتفع فجأة من سيقان العشب، ومماوج كالغيمة اللامعة فوق الخنافس السود من الجنس الخشن. هنا تلتقي بخصور لا تراودك أبداً حتى في الحلم. خصور نحيلة رقيقة لا تزيد عن شُمك عنق زجاجة، تجد نفسك، حين تلتقي بها، تنتحي عنها باحترام، خشية أن تبدو منك حركة ساهية فتمسها بكوع غير مؤدبة، وتعتري قلبك حيرة ورعب، حتى من أن يفسد نفُسك غير الحذر هذه التحفة الفريدة الخلابة للطبيعة والفن. ثم أية أكمام نسائية تلتقي في شارع نيفسكي! آه، الفتنة بعينها! لها بعض الشبه بمنطادين يمكن أن ترتفع السيدة بهما في الهواء بغتة، إذا لم يمسكها رجل، لأن رفع سيدة في الهواء أمر يسير ومريح كفتح مملوء بالشمبانيا مرفوع إلى الفم. مامن مكان تبادل فيه الانحناءات عند الملتقى بنفس القدر من الرشاقة والنبل، كذلك الذي تشعر به في شارع نيفسكي. فيه تلتقي بابتسامة فريدة، بابتسامة ما فوق الفن، بابتسامة يمكن أحياناً أن تذوّبك من اللذة، وأحياناً تجد نفسك فجأة أوطأ من العشب، فتكسر رأسك، وأحياناً تشعر بنفسك أعلى من برج الأدميرالية، فترفعه إلى فوق. هنا تلتقي بمن يتحدثون عن الحفلات الموسيقية، أو عن الطقس بنبل غير اعتيادي، وشعور بكرامة النفس. هنا تلتقي بآلاف من الشخصيات والظواهر الخارقة، يارب الخليفة! بأية شخصيات غريبة يحفل شارع نيفسكي! هناك عدد كبير من الناس، إذا التقيت بهم، تجدهم ينظرون إلى حذائك لا محالة، وحين تتخطاهم يلتفتون إلى الخلف لينظروا إلى شق سترتك الخلفي. وأنا لحد الآن لا أعرف لم

يحدث هذا. في البداية كنت أظنهم إسكافيين، ولكن لا شيء من هذا، البتة، معظمهم يتردد على مختلف الدوائر والكثيرون منهم يستطيعون أن يكتبوا كتباً وعرائض رسمية ممتازة من دائرة حكومية إلى دائرة حكومية أخرى، أو أناس يمارسون النزاهات وقراءة الجرائد في محلات الحلويات، وباختصار معظمهم أناس معتبرون. في هذا الوقت المؤاتي من الساعة الثانية حتى الثالثة بعد الظهر، والذي يمكن أن يُسمى وقت الزحام المتحركة في شارع نيفسكي، يجري المعرض الرئيسي لجميع النماذج الفضلى لبني البشر. أحدهم يعرض سترة أنيقة بأحسن فراء القندس، وآخر أنفاً إغريقياً رائعاً، وثالث فودين راتعين، ورابعة عينين جميلتين وقلنسوة مدهشة، وخامس طُلُسماً في خاتم على خنصر بظفر طويل، وسادسة ساقاً في حذاء ساحر، وسابع ربطة عنق تثير الدهشة، وثامن شاربين تدفعان إلى الدهول. ولكن الساعة تدق معلنة الثالثة، وينتهي المعرض، ويقل الزحام... وفي الساعة الثالثة تغير جديد. يهل الربيع على شارع نيفسكي فجأة. فيتغطى كلية بالموظفين في بزاتهم الخضراء. الموظفون الجياع من شتى الرتب يجاهدون حث الخطى بكل ما لديهم من قوة. والشبان من ذوي الرتب الصغيرة يسرعون أكثر مستغلين الوقت ليمشوا في شارع نيفسكي بهندام لا يشي بأنهم قعدوا ست ساعات في الدائرة. ولكن الموظفين الأكثر رتبة وعمرأ يسرون بسرعة منكسي الرؤوس، لا تعنيهم رؤية السابلة. فهم لم ينقطعوا نهائياً عن متاعبهم بعد، وفي رؤوسهم ضوضاء، وأرشيف كامل من القضايا التي بدت ولم تنته بعد. وستظل تراءى لهم طويلاً صورة ملف الأوراق أو وجه مدير المكاتبات الممتلى بدلاً من اللافتات.

منذ الساعة الرابعة يفرغ شارع نيفسكي، ومن المستبعد أن تصادف فيه حتى موظفاً واحداً. تعبر خياطة أحد المخازن شارع

نفسكي تحمل علبة، وموظف بائس يسترحم حاكماً مغرماً
 بالرشاوى يسير في هذا العالم معطف من القماش الخشن، وغريب
 أطوار جاء من بعيد، كل الساعات لديه سواء، وإنجليزي طويلة
 القامة تحمل بيديها حقيبتها اليدوية وكتاباً، وكاسب، روسي الأصل
 في سترة طويلة من القماش القطني المتين مخصوصة عند الظهر ذو
 لحية ضئيلة يقضي حياته كلها على سد الرمق، يرتجف كل شيء فيه:
 ظهره، ويداه، ورجلاه، ورأسه، حين يسير على الرصيف بوقار،
 وأحياناً يظهر حرفي قصير، ولن تصادف أكثر من هؤلاء في شارع
 نفسكي.

ولكن حالما يهبط الغسق على البيوت والشوارع، ويتغطى شرطي
 الحراسة بقماشة من الجفاف، ويصعد السلم ليشعل مصباح الشارع،
 وتطل من النوافذ الواطئة للمخازن تلك الرسوم التي لا تجرؤ على
 الظهور في وضوح النهار، تعود الهمة إلى شارع نفسكي من جديد،
 ويبدأ بالتأمل. عند ذاك يحل ذلك الوقت الغامض الذي تضيء فيه
 المصابيح على كل شيء ضوءاً خادعاً عجيباً. ستلتقي بالعديد جداً من
 الشبان، معظمهم عزاب، في سترات دافئة ومعاطف. في ذلك الوقت
 يتولد شعور بوجود غاية، في سترات دافئة ومعاطف. في ذلك الوقت
 يتولد شعور بوجود غاية، أو الأفضل، بوجود ما يشبه الغاية، شيء
 غير محسوس بشكل مفرط: خطوات الجميع تتسارع وتصير عموماً
 جرد متخلخلة. والظلال الطويلة تراءى على الجدران والجادة، حتى
 لتكاد تصل برؤوسها إلى جسر بوليتسييسكي. والموظفون الصغار
 الشبان يتمشون لوقت طويل جداً، ولكن الموظفين الشيوخ الأكثر
 رتبة، يلازمون بيوتهم في الأغلب، إما لكونهم متزوجين، أو لأن
 الطبائحات الألمانية اللواتي يعشن في بيوتهم يحسن طهي الطعام
 لهم. ستلتقي هنا شيوخاً محترمين كانوا يتنزهون في شارع نفسكي

بعظمة ووجاهة مذهلة في الساعة الثانية بعد الظهر. وستراهم الآن يسرون في خطو حثيث كالوظفين الشبان ليسترقوا النظر إلى ما تحت قبعة سيدة رأوها من بعيد تحظى شفتاها المملكتان ووجنتها المضرجتان بالحمرة بإعجاب العديدين من المتزهين، ولا سيما باعة المخازن، والكسبة، والتجار الذين يتزهون دائماً في سترات ألمانية جماعات، متلازمي الأيدي.

في ذلك الوقت صاح الملازم بيروغوف وقد جذب شاباً كان يصاحبه في بدلة فراك ومعطف خريفي من رده:

- قف! هل رأيت؟

- رأيت. مذهلة، كبيانكا في لوحة بريشة بيروجينو ممماً.

- ولكن عَمَّنْ تحدث؟

- عنها، عن ذات الشعر الأسود. ثم أي عينين! يارب، أي عينين! السميت، الأعطاف، تقاطيع الوجه، كل ذلك أعاجيب!

- أنا أكلمك عن الشقراء التي سارت وراءها في ذلك الجانب. ولماذا لا تلاحق ذات الشعر الأسود إذا كانت قد أعجبتك بهذا الشكل؟..

- أهذا ممكن! هتف الشاب في بدلة الفراك وقد احمرَّ وجهه كأنها من اللواتي يتمشّين في شارع نيفسكي في المساء. أظنها سيدة من عائلة راقية جداً مضى يقول متنهداً المعطف الذي تلبسه وحده يساوي ما يصل إلى ثمانين روبلاً.

- ساذج! صاح بيروغوف، وهو يدفعه قهراً إلى الجهة التي كان يرفرف فيها المعطف الزاهي اذهب، يا أھبل، ستفوتك! وسألحق أنا الشقراء.

وافترق الصديقان.

«نحن نعرفكن قاطبة» كان بيروغوف يفكر مع نفسه بابتسامة الكبرياء والاعتماد بالنفس، واثقاً من أن أي جمال لن يقاوم وسامته. سار الشاب في بدلة الفراك والمعطف الخريفي بخطوات متهيبة متحيرة إلى الجانب الآخر من الشارع، حيث كان المعطف النسائي الزاهي يرفرف من بعيد ملتصعاً تارة في سطوع بمقدار اقترابه من ضوء المصباح، وغارقاً في الظلام فوراً بمقدار ابتعاده عنه. كان قلب الشاب يخفق، فكان يغذ خطاه لا إرادياً. كان لا يجرو حتى على التفكير بأن يكون له حق في التفات اهتمام هذه الحسنة المطلقة في البعيد، وأكثر من ذلك تقبُّل الفكرة السوداء التي لمَّح له الضابط بيروغوف بها، ولكنه كان يريد فقط أن يرى البيت، ويلحظ أين يسكن هذا الكائن الفاتن الذي بدا وكأنه هبط من السماء إلى شارع نيفسكي رأساً، وسيمضي، في الأغلب، مختفياً في مكان مجهول. كان يسير بسرعة خاطفة، حتى كان على الدوام يدفع سادة رصنين ذوي أفواد شائبة مزيجاً يباهم عن الرصيف. كان هذا الشاب ينتمي إلى طبقة تشكل عندنا ظاهرة غريبة بما فيه الكفاية، وامتأوه إلى أهل بطرسبورغ لا يزيد عن انتماء شخص نراه في الحلم إلى العالم الواقعي. إن هذه الفئة الاستثنائية غير مألوفة جداً في مدينة كل مَنْ فيها إما موظفون أو تجار أو حرفيون ألمان. إنه رسام. أفليس هو ظاهرة غريبة؟ رسام بطرسبورغي! رسام في أرض الثلوج، رسام في بلاد الفنلنديين، حيث كل شيء رطب، صقيل، منبسط، شاحب، رمادي، مضرب. إن هؤلاء الرسامين لا يشبهون على الإطلاق الرسامين الإيطاليين، الأنوفين، المضطرمين كإيطاليا وسماتها. إنهم على العكس من ذلك، أناس معظمهم طيبون وادعون، خجولون، خليو البال، يحبون فنهم بهدوء، ويحتسون الشاي مع صديقين من أصدقائهم في حجرة صغيرة، ويتحدثون بتواضع عن الموضوع المحبب، ولا يهتمون

بالشيء الزائد. إنه على الدوام يدعو إلى بيته متسولة عجوزاً، ويجعلها تجلس طوال ست ساعات لينقل إلى الجناح ساحتها البائسة العديمة الإحساس، ويرسم منظر حجرته من الداخل، وفيها تظهر التفاهات الفنية بكل أنواعها: أيدٍ وأرجل من الجبس جعلها القدم والغبار بلون القهوة، ومنصات رسم مكسورة، ولوحة مقلوبة لمزج الألوان، وصديق يعزف على القيثارة، والجدران المطلخة بالأصباغ، والنافذة المفتوحة يترأى من ورائها نهر النيفا الشاحب، والصيادون الفقراء بقمصان حمراء. جميع هؤلاء الرسامين تقريباً يفضلون، وفي كل شيء، الألوان الرمادية الكدرة طابع

الشمال الراسخ لا يمحي. ومع كل ذلك ينكبون على عملهم بمتعة حقيقية، وينطوون، في الغالب، على موهبة أصيلة. فلو أن هواء إيطاليا النقي هبَّ عليهم، لتفتحت، بالتأكيد، بتلك الحرية والسعة والسطوع التي يتفتح فيها نبات أخيراً إلى الهواء الطليق من حجرة مغلقة. هؤلاء عموماً هيّابون كثيراً. النياشين والرتب العالية توقعهم في ارتباك شديد، حتى إنهم يخفّضون ثمن أعمالهم بشكل لا إرادي، ويحبون إظهار الأناقة في اللباس، ولكن هذه الأناقة الظاهرية تبدو دائماً صارخة غريبة، فكانها رقعة إلى درجة ما. تلقاهم أحياناً في بدلة فراك ممتازة، ومعطف مبقع، في صدار مخملي غالي الثمن وسترة طويلة مزررة ملطخة كلها بالأصباغ. وبنفس هذا الاستهتار في اللبس ترى أحدهم يعالج منظرًا طبيعيًا لم يتم رسمه بعد، قد رسم عليه تخطيطات صورية مقلوبة الرأس على الطلاء المبقع لعمل كان قد بدأ في رسمه باستمتاع في وقت ما دون أن يجد لها مكاناً آخر. إنه لا ينظر في عينيك مباشرة، وإذا نظر فبكدر وبشكل غير محدد. إنه لا يفرز فيك نظرة المراقب، الشبيهة بنظرة الصقر، أو نظرة ضابط الخيالة، الشبيهة بنظرة الباز، وذلك لأنه، في آن واحد، يرى ملامحك

وملامح هرقل من الجبس واقف في حنجرته، أو يتخيل لوحة لم يبدأ في رسمها بعد. وبسبب ذلك غالباً ما يردّ بلا ترابط، وأحياناً بغير مقتضى الحال، والمواضيع المضطربة في رأسه تزيد من تهيئه. من هذا القبيل كان الشاب الذي وصفته، الرسام بيسكاريوف، الخجول، المثيب، والمنطوية نفسه، في ذات الوقت، على شرارات من العاطفة متهيأة، في اللحظة المناسبة، إلى أن تنقلب ضراماً. أسرع في انفعال خفي يحث الخطي وراء بُغيته التي بهرته بشدة، بدا وكأنه هو نفسه مندهشاً من جسارته هذه، وفجأة أدارت رأسها هذه المخلوقة المجهولة التي جذبت إليها بهذا الشكل عينيه وأفكاره ومشاعره، ورمقته بنظرة، يارب، أية قسمات إلهية! كان الجبين الفثن بياضه الباهر للأبصار محفوفاً بشعر رائع كالعقيق تلوى خصلاته المذهلة، ويتساقط بعضه من تحت القلنسوة، ويلامس الوجنة التي مستها برودة المساء بحمرة خفيفة نضرة. وكانت الشفتان مطبقتين على أطياف أجمل الأحلام.

الغريب. كان يسود كل شيء نوع من الإهمال المذموم كذلك الذي يمكن أن تجده في حجرة أعزب غير مكترث. كان الغبار يعلو قطع الأثاث الجيد إلى حد ما ونسيج العنكبوت يبرقع إفريزاً جسيماً مزخرفاً ومن خلال باب مفتوح لحجرة أخرى التمع حذاء طويل العنق بمهماز، ولاحت حاشية حمراء لسترة رسمية. ارتفع صوت رجالي عال وضحك نسائي بدون أي تحفظ.

يارب، أين دخل الفتى! في بادئ الأمر لم يرد أن يصدق، وأخذ يتمعن أكثر في الأشياء التي مملأ الحجرة. ولكن الجدران العارية والنوافذ الخالية من السناثر لم تكن تدل على أي وجود لربة بيت مهتمة بأمور بيتها. والوجوه المحولة لهذه المخلوقات الباسة التي كانت إحداهن أمام أنفه تقريباً تتفحصه بلا اكتراث كما تتفحص

بقعة في ثوب أخرى، كل ذلك كان يؤكد له أنه دخل وكرأ كريهاً
عشش فيه الفجور الحقير وليد التعليم الكاذب المبهرج واكتظاظ
العاصمة الرهيب بالسكان. هنا، في هذا الوكر، سحق الإنسان
بفظاظة وكفر، وسخر من كل ماهو طاهر ومقدس يزين الحياة،
وتحوّلت المرأة، حسناء العالم، جوهره الخليفة إلى كائن غريب
مزدوج، وتجردت إلى جانب نقاء الروح من كل ماهو أنثوي،
واتخذت لنفسها بشكل مقزز عادات ووقاحة الرجل، ولم تعد ذلك
الكائن الضعيف الجميل المتميز عنه بشدة. تفحصها بيسكاريوف من
أخمص قدميها حتى رأسها بعينين مذهولتين، وكأنما ما يزال يريد أن
يعرف بشكل مؤكد أهى نفس المرأة التي سحرته وجذبتة في شارع
نيفسكي بذلك القدر؟ ولكنها وقفت أمامه جميلة كما هي. شعرها
جميل كما كان، وعيناها ما تزالان على سماويتيها العلوية. كانت
غضة، لم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة، والظاهر أن الفجور المريع
لم يكن قد أصابها منذ زمن بعيد. لم يجرؤ بعد أن يمس وجنتيها،
اللتين كانتا نضرتين ملونتين بحمرة خفيفة، لقد كانت رائعة الحسن.
وقف أمامها بلا حراك، وكان متهيئاً إلى أن يسرح عقله بسذاجة،
كما سرح من قبل. ولكن الحسنة سئمت هذا الصمت الطويل،
وابتسمت ابتسامة ذات مغزى، ناظرة في عينيه. غير أن ابتسامتها
هذه كانت تنم عن وقاحة حقيرة. كانت غريبة جداً، ولا تناسب
وجهها إلا بقدر ما تناسب التقوى وجه مرتش أو دفتر الحسابات
شاعراً. سرت فيه رعشة. أفرجت شفثيها الجميلتين، وأخذت تتكلم
عن شيء ما. غير أن كل ذلك كان سمجاً مبتذلاً... كأن عقل
الإنسان يفارقه مع طهارته. لم يعد الشاب يريد أن يسمع شيئاً. كان
مضحكاً إلى أقصى حد، وساذجاً كالطفل. وبدلاً من أن يستفيد من
هذه الحظوة، وبدلاً من أن يغتبط بهذه الفرصة التي سيغتنب بها،

دون شك، أي إنسان آخر في مكانه، أطلق رجله للركض، كالماعز الوحشي، وخرج إلى الشارع مسرعاً.

جلس في حجرته منكس الرأس، مرتخي اليدين، كالفقير الذي وجد لؤلؤة لا تقدر بثمن، وفي اللحظة التالية سقطت منه في البحر. «مثل هذه الحسناء، مثل تلك القسمات الإلهية. وأين؟ في أي مكان!...» وهذا كل ما استطاع أن يقوله.

وبالفعل لا يملكنا الرثاء بتلك القوة التي يملكنا بها، حين نرى جمالاً مشه زفير الفجور المهلك. والأمر بهون لو صاحب الفجور القُبْح، ولكن الجمال، الجمال الرقيق.. لا يمتزج في أذهاننا إلا بالطهر والنقاء. إن الحسناء التي فنتت بيسكاريوف المسكين بهذا القدر كانت، بالفعل، ظاهرة مذهلة غير مألوفة. ودخولها ذلك الوسط الحقيق بدا أكثر بعداً عن المألوف. كانت قسماتها كلها غاية في الكمال ومسحة وجهها البديع كلها موسومة بالنبل الرفيع، حتى ليتعذر التفكير أبداً في أن الفجور أنشأ فيها أظافره الرهيبة. كان من الممكن أن تكون جوهرة لا تقدر بثمن، أن تكون العالم كله، الجنة كلها، كل الثروة لزوج مشبوب العاطفة. كان من الممكن أن تكون نجمة جميلة هادئة في وسط عائلي منزه، تصدر بحركة واحدة من شفيتها الجميلتين أوامر حلوة. كان من الممكن أن تكون آلهة في صالة كثيرة الناس، على أرضية وضوء، في ألق الشموع، في وسط الإجلال الصامت لجمهور عشاقها المرعفين على قدميها. ولكن، وأسفاه! لقد شاء جنني من الجحيم متعطش لتحطيم الحياة المستقيمة أن يلقيها، عشيته المريعة، في هاويتها السحيقة وهو يقهقه ملء صدره.

جلس بيسكاريوف أمام شمعة مسخمة الفتلة يغمره رثاء ممزق. انتصف الليل منذ زمان، ودق جرس البرج نصف الساعة الواحدة، وهو ما يزال جالساً جامداً، أرقاً، خامل الحياة. وحين أخذ النعاس

يتسلل إليه من خلال خموله ويغلبه، والحجرة تبدأ بالاختفاء، وصار ضوء الشمعة وحده شاهداً على الأحلام التي غمرته، جعله طرق مفاجئ على الباب يجفل، ويفيق من نومه، انفتح الباب، ودخل خادم في بزة خدم فاخرة. لم يحصل قط أن دخلت حجرته المنعزلة بزة خدم فاخرة، وعلى الأخص في هذا الوقت غير المعتاد... تحير، نظر إلى الخادم بفضول عجول.

قال الخادم بانحناءة احترام:

- السيدة التي كنت عندها قبل ساعات أمرت بأن أرجو منك أن تزورها، وأرسلت عربية لتقلّك.

وقف بيسكاريوف في دهشة صامتة: «عربة، خادم في بزة خدم!... أظن في الأمر خطأ...»
قال في ارتباك:

- اسمع، يا محترم! أظنك قد أخطأت العنوان. سيدتك أرسلتك إلى شخص آخر دون شك وليس إليّ.

- لا، يا مولاي، أنا لم أخطئ. هل أنت الذي تفضلت وصاحبت السيدة إلى بيتها في شارع ليتينايا، إلى حجرتها في الطابق الرابع؟
- نعم.

- إذاً، أرجو أن تسرع، فإن السيدة تود أن تراك من كل بدّ ورجت أن تفضل إلى بيتهم رأساً.

هبط بيسكاريوف السلم راكضاً. كانت هناك عربية واقفة في الفناء فعلاً. ركب فيها. وأغلقت الأبواب، وقرقعت أحجار الجادة تحت العجلات والخوافر. وتلاحق من وراء نوافذ العربة الامتداد المضاء للبيوت بلافاتها اللامعة. أخذ بيسكاريوف يفكر طوال الطريق، ولم يعرف كيف يوضح هذه المغامرة. البيت المملوك، والعربة، والخادم

ببزته الفاخرة كل ذلك لم يستطع أن يربطه بالحجرة في الطابق الرابع،
بالنوافذ المغبرة، بالبيانو غير المضبط.

توقفت العربية أمام مدخل مبنى ساطع الإضاءة، بهره على الفور
صف العربات، وثرثرة الحوذية، والنوافذ الساطعة الأنوار، وأصوات
الموسيقى. أعانه الخادم ذو البزة الفاخرة في النزول من العربية، وقاده
باحترام إلى رواق ذي أعمدة مرمرية، فيه حاجب مكسو بالذهب،
ومعاطف وفروات مبعثرة، ومصباح ساطع. وثمة سلم رشيق ذو
سلام لامعة، معطر بالطيوبن يؤدي إلى الأعلى.

تسلقه، ودخل الصالة الأولى، وإذا به يرتد مذعوراً منذ الخطوة
الأولى لاكتظاظها بالناس. أسلمته برقشة الوجوه غير الاعتيادية إلى
الارتباك التام، فقد بداله وكان عفريتاً سحق العالم كله إلى قطع
عديدة، وجمع كل هذه القطع سوية دون معنى ولا مغزى. أكتاف
نسائية لامعة، بدلات فراك سود، ثريات مصابيح، ثياب خفيفة
طائرة، شرائط شفافة، وكوترباس سميكة يلوح من وراء سلام شرفة
للموسيقى رائعة كل ذلك بهر بصره. رأى في نظرة واحدة قدراً عظيماً
من الشيوخ المحترمين وأشباه الشيوخ والنياشن تزين بدلاتهم الفراك،
وقدراً عظيماً من السيدات يتخطرن بخفة وأنفة وظرف أو يجلسن
صفوفاً، وسمع قدراً عظيماً من الكلمات الفرنسية والإنجليزية، كما
رأى الشبان أيضاً في بدلات الفراك السوداء كانوا مفعمين نبلاً،
يتحدثون أو يصمتون بعزة رائعة، ويشطون عن الإفراط في كلامهم،
يمزحون بعظمة، ويتسمون بجلال، ويزدهون بأفوادهم الطويلة
الرائعة، ويحسنون، في حذق، عرض أيديهم الممتازة، يعدلون بها
ربطات عنقهم، والسيدات كم كن خفيفات، مفعمات براحة النفس
التامة والنشوة، يفضضن أبصارهن بشكل فاتن حتى إن... ولكن

منظر بيسكاريوف الخنوع وحده، وهو يتكئ على عمود بتهيب، وشي بذهوله التام. في ذلك الوقت تجمع الجمهور ليحيط بجماعة راقصة. فاندفعت ملفوفة بإبداع باريس الشفاف، بأثواب منسوجة من الهواء نفسه، وممس الأَرْض بأقدامها اللامعة بدون اكتراث، وحتى لو لم لمسها لكانت أخف من الأثير. ولكن واحدة من بينهن أحسن الجميع، وأترف الجميع، وأبهى ثياباً اتساق في الذوق مرهف يتعذر وصفه كان يشيع في ملابسها بكامله، ومع كل ذلك بدت وكأنها لا تحفل بذلك مطلقاً فكان يتجلى من تلقاء نفسه، وبدون إرادة منها، كانت ترمق جمهور المتفرجين المحيطين بها بنصف نظرة، وتنسبل رموشها الطويلة الجميلة بلا اكتراث، وتصير نصاعة وجهها المتألقة أكثر إبهاراً للابصار، حين يغشى ظل خفيف جبينها الفاتن، عند انحناء رأسها.

استخدم بيسكاريوف كل قواه ليشق الحشد ويتمنعها. ولكن رأساً ضخماً ذا شعر أجعد داكن كان يحجبها باستمرار، مما سبب انزعاجاً شديداً له، وفضلاً عن ذلك كان حشد الناس يضغط عليه فلم يستطع التقدم إلى الأمام ولا التراجع إلى الخلف، خائفاً من أن يدفع بشكل من الأشكال موظفاً عالي المقام. ولكنه أفلح أخيراً في الانسلاخ إلى الأمام، ونظر إلى ثيابه يريد أن يعدل هندامه. يارب الخليفة، ما هذا! كان في ستره مبقعة كلها بالأصباغ، فقد نسي في عجلة الخروج حتى إن يستبدل لباسه بثياب لائقة. احمر حتى أذنيه، وأطرق رأسه، وأراد أن يغيب عن الأنظار، لكن لم يكن ثمة مجال على الإطلاق، فإن بعض النبلاء الشبان في بزات لامعة تراصوا من خلفه كجدار متين. كان يود أن يتعد قدر الإمكان عن الحسناء ذات الجبين الجميل والرموش. رفع بصره بخوف ليعرف هل كانت تنظر إليه. يارب! كانت تقف أمامه... ولكن ما هذا؟ «هذه هي!» صاح

بأعلى صوته تقريباً وفي حقيقة الأمر كانت هي، تلك التي التقاها في شارع نيفسكي، ورافقها إلى عقر دارها.

وخلال ذلك رفعت رموشها، ورمقت الجميع بنظرة صافية. «ياه، ياه، ما أجملها...» لم يستطع إلا أن ينطق بذلك مبهور الأنفاس. طافت بعينها على كل الحلقة التي كانت تنافس متعطشة لتستوقف انتباهها. ولكنها سرعان ما عافتهم بشيء من التعب والإهمال، والتقى بصرها ببصر بيسكاريوف. آوه، أية سماء، أي فردوس! أيها الخالق، هبني القوة لأتحمل هذا! الحياة لا تستوعبه. سيحطم النفس، ويزهق الروح! أشارت لا بيدها، ولا بانحناءة من رأسها، ولكن هذه الإشارة انعكست في عينها المدمرتين بتعبير دقيق مستتر لم يستطع أحد أن يراه. ولكن بيسكاريوف رآه، وفهمه. امتدت الرقصة طويلاً، والموسيقى المتعبة بدت وكأنها قد انطفأت كلياً وهدمت، ثم طلعت ثانية، وزعقت، وهدرت، وأخيراً جاءت النهاية! جلست، وصدرها يعلو ويهبط في الغبش الخفيف للقماش الشفاف. ويدها (أيها الخالق أي يد رائعة!) سقطت على ركبته. حشرت ثوبها الخفيف تحتها، فبدأ وكان الثوب يستنشق موسيقى، ولونه الليلكي الخفيف عمق أكثر النضاعة الباهرة ليدها الجميلة. فليته يمسها، ويكتفي! وما من رغائب أخرى، فكلها طائشة... وقف وراء مقعدها، غير متجري على الكلام، غير متجري على التنفس. ونطقت هي:

- هل ضجرت؟ أنا أيضاً ضجرت وأضافت تقول وقد أسبلت رموشها الوُطف أرى أنك تكرهني...

- أكرهك! أنا؟ أنا... أراد بيسكاريوف المربوك كلياً أن ينطق ولا طلق حتماً، جملة من الكلمات المفككة تماماً، ولكن واحداً من نبلاء البلاط أقبل في تلك اللحظة بملاحظات حادة لطيفة، والناصية على رأسه ملتفة، وبطريقة لطيفة بما فيه الكفاية أبدى صفاً من الأسنان

اللطيفة بما فيه الكفاية. و غرز بكل ملاحظة حادة مسماراً حاداً في قلبه. وأخيراً، ولحسن الحظ تقدّم أحد الغرباء من هذا النبيل في مسألة. لا أتحمّل ذلك أبداً! قالت بعد أن رفعت إليه عينيها السماويتين سأجلس في الطرف الآخر من الصالة، فكن هناك! وانسلت بين حشد الناس، واختفت. دفع زحام الناس كالمجنون، ووصل إلى هناك.

تلك هي! كانت تجلس كالقيصرة أفضل الكل، وأجمل الكل، وتبحث عنه بعينيها.

تلك هي! كانت تجلس كالقيصرة أفضل الكل، وأجمل الكل، وتبحث عنه بعينيها.

- أنت هنا نبست بصوت خافت ساكون صريحة معك. أظن الظروف التي أحاطت بلقائنا كانت غريبة عليك. هل يعقل أن تظن أن من الممكن أن أكون من تلك الطبقة المحترقة من المخلوقات التي وجدتنى بينها؟ تصرفاتي تبدو لك غريبة، ولكنني سأكشف لك السر. فهل ستقدر نطقك بذلك متفّرسة بعينه أن تصونه إلى الأبد؟ - أوه، أقدر! أقدر! أقدر!

غير أن رجلاً في ذرى الكهولة تقدم في تلك اللحظة وأخذ يتحدث معها بلغة غير مفهومة لبيسكاريوف، وقدم لها يده. ألقت على بيسكاريوف نظرة متضرعة، وأشارت له بأن يبقى في مكانه، و ينتظر مجيئها، ولكنه في نوبة نفاد الصبر لم يكن قادراً على إطاعة أية أوامر حتى من شفيتها، سار في إثرها، ولكن الحشد فصلهما. فلم يعد يبصر الثوب الليلكي، تنقل من حجرة إلى أخرى في قلق، ودفع كل من التقاه بلا رحمة، ولكن وجهاء القوم كانوا يجلسون في الحجرات كلها وراء طاولات لعب الورق، غارقين في صمت

الأموات. وفي أهدأ أركان حجرة كان بعض الكهول يتجادلون عن
أفضلية الخدمة العسكرية على الخدمة المدنية، وفي ركن آخر كان
رجال آخرون في بدلات فراك فاخرة يلقون ملاحظات خفيفة عن
أعمال شاعر دووب تضم مجلدات كثيرة. وشعر بيسكاريوف أن
كهلاً ذا مظهر جليل أمسك بزّ من أزرار فراكه، وراح يطرح في
حكمة ملاحظة له منصفة جداً، إلا أن بيسكاريوف دفعه بغلظة،
حتى دون أن يلحظ الوسام الرفيع المعلق على رقبته. انتقل مسرعاً
إلى حجرة أخرى، فلم يجدها. وفي الثالثة أيضاً. «أين هي؟ هاتوها
لي! آه، لا أستطيع أن أعيش دون أن أنطلع إليها! أودّ أن أسمع ما
كانت تريد أن تقول». إلا أن كل بحوثه لم يأتِ بطائل. انكمش
في زاوية قلقاً متعباً، وأخذ ينظر إلى جمهور الناس. ولكن عينيه
المشدودتين أخذتا تصوران له كل شيء بشكل غير واضح. وفي آخر
الأمس أخذت تراءى له بوضوح جدران حجرته. رفع بصره، فرأى
أمامه الشمعدان تكاد النار تخدم في أعماقه. ذابت الشمعة كلها،
وانسكب الشمع المذاب على منضدته.

كان نائماً، إذأ! يارب، أي حلم هذا! ولم استيقظ من نومه؟
ولم ينتظر دقيقة واحدة، فقد تظهر من جديد! أطل من نافذته ضوء
مرهق بألقه الشاحب الكريه. الحجرة في فوضاها الرمادية الكالحة
إلى درجة أن... أوه، أي واقع مقزز! وما هو إزاء الحلم؟ خلع ثيابه
سريعاً، واستلقى على سريره، وقد التفّ في اللحاف، يريد أن يسترجع
الحلم الخاطف لحظة واحدة، وبالفعل لم يتأخر الحلم في المجيء إليه،
ولكنه تمثّل له على عكس ما كان يريده ممّاماً. فمرة يظهر الضابط
بيروغوف ومعه غليون، ومرة حارس أكاديمية الفنون، ومرة موظف
من رتبة معتبرة، ومرة رأس الفنلندية التي رسم لها صورة في وقت
ما، وغير ذلك من السفاسف.

ظل راقداً في السرير حتى الظهر يريد أن يستدرج النوم، ولكن النوم لم يأت، على الأقل لو أبدت قسماتها الرائعة لحظة، وهففت مشيتها الخفيفة لحظة، على الأقل لو لمعت أمامه ذراعها العارية الناصعة كتلج قمم الجبال، وراء الغمام.

وظل جالساً زاهداً في كل شيء ناسياً كل شيء، مسحوقاً بادئ اليأس، يملؤه الحلم الذي رآه وحده. ولم يفكر في أن يمس أي شيء. كانت عيناه تنظران بدون أي إحساس، بدون أي حياة، في النافذة المطلة على الفناء، حيث كان السقاء القذر يصب ماء يتجمد في الحال، وحيث كان صوت البائع المتجول الشبيه بصوت الماعز يهزج: «اللي عنده أشياء قديمة للبيع». كانت أصوات الواقع اليومية تشده سمعه بشكل غريب. وهكذا ظل قاعداً حتى المساء، وبعدها ارمى على السرير بشوق. صارع الأرق طويلاً، وتغلب أخيراً. وحلم مرة أخرى بحلم، حلم مبتذل حقير. «إرفق بي، يارب، وأرنيها دقيقة واحدة، على الأقل، لحظة واحدة». وعاد ينتظر المساء من جديد، وغفا مرة أخرى، وحلم مرة أخرى. بموظف كان موظفاً ومزماراً في آن واحد. آوه! هذا لا يطاق! وأخيراً تراءت! رأسها وخصلات شعرها... تنظر... ولكن لوقت قصير! ومرة أخرى ضباب، ومرة أخرى حلم سخي.

وأخيراً... صارت الأحلام حياته كلها، ومنذ ذلك الحين اتخذت حياته كلها انعطافاً غريباً. فقد كان، كما يقال، ينام في اليقظة، ويستيقظ في النوم. فلو أن أحداً رآه نائماً في صمت أمام المنضدة الفارغة أو ماشياً في الشارع لاعتبره بالتأكيد سائراً في نومه أو رجلاً حطمته المشروبات القوية. كانت نظراته خالية من أي مدلول، والذهول الطبيعي قد اشتد، وتسلمت وأفرغ وجهه من كل المشاعر، من كل عاطفة. فلم يكن ينتعش إلا عند حلول الليل.

زعزعت هذه الحال قواه، وجابه أفضع عذاب له، حين أخذ النوم أخيراً يتخلى عنه كلياً. فصار يستخدم كل الوسائل لإعادته رغبة منه في إنقاذ ثروته الوحيدة هذه. سمع أن هناك وسيلة لإعادة النوم، تحتاج إلى تعاطي الأفيون لا غير، ولكن أين يحصل على هذا الأفيون؟ تذكر فارسياً صاحب مخزن للشالات، كان إذا التقاه يطلب منه دائماً تقريراً أن يرسم له حسناء. فعزم على التوجه إليه مفترضاً أن لديه، بالتأكيد، هذا الأفيون، استقبله الفارسي، وهو متربع على أريكة، سأل:

- وما حاجتك إلى الأفيون؟

فحكى له بيسكاريوف عن أرقه.

- طيب، سأعطيك الأفيون، شرط أن ترسم لي حسناء. على أن تكون الحسناء حلوة! وأن يكون حاجباها أسودين، وعيناها واسعتين كزيتونتين، وأن أكون أنا مستلقياً جنبها، أدخن الغليون! تسمع؟ شرط أن تكون حلوة! وأن تكون حسناء!

وعده بيسكاريوف بكل شيء، صبَّ جزءاً منه في علبة أخرى بحرص، وأعطاهما بيسكاريوف مع وصية بأن لا يتناول منها أكثر من سبع قطرات في الماء. اختطف بيسكاريوف بلهفة هذه العلبة الفائقة الثمن التي ما كان سيتخلى عنها لقاء كومة من الذهب، وانطلق يعدو إلى بيته.

وحين وصل إلى البيت صبَّ بضع قطرات في قدح من الماء، وجرعة، وانطرح لينام.

يا رب، أية بهجة! هي مرة أخرى هي! ولكنها في هيئة مختلفة تماماً. آه، ما ألطف جلوسها عند نافذة بيت ريفي وضاء! هندامها يشي ببساطة لا تمثل إلا في ذهن الشاعر. وتصفيقة شعرها... أيها

الخالق، كم هي بسيطة هذه التصفية، وكم هي تناسبها! كان شالها القصير ملقى بخفة على جيدها الأهيف، وكل ما فيها متواضع، كل ما فيها مفعم إحساساً بالذوق خفياً لا يدرك. وما ألطف مشيتها الرشيقة! وكم هو موسيقي حفيف خطوها وثوبها البسيط! وما أحلى يدها المطوقة بسوار من الخيوط المفتولة! وتقول له، والدموع في عينيها: «لا تحتقري! أنا لست التي حسبتني إياها مطلقاً. انظر إلي، انظر إلي أمعن، وقل لي: أحقاً أنني قادرة على ما تظن بي؟» «أوه! لا! لا! عسى ذلك الذي يتجاسر على الظن، عسى ذلك...». ولكنه استيقظ متأثراً، متمزقاً، مغرورق العينين بالدموع «كان من الأفضل أن لا تكوني موجودة أبداً! أن لا تعيشي في العالم، بل أن تكوني صنع رسام ملهم! عندئذ كنت سألزم اللوحة، أتطلع إليك أبداً، وأقبلك. عندئذ كنت سأعيش وأتفك بك، كأروع حلم، عندئذ سأكون سعيداً. وما كنت لأطمح بأية آمانيات أخرى. وكنت سأستدعيك كملاكي الحارس قبيل النوم وعند اليقظة، وأنتظر حين يحدث أن أصور شيئاً ألوهياً قدسياً. ولكن الآن... أية حياة فظيعة! ما الفائدة من أنها تعيش! وهل حياة المجنون مريحة لأقربائه وأصدقائه، الذين كانوا يحبونه في وقت ما؟ يارب، أية حياة نحيا! الحلم في نزاع أبدي مع الواقع».

من مثل هذه الأفكار كانت تشغل باله دائماً. لم يكن يفكر في شيء، ولا يكاد يأكل شيئاً، ويظل ينتظر المساء والحلم المرغوب بلهفة وهوى عاشق. وأخيراً اكتسب انصباب أفكاره الدائم على شيء واحد سلطاناً قوياً على معيشته كلها وعيخته، حتى صارت الصورة المحببة تراءى له كل يوم تقريباً، ودائماً في وضع يناقض الواقع، لأن أفكاره كانت نقية للغاية كأفكار طفل. ومن خلال هذه الأحلام صار المحلوم به نفسه أكثر نقاءً، وصورته تتغير كلياً.

كانت جرعات الأفيون تلهب أفكاره أكثر، وإذا كان هناك منيّم إلى آخر درجات الجنون يعشق باندفاع وبطريقة مريضة، ساحقة، متمرّدة، فإن ذلك التعيس كان هو، بيسكاريوف.

ومن بين جميع الأحلام كان ثمة حلم هو الأبهج له، حين كان يحلم بمرسمه، وبنفسه مرحاً باستمتاع بالغ ولوحة مزج الأصباغ في يده! وهي هناك أيضاً، وقد أصبحت زوجته. تجلس بالقرب منه، تستند بكوعها الساحر على ظهر مقعده، وتنظر إلى عمله. وفي عينيها الرقيقتين المتعبتين يرسم رَهق الهناءة. كل ما في حجرته يعبق بالجنة. فقد كانت غاية في النظافة، نيرة وضاءة. يارب الخليفة! أسندت على صدره رأسها الفاتن.. ولم يكن قد رأى قط أحسن من هذا الحلم. نهض بعده أكثر نضارة وأقل ذهولاً من ذي قبل. تولدت في رأسه أفكار غريبة. فراح يفكر: «ربما أوقعتها في الفسق مصادفة مريضة ضد إرادتها. ربما نزعات روحها مائلة إلى الندم، ربما كانت نفسها تود أن تقلت من حالتها المريضة. وهل من المعقول أن يتركها تهلك بدون اكتراث، لاسيما وأن إنقاذها من الهلاك لا يكلفه إلا أن يمد يده إليها؟ وسارت أفكاره إلى أبعد من ذلك، فراح يقول لنفسه: «لا أحد يعرفني، ثم أي شأن لأحد بي، كما لا شأن لي بأحد. وإذا ما أبدت ندمها الحقيقي، وغيّرت حياتها، فسأتزوجها. يجب أن أتزوجها، والحقيقة أنني بذلك سأفعل أفضل كثيراً من العديدين الذين يتزوجون قهر ماناتهم، وحتى أحقر البهائم في بعض الحالات، ولكن مآثرتي ستكون منزّهة، بل وربما عظيمة. فسأعيد إلى العالم أروع زيناته»

وبعد أن وضع هذه الخطة الطائشة أحس بالحمرة تلهب وجهه، فتقدم من المرأة، وأفزعه تغوّر خديه، وشحوب وجهه. فأخذ يهتدم نفسه بعناية، اغتسل، وضفّف شعره، ولبس فراكاً جديداً، وصداراً أنيقاً، وألقى معطفاً على كتفيه، وخرج إلى الشارع، استنشّق الهواء

الطلق، وأحس بطراوة في قلبه، كالناقة الذي عزم على الخروج إلى الشارع لأول مرة، بعد مرض طويل. خفق قلبه، حين كان يقترب من الشارع الذي لم يطرقة منذ ذلك اللقاء الويل.

بحث طويلاً عن المبنى، تبين أن ذاكرته قد خاتته. قطع الشارع مرتين، ولم يعرف أمام أي مبنى يتوقف. وأخيراً، بداله أحد المباني شبيهاً ببيتها. ركض بسرعة على الدرج، وطرق الباب فانفتح. فما خرج لاستقباله؟ مثاله، صورته الخفية، أصل لوحاته الحاملة، تلك التي عاشها برعب، عاشها بعذاب وعذوبة، كانت بنفسها تقف أمامه. سرت الرعدة في أوصاله فكان لا يكاد يقف على قدميه من الضعف، مأخوذاً بموجة فرح. وكانت هي تقف أمامه، بنفس الجمال، على الرغم من أن النعاس في عينيها، وديب الشحوب على وجهها الذي لم يكن بنضارته السابقة، ولكنها كانت رائعة الحسن. - ها! صاحت، حين رأت بيسكاريوف، وفركت عينيها، (كانت الساعة الثانية بعد الظهر آنذاك) ولم هربت من حينذاك؟ ولضعفه جلس على مقعد، ونظر إليها.

- استيقظت لتوي. جاءوا بي في الساعة السابعة صباحاً وأضافت بابتسامة كنت في سكر شديد.

أوه، أن تكوني خرساء محرومة من النطق تماماً أفضل من أن تنطقي هذه الكلمات! فجأة أظهرت له كل حياتها بالتمام. ومع ذلك فقد ضغط على قلبه، وعزم على أن يجرب ما إذا كانت مواعظه تؤثر فيها. جمع شجاعته، وبدأ يصوّر لها بصوت راعش ومتحمس في آن واحد بشاعة وضعها. أصغت إليه بادية الاهتمام، وبذلك الشعور من الدهشة الذي نظهره عادة عند رؤية شيء غير متوقع وغريب. نظرت، بابتسامة خفيفة، إلى صاحبها التي كانت تجلس في زاوية،

والتي تركت تنظيف مشطها، وراحت تصفي أيضاً إلى الواعظ الجديد بانتباه.

وأخيراً قال بيسكاريوف بعد وعظ طويل فيه عبرة:

- أنا فقير، بالفعل، ولكننا سنشتغل، ونجاهد، يسابق أحدنا الآخر، في تحسين حياتنا. ليس هناك اللطف من أن يكون الإنسان مديناً لنفسه في كل شيء. سأعكف أنا على رسم اللوحات، وأنت في جلوسك قربي تطرزين أو تمارسين أي شغل إبرة تبثين الروح في أعمالي. ولن يعوزنا شيء عند ذاك.

- غير ممكن! قاطعت كلامه بشيء من الازدراء لست غسالة ولا خياطة لأمارس شغلاً.

يارب! كانت هذه الكلمات تعكس كل الحياة الوضيعة المحترقة، الحياة التي يملؤها الفراغ والتكاسل أليفا الفجور الوفيان.

- تزوجني! بادرت صاحبها بوقاحة، بعد أن ظلت صامته في الزاوية وقتاً طويلاً حين ساكون زوجة سأجلس هذه الجلسة! وأبدت سحنة بليدة على وجهها الحقير أضحكت بها الحسنة كثيراً.

آوه، غاية في الوقاحة! لا يمكن أن يطاق، فاندفع خارجاً فاقد الشعور والعقل. تشوش ذهنه، فراح يهيم النهار كله ببلاهة وبلا هدف، لا يرى ولا يسمع ولا يشعر. ولم يتمكن أحد من أن يعرف هل قضى ليلته في مكان ما، أم لا، وفي اليوم التالي فقط، وبغريزة متبلدة جاء إلى بيته شاحباً مرعب المنظر، منفوش الشعر، وعلائم الجنون بادية وجهه. أغلق عليه باب حجرته، ولم يسمح لأحد بالدخول، ولم يطلب شيئاً. ومَرَّت أربعة أيام، وحجرته المغلقة تفتح قط، وأخيراً انقضى أسبوع، والحجرة ما تزال مغلقة. هرع الناس إلى

باب حجرته، ونادوه، ولم يظفروا بجواب وفي آخر الأمر كسروا الباب ووجدوا جثته الهامدة وحجرته منحورة. والموسى المدمة ملقاة على الأرض. وكان من الممكن الاستدلال من ذراعه المطروحة بتشنج، ومن منظره المشوه الرهيب أن يده لم تكن تطيعه، وأنه ظل يتعذب طويلاً قبل أن تغادر روحه الخاطئة جسده.

وبهذا الشكل هلك ضحية للهوى المجنون بيسكاريوف المسكين، الهادئ، المتهيب، المتواضع، البسيط القلب كالطفل، الذي كان ينطوي على شرارة نبوغ كان من الممكن، مع مرور الوقت، أن يتوهج في سطوع واتساع. لم يلك أحد عليه، ولم يشاهد قرب جثته الهامدة غير الشخص المعتاد للشرطي المكلف بحراسة الحي والسحنة اللابالية للطبيب الشرعي. ونُقِلَ تابوته إلى أوختا^(١) بهدوء، وحتى بدون المراسيم الدينية. ولم يلك وراء نعشه غير الجندي الحارس، وحتى هذا لم يلك إلا لأنه احتسى دورقاً من الفودكا زيادة. وحتى الملازم بيروغوف لم يأت ليلقي نظرة على جثمان المسكين البائس الذي كان يخلع عليه رعايته السامية في حياته. وبالمناسبة لم يكن له الوقت لذلك. فقد كان مشغولاً بحادثة استثنائية. سنعود إليه بعد حين.

أنا لا أحب الجثث والأموات، وأشعر دائماً بعدم الارتياح حين يعترض طريقي موكب تشييع طويل وجندي معوق، يرتدي قلنسوة فضفاضة، يستنشق التبغ بيده اليسرى، لأن اليمنى مشغولة بالمشعل. وأشعر بضيق في قلبي دائماً، حين أرى عربة فاخرة لنقل الموتى، وتابوتاً مخملياً، ولكن ضيقي هذا يخالطه الأسى، حين أرى سائق كراجة تجر تابوت فقير أحمر عارياً لم يغط بشيء، ولا يسير وراءه

(١) حي في بطرسبورغ كان يسكن فيه الفقراء وعامة الناس. المترجم.

إلا متسولة تصادفه في مفترق الطريق، لأنه ليس لها عمل آخر تفعله. يبدو أننا تركنا الملازم بيروغوف عند افتراقه عن بيسكاريوف المسكين، وملاحقته الشقراء. كانت هذه الشقراء مخلوقة نحيفة القوام وجذابة بما فيه الكفاية. كانت تتوقف أمام كل مخزن، وتفرج على ما تعرضه الواجهات من أحزمة ومناديل رأس، وأقراط، وقفازات، وغيرها من الخرداوات وتستدير باستمرار، تنظر في كل الجهات، وتلتفت إلى الخلف. وكان بيروغوف يقول بغرور «أنت لي، يا حلوة!» ويستمر في ملاحقتها مغطياً وجهه بياقة معطفه، حتى لا يلتقي أحداً من المعارف. ولكن لا ضير في تعريف القارئ بالملازم بيروغوف.

إلا أنه قبل أن نقول من هو الملازم بيروغوف لا ضير في أن نتحدث عن ذلك المجتمع الذي ينتمي إليه بيروغوف. هناك ضباط يولفون في بطرسبورغ طبقة متوسطة من المجتمع. وأنتم ستجدون دائماً واحداً منهم في أمسية أو غداء عند موظف متوسط الدرجة كسب هذه الوظيفة بأربعين عاماً من الخدمات. له بضعة بنات شابات، وبلا لون تماماً كبطرسبورغ نفسها، بعضهن تجاوز سن الحلم منذ زمان طويل، ترتبط عنده طاولة الشاي الصغيرة، والبيانو، والرقصات البيتية ارتباطاً لا فكاك له بالكثافة العسكرية المتألقة التي تتلألأ في ضوء المصباح بين الشقراء المستقيمة الخلق وبدلة الفراك السوداء لأخيها أو لواحد من معارف العائلة. إن هؤلاء الآنسات الباردات يصعب للغاية تحريكهن أو حملهن على الضحك. فإن ذلك يحتاج إلى حذاقة كبيرة، والأصح القول، لا يحتاج إلى أي حذاقة إطلاقاً. يجب أن تتكلم بطريقة غير مفرطة في الذكاء، ولا في الإضحاك، وأن يكون في كل شيء تقوله تلك الصغائر التي تحبها النساء. وفي هذا المضمار ينبغي الإقرار بفضل سادة معينين

فهم يملكون مقدرة خاصة لحمل هؤلاء الحسناوات الخاليات من أي لون على الضحك وقدرة على الاستماع إليهن. والتهنئات التي يطلقونها مخنوقة بالضحك: «آه يكفي! ألا تخجل من أن تضحكنا بهذا الشكل؟» هي في الغالب المكافأة الكبرى لهؤلاء السادة. وفي الطبقة العليا نادراً ما تجدونهم، والأصح القول، لا تجدونهم إطلاقاً. يقصدهم عنها كلياً ما يسمون في ذلك المجتمع بالأرستقراطيين، ولكنهم يعتبرون، على كل حال أناساً متعلمين ذوي تربية، يحبون التحدث عن الأدب، ويمتدحون بولغارين، وبوشكين، وغريتش، ويتحدثون عن الأديب أورلوف بازدراء، وبلذعات مستطرفة. وهم لا يفوتون أية محاضرة عامة سواء أكانت عن الحاسبة وحتى عن رعاية الغابات، ودائماً تجدون واحداً منهم في المسرح، مهما تكن المسرحية، إلا إذا كانوا يمثلون فودفيلاً على غرار «فيلتكا» يهين كثيراً ذوقهم المرهف. إنهم في المسرح على الدوام. فهم أنفع الناس بالنسبة لإدارة المسرح. وهم يحبون في المسرحية بشكل خاص الأشعار الجيدة، كما يحبون أيضاً أن يستدعوا الممثلين بأصوات عالية للطلوع على المسرح. والكثيرون منهم، في تدريسهم بالمؤسسات التعليمية الحكومية، أو التحضير إلى المؤسسات التعليمية الحكومية، يقتنون في آخر الأمر عربة من ذوات العجلتين وزوجاً من الخيول. وعند ذاك تصير دائرتهم أوسع، ويتوصلون أخيراً إلى الزواج من ابنة تاجر تجيد العزف على البيانو، ولها مئة ألف روبل أو نحوها نقداً بدلاً من الصداق، وثلة من الأقارب الملتحين. إلا أنهم لا يستطيعون بلوغ هذا الشرف إلا بعد أن يصلوا في خدمتهم إلى رتبة عقيد على الأقل. لأن الملتحين^(١) الروس، على الرغم من أن رائحة الكرب ما

(١) يقصد التجار الروس فقد كان هؤلاء في الماضي يطلقون لحاهم عادة. المترجم.

تزال تصدر منهم بعض الشيء، لا يريدون، بأي صورة من الصور، أن يروا بناتهم متزوجات بغير الجترالات أو العقداء، على أقدر تقدير. تلك هي الصفات الرئيسة لهذا الصنف من الشبان. ولكن الملازم بيروغوف كان يملك عدداً من المواهب العائدة له خصيصاً. فقد كان ينشد بشكل ممتاز أشعاراً تعود إلى بعض الشعراء الروس، وله فنه الخاص في نفث الدخان من غليونه بحلقات وبتوفيق شديد، يصل بها إلى حوالي عشر حلقات أحياناً ينظمها واحدة وراء الأخرى دفعة واحدة. ويحسن أن يروي بطريقة طريفة جداً نادرة عن أن المدفع شيء، ووحيد القرن شيء آخر. وعلى العموم يصعب إلى حد ما تعداد المواهب التي وهبها القدر لبيروغوف. كان يحب الحديث عن الممثلة والراقصة، ولكن ليس بالقطعية التي يعبر فيها عادة الضابط الشاب الأقل رتبة، حين يتكلم في هذا الموضوع. وكان راضياً جداً بربطته، التي رُقِي إليها قبل وقت ليس بالطويل، وعلى الرغم من أنه كان يقول أحياناً، حين يستلقي على الأريكة: «أوه، أوه، هباء، كل شيء هباء. فما النفع في أن أكون بهذه الرتبة؟» إلا أن المنقبة الجديدة كانت ترضي غروره في قرارة نفسه، فكان في حديثه غالباً ما يلمح إليها وكأنما عرضاً، وذات مرة صادفه في الشارع كاتب أوراق بدا له غير مهذب وقليل الأدب، فأوقفه على الفور، وبكلمات مقتضبة ولكنها حادة، جعله يلتفت إلى أن الواقف أمامه ملازم وليس ضابطاً برتبة أخرى. وقد جاهد، بشكل خاص، لأن يعرض ذلك بمزيد من البلاغة، لأن سيدتين على قدر كبير من الملاحظة كانتا يمران به في ذلك الوقت. وبيروغوف، عموماً، كان يدي ولعاً بكل ماهو بديع، وكان يشجع الرسام بيسكاريوف. وعلى كل حال، ربما كان ذلك بسبب رغبته القوية في رؤية سيمانه الرجولية في صورة شخصية. ولكن كفانا حديثاً عن صفات بيروغوف. الإنسان مخلوق مدهش إلى حد

يتعذر معه تعداد جميع مناقبه دفعة واحدة، وكلما تفحصته ظهر الجديد من خصائصه وصار وصفها لا ينتهي.

وهكذا واصل بيروغوف ملاحقة الغريبة، شاغلاً إياها من حين لآخر بالأسئلة التي كانت ترد عنها بحدة، وتقطع، وهممة. عبر بوابة قازان المعتمة إلى شارع ميشانسكايا، شارع حوانيت التبغ والخردوات والحرفيين الألمان والمحوريات الفنلنديات. كانت الشقراء تسرع أكثر، حين دلفت إلى بوابة بيت مبيع كثير. وحذا بيروغوف حذوها. صعدت سلماً ضيقاً مظلماً، ودخلت باباً، انسلّ فيه بيروغوف أيضاً بجرأة. فوجد نفسه في حجرة كبيرة، جدرانها سوداء، وسقفها مسودّ بالسخام. وعلى منضدة فيها كومة من القلاويظ الحديدية، وأدوات السمكرة، وأباريق القهوة اللامعة والشمعدانات. والأرض مقذرة بقراصات النحاس والحديد. حدس بيروغوف على الفور أنها بيت حرفي. وبعد ذلك اندفعت الغريبة في باب جانبي. تربث بيروغوف لحظة، ولكنه عزم على التقدم، مستهدياً بالقاعدة الروسية. فدخل حجرة لا تشبه الحجرة الأولى على الإطلاق. حجرة مرتبة جيداً كانت تدل على أن صاحبها ألماني. وانبهر بمنظر غريب إلى حد غير اعتيادي.

رأى شيللر جالساً أمامه، ليس شيللر الذي كتب «هيوم تل» و«تاريخ حرب الثلاثين عاماً» بل شيللر المعروف، الماهر في السمكرة في شارع ميشانسكايا. وقد وقف إلى جانبه هوفمان، لا هوفمان الكاتب، بل الإسكاف المعتر من شارع أوفتسرسكايا، وصديق شيللر المقرب. كان شيللر سكران يجلس على كرسي ضارباً الأرض بقدمه، متحدثاً بشيء في حماس. وكل ذلك لم يدهش بيروغوف بعد، ولكن الذي أدهشه وضع الشخصين الغريب للغاية. فقد كان شيللر يجلس وقد رفع رأسه إلى فوق، وعَرَضَ أنفه اللحيم بما فيه

الكفاية. أما هوفمان، فقد كان يمسك هذا الأنف بإصبعين، ويدير
حذً سكينه الذي يشق بها الجلد على سطح أنفه تماماً. وكان كلاهما
يتكلم باللغة الألمانية، ولهذا فإن الملازم بيروغوف الذي كان لا
يعرف من الألمانية غير «غوت مورغن» لم يفهم شيئاً من كل هذه
الحكاية. وكلمات شيللر، على كل حال، كانت تلتخص فيما يلي.
كان يقول مشمراً ذراعيه:

- لا أريد، لست بحاجة إلى أنف. أنا أصرف على الأنف وحده
ثلاثة أرطال من النشوق في الشهر. وأنا أدفع لمخزن روسي عفن،
لأن المخزن الألماني لا يبيع النشوق الروسي. أنا أدفع لمخزن روسي
عفن، أربعين كوبيكاً للرطل الواحد. هذا يعني روبلاً وعشرين
كوبيكاً واثننا عشرة مرة روبل وعشرين كوبيكاً تساوي أربعة عشر
روبلاً وأربعين كوبيكاً. هل تسمع يا صديقي هوفمان؟ على الأنف
وحده أربعة عشر روبلاً وأربعين كوبيكاً! كما أنني في الأعياد
استنشق سعوطاً غالياً، لأنني لا أريد أن أستنشق النشوق الروسي
العفن في الأعياد! أستنشق سنوياً رطلين من السعوط الغالي، بسعر
روبلين للرطل الواحد. ستة وأربعة عشر، يعني عشرين روبلاً وأربعين
كوبيكاً، للتبغ وحده. هذا نهب! أسألك يا صديقي هوفمان، أليس
كذلك؟ فكان هوفمان الذي كان نفسه سكران يرد بالإيجاب،
عشرين روبلاً وأربعين كوبيكاً! أنا ألماني شغابي وعندي ملك في
ألمانيا، أنا لا أريد أنفاً! أقطع أنفي! هذا أنفي أمامك!..»

ولولا ظهور الملازم بيروغوف المفاجئ لكان هوفمان قد قطع
أنف شيللر حتماً، وبدون أي شك، لأنه كان يمسك السكين وكأنه
يريد أن يقطع نعالاً.

وبدا لشيللر أن من المزعج جداً أن يظهر شخص غريب غير مدعو
في هذا الوقت المناسب ويعيقه. وعلى الرغم من أنه كان في السديم

المسكر للبيرة والتبيذ، فقد شعر ببعض الحرج من الظهور في هذه الهيئة وفي هذه الفعلة بحضور شاهد غريب. وفي أثناء ذلك حثاً بيروغوف بانحناء خفيفة، وقال باللفظ المطبوع عليه:

- اعذروني...

أجابه شيللر ماطاً كلمته:

- انقلع!

أذهل ذلك الملازم بيروغوف. فإن هذه المعاملة جديدة عليه تماماً. فجأة غارت الابتسامة التي كانت قد أطلت على وجهه قليلاً. وقال بشعور الكرامة المكشوفة:

- أنا أستغرب، يا حضرة المحترم... أظنك لم تتبه... أنا ضابط...

- وماذا يعني الضابط! أنا ألماني شفابي... أنا نفسي (وبذلك

ضرب شيللر الطاولة بقبضته) ساكون ضابطاً، سنة ونصف في المدرسة العسكرية، وستان ملازماً، وغداً، حالاً، ضابط. ولكن لا أريد أن أخدم. أنا مع الضابط أنفخ هكذا: فوا وخلال ذلك بسط كفه، ونفخ عليها.

رأى الملازم بيروغوف أنه لم يبق له، بعد هذا، غير الانصراف. إلا أن هذا التصرف غير اللائق برتبته إطلاقاً أزعجه، فتوقف على السلم عدة مرات، وكأنما يريد أن يلثم شتات نفسه، ويفكر في طريقة يشعر بها شيللر بوقاحتة. وأخيراً اهتدى إلى أن من الممكن إغذار شيللر لأن رأسه كان مملوءاً بالبيرة، وفي الوقت ذاته تخيل الشقراء الجميلة، وعزم على نسيان الإهانة. وفي اليوم التالي جاء الملازم بيروغوف إلى ورشة السمكري في الصباح الباكر. استقبلته الشقراء الجميلة في الحجرة الأولى، وسألت بصوت صارم جداً يناسب وجهها كثيراً:

- ماذا تريد؟

- مرحباً يا عزيزتي، ألم تعرفيني يا شاطرة؟ يا لها من عينيّن رائعتين! ولدى ذلك أراد الملازم بيروغوف أن يرفع ذقنها إلى الأعلى بلمسة من إصبعه غاية في الرقة والرشاقة. إلا أنه نذت عن الشقراء آهة متهيبة وهي تسأل بنفس الصوت الصارم:

- ماذا تريد؟

- لا أريد أكثر من أن أراك. قال الملازم بيروغوف مبتسماً ابتسامة على قدر كاف من اللطافة، متقدماً منها، ولكنه أضاف حين لمح أن الشقراء المتخوفة تريد الانسلال من الباب أريد، يا عزيزتي، أن أوصي على مهمازين. هل تستطيعون أن تصنعوا لي مهمازين؟ على الرغم من أن حبك لا يحتاج إلى أي مهماز، بل إلى شكيمة في الأخرى. أية يدين لطيفتين لك!.

كان الملازم بيروغوف دائماً دمثاً جداً في هذا النوع من المكاشفات.

- سادعو الآن زوجي نادت الألمانية، وانصرفت. وبعد بضع دقائق رأى بيروغوف شيللر يخرج بعينين ناعستين، وهو لم يكذب يفيق من سكر البارحة. نظر إلى الضابط، وتذكر ما حصل يوم أمس، وكأنما في حلم مغبّش. لم يكن يتذكر في أي هيئة كان، ولكنه كان يشعر بأنه فعل حماقة، ولهذا استقبل الضابط بمظهر شديد الصرامة.

- لا يمكنني أن آخذ على المهمازين أقل من خمسة عشر روبلاً، قال راغباً في التملص من بيروغوف، لأنه، كألماني شريف، يخجله كثيراً أن ينظر إلى مَنْ رآه في هيئة غير لائقة. فقد كان شيللر يحب أن يشرب بدون أي شهود، مع صديقين أو ثلاثة، وينقطع في ذلك الوقت حتى عن شغيلته.

قال بيروغوف بلطف:

- ولم بهذا الغلاء؟

- شغل ألماني قال شيللر ببرود أعصاب، ممسداً على ذقنه الروسي يقبل عما ذلك بروبلين.

- موافق! كي أبرهن على أنني أحبكم، وأود التعارف معكم، أدفع لكم خمسة عشر روبلاً.

لبث شيللر دقيقة واحدة يتأمل، فهو، كالألماني شريف، أحس بشيء من الخجل. فأراد نفسه أن يقدم صاحب الطلب على التخلي عن طلبه، وأعلن أنه لا يستطيع أن ينتهي منه إلا بعد ما لا يقل عن أسبوعين. إلا أن بيروغوف أعلن عن موافقته التامة دون أي اعتراض. استغرق الألماني يفكر وراح يتأمل طريقة فضلى لجعل عمله يساوي خمسة ع شر روبلاً بالفعل. وفي تلك اللحظة دخلت الشقراء الورشة، وأخذت تنبش في المنضدة المتناثرة عليها أباريق القهوة. استغل الملازم استغراق شيللر في التفكير وتقدم منها، وضغط على ذراعها المعراة حتى الكف. امتعض شيللر من ذلك كثيراً. صاح:

- يا زوجتي!

أجابت الشقراء:

- ماذا تريد؟

- اذهبي إلى المطبخ^(١)!

انصرفت الشقراء. قال بيروغوف:

- إذاً، بعد أسبوعين؟

- نعم، بعد أسبوعين، أجاب شيللر في تأمل عندي الآن أشغال كثيرة جداً.

(١) وردت الجمل الثلاث في الأصل باللغة الألمانية تلفظاً. المترجم.

- إلى اللقاء! سآتي إليك.

- إلى اللقاء!

ورد شيللر، وهو يغلق الباب خلفه.

عزم الملازم بيروغوف على مواصلة ملاحقة الشقراء، على الرغم من صدور الألمانية الواضح عنه. لم يستطع أن يفهم كيف يمكن صده، لا سيما وأن لطفه ورتبه اللامعة كانا يعطيانه ثمام الحق في الالتفات إليه. ومع ذلك يقتضي القول أيضاً إن زوجة شيللر كانت بلهاء جداً على الرغم من ملاحظتها. وللبلاهة، بالمناسبة، سحر خاص في الزوجة المليحة. فأناء، على الأقل، أعرف أزواجاً كثيرين في غبطة شديدة من بلاهة زوجاتهم، ويرون فيها كل علائم البراءة الطفولية، والجمال يصنع عجائب حقيقية. وجميع النقائص الروحية في الحسناء تصبح جذابة إلى حد بعيد، بدلاً من أن تثير الاشمئزاز، والعيب نفسه يطفح حلاوة فيها، ولكن إذا اختفى الجمال، احتاجت المرأة إلى أن تكون عشرين مرة أذكى من الرجل لتوحي بالاحترام، على الأقل، إن لم يكن بالحب. وزوجة شيللر كانت، على العموم، وفية دائماً برابطتها، على الرغم من كل بلاحتها، ولهذا كان صعباً على بيروغوف. بما فيه الكفاية التوفيق في مشروعه الجريء، ولكن التغلب على العقبات ينطوي على متعة دائماً، وصارت الشقراء أمتع في عينيه من يوم إلى يوم، أخذ يستفسر عن المهمازين بكثرة حتى ضجر شيللر أخيراً. فكان يستنفر كل جهوده لينتهي في أقرب وقت من المهمازين اللذين بدأ في صنعهما، وفي آخر الأمر صار المهمازان جاهزين.

صاح الملازم بيروغوف حين رأى المهمازين:

- آه، أي عمل ممتاز! أي صناعة جيدة، يارب، ليس لجنرالنا مثل هذين المهمازين.

شاع الشعور بالرضى في نفس شيللر. وأخذت عيناه تنظران بحرح كاف، وتصالح مع بيروغوف كلياً، وكان يفكر مع نفسه: «الضابط الروسي رجل ذكي».

- يعني وتستطيع أن تصنع قراباً للخنجر، أو للأشياء الأخرى؟
قال شيللر بابتسامة:

- جداً.

- طيب، اصنع لي قراباً للخنجر، سأجلبه لك، عندي خنجر تركي جيد جداً، ولكن كنت أريد أن أصنع له قراباً آخر.

وقع ذلك على شيللر وقوع الصاعقة. تغضن جبينه فجأة، وفكر مع نفسه: «أخذني من حيث لا أدري!» وشم نفسه سراً على تورطه بنفسه في هذا العمل. ولكنه اعتبر الرفض غير لائق، لا سيما وأن الضابط الروسي امتدح عمله. هز رأسه قليلاً، وأبدى قبوله. ولكن القبلية التي طبعها بيروغوف على شفتي الشقراء الجميلة بطريقة وقحة، أوقعته في حيرة تامة.

لا أرى من نافلة القول تعريف القارئ على شيللر تعريفاً أوثق. كان شيللر ألمانياً قحاً. بكل معنى هذه الكلمة. منذ أن كان في العشرين من العمر، منذ تلك السن السعيدة التي يتيه فيها الروسي خلي البال، نظم شيللر كل حياته، ولم يخرج عن هذا النظام قط. عزم على أن يستيقظ في الساعة السابعة، ويتناول غدائه في الثانية، وأن يكون دقيقاً في كل شيء، ويسكر كل يوم أحد. لقد ألزم نفسه على أن يجمع خلال عشرة أعوام رأسماً من خمسين ألف روبل، وكان ذلك قراراً طبيعياً لا مردّ له كالقدر، لأن تهاون الموظف في الاهتمام برئيسه أقرب من أن يتخلى الألماني عن كلمته. لم يكن يزيد مصروفاته في أي ظرف كان، وإذا ارتفع سعر البطاطس أكثر من

المعتاد بمقدار كبير، لم يكن يضيف كوبيكاً واحداً، ولكنه كان يقلل من كمية البطاطس فقط، وعلى الرغم من أنه كان يظل جائعاً بعض الشيء، إلا أنه كان يتعود ذلك. وقد وصلت دقته إلى حد أنه قرر أن لا يقبل زوجته أكثر من مرتين في اليوم، ولكي يجنب نفسه قلة زيادة، كان لا يضع في حسائه أكثر من ملعقة من الفلفل؛ غير أنه كان في أيام الآحاد لا يتمسك في هذه القاعدة بصرامة شديدة، لأن شيللر كان يشرب في ذلك اليوم زجاجتين من البيرة، وزجاجة من الفودكا المطعمة بالأعشاب التي كان يشتمها دائماً. وكان في شربه يختلف تماماً عن الإنجليزي الذي يغلق عليه الباب بالمزلاج بعد الغداء مباشرة، ويسكر وحده. كان على العكس من ذلك، فهو، باعتباره ألمانياً، كان يشرب دائماً بأريحية إما مع الإسكاف هوفمان وإما مع النجار كونتس الألماني أيضاً، والسكرير الضليع. ذلك هو خلق شيللر النبيل الذي وجد نفسه أخيراً في ورطة كبيرة. وعلى الرغم من أنه كان بارد المزاج وألمانياً، إلا أن تصرفات بيروغوف أثارت فيه ما يشبه الغيرة. أتعب ذهنه، ولم يستطع أن يهتدي إلى طريقة يتخلص بها من هذا الضابط الروسي. وخلال ذلك، كان بيروغوف، وهو يدخن غليونه وسط رفاقه لأن العناية الإلهية شاءت أن توجد الغلايين حيث يوجد الضباط يلمح بدلالة وابتسامة لطيفة عن علاقته الغرامية مع ألمانية مليحة رفع الكلفة معها كلياً، على حد تعبيره، بينما كان، في واقع الأمر، يكاد يفقد الأمل في جذبها إليه.

وذات يوم، بينما كان يتمشى في شارع ميشانسكايا ينظر إلى البيت الذي كانت تردهي عليه لافتة شيللر بأباريق القهوة والسماورات، رأى، وسط فرحه الشديد، رأس الشقراء يطل من النافذة، ويتطلع إلى السابلة. توقف، وأومأ لها بيده، وقال: «غوت مورغين!» فانحنى له الشقراء كأحد المعارف.

- هل زوجك في البيت؟

أجاب الشقراء:

- نعم.

- ومتى يغيب عن البيت عادة؟

- في أيام الأحاد يغيب عن البيت عادة.

قالت الشقراء البلهاء، ففكر بيروغوف مع نفسه: «هذا لا بأس به، ويجب استغلاله».

وفي يوم الأحد التالي هبط على الشقراء هبوط الثلج على الرأس. وكان شيللر متغيباً عن البيت بالفعل. فزعت ربة البيت الجميلة. ولكن بيروغوف تصرف في هذه المرة بحذر كافٍ، وتعامل باحترام شديد، ولدى انحنائه أبدى كل جمال قوامه اللدن الممشوق المحزم عند الخصر. ومزح مزاحاً لطيفاً جداً ومهذباً، إلا أن الألمانية البلهاء كانت ترد على كل شيء بكلمة من مقطع واحد. وأخيراً، وبعد أن جرب كل شيء، ووجد أن لا شيء يستهويها، عرض عليها أن يرقصا. وافقت الألمانية على الفور، لأن الألمانيات يهوين الرقص دائماً. وكان بيروغوف ينيء/له على ذلك إلى درجة كبيرة جداً. فإن ذلك، أولاً، يوفر لها متعة، وثانياً، يمكن أن يظهر قوامه وخفته، وثالثاً في الرقص يكون على أقرب مسافة ممكنة منها، يحتضن الألمانية الجميلة، ويضع الأساس لكل شيء. وباختصار كان يؤدي كل ذلك إلى نجاح وفي أكمل وجه. بدأ رقصة فرنسية قديمة عارفاً أن الألمانية تحتاج إلى تدرج. طلعت الألمانية الجميلة إلى منتصف الحجرة، ورفعت ساقاً رائعة. وقد أعجب بيروغوف بهذا الوضع حتى إنه اندفع يقبلها. بدأت الشقراء في الصراخ وزادت بذلك فتنتها وسحرها في رأي بيروغوف فأغدق عليها التقبيل. وإذا بالباب يُفتح،

ويدخل شيللر وهوفمان والنجار كونتس. وجميع هؤلاء الحرفيين
المعتبرين كانوا سكارى، بالشكل الذي يسكر به الإسكافيون عادة.
ولكنني أترك للفقراء أنفسهم أن يتصوروا مدى غيظ شيللر
وحنقه.

- جلف! صاح بحنق بالغ كيف تجسر على تقبيل زوجتي؟ أنت
نذل، ولست ضابطاً روسياً، اللعنة، يا صديقي هوفمان، أنا ألماني،
ولست خنزيراً روسياً.
وافقه هوفمان على ذلك.

- آوه، أنا لا أريد أن تطلع لي قرون! أمسكه، يا صديقي هوفمان،
من ياقته، أنا لا أريد مضى يقول مشمراً ذراعيه بقوة، بينما كان وجهه
أحمر بلون قماشة صدره أعيش في بطرسبورغ منذ ثمانية أعوام،
وعندي في شفايبا أم، وعمي في نيورنبورغ وأنا ألماني، ولست ثوراً
مقرناً! جرده من ثيابه، يا صديقي هوفمان، أمسكه من يده ورجله،
يا رفيقي كونتس!

وأمسك الألمان بيروغوف من يديه ورجليه.

جاهد بيروغوف ليخلص نفسه ولكن هيهات. كان هؤلاء
الحرفيون الثلاثة أقوى الألمان في بطرسبورغ جميعاً، وقد تصرفوا
معه بخشونة وفضاظة حتى إنني، بصراحة، لا أجد الكلمات لتصوير
هذه الحادثة المأساوية.

وأنا واثق من أن شيللر كان في اليوم التالي مصاباً بحمى شديدة،
وأنه كان يرتجف كالورقة، متوقفاً من لحظة إلى أخرى وصول
الشرطة، والله يعلم كم كان سيدفع ليكون كل ما حدث مجرد حلم
رآه في نومه. ولكن ما وقع يستحيل الرجوع عنه. ولا شيء يمكن
أن يقارن بغيظ بيروغوف واستيائه. كان مجرد التفكير بهذه الإهانة

الفضيلة يسفر الحق في نفسه. كان يعتبر النفسي إلى سيبريا، والجلد أصغر عقوبتين في حق شيلر. انطلق إلى بيته، ليغير ملابسه، ويذهب من هناك إلى الجنرال مباشرة، ويصف له بأكثر الألوان تعبيراً عريضة الحرفيين الألمان. وكان يريد أن يقدم في الوقت ذاته طلباً خطياً إلى الأركان العامة. وإذا ما أصدرت الأركان العامة عقوبة غير كافية، فإنه سيلجأ إلى مجلس الدولة رأساً، وإلا فإلى القيصر نفسه.

ولكن كل ذلك انتهى بنهاية غريبة. ففي طريقه إلى البيت دخل محل حلويات، وأكل قطعتين من الفطائر المطبوقة، وقرأ شيئاً من صحيفة «سيفرنايا بتشيلا»، وخرج وقد خفت شدة غيظه. ثم أن المساء الطري واللطيف إلى حد كاف، جعله يتمشى قليلاً في شارع نيفسكي، وفي نحو الساعة التاسعة كان قد هدأ، ورأى من غير اللائق أن يزعم الجنرال في يوم أحد، ومن المؤكد أيضاً أنه قد استدعى إلى جهة ما، ولهذا توجه ليقضي أمسيته عند أحد مدراء مصلحة التدقيق والإحصاء، حيث كان يوجد جمع لطيف جداً من الموظفين والضباط. وقد قضى أمسيته هناك باستمتاع، وبرز في رقصة المازوركا حتى إنه لم يكف بخلب الباب السيدات فقط، بل والفرسان أيضاً.

«دنيانا عجيبة! كنت أفكر في ذلك وأنا أتمشى في شارع نيفسكي يوم أمس الأول، وأسترجع في ذهني هذين الحادثين وما أغرب لعب القدر بنا، هذا اللعب غير المفهوم! فهل ستحصل في يوم ما على ما نصبو إليه؟ وهل سنبلغ ما يبدو وكان قوانا قد أعدت له خصيصاً؟ كل شيء يحدث بالعكس. من حباه القدر بجياد رائعة، ينطلق عليها غير مكترث، وغير فاطن إلى جمالها قط بينما الذي يلهب قلبه حب الجياد يسير على قدميه، ويكفي بالتمطق بلسانه، حين يمر به جواد عداء. من يعطى طاهياً ماهراً، يكون فمه صغيراً، يا حسرة، لا يستطيع

أن يمرر به أكثر من لقمتيه بينما الذي له فم كبير بحجم قوس الأركان العامة مضطر، وأسفاه، إلى أن يقتصر على غداء زهيد من البطاطس. آه، ما أغرب لعب القدر بنا!!»

ولكن أغرب الحوادث كلها، هي التي تحصل في شارع نيفسكي، أوه، لا تصدقوا بشارع نيفسكي! دائماً حين أسير فيه، أحكم شذ معطفي على جسدي وأحاول أن لا أنظر أبداً إلى الأشياء التي أصادفها. كل شيء خداع، كل شيء وهم، كل شيء ليس بالشكل الذي يبدو فيه. هل تتصورون أن ذلك السيد الذي ينتزه في سترة حسنة التفصيل غني جداً؟ لا، قطعاً. كل قيمته في سترته. هل تتصورون أن ذينك السديين البدينين اللذين توقفاً أمام كنيسة في طور البناء يتناقشان في معمارها؟ لا، أبداً. بل يتحدثان عن الطريقة الغريبة التي خط بها غرابان أحدهما مقابل الآخر. هل تظنون أن هذا المتحمس الذي يشمر بذراعيه يحكي كيف أن زوجته ألفت شيئاً من النافذة لتثير انتباه ضابط غريب عليه تماماً؟ لا، قطعاً، إنه يتكلم عن لافايت^(١). وتظنون أن هذه السيدات... ولكن صدقوا بالسيدات أقل من أي شخص آخر. وقللوا من النظر في واجهات المخازن، فالخردوات المعروضة فيها رائعة، إلا أنها تنذر بكمية رهبة من أوراق النقد. ولكن الله يحفظكم من النظر في وجوه السيدات تحت القلنسوات! أنا لن يثير فضولي أبداً رفيف معطف حسناء من بعيد، ولن ألحقها! ابتعدوا، ابتعدوا عن مصباح الشارع، بحق الرب، واجتازوه أسرع ما في استطاعتكم. فسيحالفكم الحظ، إن نجوتم منه بتلطيح ستراتكم الأنيقة بزيت العفن فقط. ولكن الخداع

(١) لافايت شخصية سياسية فرنسية من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. المترجم.

يلف كل شيء، لا المصباح وحده. إنه شارع نيفسكي هذا يكذب طوال الوقت، ولكنه يكذب بشكل خاص، حين يكلكل الليل عليه بجنحه الكثيف، ويفصل جدران البيوت البيضاء والفاخرة الصفرة، حين تتحول المدينة كلها إلى هدير ولمعان، وتسرح آلاف مؤلفة من العربات من القناطر، ويصبح مساعدو الخوذية، ويتواثبون على الخيول الأمامية، وحين يوقد الجنئي نفسه المصاييح لا شيء، إلا ليجعل كل شيء يبدو في غير صورته الحقيقية.

الصورة

القسم الاول

لم يتوقف خَلْق في أي مكان بتلك الكثرة التي توقف بها أمام دكان الصور في سوق تشوكين. كان هذا الدكان يجمع بالفعل أكثر الغرائب تنوعاً: لوحات رُسِمَ معظمها بالألوان الزيتية، مطلية بدهان داكن الخضرة، في أطر مزوّقة قائمة الصفرة، موضوعاتها الاعتيادية شتاء بأشجار بيض، وشفق أحمر كلياً، مثل وهج حريق، وريفي فلاندي بغليونه وذراعه المخلوعة، لا يشبه إنساناً بقدر ما يشبه ديكاً رومياً مزرقش الريش. وإلى هذا يجب أن نضيف بعض صور الكرافيك: صورة الأمير الفارسي خسرو مرزا يعتمر قبعة من فرو الغنم، وصور جنرالات في قبعات ثلاثية، وأنوف معكوفة. وبالإضافة إلى ذلك عادة ما تعلق على أبواب مثل هذه الدكاكين ربطات من الرسوم المطبوعة على أوراق كبيرة والمذهلة بمآثور الأقوال، شاهدة على أصالة الموهبة لدى الروسي. على أحد هذه الأوراق صورة ابنة القيصر ميليكتريسا كيريينفنا بطلة الحكاية الشعبية، وعلى أخرى مدينة القدس، وقد ساح اللون الأحمر على دورها وكنائسها بلا كلفة، وسرح على جزء من الأرض، وعلى اثنين من الريفيين الروس يصليان في قفافيزهما. ومشترو هذه الرسوم غير كثيرين في العادة، ولكن المتفرجين، على العكس من ذلك، كثار، بينهم خادم مقصر، يطيل الوقوف أمامها، وفي يده محمل آنية لغداء سيده جاء به من الحانة، وليس من شك في

أن هذا السيد سيأكل حساءه فاتراً. وأمامه، على الأرجح، جندي في معطف، هو أليف سوق الأشياء المستعملة، يبيع مطواتين. وبائعة من منطقة نائية، تحمل علبة مملوءة بالأحذية. وكل واحد منهم يبدي إعجابه على طريقته الخاصة. القرويون عادة يشيرون بسباباتهم، والجنود يتفحصون بجديّة، والخدم الصبيان، وغلمان الحرفيين يتضاحكون، ويؤكد بعضهم بعضاً بالصور الكاريكاتورية. وعجائز الخدم في معاطفهم القطنية السمكة ينظرون لمجرد أن يتلکأوا في مكان ما. أما البائعات، العاميات الروسيات الشابات فيهرعن بفطرتهن ليسمعن ما يقول الناس، وينظرن إلى ما ينظرون إليه.

في ذلك الوقت صادف أن كل الرسام الشاب تشارتكوف ماراً بذلك الدكان فوجد نفسه يتوقف أمامه لا إرادياً. كان معطفه القديم وملبسه غير المتأنق يشيران إلى أنه رجل متفان في عمله بنكران ذات، مشغول عن الاهتمام بهندامه، يملك دائماً تلك الجاذبية الخفية الخاصة بسن الشباب. توقف أمام الدكان، وفي اللحظة الأولى ضحك في سره من تلك اللوحات المشوهة. ولكنه أخيراً مملكه استغراق لا إرادي. فقد أخذ يفكر: ترى من أولئك الذين يمكن أن تستهويهم هذه الأعمال. لم يبد له غريباً أن يتطلع الروس إلى «يورسلان لازاريفيتش» و«الشرة والشريب» وإلى «فوما ويريوما». فإن هذه الموضوعات المرسومة كانت ميسورة جداً ومفهومة من قبل العامة. ولكن أين الذين يشترون هذه اللوحات الزيتية المبرقشة القذرة؟ من بحاجة إلى هؤلاء الريفيين الفلامنديين، إلى هذه المناظر الطبيعية الحمراء والزرقاء التي تدّعي علو قدم في الفن، بينما هي تنحط به انحطاطاً شديداً؟ والظاهر أنها لم تكن حتى أعمال طفل يتعلم الرسم بنفسه. وإلا لانبثق منها دفق عفوي حاد، على الرغم من كل كاريكاتوريته المجردة من المشاعر، بكليتها. ولكن الرائي

لم يكن يرى فيها غير كلل الذهن، والسطحية العاجزة السقيمة التي جعلت نفسها في مصاف الفنون اعتباراً، بينما المكان اللائق بها أن تكون بين الحرف الدنيا، السطحية، والتي كانت، على كل حال، وفية إلى مهمتها، فأدخلت حرفيتها في الفن ذاته. ومما يدل على ذلك الأصباغ، والطريقة، والبد المجربة المتعددة، التي يمكن أن تنسب إلى آلة غير متقنة الصنع، أكثر مما تنسب إلى إنسان... وقف الرسام طويلاً أمام هذه اللوحات القنطرة، حتى لم يعد يفكر فيها أخيراً، وفي غضون ذلك كان صاحب الدكان، وهو رجل حقير المظهر في معطف قطني سميك ويرى لم يحلق وجهه منذ يوم الأحد، يحادثه منذ وقت طويل، ويفريه في الشراء، ويساومه على الثمن، حتى دون أن يعرف ماذا أعجبه، وماذا يبتغيه.

- أستطيع أن أعطي صورة هؤلاء الريفين، ولوحة المنظر الطبيعي لقاء عشرين روبلاً رسم ممتاز! لا تشبع العين من النظر إليه. تسلمتها من البورصة قبل لحظات، لم يجف الطلاء منها بعد، أو منظر الشتاء هذا. خذها! بخمسة عشر روبلاً الإطار وحده يساوي مبلغاً محترماً. انظر أي شتاء هذا! وفي تلك اللحظة نقر البائع قماشة اللوحة نفرة خفيفة، ليظهر جودة الشتاء، على الأرجح. هل تأمر أن أربطها سوية، وأرسلها وراءك؟ أين تسكن، لو سمحت؟ هاي، يا غلام، هات حبلاً.

- انتظر، يا أخ، لا تستعجل قال الرسام وقد أفاق على نفسه، ورأى البائع الحرك يأخذ يربطها عن جدد. شعر بشيء من الخجل من عدم شرائه شيئاً، بعد وقفته الطويلة هذه في الدكان، فقال:

- انتظر، لعلني سأرى شيئاً في هذا المكان يصلح لي، وانحنى، وأخذ يرفع من الأرض الرسومات الرخيصة القديمة المقشرة الأصباغ، المغبرة، المكومة، التي لم تحظ بتقدير أحد، كما يبدو. كانت هناك صور

عائلية قديمة، ربما لم يعد وجود على الأرض حتى لأحفادها، وصور مجهولة تماماً، قماشاتها ممزقة، وأطر مذهبة مقشّرة. وباختصار، كل ما هو سقط متاع. ولكن الرسام أخذ ينظر فيها مفكراً في سرّه: «لعلي أجد شيئاً ما...» وكان قد سمع غير مرة حكايات عن لوحات فنانين عظام عُثر عليها أحياناً بين ركام بائعي الصور الرخيصة.

شاهد صاحب الدكان توغل الرسام، فكفّ عن لفظه وعاد إلى وضعه الطبيعي، ملتزماً بجانب الوقار، ووقف من جديد عند الباب، داعياً المارة، ومشيراً لهم إلى الدكان بيد واحدة: «تفضل، يا محترم، عندي لوحات! ادخلن ادخلن. جاءت من البورصة توأ». وبعد أن شبع من الصياح، ومعظم الوقت بدون جدوى، وتحدث بما فيه الكفاية مع بائع الخردوات، الذي كان واقفاً أيضاً قبالة عند باب دكانه، وتذكر أخيراً بأن في دكانه مشترياً، أدار ظهره إلى الناس، ودخل الدكان. «هل اخترت شيئاً، يا حضرة؟» ولكن الرسام كان منذ بعض الوقت واقفاً بلا حراك أمام صورة في إطار كبير كان بديعاً في زمانه، ولكن آثار القشرة الذهبية لا تكاد الآن تلمع عليه.

كانت هذه الصورة لشيخ ذي وجه برونزي اللون، ناتئ الوجنتين، عليل المظهر. وقد التقطت قسمات الوجه في لحظة حركة متشنجة، فهي لا توحى بقوة الشمال، وكانت الظهيرة اللاهبة مطبوعة عليها. كان يرفل في ملابس آسيوية فضفاضة. وعلى الرغم مما في الصورة من تلف، واغترار، إلا أن الرسام، حين استطاع أن يزيح الغبار عن الوجه، رأى لمسات عمل فنان رفيع، وتبين أن الصورة لم تكن كاملة، ولكن قوة الريشة كانت مذهلة. وكانت العينان أعجب ما في الصورة. فقد بدا وكأن رسامها صبّ فيهما كل قوة ريشته، وكل جهده الدائب. كانت العينان تحدقان بحياة، تحدقان حتى من الصورة نفسها، وكأنما بحيويتهم الدافقة الغريبة تكملان نسق

الصورة. وحين قرَّب الصورة من الباب، صارت العينان ترنوان بقوة أشد، وهذا الموقع نفسه تركته الصورة في الناس أيضاً، فقد صاحت المرأة التي كانت واقفة وراءه: «يحدق، يحدق»، وتراجعت إلى الوراء. وكان الرسام يشعر بإحساس مقلق غير مفهوم حتى لنفسه، فوضع الصورة على الأرض.

قال صاحب الدكان: يعني تشتريها!

قال الرسام: بكم؟

- ولماذا أبالغ في ثمنها؟ خذها بخمسة وسبعين كوبيكاً.

- لا.

- طيب، كم تدفع؟

- عشرين كوبيكاً.

قال الرسام، وهمّ بالانصراف.

- ما أبخس الثمن! الإطار وحده يساوي أكثر من عشرين. يبدو أنك لا تنوي أن تشتريها؟ سيد، سيد، ارجع! على الأقل لو أضفت عشرة كوبيكات أخرى، خذها، خذها، وهات عشرين كوبيكاً. حقاً، لأستفتح البيع، لا غير، فأنت أول مشترٍ.

وبعدها شمر ذراعه، وكأنما يقول: «وليكن ما يكون. وعلى الصورة العفاء!..»

وعلى هذا النحو اشترى تشارتكوف صورة قديمة بطريقة غير متوقعة تماماً، وفي الوقت نفسه كان يفكر: «وعلام اشتريتها؟ وما حاجتي إليها؟» ولكن الأمر وقع ولا مفر منه. أخرج عشرين كوبيكاً من جيبه، وأعطاهما لصاحب الدكان، ووضع الصورة تحت إبطه، وحملها معه. وفي الطريق تذكر أن العشرين كوبيكاً التي أعطاهما للبائع هي آخر ما لديه من نقود. وادلهمت أفكاره فجأة. وفي الحال

غمرة كدر وخواء زاهد. وقال بشعور الروسي حين تضيق عليه أموره: «الشيطان! تف على الدنيا!» وسار بخطوات سريعة وبحركة آلية تقريباً، يملؤه النفور من كل شيء. كان لون الشفق الأحمر ما يزال يغمر نصف السماء، وضوؤه الدافئ ما يزال ينير قليلاً البيوت المواجهة لذلك الجانب. بينما كانت زرقة الهلال الباردة تشتد. وكانت البيوت وأقدام السابلة تلقي على الأرض كالذيول ظلالاً خفيفة شبه شفافة. وكان الرسام قد أخذ يرمق شيئاً فشيئاً السماء المنيرة بنور رهيف شفاف موهم، وفي ذات الوقت تقريباً كانت هذه الكلمات تند من بين شفثيه: «أية مسحة خفيفة!» وهذه الكلمات: «مؤسف، يا للشيطان!»، وحث خطاه، وهو يعدّل الصورة التي كانت دائماً تسرح من تحت إبطه.

وصل إلى بيته متعباً مسريلاً بالعرق. وكان بيته في الصف الخامس عشر في جزيرة فاسيليفسكي. صعد الدرج بصعوبة وبوقفات، وكان الدرج مبلولاً بمياه الغسيل، مزيناً بفضلات القطط والكلاب. لم يرد أحد على طرقة الباب. كان الخادم متغيباً عن البيت. اتكأ على النافذة، وهياً نفسه للانتظار بصبر، حتى ترددت وراءه أخيراً خطوات شاب في قميص أزرق، هو مساعده، وموديله والرجل الذي يمزج له الأصباغ ويكنس أرضية غرفه، ويقعها في اللحظة نفسها بآثار حذائه الطويل. كان هذا الشاب يدعى نيكيتا، يقضي طوال وقته خارج البوابة، حين يكون السيد غائباً. جاهد نيكيتا طويلاً ليدخل المفتاح في ثقب الباب، المحجوب بالظلام، وأخيراً فُتح الباب. ودخل تشارتكوف في رواق شقته البارد إلى حد لا يحتمل، كما هو دائماً في بيوت الرسامين، وهو شيء لا يلحظونه، بالمناسبة، لم يعط تشارتكوف معطفه لنيكيتا، ودخل به مرسمه، وهو حجرة مربعة كبيرة، ولكنها واطئة السقف، متجمدة النوافذ، يتناثر

فيها كل ما لدى الرسام من متاع: قطع أذرع جبسية، إطارات شدت عليها قماشة الرسم، وتخطيطات أولية مهمة، وأغطية تناثرت على الكراسي. كان شديد التعب، فلقى عنه معطفه، ووضع الصورة بشروود ذهن بين جنفاصتين غير كبيرتين، وارتمى على أريكة ضيقة لا يمكن أن يقال عنها إنها مغلفة بالجلد، لأن صف المسامير الصغيرة النحاسية التي كانت تثبت الجلد قد تحرر منه منذ زمان، كما أن الجلد تحرر منها أيضاً، وبقي يغطي الأريكة من فوق حتى أن نيكيتا كان يحشر تحته الجوارب السوداء، والقمصان، وكل الثياب الداخلية غير المغسولة، جلس قليلاً، واستلقى بقدر ما كانت هذه الأريكة الضيقة تسمح بالاستلقاء، وأخيراً طلب شمعة. فقال نيكيتا:

- لا توجد شمعة.

- كيف لا توجد شمعة؟

فقال نيكيتا:

- حتى يوم أمس لم تكن.

وتذكر الرسام أن البيت بالفعل كان بلا شمعة يوم أمس، فهذا باله، وسكت. وجعل خادمه يخلع له ثيابه، ولبس روبه الذي طال عليه الاستعمال وتهرأ.

قال نيكيتا:

- والشيء الثاني صاحب البيت جاء.

- أها، جاء على الفلوس؟ اعرف.

قال الرسام. بعد أن هز ذراعه. فقال نيكيتا.

- ولكن لم يأت وحده.

- مع من جاء؟

- لا أعرف، مع من... مع شرطي.

- والشرطي لأي غرض؟

- لا أعرف لأي غرض. يقول لأن إيجار الشقة لم يدفع.

- طيب، وماذا يترتب على ذلك؟

- لا أعرف ماذا يترتب. كان يقول إذا كان لا يريد أن يدفع،

فليخرج من الشقة، إذاً، يريدان أن يأتيا غداً كليهما.

- فليأتيا.

قال تشارتكوف بعدم اكتراث شجي. واستولى عليه مزاج عكر.

كان تشارتكوف الشاب رساماً موهوباً يعد بالكثير. كانت ريسته

بتوهجاتها ولمساتها الخاطفة تشي بدقة الملاحظة، وتوقد الذهن،

والاندفاع الجارف للاقتراب أكثر من الطبيعة. وقد قال له أستاذه غير

مرة: «حذار، يا أخ، إن لك موهبة، ومن الخطيئة أن تقتلها. ولكنك

قليل الصبر. ما إن يغريك شيء، أو يعجبك شيء حتى تنغمس فيه.

وما عداه تفاهة بالنسبة لك، ما عداه لا يساوي لديك شيئاً، بل ولا

تريد النظر إليه. احذر حتى لا تطلع رساماً على الموضة. الألوان

عندك منذ الآن تأخذ بالإعلان عن نفسها بشدة بالغة. والتخطيط

غير دقيق، بل وأحياناً ضعيف للغاية. والخط لا يرى. أنت تركض

وراء الإنارة على الموضة، وراء ما يبهر البصر من أول نظرة. حذار،

فستسقط بهذه الطريقة في النمط الإنجليزي. احترس. بدأت الدنيا

تغريك. أحياناً أرى على رقبتك لفاحاً أنيقاً، وقبعة على الموضة...

شيء مغر، ومن الممكن الانجراف في رسم اللوحات على الموضة،

صور لقاء نقود. ولكن ذلك يقتل الموهبة ولا يطورها. اصبر، ترو في

كل عمل، واترك الأناقة. دع الآخرين يجمعون الفلوس. وستظفر بما

هو لك في آخر المطاف».

وكان الأستاذ مصيباً بعض الشيء. فإن رسامنا كان أحياناً يحب

بالفعل أن يلهو، ويتأنق، وباختصار أن يظهر شبابه في مكان ما. ولكن مع هذا كله كان يستطيع السيطرة على نفسه. وأحياناً كان يستطيع أن ينسى كل شيء، منغمراً بريشته، متمسكاً بها متمسك النائم بحلم جميل. وكان ذوقه يتطور بشكل ملحوظ. وعلى الرغم من أنه لم يكن يفهم بعد كل ما في روائيل من عمق، إلا أن ريشة غفيدو السريعة العريضة كانت تستهويه، وكان يتوقف أمام صور تيتسيان، ويعجب بالرسامين الفلامنديين. ومع أنه لم يلحق بعد أن يدرك سر اللوحات القديمة بسطحها المسود، إلا أنه استطاع أن يتلمس شيئاً فيها، ولو أنه في دخيلة نفسه لم يكن يوافق مع الأستاذ على أن المبدعين القدامى قد سبقونا بمراحل لا نصل إليها، بل كان يبدو له أن القرن التاسع عشر تفوق عليهم كثيراً بشيء ما، وأن محاكاة الطبيعة أضحت الآن أسطع، وأحفل بالحياة، وأكثر قرباً. فهو، باختصار، كان يفكر من هذه الناحية، كما يفكر شاب حقق شيئاً ما، وكان يشعر بذلك في داخل واعيته الفخور. وكان أحياناً يحس بالكدر، حين كان يرى رساماً وافداً، فرنسياً كان أو ألمانياً، بل وأحياناً ليس رساماً بملكته، بل بالطريقة التي ألفها، وعرامة ريشته وصراخ الألوان، يثير ضجة عامة، ويجمع لنفسه رأسماً من النقود في لمحة عين. وكان هذا لا يخطر في باله، حين يكون منغمراً بعمله، فقد كان عند ذاك، ينسى الأكل والشرب والعالم أجمع، ولكنه كان يخطر، حين لا يكون له ما يشتري به فرشاً وأصباغاً، وحين كان صاحب البيت الملحاح يتردد عليه عشر مرات في اليوم يطالبه بإيجاز الشقة. حينذاك كانت تراوده حتى الفكرة التي كثيراً ما تراود ذهن الروسي: أن يهمل كل شيء، وينغمس في الخمرة نكاية بكل شيء. والآن كان يواجه هذه الحالة أو ما يقاربها.

نبس في ضيق:

- نعم! اصبر، اصبر! فإن للصبر نهاية، في آخر الأمر. اصبر! وبأي فلوس سأكل غدا؟ لا أحد يقبل أن يقرضني. وإذا حملت كل لوحاتي ورسومي، فلن أنقاضي عنها جميعاً غير عشرين كوبيكاً. إنها مفيدة، بالطبع، وأنا أشعر بذلك، فكل واحدة لم ترسم عبثاً، فقد تعلمت شيئاً منها، ولكن أية فوائد؟ رسوم تخطيطية، محاولات هي مجرد رسوم تخطيطية ومحاولات لا نهاية لها. ثم من يشتريها، إذا لم يكن اسمي معروفاً لديه؟ ومن بحاجة إلى رسوم تنقل مائيل القدامى أو موديلات عصرية أو لوحتي «حب بسيشه» التي لم أتمها بعد، أو حجرتي، أو صورة خادمي نيكيتا، ولو أنها في الحقيقة، أحسن من صور أي رسام محدث؟ ما هذا في الواقع؟ لم أتعذب، وانكب على الأبجدية كالتمليذ بينما في إمكاني أن ألعب لمعاً لا يقل عن لمعان الآخرين، وأكون مثلهم ذا مال.

وبعد أن نطق الرسام بذلك، أخ يرتعش فجأة، ويشحب فقد رأى وجهاً مشوهاً متشنجاً ينظر إليه من وراء قماشة مثبتة، وتنفذ عيناه الرهيبتان فيه، وكأنهما تستعدان لالتهامه. وعلى الشفتين وعيد آخر بالسكوت. ارتعب الرسام، وهم بأن يصرخ ويدعو نيكيتا الذي لحق أن يطلق شخير المارد في الرواق. ولكنه توقف فجأة، وضحك. وزايله الشعور بالرعب بطرفة عين، حين عرف أنها الصورة التي اشتراها، ونسيها تماماً. وكان نور القمر الساطع الذي أضاء الغرفة قد سقط عليها، ومدّها بحيوية غريبة. أخذ يدقق فيها النظر، ومسحها. وضع إسفنجة في الماء، ومررها عليها عدة مرات، وأزال عنها كل أو معظم ما لصق بها من غبار ووساخة، وعلقها على الحائط أمامه، وزاد إعجابه بهذا العمل الخارق. كأنها الحياة سرت في الوجه أو كادت، وراحت العينان تحدقان فيه بشكل جعلت الرعدة تسري فيه أخيراً، فراجع، وقال بصوت ذاهل: «يحدقن يحدق بعيني إنسان!» وتذكر

فجأة حكاية كان قد سمعها من أستاذه منذ زمن بعيد، عن صورة ليوناردو دافينشي الشهير، ظل هذا المعلم العظيم يعمل عليها عدة سنوات، ومع ذلك كان يعتبرها غير مكتملة، ولكنها، على حد قول فازاري، كان الجميع يعتبرونها أكمل وأنهم عمل فني. كانت أتم ما فيها العينان اللتان كانتا تذهلان المعاصرين، وحتى العروق الضئيلة التي لا تسكاد تبين فيهما لم تهمل ورسمت بالكامل. ولكن في هذه الصورة التي كانت أمامه الآن شيئاً غريباً. إن هذا لم يكن فناً، بل تحطيماً حتى لنسق الصورة. هاتان عينان حيتان، عينان إنسانيتان! كان يبدو وكأنهما قلعتا من وجه إنسان حي، ووضعنا في الصورة. لم تكن هناك تلك المتعة الرفيعة التي تغمر النفس عند النظر إلى عمل رسام، مهما كان رهيباً الموضوع الذي يرسمه. كان ثمة إحساس ممرض منهك. ووجد الرسام يسائل نفسه لا إرادياً: «ما هذا؟ هذا، على أية حال، منقول من موديل، حي. فمن أي شيء يتولد هذا الإحساس الغريب المزعج؟ أم أن المحاكاة العبودية الحرفية للأصل قد تحولت إلى جرم، وصارت كصرخة حادة ناشزة؟ أم أنك حين تتناول موضوعاً بيرودة بلا إحساس، وبدون أن تتعاطف معه، لا يخرج من بين يديك إلا على حقيقته الواقعية المريعة، دون أن يستنار بنور الفكرة العصبية الكامنة في كل شيء، يخرج على حقيقته التي لا تتكشف إلا حين تتسلح، وأنت تريد التوصل إلى الإنسان الرائع، بموضع المشرح، وتشق جوفه، فترى فيه إنساناً منفراً؟ لماذا يظهر الموضوع البسيط الوضع لدى رسام يشع بضوء ما بمظهر لا يخلف لديك انطباعاً وضيعاً، بل على العكس تحس وكأنك تتلذذ، وكل شيء حولك يسير بعد ذلك ويتحرك على نحو أهدأ وأكثر انبساطاً. ولم يبدو هذا الموضوع نفسه لدى رسام آخر حقيراً قذراً، بينما كان هذا الرسام أميناً عليه؟ ولكن ليس فيه ما ينور. فتماماً كالمنظر الطبيعي، فإنه مهما يكن رائعاً فسيظل ينقصه شيء إذا كانت السماء بلا شمس».

ودنا من الصورة مرة أخرى، ليمعن النظر في تينك العينين العجيبتين، ولاحظ مرتعباً بأنهما تحدثان فيه بالفعل. لم تكن منقولة عن طبيعة حية، بل كانت تلك الحياة الغريبة التي تنعكس في وجه ميت لو قام من قبره. وفجأة شعر بالرهبة من البقاء وحده في الحجرة، لسبب مجهول، لعله ضوء القمر الذي يحمل معه هوس الحلم، ويغلف كل شيء في صور أخرى تخالف حقيقتها في النهار أو ربما هو شيء آخر. ابتعد عن الصورة بهدوء، وأدار وجهه إلى ناحية أخرى، وحاول تحاشي النظر إلى الصورة، بينما كانت عينه تحول من تلقاء نفسها، وبدون إرادته، لتلقي نظرة عليها. وأخيراً صار يربعه حتى التمشي في الغرفة، وصار يتوهم أن شخصاً آخر سيسير وراءه بين لحظة وأخرى، فكان في كل مرة يتلفت إلى السوراء بتهيب، لم يكن جباناً قط، ولكن خياله وأعصابه كانت مشحونة، وفي ذلك المساء لم يستطع هو نفسه أن يفسر خوفه إلا إرادتي. جلس في ركن، ولكن حتى هنا، خيل إليه أن شخصاً سيحدث في وجهه بين لحظة وأخرى، من وراء كتفه. وحتى شخير نيكيتا الصادر من الرواق لم يطرد هذا الخوف. وأخيراً نهض من مكانه متهيئاً غير رافع بصره، واتجه إلى مضجعه وراء الحاجز، واستلقى على الفراش. ومن خلال شق الحاجز رأى حجرته المضاء بضوء القمر، ورأى قدامه الصورة المعلقة على الحائط. كانت العينان تنغزان فيه أكثر رهبة وأقوى تعبيراً، وخيل إليه أنهما تنقصدانه تقصداً، ولا تنظران إلى شيء آخر. وتجراً على مغادرة الفراش مفعماً بإحساس ثقيل، واختطف ملاءة واقترب من الصورة، ولفها بها.

وبعد أن فعل ذلك استلقى على الفراش أهدأ بالاً، وراح يفكر في فقر وبؤس نصيب الرسام، وفي الطريق الشائك المائل أمامه في هذه الدنيا، وخلال ذلك كانت عيناه تنظران لا إرادياً، من خلال

شق الحاجز، إلى الصورة الملفوفة بالملاءة. كان ألق القمر يزيد من بياض الملاءة، فكان يتصور أن العينين الرهيبتين صارتا تشفان حتى من خلال الملاءة. وتقرّس بذعر في الصورة أكثر، وكأنما يريد أن يتأكد من أن ذلك مجرد وهم. ولكنه في آخر الأمر، في الواقع الآن... يرى، يرى بوضوح أن الملاءة انزاحت والصورة مكشوفة بكليتها، تحديق فيه مماماً دون أن تنظر إلى كل ما حوله، تحديق لتنفيذ إلى دخيلته. وتحمّد قلبه. ويرى العجوز يتململ، ويستند فجأة على الإطار بكلتا يديه. وأخيراً يرفع جسده على يديه، ويدفع كلتا قدميه ويقفز من الإطار... ومن خلال شق الحاجز لم تعد العين ترى غير الإطار الفارغ. وتردد وقع أقدام في الحجر، صار أخيراً يقترب من الحاجز أكثر فأكثر. وصار قلب الرسام المسكين يخفق أشد فأشد. وراح يتربّس الأنفاس رعباً أن يطل العجوز عليه من وراء الحاجز. وقد أطل، بالفعل، من وراء الحاجز بنفس ذلك الوجه البرونزي مقلّباً عينيه الوسيعتين. جاهد تشار تكوف أن يصرخ ولكنه أحس بأن صوته قد فارقه، وجاهد أن يتململ، أن يقوم بحركة، ولكن أطرافه لا تتحرك، فنظر فاغر الفم مكتوم الأنفاس إلى هذا الشبح الرهيب ذي القامة الطويلة في جلباب آسيوي فضفاض، وانتظر ما سيفعله. جلس العجوز قرب قدميه تقريباً، وبعد ذلك أخرج شيئاً من تحت طية جلبابه العريض. فإذا به كيس. فكّه العجوز، وأمسكه من طرفيه، ونفضه. فتساقطت على الأرض بصوت مكتوم صرر ثقيلة على شكل لفائف طويلة، كل واحدة لُفّت بورقة زرقاء، وعلى كل واحدة طبع: «١٠٠٠ روبل ذهبي». أخرج العجوز يديه العظمتين الطويلتين من ردينه العريضين، وأخذ يفك الصرر. ولمع الذهب. وعلى الرغم من كل ما كان الرسام يستشعره من إحساس مرهق كبير، ورعب شديد فقد بحلق بكل بصره في الذهب، يراقبه بلا حراك يتكشف في اليدين

العظمتين متلائناً، يرن رنيناً ناعماً وعميقاً، ويعود ينغلق. وفي تلك اللحظة لمح صرة تدحرجت أبعد من الأخريات، عند قائمة سريره، عند موضع رأسه. التقطها بما يشبه التشنج، ونظر والرعب يملؤه لعل العجوز قد لحظه. ولكن العجوز بدا مشغولاً جداً. جمع كل صرره، ووضعها في الكيس ثانية، سار إلى ما وراء الحاجز دون أن ينظر إليه. خفق قلب تشار تكوف بشدة، حين راح يسمع في الحجرة خفق خطوات تبتعد. عصر صرته في يده بقوة أشد، مرتعشاً بكل جسده خائفاً عليها، وفجأة سمع الخطوات تقترب ثانية من الحاجز. والظاهر أن العجوز تذكر أن صرة من صرره ناقصة. وها هو ينظر إليه مرة أخرى من وراء الحاجز. استحوذ الجزع على الرسام، فأطبق يده على الصرة بكل قوته، واستجمع كل جهده ليقوم بحركة، وصرخ، واستيقظ من نومه.

كان العرق البارد ينضح من كل جسمه، وكان قلبه يخفق بأشد ما يمكن من الخفقان، وكان صدره مختنقاً وكان آخر نفس يوشك أن يغادره. قال وقد أمسك رأسه بكليتي يديه: «أيعقل أن ذلك كان حلماً؟» ولكن وضوح الرؤية الرهيب لم يكن يشبه الحلم. فقد رأى، وقد استيقظ، كيف دخل العجوز إطاره، بل حركة ذيل جليابه العريض، وكانت يده تحس بوضوح أنها كانت قبل لحظة من ذلك، تحمل شيئاً ثقيلاً. كان ضوء القمر ينير الغرفة، ملتقطاً من الزوايا المظلمة جنفاصة هنا، وبدأ جبسية هناك، والغطاء المنثور على كرسي في مكان ثالث، والبنطلون والحذاء الطويل غير الممسوح في مكان رابع. وفي تلك اللحظة فقط فطن إلى أنه ليس في سريره، بل يقف على قدميه أمام الصورة تماماً. ولم يستطع قطأن يفهم كيف وصل إلى هناك. والذي أدهشه أكثر أن الصورة كانت مكشوفة كلية، والملاءة لم تكن عليها بالفعل. نظر إلى الصورة برعب متجمد، ورأى عيني

إنسانيتين حيتين تنفذان فيه. تصبب عرق بارد على وجهه، وأراد أن يتعد.. ولكنه شعر وكأن قدميه قد انغرستا في الأرض. ويرى أن ذلك ليس حلماً، فإن ملامح العجوز تحركت، وشفته صارتا تمطيان نحوه، وكأنما تريدان امتصاصه... فقفز متراجعاً إلى الورا بصيحة استماتة، واستيقظ.

«أيعقل أن ذلك كان حلماً أيضاً؟» وتلمس فيما حوله بيديه، وقلبه يكاد يتقطع في صدره من الوجيب. نعم، كان يرقد في الوضع الذي اتخذته قبل أن يستغرق في النوم. وأمامه الحاجز، وضوء القمر يملأ الغرفة. وكانت الصورة تلوح من خلال الشق في الحاجز، مغطاة بالملاءة، حسب الأصول، وكما غطاها هو نفسه. إذأ، فقد كان ذلك حلماً أيضاً! ولكن البد المضمومة تستشعر حتى الآن، وكان فيها شيئاً. كان خفقان قلبه شديداً، يكاد يثير الرعب. والثقل في الصدر لا يحتمل. سمر عينيه في الشق، ونظر متفرساً في الملاءة. وإذا به يرى بوضوح الملاءة تأخذ بالانفتاح، وكان يدين تتحركان بسرعة تحتها، وتحاولان إزاحتها. صاح بيأس راسماً علامة الصليب: «يا إلهي، يا ربي، ما هذا!» واستيقظ.

وكان ذلك حلماً أيضاً! وثب من السرير، كالمنخبول، ذاهل اللب، ولم يعد يقدر أن يفسر ما يجري له: أهو ثقل كابوس أو جني، أو هذيان حمى، أو رؤية حية. حاول أن يهدئ من روعه قليلاً، ومن الدم الفوار الذي كان ينبض بشدة في كل عروقه، فتقدم من النافذة، وفتح كوة التهوية. أنعشته هبة النسيم البارد، ونور القمر ما زال ممدداً على السطوخ وجدران البيوت البيضاء، على الرغم من أن غيوماً صغيرة صارت تطوف في السماء أكثر من ذي قبل. كان الصمت يلف كل شيء: ومن حين لآخر يلتقط سمعه كركبة بعيدة لعربة حوذي كان ينام في زقاق لا يراه، يهدده حصانه الهزيل

الخامل، وهو يترقب ركباً متأخراً. ظل ينظر طويلاً مطلاً برأسه من الكوة. كانت بشائر الفجر الداني تظهر في السماء، وأخيراً شعر بدنو النعاس، فأغلق الكوة، وغادر النافذة، واستلقى على السرير، وسرعان ما غط بنوم عميق كالحجر.

استيقظ في ساعة متأخرة جداً، وأحس بحالة ضيق كذلك التي تملك إنساناً بعد اختناق. وكان صدا ع مزعج يطوق رأسه. وكان ضوء الغرفة شاحباً، ورطوبة ثقيلة تشيع في الهواء، وتنفذ من خلال شقوق نوافذه، المسدودة باللوحات أو الجنفاص المفروش بالطلاء الأولي، جلس على أريكته الممزقة القماشية، جهماً متضيقاً، مثل ديك ملبل، لا يعرف علام يقدم، وماذا يفعل، وتذكر أخيراً كل حلمه. وكان هذا الحلم، بقدر ما يتذكره، يتمثل في مخيلته حياً بشكل مرهق، حتى إنه راح يتشكك في أن يكون حلماً أو مجرد هلوس، أو لعله شيء آخر، أو لعله رؤيا. أزاح الملاءة، وراح يتفحص الصورة المرعبة في ضوء النهار الآن. كانت العيان بالفعل تبهرانه بما فيهما من حيوية غير اعتيادية، ولكنه لم يجد فيهما ما يرب، سوى أن شعوراً مبهماً غير مريح كان يساور نفسه. ومع كل هذا لم يستطع أن يقتنع تماماً بأن ذلك كان حلماً. كان يبدو له وكأن شريحة رهيبية من الواقع كانت تخالط هذا الحلم. كان يبدو وكأن ثمة شيئاً في نظرة العجوز نفسها وتعابير وجهه تنطق بأنه كان في غرفته تلك الليلة، وكانت يده تشعر بالثقل الذي كان يرقد فيها منذ حين، والذي انتزع منه قبل لحظة من استيقاظه. وحُيِّل إليه أنه لو كان قد أمسك بالصرّة بشكل أقوى، لكان من المحتمل أن تبقى في يده بعد تيقظه أيضاً.

«يا إلهي، ولو جزء من تلك النقود!»... قال وتنفس نفساً ثقيلاً، وطفق خياله يتصوّر ما رآه من كل تلك الصرر ذات الرقم المغربي «١٠٠٠ روبل ذهبي» تتساقط من الكيس. ظلت الصرر

تفتتح، والذهب يلمع، ثم تغلق من جديد. وظل هو جالساً مثبتاً عينيه بجمود وهبل في الهواء الخاوي. وهو غير قادر على صرفهما عن ذلك الشيء، كالطفل الجالس أمام صحن من الحلوى، يلمع ريقه، وهو يرى الآخرين يأكلون. وأخيراً صدر طرق على الباب، جعله يصحو بشكل مزعج. ودخل صاحب البيت مع شرطي الحي الذي كان ظهوره بالنسبة للناس الصغار، كما هو معروف، أكثر إزعاجاً من ظهور مسترحم، بالنسبة للأغنياء. كان صاحب البيت الصغير الذي يسكن فيه تشارتكوف أحد المخلوقات التي هي عادة مالكة بيوت في الخط الخامس عشر من جزيرة فاسيلفسكي في حي بطرسبورغسكي أو في حي كولومنا النائي، مخلوقاً من تلك المخلوقات التي تحفل بهاروسيا، والتي يصعب تحديد طباعها، كما يصعب تحديد لون سترة خلق. كان في شبابه برتبة رائد وكان مشاكساً، كما تقلّب في مناصب مدنية، وكان ماهراً في الجلد، كما كان شديد الحركة، محباً للأناقة، ولبليداً، ولكنه في شيخوخته خلط في نفسه كل هذه الصفات الحادة في شيء كامن غير قابل على التحديد. وقد ترمّل، وتقاعد وصار في حالة لا يمكن أن يتأنق فيها، ولا يتباهى، ولا يشاكس، فاقصر على حبه لشرب الشاي، وإطلاق لسانه بالثرثرة أثناء ذلك، وكان يذرع الغرفة، ويعدّل ذوب الشموع، وكان دقيقاً في زيارة كل مستأجر من مستأجريه في آخر كل شهر ليستوفي الإيجار، ويخرج إلى الشارع والمفتاح في يده ليلقي نظرة على سطح بيته، ويخرج إلى الشارع والمفتاح في يده ليلقي نظرة على سطح بيته، ويخرج بوابه من حُته عدة مرات حين يراه منزوياً هناك نائماً. وباختصار كان رجلاً متقاعداً لم تبق له غير عاداته الرذيلة بعد حياة حافلة باللهو، والتنقل في العربات العمومية.

- تفضل، وانظر بنفسك، يا باروخ كوزميتش قال صاحب البيت مخاطباً شرطي الحي باسماً ذراعيه: لا يدفع إيجار الشقة، لا يدفع.

- وماذا أفعل إذا ليست لدي نقود؟ انتظر قليلاً، وسأدفع.

- لا يمكن أن أنتظر، يا عزيزي قال صاحب البيت مفتاحاً، ملوحاً بالمفتاح الذي كان في يده ، عندي بوتوغونكين، المقدم، يسكن في بيتي منذ سبع سنوات، وأنا بيتروفنا بوخميستروفا، تستأجر السقيفة ومعلمين في الإسطنبول ولديها ثلاثة خدم. هؤلاء هم نزلائي. وأقول لك بصراحة لست متعوداً على أن لا يدفع المستأجر إيجار شقته. تفضل، ادفع النقود الآن، وانتقل إلى حيث تشاء.

- نعم، ادفع إذا كنتم قد تعاقدتم على ذلك.

قال شرطي الحلي، بهزة صغيرة من رأسه، ووضع إصبعه تحت زر سترته الرسمية.

- بأي شيء أدفع؟ لا أدري. أنا لا أملك الآن فلساً واحداً.

قال الشرطي:

- في هذه الحال قايبض إيفان إيفانوفيتش بمصنوعات حرفتك. فقد يوافق على قبول لوحات.

- لا، يا عزيزي، أعوذ بالله من اللوحات. لا بأس لو كانت لوحات عن موضوعات نبيلة، بحيث أستطيع أن أعلقها على الجدار، على الأقل لو كانت هناك صورة جنرال بنيشان، أو صورة الأمير كوتوزوف. ولكن ها أنت تراه قد رسم ريفياً، في قميص فلاحى، هو خادمه الذي يحضر له الألوان. وهذا الخنزير، الذي لا يستأهل منى غير ضربة على القفا يرسم له صورة. إن هذا النصاب اقتلع كل المسامير من مزاليج بيتي. هاك، انظر، أية موضوعات هي، يرسم حجراته. لا بأس لو أنه رسمها نظيفة مرتبة، ولكن انظر كيف رسمها بكل قاذوراتها وسقط متاعها.

انظر كيف وسخ لي الغرفة، عاين بنفسك. بينما كل نزيل من

نزلائي يسكن سبع سنوات، ضباط برتب عالية، بوخميستروفا آنا بيتروفنا... لا، أنا على يقين: لا يوجد مستاجر أسوأ من الرسام. الخنزير يظل خنزيراً. اللهم سلم.

وكان على الرسام المسكين أن يسمع كل هذا بصبر. وفي غضون ذلك كان شرطي الحمي منشغلاً في معاينة اللوحات والتخطيطات، وأظهر في الحال أنه أرق نفساً من صاحب البيت، بل ولا يفتقر إلى أحاسيس فنية.

- خه قال، وقد أشار بإصبعه إلى لوحة تصوير امرأة عارية الموضوع، يعني... طائش. أما هذا الرجل فما هذا الأسود تحت أنفه؟ نثار تبغ؟

- ظل أجاب تشارتكوف عن ذلك بحدّة، ولم يلتفت إليه بنظرة. قال الشرطي:

- طيب، حبذا لو ينتقل إلى مكان آخر. ولكن ما تحت الأنف حيز ظاهر جداً. وهذه الصورة لمن؟ مضى يقول متقدماً من صورة العجوز نحيف، أكثر من اللازم. كما لو كان هذا الرجل المخيف موجوداً في الواقع. يا للعجب! أية تحديقة له! آه، يا بائع نفسه للشيطان! عن أي شخص رسمته؟

- عن شخص.... قال تشارتكوف، وقبل أن يتم جملته، صدرت قرقة. كان شرطي الحمي، كما يبدو، قد ضغط بقوة شديدة جداً على إطار الصورة، وبفعل التكوين الخشن ليديه، يدي شرطي، انكسرت اللوحتان الصغيرتان الجانبيتان فوقعتا إلى الداخل وسقطت إحداهما على الأرض، ومعها سقطت صرة ملفوفة في ورقة زرقاء، في صريف ثقيل. وجذب بصر تشارتكوف رقم «١٠٠٠ روبل ذهبي» فاندفع كالمجنون لالتقاطها، واختطف الصرة، وعصرها بتشنج في يده التي ارتخت إلى الأسفل من ثقل الصرة.

يبدو أن نقوداً رنت قال شرطي الحفي، وقد سمع رنين شيء سقط على الأرض، ولم يلحق أن يعرفه بسبب حركة تشارتكوف السريعة حين اندفع للتقاطه.

- وما شأنك في أن تعرف ما عندي؟

- شأني أن تدفع الآن إيجار الشقة لصاحب البيت من كل بد. عندك نقود، ولكنك لا تريد أن تدفع. هذا هو الأمر.

- طيب، سأدفع له اليوم.

- طيب، ولماذا لم ترد أن تدفع من قبل، وتسبب العناء لصاحب البيت، والإزعاج للشرطة أيضاً؟

- لأنني لم أرد أن أتصرف بهذه الفلوس، سأدفع له الحساب كله اليوم مساءً، وأنتقل من الشقة غداً، لأنني لا أريد البقاء في بيت صاحب ملك مثله.

قال شرطي الحفي مخاطباً صاحب البيت:

- طيب، يا إيفان إيفانوفيتش. سيدفع لك، أما إذا لم يدفع حسب الأصول مساء اليوم، عندئذ لا مؤاخذه، يا حضرة الرسام.

وبعد أن قال ذلك لبس قميصه الثلاثية، وخرج إلى الرواق، وتبعه صاحب البيت مطأطأ الرأس، وفي هيئة تأمل وتفكير، كما يبدو.

- حمداً لله على أن الشيطان أخذهما! قال تشارتكوف حين سمع الباب يغلق في الرواق. نظر في الرواق، وأرسل نيكيتهما لحاجة ماء، ليخلو إلى نفسه، وأغلق عليه الباب. وعاد إلى حجرته، وأخذ يحل الصرة وقلبه يرتجف بشدة. فرأى فيها قطعاً نقدية ذهبية جديدة كلها متوقدة كالنار. جلس على كومة الذهب، كالمجنون، وهو لا يفناً يسأل نفسه: أعلّ كل ذلك حلم؟ الصرة تحتوي على ألف روبل ذهبي بالضبط وكان مظهرها كمظهر تلك الصرة التي رآها في الحلم.

ظل بقلبها لبضع دقائق ويتفحصها، وهو ما يزال غير مسيطر على نفسه. وانبعثت في خياله فجأة كل الحكايات عن الكنوز بصناديقها المخفية التي كان الأجداد يخلفونها لأحفادهم المعوزين في ثقة قوية بأن هؤلاء سيذرون أموالهم في المستقبل. وراح يفكر بهذا الشكل: «أفلا يمكن أن يكون أحد الأجداد، في هذه الحالة أيضاً، قد فكر في أن يترك لحفيده هدية، فأخفاها في إطار هذه الصورة العائلية». وأخذ الهوس الرومانسي ففكر حتى في إمكان أن تكون للأمر صلة خفية بما كان القدر يخبي له، وأن يكون لوجود الصورة صلة بوجوده هو، وأن شراء لها بحد ذاته يمكن أن يكون قسمة كُتبت له؟ وأخذ يتفحص إطار الصورة بفضول. في أحد جانبيها تقعر صغير شد بلوح بشكل ماهر لا يُلاحظ، ولو لم تحدث يد الشرطي الثقيلة كسراً فيه لبقيت النقود بأمان إلى أبد الدهر. وعاد يتعجب، أثناء تفحصه للصورة، بهذا العمل الرفيع، وبرسم العينين الغد. لم تعد العينان ترعبان الآن، ومع ذلك فقد كان في كل مرة ينظر إليهما، يشعر بنفس ذلك الشعور المنفر اللاإرادي. قال لنفسه: «لا يهمني جد من أنت، سأضعك وراء الزجاج في كل الأحوال، وأصنع لك إطاراً ذهبياً». وعند ذاك ألقي يده على كومة الذهب أمامه، ووجب قلبه وجيئاً شديداً من هذه الملامسة. وفكر، وهو يحرق بالقطع الذهبية: «ما أفعل بها؟ أنا الآن موفور الحال، على الأقل لثلاثة أعوام أستطيع أن أختلي في حجرتي وأعمل. عندي الآن ما اشتري به الأصباغ، والغذاء، والشاي، وعندي الآن ما أنفقه على المعيشة، وإيجار الشقة. الآن لن يعيقني أحد أو يضايقني سأشتري لنفسي ما يكاناً ممتازاً من جبس وأصيص سيقاناً، وأنصب فينوس، وأشتري كرافيك عن أحسن اللوحات. وإذا ما عملت ثلاثة أعوام لنفسي دون استعجال، استطعت أن أصير رساماً مجيداً».

وعلى هذا النحو كان يتكلم في سره كما يوحى له عقله، ولكن صوتاً آخر كان يتردد في داخله أكثر سماعاً، وأبعد صدًى. ولكن حين نظر مرة أخرى إلى الذهب لم يكن ذلك ما حدثته به سنة الاثنان والعشرون وشبابه اللاهب. لقد كان في سلطانه الآن كل ما كان يرمقه من قبل بعينين حاسدتين، وكل ما يتشهاه من بعيد، بالعلال عابه. آه، كم خفق فؤاده، ما إن راح يفكر في ذلك! أن يلبس بدلة فراك عصرية، ويفكر بعد صوم طويل، ويستأجر له شقة ممتازة، ويتردد في الحال على المسرح، على مقهى حلويات. وعلى غير ذلك. فاختطف النقود، وخرج إلى الشارع.

وأول ما فعله أن عرج على خياط، وكسى نفسه من رأسه إلى قدميه، وكالطفل راح يتملئ نفسه بلا انقطاع. واشترى عطوراً، وطيبواً، واستأجر، أول شقة ممتازة عثر عليها في شارع نيفسكي ذات مرابا، وزجاج نوافذها قطعة واحدة، واشترى نظارة يدوية غالية وقعت في يده على الرغم من أنه لم يكن في نيته أن يشتريها وبنفس الطريقة أيضاً اشترى حزمة ضخمة أكثر مما يحتاج إليه من أربطة العنق. وجعد شعره عند حلاق، واكترى عربة مرتين يجوب المدينة، دون أي داع، وأكل ما لا حساب له من الحلوى في مقهى للحلويات، وذهب إلى مطعم فرنسي كان حتى ذلك الحين يسمع عنه إشاعات غامضة، كما لو عن دولة الصين. وتغدى هناك مرفوع الهامة متخوصراً، ملقياً على الآخرين نظرات فيها الكفاية من الأنفة، مصلحاً أمام المرأة خصلاته المجعدة باستمرار. وشرب هناك زجاج شمبانيا كان أيضاً لا يعرفها، من قبل، إلا بالسماع. وأسكرته الخمرة بعض الشيء وخرج إلى الشارع بادئ الحيوية، خفيف الحركة، لا تسعه الأرض، كما يقول المثل الروسي. سار على الرصيف معتداً، يوجه نظارته اليدوية إلى الجميع. وعلى الجسر لحظ أستاذه السابق،

فتجاوزه بسرعة، وكأنما لم يلحظه إطلاقاً حتى أن هذا الأستاذ انصعق، ووقف على الجسر طويلاً، لا يتحرك، وقد ارتسمت على وجهه علامة الاستفهام.

في ذلك المساء نقلت كل أشيائه وما يملك من حاملات اللوحات وجنفاص ولوحات إلى الشقة الممتازة. وضع أحسن ما لديه في أماكن بارزة، وألقى الأسوأ في ركن، وراح يذرع الغرفة الرائعة، ناظراً في المرايا بلا انقطاع. وانبعثت في نفسه رغبة قاهرة في أن يقتنص المجد من ذيله على الفور، ويظهر نفسه للعالم. وصار يتخيل التهافتات بالفعل: «تشارتكوف، تشارتكوف! هل رأيتم لوحة تشارتكوف؟ أية فرشاة سريعة لدى تشارتكوف! أية موهبة عظيمة لدى تشارتكوف!»، فكان يذرع غرفته بهجة غامرة، ويسرح مع الخيال. وفي اليوم التالي أخذ عشرة روبلات ذهبية، وقصد ناشر صحيفة واسعة الانتشار، طالباً مساعدة أريحية. استقبله الصحفي ببشاشة، مخاطباً إياه رأساً «بسعادة المحترم» شاداً على كلتا يديه، سائلاً بالتفصيل عن اسمه الكامل ومحل إقامته، وفي اليوم التالي ظهرت في الصحيفة بعد إعلان عن شموع مبتكرة جديدة، مقالة تحت عنوان: «حول مواهب تشارتكوف الفذة» جاء فيها: «نسرع لنزف إلى سكان العاصمة المتنورين تحفة رائعة من كل النواحي إذا صح القول. إن الجميع متفقون على أن لدينا الكثير من السحنات الفائقة الروعة والوجوه الفائقة الوسامة، ولكن لم تكن لدينا حتى الآن الوسيلة إلى نقلها إلى الجنفاص الخلاق لتبقى إرثاً للخلف. ولكن هذه النقيصة قد سُدت الآن تماماً. فقد ظهر الرسام الذي يجمع في نفسه كل ما هو لازم. والآن تستطيع الحسنة أن تكون على ثقة من أنها سترسم بكل ما لجمالها من بهاء، خفيفة، رقيقة، ساحرة، رائعة، كالفراشات المرفرفة بين زهور الربيع. وسيرى رب الأسرة المبجل

نفسه محاطاً بأفراد أسرته. والتاجر والعسكري والمواطن، ورجل الدولة وكل إنسان سيمضي في مضماره باندفاع جديدة، فأسرعوا، أسرعوا، وزوروا الرسام غِبْ نزهتكم، زيارتكم لصديق، لابنة عم، لمتجر فخم. أسرعوا إليه، حيثما كنتم. فإن مرسم الرسام الرائع (شارن نيفسكي رقم كذا) يضم الصور التي أبدعتها ريشته اللائقة بريشة فان ديك وتيتسيان وأمثالهما. إن المرء ليحارب بيم يدهش: بالأمانة والشبه بالأصول، أم بيهاء الريشة الفريد ونضارتها. طوبى لك، أيها الرسام! لقد وقعت يدك على الورقة الرابعة في اليانصيب. فيفا، يا أندريه بتروفيتش (الظاهر أن الصحفي كان يحب رفع الكلفة)! اشتهر وأشهرنا معك. فنحن نعرف قيمتك. وسيكون مكافأة لك إقبال الجمهور ومعه المال الذي سيعترض عليه بعض إخواننا الصحفيين».

قرأ الرسام هذا الإعلان برضى خفي. وتألق وجهه، صاروا يتحدثون عنه في الصحافة. وهذا خبر سار له. أعاد قراءة السطور عدة مرات. وأشبعت غروره كثيراً مقارنته بفان ديك وتيتسيان. كما أن عبارة «فيفا، يا أندريه بتروفيتش!» أعجبتة كثيراً أيضاً. يخاطبونه باسمه الكامل في الصحافة، وهو شرف لم يعرفه من قبل قط. أخذ يذرع الغرفة بسرعة، وينفش شعره. كان يجلس على المقاعد تارة، ويثب منها تارة أخرى، ليقعد على الأريكة، متصوراً باستمرار كيف سيستقبل الزائرين والزائرات، ويقترّب من جنفاصة، ويرفع فرشاته بحركة سريعة، محاولاً أن يطوّع يده لحركات رشيقة. وفي اليوم التالي دق الجرس على بابه، فهرع ليفتحه. دخلت سيدة يتقدمها خادم في معطف خاص بالخدم مبطن بالفراء. ودخلت مع السيدة فتاة شابة في الثامنة عشرة، هي ابنتها، قالت السيدة:

- هل أنت مسيو تشارتكواف؟

انحنى الرسام محيياً.

- كم يكتبون عنك في الصحف. يقولون أن صورتك تفوق الكمال
قالت السيدة ذلك، ووضعت نظارتها اليدوية على عينيها، وأجالت
بصرها بسرعة في الجدران التي لم يعلق عليها شيء ولكن أين صورتك؟
قال الرسام بشيء من الارتباك:

- ينقلونها. منذ حين فقط انتقلت أنا إلى هذه الشقة. واللوحات
ما تزال الآن في الطريق.. لم تصل بعد.

- هل كنت في إيطاليا؟ قالت السيدة موجهة نظارتها اليدوية إليه،
وهي لم تجد شيئاً آخر يمكن أن توجهها إليه.

- لا، لم أكن، ولكن أردت... على العموم، أجلت ذلك الآن...
ها هنا مقاعد، هل تعبت؟...

- شكراً، جلست طويلاً في المركبة. ها أنا أخيراً أرى عملك!
قالت السيدة، وقد هرعت إلى الجدار المقابل، ووجهت نظارتها
اليدوية إلى تخطيطاته، ورسومه الأولية، ومناظره ولوحاته المكونة
على الأرض. C'est charmant! Lise, Lise, venez ici.^(١)
الغرف رُسمت على أسلوب تينر. انظري: بلا ترتيب، طاولة عليها
تمثال نصفي، يد، لوحة ألوان، وهذا غبار انظري كيف رُسم الغبار!
C'est charmant. وفي لوحة أخرى امرأة تغسل وجهها. Quelle
jolie figure!^(٢) آه، ريفاوي!^(٣) Lise, Lise ريفاوي روسي في
قميص! انظري أي ريفاوي! يعني أنت لا ترسم صور الأشخاص
فقط؟

- أوه، هذا لا شيء... مجرد عبث.... تخطيطات.

(١) هذا فائق. ليزا، ليزا، تعالي هنا. (بالفرنسية في الأصل).

(٢) أي قوام جميل! (بالفرنسية في الأصل).

(٣) صيغة تحب وتصغير من «ريفى». المترجم.

- قل لي ما هو رأيك في رسامي الصور اليوم؟ أليس صحيحاً لا يوجد الآن مثل تيتسيان؟ لا توجد تلك القوة في التلوين، لا توجد تلك... خسارة إنني لا أستطيع أن أعبر لك بالروسية (كانت السيدة محبة للرسم، وقد طافت بنظارتها اليدوية على كل معارض الصور في إيطاليا). على كل حال، مسيو نول... آه، ما أبدع رسومه! أية ريشة فريدة له! حتى إنني أجد في وجوهه تعابير أقوى مما لدى تيتسيان. هل تعرف مسيو نول؟

فسأل الرسام:

- مَنْ هو نول هذا؟

- مسيو نول، آه، أية موهبة! رسم لها صورة، حين كانت في بداية سنها الثالثة عشرة، عليك أن تزورنا من كل بد، ليزا، أريه ألبومك. الحقيقة أننا جئنا لتشرع برسم صورتها فوراً.

- بالطبع، أنا مستعد في هذه الدقيقة.

وفي لحظة خاطفة قرب حامل لوحات عليه جنفاصة مفروشة مهياة للرسم، أمسك لوحة الألوان في يده، وتفرس بعينه في وجه الابنة الشاحب، ولو كان عارفاً بالطبيعة الإنسانية لقرأ فيه على الفور بداية الولع الصبوي بحفلات الرقص، بداية الوحشة والتشكي من طول الوقت حتى موعد الغداء، وبعد الغداء، والرغبة في الركض أثناء النزهة في الفستان الجديد، والعلامم المرهقة لما تفرضه الأم على ابنتها من اجتهاد عقيم في الفنون المختلفة بغية السمو في روحها ومشاعرها. ولكن الرسام لم ير في هذا الوجه الصغير الناعم غير ما يغري الفرشاة من شفافية في الجسد كشفافية الخزف الصيني، والاسترخاء الخفيف الجذاب، والجيد الأهيف الناصع، ورشاقة القوام الأرستقراطية. وتهيأ مسبقاً في إظهار تفوقه وخفة وألق فرشاته التي لم تكن حتى ذلك الحين ترسم إلا الملامح القاسية للموديلات الغليظة،

والتماثيل القديمة الصارمة، ونسخاً عن أعمال الكلاسيكيين، وكان يتصور في ذهنه كيف سيطلع من بين يديه هذا الوجه الصغير الرقيق.

قالت السيدة وبشيء من التأثر أيضاً ظهر على وجهها:

- كنت أود... هل تدري... هي الآن في ثوب... بصراحة، ما كنت أريد أن تكون في هذا الثوب الذي تعودنا عليه كثيراً، كنت أود أن ترسم، وهي في ثياب بسيطة، وأن تكون جالسة في ظل خضرة، في منظر حقل يلوح فيه من بعيد قطع أو دغل... بحيث لا يفتن الرائي إلى أنها ذاهبة إلى حفلة راقصة أم إلى أمسية عصرية. حفلاتنا الراقصة، بصراحة، تقتل الروح، وتفتك ببقايا المشاعر.... ببساطة، أريد المزيد من البساطة.

أواه! كان وجهها الأم والابنة كلاهما ينطقان بأن الاثنتين أدمتا على الرقص في الحفلات الراقصة حتى صارت كلتاهما شمعيتين أو ما أشبه.

تهياً تشارتكوف للعمل، وأجلس النموذج، ومثل كل ذلك في ذهنه قليلاً، وأدار الفرشاة في الهواء، متصوراً النقاط ذهنياً، وقلص إحدى عينييه بعض الشيء، وتراجع إلى الوراء، ونظر /ن بعيد، وفي ساعة واحدة بدأ وفرغ من التخطيط. ورضي به، فأخذ يرسم، وشده العمل. فنسي كل الشيء، نسي حتى كونه في حضرة سيدتين أرستقراطيتين، بل وأخذ ييدي أحياناً بعض الحركات التي يديها الرسامون، ومتم بأصوات مختلفة مسموعة، مترنماً أحياناً، كما يحدث لرسام منغم في عمله بكل كيانه. بحركة واحدة من فرشاته، وبدون أية كلفة، أجبر النموذج على أن ترفع رأسها، وقد أخذت في آخر الأمر تحمل بشدة، وتعبر عن تعبها الشديد.

قالت السيدة:

- يكفي، هذا يكفي للمرة الأولى.

فقال الرسام النشوان:

- دقائق أخرى.

- لا، حان الوقت! Lise الساعة الثالثة! قالت السيدة، وهي

تخرج ساعة صغيرة معلقة بسلسلة ذهبية في نطاقها، وصاحت:

- آه، تأخرنا كثيراً!!

- لحظة فقط قال تشارتكوف بصوت طفل ساذج متضرع. ولكن

السيدة لم تكن تبدو مستعدة في هذه المرة لتلبية حاجاته الفنية،

ووعدت بدلاً من ذلك أن تمكث مدة أطول في مرة أخرى.

وفكر تشارتكوف مع نفسه: «هذا مزعج، على كل حال. بعد

أن بدأت يدي لثوها بالاستجابة لي». وتذكر أن أحداً من موديلاته لم

يقاطعه أو يوقفه، حين كان يعمل في مرسمه في جزيرة فاسيلفسكي.

كان نيكيثا يجلس في مكان واحد لا يرم، ويتركه يرسم قدر ما

يشتهي. بل كان يغفو وهو في الوضع الذي أمر أن يكون فيه. وضع

الرسام فرشاته ولوحة ألوانه على الكرسي غير مرتاح، وتوقف

متكدياً أمام الجناصاة، والإطراء الذي قالته السيدة الراقية أيقظه

من انسراحه. اندفع مسرعاً نحو الباب ليرافقهما، وعلى الدرج تلقى

دعوة للزيارة، والمجيء في الأسبوع القادم للغداء، فعاد إلى غرفته

بإيدي المرح. لقد سحرته السيدة الأرستقراطية تماماً. كان، حتى هذا

الحين، ينظر إلى مثلها من المخلوقات ككائنات منيعة لم تخلق إلا لتنقل

على مركبات فاخرة، بصحبة خدام في بزات الخدم، وحوذية أئقي

اللباس، لتلقي نظرة عليه وهو يمشي في معطفه البائس. وإذا بواحدة

من هذه المخلوقات تدخل عليه غرفته، وهاهو يرسم صورة، ويدعى

إلى غداء في بيت أرستقراطي. استولى عليه ارتياح غير اعتيادي. كان

نشوان مماماً، فكافأ نفسه على ذلك بغداء ممتاز، وبحضور عرض مسائي، ومرة أخرى راح يجوب المدينة في عربة، بلا أي داع.

طوال تلك الأيام لم يخطر العمل الاعتيادي على باله قط. فقد كان يتهيأ فقط، وينتظر اللحظة التي يرن فيها جرس الباب. وأخيراً جاءت السيدة الأرستقراطية مع ابنتها الشاحبة. دعاهما للجلوس. وقرب الج�فاصة، بخفة في هذه المرة، متحلاً آداب السلوك الراقية، وأخذ يرسم. وساعده كثيراً النهار المشمس والإضاءة الجيدة. ورأى في نموذج الرقيق المائل أمامه الكثير مما لو التقط ونقل إلى القماش لكان من الممكن أن يعطي للصورة قيمة رفيعة. رأى أن في الإمكان القيام بشيء متفرد، فيما لو نفذ كل شيء بذلك الكمال الذي كان الآن النموذج يتبدى له فيه. بل أن قلبه أخذ يضطرب قليلاً، حين شعر بأنه يعبر عما لم يلحظه الآخرون بعد. واستغرقه العمل كلياً، وانغمر في الفرشاة، وقد نسي ثانية أصل نموذج الأرستقراطي. ورأى، وهو محتبس الأنفاس، أن الملامح الرقيقة وهذا الجسم الشفاف تقريباً لفتاة في السابعة عشرة تستجيب ليد. التقط كل مسحة من لون، والصفرة الخفيفة، والازرقاق الذي لا يكاد يُلحظ تحت العينين، وحين تهيأ لأن يلتقط حتى تلك البثرة الصغيرة فوق الجبين، سمع فجأة صوت الأم فوق رأسه: «آه، لماذا هذا؟ لا حاجة لذلك كانت الأم تقول عندك أيضاً... هنا، في بعض المواضع... كأنما هناك صفرة، وهنا، يقع داكنة مماماً». شرع الرسام يشرح لها أن لهذه البقع الصغيرة والصفرة تأثيرها الجيد، وأنها تشكل تلاوين الوجه اللطيفة والناعمة. ولكنه رُدَّ بأنها لا تشكل أي تلاوين، وليس لها أي تأثير، وأن هذا ما يتوهمه لا غير. قال الرسام بطيبة نفس: «ولكن اسمحي لي هنا، في موضع واحد فقط، أن أمرر اللون الأصفر قليلاً». ولكن حتى هذا لم يُسمح به. وأوضح له أن Lise اليوم فقط متعكرة المزاج

قليلاً، وأن الصفرة لا تعترىها أبداً، والوجه يهر الناس بنضارة لونه بشكل خاص. وأخذ الرسام يسوي بحزن ما أجبرته فرشاته على أن يضعه في الصورة. واختفى الكثير من الملامح غير الملحوظة تقريباً، واختفى معه جزء من الشبه بالأصل. وأخذ يعطي لها ذلك التلوين العمومي الذي يُرسم عن ظهر قلب، ويحوّل حتى الوجوه المرسومة من الطبيعة إلى تلك الوجوه الباردة المثالية التي تشاهد في الأرامج الدراسية. ولكن السيدة كانت راضية من أن التلوين الذي كدّرها أزيل تماماً. سوى أنها أبدت دهشتها من أن العمل يستغرق وقتاً طويلاً، وأضافت أنها سمعت مَنْ يزعم بأنه، أي الرسام، يفرغ من رسم الصورة تماماً في جلستين فقط. ولم يستطع الرسام أن يرد على ذلك بشيء. نهضت السيدتان، وتجهّتا للخروج. وضع الرسام الفرشاة، وصحبهما حتى الباب، وبعد ذلك وقف منفصلاً في مكان واحد، أمام الصورة، ولوقت طويل. نظر إليها ببلاهة، وخلال ذلك طافت في ذهنه تلك الملامح الأنثوية الرقيقة، وتلك التلاوين واللمسات الخفيفة، التي التقطها، وقضت عليها فرشات من بعد بلا رحمة.. وغصت نفسه بما التقطه، فنحى الصورة جانباً، وبحث عن رأس «بسيشه» المهجور في مكان ما، والذي كان قد خططه على قماش ذات مرة، منذ زمن بعيد. كان وجهاً رسم ببراعة، ولكنه مثالي تماماً، بارد، ليس فيه غير الملامح العامة، ولم يكتسب الجسد الحي. ولما لم يكن له شيء يفعله الآن أخذ يعالجه، مضافاً عليه كل ما سنع له أن يلحظه من وجه الزائرة الأرستقراطية. واستقرت الملامح والتلاوين والألوان التي كان قد التقطها، بذلك الشكل المصقّى الذي تظهر فيه، حين يكون الرسام وقد تشبع بالنظر إلى النموذج، قد انفصل عنه، لينتج ما يماثله من إبداعه. وأخذت الحياة تنبث في «بسيشه»، وأخذت الفكرة في بدء إطلالتها تتجسد، شيئاً فشيئاً، في

جسد منظور. و طراز وجه الفتاة الأرستقراطية الشابة يتنقل، لا إرادياً إلى «بسيشه»، وبسبب ذلك صارت لها سمة فريدة تعطيها الحق في أن تسمى عملاً أصيلاً حقاً. وبدا وكأنه استثمر كل ما مده به الأصل جزءاً جزءاً وبكليته فانغمس في عمله تماماً. وفي مدى عدة أيام لم يشتغل إلا به. وعندما زارته السيدتان وجدته وراء عمله هذا. حتى لم يلحق أن يرفع اللوحة عن المحمل. أصدرت كلتا السيدتين صيحة اندهاش فرحة، وضربتا كفاً بكف.

- Lise، Lise ! آه، ما أكثر الشبه ! Superbe, superbe^(١).
لطيف أنك جعلتها في ثياب إغريقية، آه، أية مفاجأة!

و لم يعرف الرسام كيف ينتزع السيدتين من ضلالهما الهائلي. قال بهدوء خجلاً منكس الرأس:
- هذه بسيشه.

- على هيئة بسيشه؟ C'est charmant ! قالت الأم مبتسمة، وابتسمت الابنة أيضاً. أليس صحيحاً يا ليزا أن من الأنسب لك أن ترسمي على هيئة بسيشه؟ Quelle idée délicieuse!^(٢) ولكن ياله من عمل! إنه كوردج. بصراحة كنت قد قرأت وسمعت عنك، ولكن لم أكن أعرف أن لك مثل هذه الموهبة. أنا الأخرى يجب أن ترسم لي صورة من كل بد.

والظاهر أن السيدة أيضاً كانت تريد أن تُرسم على هيئة بسيشه. وفكر الرسام مع نفسه: «ماذا عليّ أن أفعل معهما؟ إذا كانتا تريدان ذلك، فلتكن بسيشه ما تريدانه». وقال بصوت مسموع:

(١) رائع، رائع (بالفرنسية في الأصل).
(٢) أية فكرة لذيذة! (بالفرنسية في الأصل).

- تحملي الجلوس دقائق أخرى، لأضع بعض اللمسات.

- آه، أخشى أن تكون.... الصورة الآن تشبهها ممماً.

ولكن الرسام فهم أنهما تتخوفان من الصفرة، فطمئنهما قائلاً إنه لا يريد إلا أن يعطي للعينين المزيد من اللمعان والتعبير. وفي الحق كان خجلاً جداً، ويريد على الأقل أن يعطي للصورة شبهاً أكثر قليلاً بالنموذج، حتى لا يتهمه أحد بانعدام الحياء كلياً. وبالفعل أخذت أخيراً ملامح الفتاة الشاحبة تبرز من محيا بسيشه بوضوح أكثر. - كفاية!

قالت الأم، وقد بدأت تخاف أن يكون الشبه كبيراً بشكل صارخ، في آخر المطاف.

وكوفى الرسام بكل شيء: بابتسامة، ونقود، وثناء، ومصافحة ودية، ودعوة إلى الغداء. وباختصار، حصل على ألف جائزة مغرية. وأثارت الصورة ضجة في المدينة. عرضتها السيدة على صديقاتها، وانبهر الجميع بالمهارة التي استطاع الرسام بها أن يحتفظ بالشبه، ويضفي الجمال على النموذج فضلاً عن ذلك.

والملاحظة الأخيرة لم تُقل، بالطبع، دون مسحة خفيفة من الحسد ظهرت على الوجوه. وفجأة أثقل الرسام بالطلبات. وبدا وكأن أهل المدينة بأسرهم يريدون أن يرسمهم. وكان جرس الباب يدق كل دقيقة. وكان يمكن أن يكون هذا، من ناحية، مفيداً، إذ يوفر للرسام مراناً مستديماً على رسم الوجوه العديدة المختلفة السمات. ولكن، من سوء الحظ، أن أصحاب الطلبات كانوا جميعاً أناساً ممن يصعب إرضائهم، أناساً عجولين، مشغولين، أو من الطبقات الراقية، أي أكثر انشغالاً من أي صنف آخر، ولهذا كانوا لهوفين إلى أقصى حد. وكان الجميع يطالبون بأن تكون الصورة جيدة وسريعة. وأدرك

الرسام أن من المستحيل تماماً أن يوفي العمل حقه، وأن عليه أن يستعيض عن كل شيء بالبراعة وعجالة الفرشاة السريعة وأن يمسك فقط بالسلمات العامة الكلية، والصفة العامة ولا يتعمق بفرشاته في التفاصيل الدقيقة. وبعبارة واحدة كان من المستحيل كلياً تتبع المرسوم بدقائقه. وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن نضيف أن جلّ الذين رسمهم كانت لهم متطلبات أخرى في أشياء متنوعة. فقد كانت السيدات يطالبن بأن تعطى الأولوية في رسم صورهن، للنفسية والطبع، والتفاضلي أحياناً عن بقية الأشياء كلياً، وصقل كل التواءات، وتخفيف جميع العيوب، بل وحتى تخاشيها كلياً إذا كان هذا ممكناً. وباختصار أن يحذب الوجه النظر، إن لم يكن العشق كلياً. وبنتيجة ذلك كن يجلسن ليرسمن، يضيفن على وجوههن أحياناً تعابير كانت تذهل الرسام. فهذه تحاول أن ترسم على وجهها السوداوية، وأخرى الانسراح في الأحلام، والثالثة كانت تريد أن تصغر فمها بكل صورة، فتطبقه حتى كان يتحول أخيراً إلى نقطة ليست أكبر من رأس الدبوس. وعلى الرغم من كل ذلك كن يطالبنه بالشبه وبالغفوية الطبيعية. كما أن الرجال لم يكونوا أقل مطلباً من السيدات أبداً. كان أحدهم يريد أن يرسم في التفاتة رأس قوية طافحة في الحيوية، والآخر بعينين ملهمتين مرفوعتين إلى السماء، وطالب ضابط حرس بأن يطل مارس إله الحرب من عينيه من كل بد. وألح موظف مدني على أن يكون وجهه على أكبر قدر من الاستقامة والنبيل، وأن تكون يده متكئة على كتاب، كتب عليه بحروف واضحة: «كان في صف الحقيقة دائماً».

في البداية كانت هذه المطالب تغرقه بالعرق. فقد كان يجب أن يستوعب كل ذلك ويتروى فيه، وفي الوقت ذاته كانت المدد المحددة لإنهاء الرسم قصيرة جداً. وأخيراً توصل إلى كبد الموضوع،

فلم يجد صعوبة البتة، وكان يفهم من كلمتين أو ثلاث بأي صورة كان صاحب الطلب يريد أن يرسم. فمن أراد أن يكون مارس حشر مارس في وجهه، ومن جاهد ليتشبه ببايرون جعله يقعد في وضع بايرون ولفته، والتي أحببت أن تكون كورينا أو اوندينا أو أسبازيا من السيدات وافق على كل شيء مطواعاً، وأضاف من عنده لكل واحدة ما يشبع النفس من القسامة التي لن تضر، كما هو معروف، وبسببها يُغفر للرسام أحياناً تجاوزه للشبه. وسرعان ما أخذ هو نفسه يندهش من سرعة فرشاته العجيبة وخفتها. وطبيعي أن المرسومين كانوا في غاية الانشراح، حتى صاروا ينعنونهم بالعبقرية.

وصار تشارتكوف رساماً عصرياً من كل النواحي وأخذ يتردد على موائد الغداء ويصطحب السيدات إلى معارض الصور، وحتى للنزهة، ويتأنق، ويؤكد علناً أن الفنان يجب أن ينتمي إلى المجتمع الراقى، ويهتم بمكانته. وأن فنانينا يلبسون، كما يلبس الأساكفة^(١) ولا يحسنون التصرف، ولا يراعون آداب السلوك الرفيعة، وليست لهم أية ثقافة. وفي بيته ومرسمه حافظ على النظافة والنظام في أعلى درجة واتخذ لنفسه خادمين فاخرين، وتلامذة أنيقين، وكان يغير بدلاته عدة مرات في اليوم على مختلف ساعات الصباح، ويجعد شعره، ويتمرن على تحسين الطرائق المختلفة التي يستقبل بها الزوار، ويهتم بتزيين هيئته بكل الوسائل الممكنة ليترك بها أثراً لطيفاً لدى السيدات. وباختصار سرعان ما صار من غير الممكن التعرف في شخصه على ذلك الرسام المتواضع الذي كان يعمل مغموراً في مسكنه البائس في جزيرة فاسيليفسكي. وصار يصرح تصريحات حادة عن الفنانين والفن. فقد كان يؤكد أن مكرسات كثيرة للغاية نسبت إلى

(١) جمع إسكاف: صانع الأحذية. العرب.

الفنانين القدامى، وأنهم جميعاً إلى عهد روفائيل لم يرسموا شخصاً حياً، بل أشكالاً نحيفة منحولة، وأن الفكرة الزاعمة بأن في هذه الأشكال قدسية لا وجود لها إلا في مخيلة المشاهد، وحتى روفائيل نفسه لم تكن كل رسومه جيدة، والكثير من أعماله احتفظت بالشهرة بالأسطورة لا غير، وأن ميكل أنجلو متبجح، لأنه كان يريد إلا أن يتباهى بمعرفته بالتشريح، وأنه لا يملك أية طرافة وأن البهاء الحقيقي، وقوة الريشة والألوان، إذا كانت موجودة فيجب البحث عنها الآن فقط، في عصرنا الراهن. وطبيعي أن يتطرق تلقائياً إلى نفسه. كان يقول:

- أنا لا أفهم عناء الآخرين في الجلوس والانكباب على العمل. إن الرجل الذي ينكب عدة شهور على لوحة ليس فناً في رأيي، بل كادح. لا أصدق بأنه يملك موهبة. العبقريه تبدع باقتدار وسرعة. ها أنذا مثلاً كان يقول مخاطباً الزوار في العادة رسمت هذه الصورة في يومين، وهذا الرأس في يوم واحد، وهذا في بضع ساعات، وهذا في أكثر من ساعة بقليل. أنا... أنا بصراحة لا أعتبر فناً ما ينجز ببطء شديد خطأ في خط. هذا حرفة، وليس فناً.

كان يتحدث إلى زواره بهذا الشكل، وكان الزوار يدهشون باقتدار وسرعة فرشاته، بل وتند منهم آهات الإعجاب، بعد أن يسمعون بالسريعة التي أنتجت فيها صورهم، وفيما بعد كان أحدهم يقول للآخر: «هذه موهبة، موهبة حقيقية! انظروا كيف يتحدث، كيف تآلق عيناه.

Il y a quelque chose d'extraordinaire dans toute sa figure!^(١)

(١) هناك شيء غير اعتيادي في كل مظهره (بالفرنسية في الأصل).

وكان الرسام ينتشي لسماع هذه الشائعات عنه. وحين كانت المجلات تنشر ثناء عليه كان يفرح كالطفل، على الرغم من أنه اشترى هذا الثناء بفلوسه. وكان يوزع هذا المطبوع في كل مكان، ويريه إلى معارفه وأصدقائه، وكأنما لا يتقصد ذلك، وكان هذا يسليه بسذاجة وبساطة نفس تامتين. وارتفع صيته، وكانت الأعمال والطلبات تزداد، حتى صار يضجر من تكرار الصور والوجوه التي صار يرسم أوضاعها ولقناتها بحكم التعود. فكان يرسمها دونما رغبة كبيرة، محاولاً أن يخطط الرأس وحده بطريقة ما، ويعطي تلامذته ليموا الباقي. في الماضي كان، على أية حال، يسعى إلى أن يعطي للنموذج وضعاً جديداً، ويهر بالضلاعة والتأثير. والآن حتى هذا صار مضجراً له. وكان فكره قد تعب من الابتكار والتروي، فصار لا يطيقهما، كما لم يكن له وقت يصرفه على ذلك. والحياة السارحة، والمجتمع الذي كان يحاول أن يقوم بدور الرجل الراقى فيه أبعده كثيراً عن العمل والأفكار. وبردت فرشاته وأصابها الكلال، وتقوقع، دون أن يشعر في أشكال رتيبة محدودة مستهلكة منذ زمان. والوجوه الرتيبة الباردة والمعنى بها أبداً، والمغلقة، كما يمكن أن يقال، للموظفين عسكريين ومدنيين، ضيقت مجال الحرية للفرشاة، فنسيت رسم الثياب الرائعة، والحركات القوية، والصبوات. ناهيك عن الصور الجماعية، والدراما الفنية، وحبكتها الرفيعة. فلم تكن أمامه غير السترات الرسمية، ومشدات الخصر النسوية، وبدلات الفراك التي يشعر الرسام بالبرودة أمامها، ويتلاشى أي خيال. واختفت من أعماله هذه حتى أبسط القيم، ومع ذلك ظلت تغطي بالشهرة، على الرغم من أن العارفين الحقيقيين والرسامين كانوا، إذا نظروا إلى أعماله الأخيرة، اكتفوا بهز أكتافهم. وبعض الذين كانوا يعرفون تشار تكوف من قبل لم يستطيعوا أن يفهموا كيف أمكن أن

تختفي الموهبة التي لاحت مخايلها عليه ساطعة منذ البداية، وحاولوا دون جدوى أن يحدسوا كيف يمكن أن تخدم الملكة في إنسان بلغ لثوه أعلى شاو من تطور قواه كلها.

ولكن الرسام النشوان لم يكن يسمع هذه الأقوال. وكان قد بدأ يصل إلى عهد رصانة العقل والعمر، وصار يسمن، ويترهل بشكل ملحوظ. وأخذ يقرأ في الصحف والمجلات نعوتاً من مثل «أندريه بيتروفيتشنا المحترم». و «أندريه بيتروفيتشنا المكرّم». وصاروا يعرضون عليه مناصب محترمة في الوظيفة، ويدعونه إلى الامتحانات واللجان. وشرع، كما هو دائماً حين يبلغ الفنان سن الكهولة، يتشدد في التزام جانب رافائيل، والرسامين القدامى، لا لأنه اقتنع تماماً بعلو باعهم في الفن، بل ليفند بهم الرسامين الشبان. وأخذ، كما هي العادة عند جميع الذين بلغوا هذا العمر، يعيّر الشبان قاطبة بانعدام الخلق، وسوء السريرة. وصار يؤمن بأن كل ما في الدنيا يتم ببساطة، ولا وجود للوحي من الأعلى، وأن كل شيء يجب أن يخضع حتماً لنظام واحد صارم من الدقة والرتابة. وباختصار بلغت حياته السن التي يأخذ فيها بالتقلص كل ما يدفع الإنسان إلى الطموح، فلا يصل صوت الوتر الجبار إلى النفس إلا ضعيفاً واهناً، دون أن يهز القلب برناته النافذة، السن التي تكف ملامسة الجمال فيها عن تحويل الطاقات العذراء إلى نار ولهب، ولكن المشاعر الهامدة كلها تظل أكثر استجابة لرنين الذهب، وأكثر التفاتاً إلى موسيقاه المغرية، حتى تتيح لهذه الموسيقى شيئاً فشيئاً أن تنميه كلياً دون أن يشعر. والمجد لا يمكن أن يمد بالمتعة من سرقه، ومن لا جدارة له به. فهو لا يهز إلا مشاعر الذين يستحقونه ولهذا انجهمت كل مشاعر تشارتكوف وتطلعاته إلى الذهب. وصار الذهب هوسه، ومثاله، ورعبه، ولذته، وغايته. وازدادت ضباب النقود في الصناديق، وأخذ كأي شخص

يسقط في حبال هذه الهواية الفظيعة، يصير ملولاً، لا يتطامن إلا للذهب، بخيلاً بلا داع، وكانز أموال مستهتراً، وأوشك أن يتحول إلى واحد من تلك المخلوقات الغريبة المتوافرة في عالمنا المعلوم الإحساس والتي ينظر إليها فرعاً الإنسان المفعم حياة وعاطفة، إذ تبدو له توابيت حجرية متحركة في صدورها قلوب مينة. ولكن حدثاً واحداً هزّه بقوة، وأيقظ كل كيانه.

في أحد الأيام رأى على طاولته رسالة صغيرة رجته فيها أكاديمية الفنون، كعضو مبجل فيها، أن يأتي ليدلي برأيه في عمل جديد أرسل من إيطاليا صنعه رسام روسي كان يطور مهارته هناك. وكان هذا الرسام أحد رفاقه السابقين كان عمره مولعاً بالفن منذ نعومة أظفاره، يغرق فيه بكل روحه بقلب الكادح الملهب، وقد هجر أصدقاءه وأقاربه، وعاداته الأليفة، وأسرع إلى حيث يزدهر مشتل الفنون العظيم في ظل سماوات رائعة، إلى روما المدهشة التي يدق قلب الرسام الملهب بقوة وبكل طاقته لدى ذكرى اسمها. وهناك انعكف على العمل، كالناسك، وانقطع إلى الدراسة لا يصرفه شيء عنها. ولم يكن يهمه ماذا كانوا يقولون عن طبعه، وعن جهله في مخاطبة الناس، وعدم مراعاته للعادات الراقية، وعن مهانته للقلب الرسام بضآلة ملبسه وهندامه. ولم يكن يهمه أن يغضب عليه زملاؤه أو لا يغضبوا، فقد أهمل كل شيء، ووهب كل شيء للفن. كان يتردد على معارض الصور دون كلال، ولساعات طوال يقف أمام أعمال الأساتذة العظام ملتقطاً ومتبعاً الفرشاة العجيبة. ولم يكن يتم شيئاً دون أن يدقق عمله عدة مرات مع أولئك المعلمين العظام، ويستخلص من أعمالهم نصيحة صامتة وبلغية له. ولم يكن يشترك في المناظرات والنقاشات الصاخبة، ولم يكن ضد المحافظين في الرسم ولا معهم. فقد كان يعطي لكل شيء ما يستحقه تماماً، مستقيماً من كل شيء ماهو جميل فيه فقط، وأخيراً جعل لنفسه معلماً واحداً

هو رافائيل الرائع. ومثل شاعر مبدع عظيم قرأ العديد من مختلف الإبداعات الزاهرة بالكثير من الروائع والبدائع العظيمة، اصطفى له أخيراً «ألياذة» هوميروس كتاباً ملازماً له، وقد اكتشف أنه يحتوي كل ما يلذ للنفس، ويعبر عن كل شيء في غاية الكمال والعمق ولكنه أخذ من مدرسته فكرة الإبداع العظيمة، وجمال الفكر الجبار، والسحر الرفيع للريشة الملهمة.

عندما دخل تشارتكوف القاعة وجد حشداً هائلاً من الزوار المجتمعين أمام اللوحة. كان السكوت العميق الذي نادراً ما يكون بين متذوقي الفن، حين يحتشدون بكثرة، يسود المكان كله في هذه المرة، أسرع ليتخذ سمة العارف المهية، واقترب من اللوحة، ولكن، يا إلهي، علام وقعت عيناه!

كانت لوحة الرسام تقف أمامه نقية، طاهرة، جميلة كعروس، وتسمق فوق كل شيء بتواضع وفتنة، وبراءة وبساطة، كالعبقرية. وبدا وكأن شخصها السماوية الذاهلة من كثرة الإبصار المصوبة نحوها، قد أسبلت رموشها الجميلة حياء. وكان خبراء الفن يتفحصون عمل هذه الريشة الجديدة الفريدة يغمرها شعور دهشة لا إرادية. كان كل شيء يبدو وقد توحد فيها في كل واحد: دراسة رافائيل المنعكسة في نبل الأوضاع الرفيع، ودراسة كوريجيو المتبدية في كمال الرسم التام. ولكن أقوى ما قد ظهر في الصورة هو موهبة الإبداع التي كانت قد تغلغلت في روح الرسام نفسه. فينفذ حتى إلى أصغر ما في اللوحة من أشياء، وكان القانون والطاقة الداخلية يتحكمان في كل شيء. وانسيابية الخطوط السبلة الكامنة في الطبيعة محسوسة في الصورة كلها، تلك الانسيابية التي لا تراها إلا عين الفنان المبدع وحدها، والتي تبرز لدى الناسخ ناتئة. وكل شيء مأخوذ من العالم الخارجي كان واضحاً أن الفنان غاص في داخله أولاً، ومن هناك،

من ذلك ينبوع الروحي، أطلق نشيده المتهلل المنسق الموحد. وصار واضحاً حتى لغير المطلعين أية هوية سحيقة تفضل بين الإبداع وبين مجرد الاستنساخ من الطبيعة. لقد كان من المستحيل تقريباً وصف ذلك السكون غير الاعتيادي الذي شمل لا إرادياً كل الذين شخصت أبصارهم إلى اللوحة، فلا صوت ولا نامة. بينما كانت اللوحة تبدو وكأنها، من لحظة إلى أخرى، تسمو أعلى فأعلى، تنفصل عن كل شيء أكثر تنوراً وأروع فتنة، لتتحول كلها أخيراً، إلى ومضة واحدة، إلى ثمرة فكرة هبطت على الرسام من السماء، إلى ومضة ليست الحياة الإنسانية كلها إلا تحضيراً لها. كانت الدموع توشك أن تسيل لا إرادياً على وجوه الزوار المحيطين باللوحة. وبدا وكأن جميع الأذواق، جميع شذوذات الذوق الخاطئة اندمجت في نشيد عمجيد صامت لهذا العمل الرائع. وقف تشارتكوف أمام اللوحة جامداً فاغر الفم، وأخيراً، حين أخذ الزوار والخبراء يضجون شيئاً فشيئاً، وصاروا يتناقشون في قيمة العمل، وحين رجوه أخيراً بأن يدلي برأيه، أفاق على نفسه، وأراد أن يتخذ مظهراً طبيعياً لا أبالياً، أراد أن ينطق برأي اعتيادي مبتذل كذلك الذي يطلقه الرسامون المتصلبون، من مثل: «نعم، بالطبع، لا يجوز حقاً إنكار ما للرسام من موهبة. يوجد شيء ما. يبدو أنه كان يريد أن يعبر عن شيء. ومع ذلك فإن ما يتعلق بالشيء الأساسي...». وبعد ذلك، يضيف، بالطبع، ثناءات تسيء إلى الرسام. أراد أن يفعل ذلك، ولكن الكلمات ماتت على لسانه، وانفلتت الدموع والنشجات المنقطعة لتتكفل بالجواب، وخرج من القاعة راكضاً كالمجنون.

وفي مرسومه الفاخر وقف لحظة جامد الحركة فاقد الإحساس. واستيقظ كل كيانه، كل حياته، في لحظة واحدة، وكان شبابه قد عاد إليه، وكان شرر الموهبة الخامد تتطاير من جديد. وانفشعت

الغشاوة عن عينيه فجأة. يا إلهي! وأدرك أنه أضاع بهذه القسوة أفضل سنوات شبابه هباء، سحق وأطفأ شرارة نار، ربما كانت وامضة تحت الرماد في الصدر، ربما كانت ستوهج الآن في جلال وجمال، وتدر أيضاً دموع الذهول والامتنان! يضع كل شيء، يضع بدون أية شفقة! وبدا وكأن قد انبعثت في هذه اللحظة في روحه فجأة ودفعة واحدة تلك الصبوات والسورات التي كانت مألوفة له في وقت ما. تناول الريشة واقرب من قماشة الرسم. ورشح وجهه بعرق الجهد. تحول كله إلى رغبة واحدة، والتهب بفكرة واحدة، كان يريد أن يصور ملاكاً ساقطاً. فإن هذه الفكرة كانت الأكثر تلاوماً مع حالته النفسية. ولكن واحسرتاه! كانت شخوصه، وأوضاعها، والمجموعات، والأفكار تخرج من بين يديه متكلفة مفككة. لقد كانت ريشته وخياله محصورين كلياً في قالب واحد، وكان انتفاضه العاجز على الحدود والقيود التي صعد بها نفسه يوقعه في الانحراف والخطأ. لقد استخف بالسلم المتعب الطويل للمعارف التدريجية والقوانين الأساسية الأولى للعظمة، إذا أريد لها أن تهل. فاستولى عليه الشعور بالأسى. أمر بأن تقصى من مرسومه كل أعماله الأخيرة، كل اللوحات العصرية المخالية من الحياة، كل صور الضباط الفرسان، والسيدات والموظفين المدنيين الكبار. وحبس نفسه في حجرته، وأمر أن لا يسمح لأحد بالدخول. وانغمس في العمل كلية. جلس وراء عمله كشاب صبور، كتلميذ. ولكن باي جحود لا رافة فيه كان يتمخض الجهد المبذول في كل ما خطته ريشته! وكان الجهل في أبسط المبادئ الأولية يوقفه في كل خطوة.

وكان الميكانيزم البسيط التافه يترد كل حماس، ويقف عقبة منيعة في وجه الخيال. وكانت الريشة تعود لا إرادياً إلى الأشكال المتقولة، فتطلع اليدان في وضع مألوف ولم يستطع أن يعطي للرأس لفتة غير

اعتيادية، وحتى طيات الثوب طلعت مكرورة، تتهيب المطاوعة والتلابس مع وضع للجسد غريب. وقد شعر هو نفسه بذلك. شعر به ورآه...!

وقال أخيراً: «ولكن أتراني أملك موهبة حقاً؟ ألم أكن أخادع نفسي؟... وبعد أن تفوه بذلك تقدم من أعماله السابقة التي كان قد رسمها، في وقت ما، بنقاء وتفان، هناك، في مسكنه البائس، في جزيرة فاسيليفسكي النائية، بعيداً عن الناس والترف وكل الأهواء. اقرب الآن منها، وصار يتفحصها جميعاً بانتباه، ومعها أخذت تراءى في ذاكرته كل حياته البائسة السابقة. فقال في يأس: «أجل. كانت لي موهبة. مخايلها وبصماتها مرئية في كل مكان، في كل شيء...».

توقف، واهتز كل جسده فجأة. فقد التقت عيناه بعينين مثبتتين فيه بلا حراك. إنها تلك الصورة الفدّة التي كان قد اشتراها في سوق تشوكين. كانت طوال الوقت مغطاة، ومطمورة وراء لوحات أخرى، وقد غابت عن ذهنه كلياً. والآن، حين أزيحت جميع الصور واللوحات العصرية التي كانت تملأ الرسم، طلعت إلى فوق، وكأنما عن عمد، سوية مع أعمال شبابه السابقة، وحالما تذكر كل حكايتها الغريبة، وتذكر أن هذه الصورة الغريبة مسؤولة بعض الشيء عن الانقلاب الذي حدث في حياته، وأن كنز النقود الذي حصل عليه بتلك الطريقة العجيبة ولّد فيه كل الرغائب اللاهية التي قتلت موهبته، أو شك أن يستولي على نفسه ما يشبه الجنون. فأمر على الفور بإخراج هذه الصورة الكريهة. إلا أن القلق النفسي لم يهدأ. فكانت كل مشاعره وكل جوارحه تهتز من الأساس، فذاق ذلك العذاب الرهيب الذي يصيب أحياناً وكاستثناء مذهب، النفس البشرية، حين تجاهد الموهبة الضعيفة لتخطي حدودها، فلا تستطيع،

العذاب الذي يخلق شيئاً عظيماً في الشباب، لكنه يتحول في نفس الذي تخطى سن الآمال إلى لهفة عقيمة، العذاب الرهيب الذي يجعل الإنسان قادراً على ارتكاب الفظائع الشنيعة. ومملكته حسد مريع، حسد إلى حد الجنون. وكانت الصفراوية تعلو وجهه، حين كان يرى عملاً عليه طابع الموهبة. فيصرف بأسنانه، ويلتهمه بنظرة الجنسي الماحقة. وتنبعث من أغواره أشنع نية خامرت نفس إنسان في وقت من الأوقات، ويندفع بقوة مسعورة لينفذها. وأخذ يشتري أفضل ما أنتجه فن الرسم. فإذا اشترى لوحة، يضمن غال، يحملها إلى غرفته بحذر، ويهجم عليها بشراسة ذئب، ويقطعها، ويمزقها إرباً، ويسحقها بقدميه، مشغعاً ذلك بضحك التلذذ. وكانت الثروات الهائلة التي جمعها توفر له كل الوسائل لتطمين هذه الرغبة الجهنمية. كان يفك جميع أكياس الذهب عنده، ويفتح الصناديق. ومامن غول للجهل قضى على ذلك القسدر الذي قضى عليه هذا المنتقم الشرير من الأعمال الجميلة. وفي كل المزايدات التي يظهر فيها كان اليأس من اقتناء عمل فني يصيب أي إنسان مسبقاً. وبدأ وكان السماء الساخطة أنزلت هذه القارعة الرهيبية على العالم عن قصد لتنتزع منه كل ما فيه انسجام. وألقت هذه النزوة المريعة ظلاً مخيفاً عليه. فكانت الصفراوية المستديمة تلازم وجهه. وكانت إدانة العالم، إنكاره، تظهر على قسماات وجهه تلقائياً. وبدأ وكان العفريت الرهيب الذي صورته بوشكين أمثل تصوير قد تجسد فيه. ولم تكن من بين شفثيه غير الكلمة السامة والتذمر الدائم. وكان الناس وحتى معارفه، إذا رأوه من بعيد في الشارع، يحاولون الاستدارة وتحاشي هذا اللقاء كما يتحاشى لقاء إحدى الهارييات^(*) الكواسر، قائلين أنه يكفي لتسميم اليوم كله بعد ذلك.

ومن حسن حظ العالم والفن أن مثل هذه الحياة المتوترة القائمة

على العنف ما كان من الممكن أن تستمر طويلاً. فإن حجم الأهواء كان غير قياسي وضخماً جداً بالنسبة لقواها الضعيفة. وأخذت نوبات السعار والجنون تتابع، حتى تحولت أخيراً إلى أقطع مرض. واجتاحته حمى قاسية مصحوبة بسل سريع التفشي، حتى لم يبق منه خلال ثلاثة أيام غير ظل. وأضيفت إلى ذلك بوادر جنون لا شفاء منه. أحياناً كان لا يستطيع عدة أشخاص كبح جماحه. وأخذت تراءى له العينان الحيتان المنسيان منذ زمان، عينا تلك الصورة الفريدة، وعند ذاك كان جنونه يصير فظيلاً، وكان يتخيل جميع الذين كانوا يحيطون بسريره صوراً فظيعة، وكانت الصورة تزدوج في عينيه وتزايد، وتبدو كل الجدران مملوءة بالصورة التي تثبت فيه عيونها الحياة الجامدة. وكانت هذه الصور الرهيبة تحرق من السقف، من الأرضية، وتوسع الغرفة، وتمتد إلى ما لا نهاية لتستوعب عدداً أكبر من هذه العيون الجامدة. حاول الدكتور الذي التزم بمعالجته، والذي كان قد سمع شيئاً عن حكايته الغريبة أن يجد، بكل وسيلة ممكنة، الصلة الخفية بين الرؤى التي كانت تراءى له، وما حصل في حياته من أحداث، ولكنه لم يظفر بطائل. كان المريض لا يدرك شيئاً، ولا يشعر بغير العذابات، وكان لا يصدر غير العويل المتكرر المريع والهمهمات الغامضة. وأخيراً انبثرت حياته في احتضار صامت معذب. وكانت جشته رهيبة. ولم يستطع الناس أن يجدوا شيئاً من ثرواته الهائلة، ولكنهم وجدوا مزقاً من تلك الأعمال الفنية الرفيعة التي تجاوزت قيمتها الملايين، فأدركوا سر استخدام المريع لها.

القسم الثاني

كان عدد كبير من مختلف العربات والمركبات تقف أمام مدخل البيت الذي كان يجري فيه بيع بالمرزاد العلني لحاجيات أحد هواة الفن الأثرياء الذين قضوا حياتهم كلها في حلم لذيد، مولعين برقص الأقنان، والذين اشتهروا ببراءة ذمة كحماة العلم والفن، فكانوا من أجل ذلك ينفقون بأريحية، الملايين التي جمعها آباؤهم الأكفاء، بل وحتى في كثير من الأحيان بأعمالهم الذين كانوا قد زاولوها سابقاً. والآن لا وجود لهؤلاء الحماة، كما هو معروف، فقد اتخذ قرننا التاسع عشر منذ زمان سحنة الصيرفي المضجرة، الصيرفي الذي يتمتع بملاينه على شكل أرقام فقط مسجلة على ورقة. كانت القاعة الطويلة مملوءة بجمرة ذات ألوان شتى من الزوار جاءت منقضة كالطيور الكاسرة على جسد مرمي. فكان في الصالة فصيل كامل من التجار الروس من سوق غوستيني وحتى من سوق الخرداوات، في ستر ألمانية زرقاء. وكان هبنتهم وسمات وجوههم هنا أكثر صلابة وحرية، ولم يكونوا يتميزون بتلك المخدومية المفرطة، والمملوطة لدى التاجر الروسي، حين يكون في حانوته أمام المشتري. فهم هنا لم يحتشموا قط، على الرغم من أن القاعة كانت تضم عدداً كبيراً من الأرستقراطيين الذين كان التجار إذا وقفوا أمامهم في مكان آخر مستعدين إلى أن يمسخوا مع انحناءاتهم، الغبار الذي حملته أحذيتهم. أما هنا فكانوا طلقاء يتلمسون الكتب واللوحات بلا كلفة يريدون أن يعرفوا جودة البضاعة، ويزايدون بجسارة على السعر الذي رفعه الكونتات الخبراء. وكان في القاعة الكثيرون من زوار

المزادات الدائمين الذين كانوا يرون لزماً عليهم أن لا يفوتوا فرصة لزيادة مجموعتهم، ولم يجدوا عملاً آخر يشغلهم من الساعة الثانية عشرة، حتى الواحدة، وأخيراً من أولئك السادة النبلاء الفقراء في اللباس والجيب، والذين يأتون كل يوم بدون أية مصلحة نفعية، بل لغرض وحيد هو أن يروا عم يسفر الأمر، ومن سيطرح سعراً أعلى ومن أقل، ومن يزايد على الآخر، وعلى من ترسي المزادة، وكان عدد كبير من اللوحات قد تنأثر بلا نظام ممماً واختلط بالآثاث، والكسب وعليها طغراءات مالكةا السابق الذي ربما لم يكن له قط حب استطلاع محمود للنظر فيها. كانت المزهرات الصينية، وصفائح الموائد المرمرية، والآثاث الحديد والقديم ذو الخطوط المعكوفة، ومماثل طائر الرخم ومماثل أبي الهول، وبرائن الأسود المذهبة وغير المذهبة، والثريات، وفوانيس الزيت، كل ذلك يتكدس على بعضه مفتقراً كلياً إلى النظام المعهود في الحوانيت. وكل شيء كان كمثل فوضى للفنون. إن الشعور الذي يخامرنا عموماً لدى مرأى مزاد علني لشعور فظيع فكل شيء فيه يوحى بما يشبه الموكب الجنائزي. القاعة التي يجري فيها كتيبة دائماً. والنوافذ التي تراكمت عليها الآثاث واللوحات تشع ضوءاً هزليلاً، والسكون الذي يرين على الوجوه، والصوت الكثيب للمنادي الضارب بالمطرقة، المرتل قداساً للفنون البائسة التي التقت هنا بشكل غريب. كل ذلك، يبدو، وكأنه يزيد أكثر من رداة الانطباع الغريبة.

وبدا المزاد في أوجه. وكان حشد كبير من الناس المتعبرين، قد تجمهر ضاحجاً يقاطع بعضهم بعضاً. وترددت من كل الجهات كلمات: «روبل، روبل، روبل»، دون أن تعطي للمنادي الوقت ليكرر السعر المزاد والذي ارتفع أربع مرات على السعر المعلن. كان الحشد المتجمهر يتزاحم على صورة ما كان من الممكن أن لا تلفت

انتباه كل مَنْ كان له قدر من الفهم في الرسم. وكانت ريشة الرسام الرفيعة قد تجلّت فيها بشكل واضح. والظاهر أن هذه الصورة قد رُمّت عدة مرات وُجدت، وكانت تصور ملامح آسيوي سمراء في جلاب فضاء، لوجهه سحنة فريدة غريبة، ولكن أكثر ما بهر المتجمهرين الحيوية غير الاعتيادية لعينه. كلما أمضوا النظر فيهما بدتا وكأنهما مصوبتان إلى دخيلة كل واحد منهما. وهذه الغرابة، وهذه البراعة غير الاعتيادية للرسام جلبت انتباه الجميع تقريباً، وقد تراجع الكثير من المتبارين عليها لأن السعر الذي طرح لها مرتفع تماماً. ولم يبق إلا أرستقراطيان معروفان، هاويان للرسم، لم يريدوا التخلي أبداً عن هذه الثروة. كانا ينفعلان، وكان من الممكن أن يتزايدوا في السعر إلى حدود المستحيل، لو لم يقل أحد الذين كانوا يتفحصونها:

- اسمحوا لي بأن أقطع نقاشكم لبعض الوقت. ربما لي الحق في هذه الصورة أكثر من أي شخص آخر.

ولفتت هذه الكلمات أنظار الجميع إليه في رمشة عين. وكان هذا الرجل ممثوق القوام في نحو الخامسة والثلاثين من العمر له خصلات شعر أسود طويلة جعداء. وكان وجهه اللطيف المفعم براحة بال وضئنة ينم عن نفس غريبة عليها كل الانفعالات الدنيوية المضنية. ولم يكن في ملبسه أي ادعاء في الموضة. فقد كان كل ما فيه يشير إلى أنه فنان. وبالفعل كان هذا الرسام ب الذي يعرف شخصياً الكثيرين من الحاضرين.

- مهما تبدو لكم كلماتي غريبة مضى الرجل يقول، وهو يرى انتباه الجميع مصوباً نحوه ولكن إذا وافقتم على سماع حكاية صغيرة فقد تجدون أنني على حق في قولها. كل شيء يؤكد لي أن الصورة هي الصورة التي أبحث عنها.

وتلظت الوجوه كلها تقريباً بفضول مشروع مماماً، وحتى المنادي، فغر فمه، وتوقف والمطرقة مرفوعة في يده، متهيئاً للاستماع. في بداية القصة كان الكثيرون يوجهون عيونهم إلى الصورة بشكل لا إرادي، ولكن الجميع تفرسوا في الراوي وحده، بعد ذلك، بمقدار ما كانت قصته تزداد تشويقاً.

وبدا بالشكل التالي:

- أنتم تعرفون ذلك الجزء من المدينة المسمى كولومنا. كل شيء في هذا الجزء لا يشبه ما في الأجزاء الأخرى من بطرسبورغ. هذا الجزء لا هو عاصمة ولا هو إقليم. فأنتم حين تسировون في شوارع كولومنا، يبدو وكأن جميع رغائب الشباب وصبواته تزايلكم. والمستقبل لا يمر في هذا الجزء. السكون والإحالة على المعاش يبدو أن في كل شيء هنا، كل ما تخلف عن حركة العاصمة. يأتي إلى السكن هنا الموظفون المتقاعدون، والأرامل، والناس من غير الأغنياء، الذين لهم معرفة بمجلس الشيوخ، ولهذا حكموا على أنفسهم بالإقامة هنا طوال حياتهم تقريباً، والطباخات العجائز المتفرغات واللواتي يقضين النهار كله يتدافعن في الأسواق مثرثرات مع رجل في حانوت للبقالة، ويشتري كل يوم قهوة بخمسة كوبيكات، وسكرأ بأربعة، وأخيراً كل ذلك الصنف من الناس الذي يمكن أن تنعته بكلمة واحدة هي «الرمادي» أناس. بما لهم من ملابس ووجوه وشعر وعيون يكتسبون مظهر أكرارامادياً، كالنهار الذي ليست في سمائه عاصفة ولا شمس، فهو لا هذا ولا ذاك. فينبسط الضباب، وينتزع من كل الأشياء حدثها. ومن الممكن الإضافة إلى هؤلاء قاطعي تذاكر المسرح المتقاعدين، وموظفي الدرجة التاسعة المتقاعدين، والعسكريين المتقاعدين بعين مفقودة أو شفة متورمة. إن هؤلاء الناس بلا رغبات مماماً، يسировون دون أن يوجهوا بصرهم إلى شيء، صامتون، ولا

يفكرون في شيء. وغرفهم لا تحتوي على متاع كثير، وأحياناً لا توجد غير زجاجة كبيرة من الفودكا الروسية النقية يمحونها النهار كله برتابة، وبدون أي احتقان شديد في الرأس من أثر الإكثار من الشرب، وهو ما يحب أن يوفره لنفسه في أيام الآحاد الحرفي الألماني الشاب، فارس شارع ميشانسكايا، المتصرف لوحده بكل الرصيف، حين يتجاوز الوقت الساعة الثانية عشر ليلاً.

والحياة في كولومنا هادئة تماماً. فنادراً ما تمر مركبة، ما عدا تلك التي يستقلها الممثلون، والتي لوحدها تحطم السكون الشامل بهديرها ورنينها وطقطقتها. فالناس هنا يمشون على أقدامهم جميعاً. والخوذي غالباً ما يكون بلا راكب، حاملاً في عربته العلف لحصانه الهرم. ومن الممكن في هذه الناحية استئجار مسكن لقاء خمسة روبلات في الشهر من ضمنها حتى قدح قهوة في الصباح. والأرامل اللواتي يحصلن على تقاعد هن أكثر العوائل أرسقراطية فيها. وهن يتصرفن بلياقة، وغالباً ما يكنسن غرفهن، ويتحدثن مع صديقاتهن عن غلاء لحم البقر والكرنب، وغالباً ما تكون لهن ابنة شابة، هي مخلوقة صموت، كتوم حلوة المحيا أحياناً، وكلبة حقيرة، وساعة حائطية ذات بندول ذي دقات حزينة. ويأتي بعدهن الممثلون الذين لا يسمح لهم مرتبهم الانتقال من كولومنا، وهم ناس طلقاء مثل جميع الممثلين، يعيشون للاستمتاع. وهم يلتفون بأروابهم المنزلية ويصلحون مسدساً، ويصنعون الكارتون مختلف الأشياء النافعة للبيت، ويلعبون مع صديق زائر لعبة الداما أو الورق، وبهذا الشكل يقضون الصباح، ويقومون بنفس هذه الأفعال تقريباً في المساء مع إضافة شراب «البونش» أحياناً. وبعد هؤلاء الكبار وأرسقراطية كولومنا يأتي الناس الصغار والتافهون إلى أقصى حد ومن الصعب تعدادهم، كما يصعب تعداد الحشرات العديدة التي تتوالد في خل

قديم. وأقصد بهؤلاء العجائز اللواتي يصلين، واللواتي يسكرن، العجائز اللواتي يصلين ويسكرن معاً، العجائز اللواتي يتعيشن بوسائل لا يتخيلها العقل أقصد أنهن كالنمل يجر جرن الخرق والملابس البالية من جسر كالينكين إلى سوق الأشياء المستعملة لبيعنها بخمسة عشر كوبيكاً، وباختصار انعس حثالة الإنسانية في الغالب، حثالة ما كان بوسع أي اقتصادي سياسي فاض أن يجد الوسائل لتحسين معيشتهم. وقد ذكرتهم لأظهر لكم كيف أن هؤلاء الناس غالباً ما يكونون في حاجة ماسة إلى البحث عن عون مفاجئ مؤقت لا غير، والالتجاء إلى الاستدانة، وعندئذ يقيم بينهم مرابون من نوع خاص يزودونهم بمبالغ قليلة من الفلوس لقاء رهونات وفوائد عالية. وهؤلاء المرابون الصغار هم أكثر جفافاً في المشاعر من المرابين الكبار لمرات عديدة. لأنهم يظهرون وسط الفقر والأسمال الدالة الواضحة البؤس والتي لا يراها المرابي الغني المقتصر في تعامله على القادمين إليه في مركبات. ولهذا يموت في نفوسهم أي شعور للإنسانية في وقت مبكر جداً. وكان من بين هؤلاء المرابين واحد... ولكن لا ضير في أن أقول لكم إن الواقعة التي شرعت في التحدث عنها، تعود إلى القرن الماضي، وإلى عهد الراحلة القيصرة يكاترينا الثانية، بالضبط. وأنتم تستطيعون أن تدركوا بأنفسكم أن مشهد كولومنا ذاته والحياة في داخلها لا بد أن يكونا قد تغيرا كثيراً. إذاً، لقد كان بين هؤلاء المرابين واحد، مخلوق غير اعتيادي في كل الجوانب، كان يسكن هناك، في ذلك الجزء من المدينة، منذ أمد طويل، كان يرتدي لباساً آسيوياً فضفاضاً، وكان لون وجهه الداكن يشير إلى أصله الجنوبي. ولكن لا أحد استطاع أن يحدد عن يقين الأمة التي كان ينتمي إليها: الهندية أو الإغريقية أو الفارسية. وكانت قامته الطويلة بشكل غير اعتيادي تقريباً، ووجهه الأسمر النحيف الملوّح، بلونه المخيف بشكل لا يدرك، وعيناه الكبيرتان

بنارهما غير الاعتيادية، وحاجباه الكئان المطلان، تميزه بشدة وحدة
 عن جميع سكان العاصمة الرمادين. وحتى مسكنه لم يكن يشبه
 بقية البيوت الخشبية الصغيرة. فقد كان مبنى حجرياً يشبه تلك
 البيوت التي بناها تجار جنوى بكثرة في زمن ما، بشبايكه المختلفة
 الأحجام والأشكال، وقضبانها وترايسها الحديدية، كان هذا المرابي
 يتميز عن المرابين الآخرين بأنه كان يقرض بالرهن أي مبلغ للجميع
 ابتداءً من العجوز الفقيرة، إلى وجيه البلاط المبذر. وغالباً ما كانت
 تقف أمام بيته أفخر العربات كان يطل من شباكها أحياناً رأس سيدة
 مترفة راقية. وسرت شائعة، بحكم العادة، بأن صناديقه الحديدية
 مملوءة بما لا حصر له من النقود والأحجار الكريمة، والماس، ومختلف
 المرهونات، ولكن لم تكن له، على أية حال، تلك الروح النفعية التي
 تلازم المرابين الآخرين عادة. فقد كان يقدم النقود عن طيب خاطر،
 محددًا لفك الرهون مدداً مناسبة جداً، كما بدا ولكنه كان يجعلها
 بتقديرات حسابية غريبة تصل إلى نسب من الفائدة لا تقاس. أو
 هذا، ما كانت تقول الإشاعة، على الأقل. ولكن أغرب ما في الأمر،
 وما كان من الممكن أن لا يدهش الكثيرين هو ذلك المصير الغريب
 الذي آل إليه جميع الذين كانوا يقترضون منه.

فإنهم جميعاً قد أنهوا حياتهم بطريقة مشؤومة. وبقي غير
 معروف ما إذا كان هذا مجرد اعتقاد الناس، وأقوال خرافية سخيفة أم
 إشاعات مفرضة. ولكن بعض الأمثلة التي حدثت في أمد غير طويل
 أمام أعين الجميع كانت حية ومذهلة.

كان ثمة شاب من أحسن العوائل، من الوسط الأرستقراطي
 لذلك العهد قد لفت الأنظار إليه بسرعة، وتميز في مجال خدمة
 الدولة منذ سنوات الصبا، وكان متحمساً قوياً لكل ما هو حقيقي
 رفيع، ومتبحراً بكل ما أنتجه الفن وعقل الإنسان، يعد كل كيانه بأن

يكون حامى فنون وعلوم، وسرعان ما تنبّهت إليه القيصرة نفسها عن جدارة، وعهدت إليه منصباً كبيراً يتفق تماماً مع تطلعاته، منصباً كان في وسعه أن يقوم فيه بالكثير لمنفعة العلم وللخير بشكل عام. أحاط هذا الوجيه الشاب نفسه بالرسامين والشعراء والعلماء. وكان يريد أن يعطي للجميع عملاً ويشجعهم وكان يصدر على نفقته الخاصة الكثير من المطبوعات النافعة، ويقدم الطلبات العديدة، ويعلن عن جوائز تشجيعية، وينفق على ذلك مبالغ كبيرة من المال، حتى أفلس أخيراً. ولكنه، وهو الممتلى شهامة، لم يرد أن يتخلى عن القضية، وبحث في كل مكان ليستدين حتى أفضى به الأمر إلى صاحبنا المرابي. اقترض منه مبلغاً كبيراً من النقود، وفي فترة قصيرة، تغير هذا الرجل ممماً. فصار يلاحق ويطارد العقل المتفتح والموهبة. وصار يرى في كل الأعمال الفنية الجانب السيئ، ويفسر كل كلمة تفسيراً مشوهاً، ومن نكد الحظ أن الثورة الفرنسية كانت قد وقعت آنذاك. فاستخدم ذلك أداة لكل الدناءات الممكنة. وصار يرى في كل شيء نزعة ثورية، وراح يتصور التلميحات في كل شيء. وأصبح شكوكياً إلى حد أنه صار يتشكك في نفسه أخيراً، وصار يلفق الوشائات الكاذبة الفظيعة، ويلحق الأذى بالكثيرين من الناس ويجعلهم تعساء. وطبعي أن مثل هذه التصرفات ما كان من الممكن أن لا تصل إلى صاحبة العرش في آخر الأمر. وارتعبت القيصرة الشهمة، وتفوهت، وهي المفعمة بنبل النفس الذي يحلي أصحاب التيجان، بكلمات على الرغم من أنها ما كان من الممكن أن تصل إلينا بكامل دقتها، إلا أن معناها العميق كان له وقع في قلوب الكثيرين. فقد قالت القيصرة أن في ظل حكم الملوك لا تُضطهد تطلعات النفس النبيلة الرفيعة، ولا تُحتقر وتُلاحق إبداعات العقل والشعر والفنون، بل على العكس، كان الملوك وحدهم حمايتها وأن أمثال شكسبير وموليير ازدهروا في

ظل حمايتهم الشهمة، بينما لم يستطع دانتى أن يجد له ماوى يستكن إليه في وطنه الجمهوري، وأن العباقرة الحقيقيين يظهرون في زمن تألق وعظمة أصحاب العروش والدول، لا في ظل الظواهر السياسية الذميمة والإرهابيات الجمهورية، التي لم تمنح العالم حتى الآن شاعراً واحداً، ويجب تمييز الشعراء والفنانين، لأنهم لا يغرسون في الروح غير السلام والطمأنينة الرائعة، لا القلق ولا التذمر، وأن العلماء والشعراء ومبدعي الفنون جميعهم هم لآئى وجواهر في التاج الإمبراطوري. وهم يزينون عهد العاهل العظيم، ويزيدونه إشعاعاً وألقاً. وباختصار، كانت القيصرة حينذاك وهي تنطق بهذه الكلمات رائعة ساحرة الجمال. وأنا أتذكر أن الشيوخ ماكانوا يستطيعون أن يتذكروا ذلك بدون أن تسيل دموعهم. وشارك الجميع في القضية. وإنصافاً لكبريائنا الشعبية يجب أن نلاحظ أن القلب الروسي يضرر دائماً الشعور الرائع بالتزام جانب المضطهد. فعوقب هذا الوجيه الذي خان الثقة ليكون عبرة للآخرين، وأقصي من منصبه، ولكنه كان يسرى في وجوه أبناء وطنه عقاباً أمضَ بكثير. كان يرى ازدراءً قوياً عاماً. ومن الصعب وصف العذاب الذي عانته عزة نفسه. فإن الكبرياء، الطموح المخدوع، الآمال المحطمة قد اجتمعت سوية، وانتهت حياته في نوبات من الجنون المريع والعتة الضاري.

وثمة مثال مذهل آخر حدث أيضاً أمام أعين الجميع. من بين الحسناوات اللواتي لم تكن عاصمتنا الشمالية فقيرة بهن في ذلك الحين واحدة كسبت الأولوية المطلقة عليهن. وكانت تألفاً عجيباً بين جمالنا الشمالي وجمال الظهيرة، جوهره يندر أن توجد في هذه الدنيا. وكان أبي يعترف بأنه طوال حياته لم يرقط مثيلاً لها. وكان كل شيء قد اجتمع فيها: الثروة، والعقل، وسحر الروح. وكان خطابها كثيرين، كان أروعهم جميعاً الأمير ر. أفضل

الشباب قاطبة، والأكثر نبلاً، وجمالاً في الوجه والصبوات الفروسية الأريحية، والمثال الرفيع للروايات والنساء، مثل غرانديسون من كل الوجوه، ووقع الأمير ر. بغرامها المشبوب العامر. فجأوبته بنفس ذلك الغرام. ولكن العاشقين بدياً للأقارب غير متكافئين. فالخطيب لم يعد منذ زمان مالك لضياعه الموروثة وعائلته قد فقدت وزنها. وكان الجميع يعرفون أن أموره سيئة. وفجأة يترك الأمير العاصمة ليصلح شؤونه على حسب زعمه، وبعد فترة قصيرة، يظهر محاطاً بترف وبهاء منقطع النظير. وتجعله حفلات الرقص الفاخرة والولائم معروفاً في البلاط. وينال الخطوة لدى والد الحسنة. وتقام في المدينة أروع حفلة زفاف. ولم يكن في استطاع أحد أن يعرف بدقة سبب هذا التغير، ومن أين جاء الخطيب بهذه الثروة الهائلة، ولكن الناس كانت ملح إلى أنه عقد صفقة مع مرابٍ مجهول، وأخذ منه قرصاً. ومهما يكن من شيء فإن حفلة الزفاف شغلت بال المدينة كلها. وكان العروس والعريس معاً موضع حسد الجميع. وكان الناس قاطبة يعرفون الحب المتأجج المستديم، والتبايع الطويلة التي شقي بها كلاهما كما كانوا يعرفون خصال الزوجين الرفيعة. وكانت النساء اللاهيات يرسمن مسبقاً حياة النعيم الذي سيفوز به الزوجان الشابان ولكن الأمر كان على غير ذلك. ففي عام واحد حصل تغير رهيب في الزوج. فإن سم الغيرة المرية والعصبية والنزوات الطافحة سممت خلقه الذي كان حتى ذلك الحين نبلاً ممتازاً. فصار الزوج طاغية عاتياً على زوجته، والتجأ، وهذا ما لم يكن في ميسور أحد أن يتوقعه، إلى أكثر الأفعال لا إنسانية، وحتى إلى الضرب. وبعد سنة واحدة لم يستطع أحد أن يتعرف في شخصها على تلك المرأة التي كانت إلى حين تتألق، وتجذب وراءها أسراب المعجبين الطيعين، وأخيراً لم تقدر أن تتحمل مصيرها الشقي أكثر، فبادرت بالكلام عن

الطلاق. وجن جنون الزوج من مجرد التفكير في ذلك. وفي أول نوبة من الغيظ الشديد اقتحم عليها حجرتها، والسكين في يده، وكان من دون ريب، سينزل عليها طعنًا حالاً لو لم يمسكه ويحاجزوه، وفي سورة الهياج واليأس أغمد السكين في جسده، وقضى على حياته بعد سكرات موت فظيعة.

وإلى جانب هاتين الواقعتين اللتين حصلتا أمام أنظار المجتمع كله، كان الناس يرون الكثير من الوقائع التي حدثت في الطبقات الدنيا، وانتهت كلها تقريباً نهاية مريعة. فمن ذلك رجل نزيه عاقل انقلب إلى سكير، ووكيل تاجر سرق سيده، وحوذي كان مستقيماً لسنين عديدة نحر راكباً من جراء قروش زهيدة، وما كان من الممكن أن لا تترك هذه الوقائع التي كانت تروى أحياناً بزيادات، فزعاً لا إرادياً لدى أهالي كولومنا البسطاء. كان الجميع لا يشكون في وجود روح شريرة في هذا الرجل. وكانوا يقولون إنه كان يعرض شروطاً توقف شعر الرأس، وبعد ذلك لم يكن هذا التعيس يجرو أن يعيد الكلام عنها مع خص آخر، وكانوا يقولون إن لنقوده صفة حارقة، تنوقد من تلقاء نفسها، وتحمل علائم غريبة...

وباختصار كان هناك الكثير من الأقاويل السخيفة. ومن الطريف أن أهالي كولومنا، كل ذلك العالم من العجائز الفقيرات، والموظفين الصغار، والممثلين الضئيلي الشأن، وباختصار، كل المساكين الصغار الذين أتينا على ذكرهم قبل حين، كانوا يفضلون الصبر وتحمل أقصى ما يأتي به القدر على الالتجاء إلى ذلك المراسي الرهيب، بل كانوا يجدون عجائز متن جوعاً، وفصلن موت الجسد على تدمير الروح. كان الناس إذا التقوه في الشارع مملكهم فزع لا إرادي. فكان المشاة يرتدون بحذر ويلتفتون بعد ذلك إلى الخلف كثيراً، مراقبين قامته الطويلة بشكل غير متناسق، وهي تبتعد عنهم. وكان في هيئته

وحدها من الشواذ ما يجعل أي إنسان لا إرادياً يعزو إليه الخوارق. فإن تلك الملامح المنحوتة بعمق، لا تجدها عند أي إنسان، ولون الوجه البرونزي الحار ذاك، وتلك الكثافة غير الاعتيادية للحاجبين، والعينين الرهيتين بشكل لا يطاق، وحتى طيات لباسه الفضفاض الآسيوي نفسها، كل ذلك كان يبدو وكأنه يقول إن كل أهواء الآخرين نهبت أمام الأهرء المعتملة في هذا الجسد. وكان أبي كلما التقاه يتوقف جامداً، وفي كل مرة لا يسعه إلا أن يقول: «الشیطان، الشیطان بعینه!»، ولكن ينبغي أن أسرع فأعرفكم بأبي الذي هو، بالمناسبة، الموضوع الحقيقي لهذه الحكاية.

كان أبي إنساناً رائعاً في كثير من النواحي، وكان رساماً، من القلة، من إحدى تلك المعجزات التي لا تخرجها إلا روسيا من رحمها البكر، رساماً عصامياً تعلّم بنفسه، وبدون معلمين ومدرسة وجد في وجدانه القواعد والقوانين، ولم يستجب إلا للتعطش لتحسين قدرته، ولم يسر إلا في الطريق التي هدته إليه نفسه، ولأسباب ربما لم يكن يعيها ذاتياً، كان من أصحاب المواهب الفطرية العجيبة الذين غالباً ما يشتمهم المعاصرون بكلمة مهينة «أجلاف» والذين لا يفل عزيمتهم الذم ولا إخفاقاتهم ذاتها، ويظلون في دفق متزايد من الحماس والجهد، ويتعدون في عمق أنفسهم وبشوط كبير عن تلك الأعمال التي وسمتهم بكنية «جلف». كان أبي بفطرته الذاتية العالية يتحسس وجود فكرة في كل موضوع، وأدرك بسليقته المعنى الحقيقي لكلمتي «الرسم التاريخي» أدرك لماذا تمكن تسمية رأساً بسيطاً، صورة بسيطة لرفائيل، لليونارد دافينتشى، لتيتسيان، لكوريدجيو بالرسم التاريخي، ولماذا تظل لوحة ضخمة ذات محتوى تاريخي tableau de genre على كل حال، على الرغم من كل ادعاء رسامها بأنها رسم تاريخي. ،قادر يشته شعوره الباطني

وقناعته الخاصة إلى مواضيع مسيحية، في أعلى وآخر درجات ماهو رفيع. ولم يكن له غرور أو سرعة تهيج، وهما ما يميز طبع الكثير من الرسامين. لقد كان شخصية قوية، إنساناً نزيهاً مستقيماً بل وخشناً، ذا قشرة خارجية قاسية بعض الشيء. وليس بدون بعض الكبرياء في النفس، يقول رأيه في الناس بنلفظ وحدة في آن واحد. فكان يقول عادة: «وما لي أنظر إليهم، فأنا لا أعمل لهم. ولا أحمل لوحاتي إلى غرف الاستقبال، بل أضعها في الكنيسة. ومن يفهمني سيثكرني، ومن لا يفهم فسيصلي للرب على أية حال. ولا حاجة للوم الإنسان من المجتمع الراقي بأنه لا يفهم في الرسم، فهو، مقابل ذلك، يفهم في لعب الورق، وله اطلاع واسع في الخمرة الجيدة، وفي الخيول، وما حاجة الوجيه إلى أكثر من ذلك؟ فإذا كان يجرب هذا وذاك، ويأخذ بالتفلسف، فسيكون من الصعب احتماله، على ما أظن! لكل نصييه، ولكل ما يشغله. أنا أفضل الإنسان الذي يقول بصراحة إنه لا يفهم على الذي يراني ويزعم أنه يعرف ما لا يعرفه، فلا يأتي منه إلا الغث والفاقد». وكان يعمل بمرتب صغير، أقصد بمرتب ضروري لإعالة أسرته فقط، ولتوفر لديه إمكانية العمل، وفضلاً عن ذلك لم يكن يرفض قط مساعدة الآخرين ومد يد الإعانة لرسام فقير. وكان مؤمناً بإيمان الأجداد البسيط التقى. ولربما بسبب ذلك كانت تظهر في الوجوه التي رسمها تلك العفة التي لم ينفذ إليها رسامون لامعون. وأخيراً صار يكسب بالثابرة في عمله، وبالسيرة الدائبة في الطريق الذي كانوا يسمونه بالجلافة وبدائية التعليم الذاتي. وكانت الكنيسة تقدم له الطلبات بلا انقطاع، ولم يكن يعدم عملاً، وقد شغله أحد الأعمال بقوة. ولا أتذكر ماذا كان موضوعه. لا أعرف إلا أن اللوحة كان يجب أن تصوّر الشيطان أو سلطان الظلام. وفكر طويلاً في أية هيئة سيصوره. لقد كان يريد أن يصوّر في شخصه كل

ما يثقل على الإنسان ويشقيه. وخلال تلك التأملات كانت تخطر في باله أحياناً صورة ذلك المراهبي الغامض، وعند ذاك كان يجد نفسه يفكر لا إرادياً: «بهذا ينبغي أن أصور الشيطان». ولكم أن تتصوروا مبلغ دهشته، حين سمع ذات مرة طرقاتاً على باب مرسومه، حين كان يعملن وفي أثر ذلك دخل عليه ذلك المراهبي الرهيب. وما كان من الممكن ألا يشعر برجفة داخلية سرت في جسده لا إرادياً.

قال هذا لأبي بدون أية كلفة:

- أنت رسام؟

- رسام.

قال أبي في حيرة منتظراً ماذا سيحدث بعد هذا.

- حسناً، ارسم صورة لي، فقد أموت عن قريب، وليس لي أبناء، ولكن لا أريد أن أفنى كلياً، وأريد أن أحيى، فهل تستطيع أن ترسم صورة تصوري حياً تماماً؟

وفكر أبي «وماذا أحسن من ذلك؟ جاءني بنفسه لأرسمه شيطاناً في لوحة» وأعطاه عهداً. واتفقا على الوقت والتمن، وفي اليوم التالي، تناول أبي لوحة الألوان والفرشاة، وذهب إليه في بيته. ووقع في نفسه موقعاً غريباً كل ما رآه هناك: السياج العالي، والكلاب، والأبواب الحديدية والمزليج، والنوافذ المقوسة، والصناديق المغطاة بأبسطة عريقة، وأخيراً رب البيت العجيب الذي جلس أمامه بلا حراك. كانت النوافذ قد سدت وحجبت من الأسفل وكأنما عن قصد، حتى إنها لم تسرّب الضوء إلا من الأعلى فقط. قال أبي في سره: «تخطفه الشيطان، كم منور وجهه الآن!» وشرع يرسم بهمة، وكأنما كان يخاف أن تختفي هذه الإنارة الموفقة، وكرر مع نفسه: «أية قوة! حتى ولو رسمته إلى النصف بالشكل الذي هو عليه الآن،

فسيفتك بكل ما لدي من قديسين وملائكة. وفإنهم سيتضاءلون أمامه. أية قوة شيطانية! ولكنه سيخرج من القماشة حتماً، إذا كنت أميناً بعض الشيء على الأصل الذي أمامي. أية ملامح فريدة!» كان يردد بلا انقطاع، وازداد حماسه، وقد صار يرى بنفسه كيف أخذت بعض الملامح تنتقل إلى القماشة. ولكن كلما كان يدقق في رسمها كان يخامرهُ شعور ثقيل منذر. غير مفهوم له نفسه. ولكنه، مع ذلك عاهد نفسه على أن يتبع بدقة حرفية كل ملمح غير ملحوظ وكل تعبير. وانشغل قبل كل شيء برسم العينين. فقد كانت هاتان العينان قويتين جداً، حتى بدا من المستحيل حتى التفكير في نقلهما كما هما في الأصل. ومع ذلك فقد عزم، مهما يكن من الأمر، على أن يلتقط فيهما أدق وآخر الصفات والتلوينات، وينفذ إلى سرهما.. ولكنه ما إن بدأ يدخل ويتعمق فيهما بريشته حتى تولد في نفسه نفور غريب، ورَهَقٌ غير مفهوم، كأنه يضطره إلى ترك ريشته بعض الوقت، ومعاودة الرسم فيما بعد. وفي آخر الأمر لم يعد قادراً على التحمل أكثر، وشعر بأن هاتين العينين قد نفذتا إلى روحه، وأشاعتا فيها رهبة غير مفهومة. وفي اليوم التالي، واليوم الثالث كان هذا يشتد ويقوى وأفرعه الأمر. فألقى الفرشاة، وقال بحزم إنه لم يعد يستطيع الاستمرار في رسمه. وكان ينبغي أن تروا كيف تغير المرامي الغريب لدى سماعه هذه الكلمات. ارمى على قدمي أبي، وتضرع إليه أن يتم الصورة، قائلاً إن مصيره ووجوده في الدنيا يتوقفان على ذلك، وأنه قد مسَّ بريشته ملامحه الحية، ولئن نقلها بأمانة فإن قوة خارقة ستحفظ له حياته في الصورة، ولذلك لن يموت كلياً وأن البقاء في الدنيا ضروري له. وشعر أبي بالهلع من هذه الكلمات. فقد بدت له غريبة ورهيبة جداً حتى إنه ألقى الفرشاة ولوحة الألوان، وانطلق تاركاً الغرفة لا يلوي على شيء.

وظل التفكير في ذلك يفزعه طيلة النهار، والليل، وفي صباح

اليوم التالي تلقى من المراهبي الصورة، حملتها إليه امرأة، هي المخلوقة الوحيدة التي كانت في خدمته، وأعلنت على الفور أن مخدومها لا يريد الصورة، ويعيدها دون أن يدفع عليها شيئاً. وفي مساء ذلك اليوم عرف أبي أن المراهبي مات، وأن الناس يستعدون لدفنه حسب شعائر دينه، وكل ذلك بدا له غامضاً لا يدركه عقل. وفي الواقع حصل منذ ذلك الحين تغير ملموس في طبع أبي، فقد اعترته حالة من القلق والفرع لم يستطع هو نفسه أن يعللها، وسرعان ما أقدم على فعله لم يكن أحد يتوقعها منه. كانت أعمال أحد تلامذته قد أخذت، منذ بعض الوقت، تجذب انتباه حلقة صغيرة من العارفين والهواة. وكان أبي دائماً يتوهم فيه موهبة، وكان لذلك يُدلي له اهتمامه الخاص. وفجأة صار يشعر بالحسد نحوه. وكان أبي لا يطبق تعاطف الجميع مع تلميذ والإشادة بذكره. وأخيراً، وكذروة للانزعاج يصل إلى علمه أن تلميذه تلقى عرضاً برسم لوحة لكنيسة غنية شيدت من جديد. ومزقه هذا الخبر، فكان يقول: «لا، لن أسمح للغريز بأن يعلو! ما يزال الوقت مبكراً، يا أخ، للتفكير بتمريغ الشيوخ بالوحد! ما تزال لديّ القوة، والحمد لله: وسرى من يمرغ الآخر بالوحد قبل». واستخدم هذا الرجل المستقيم الصافي النفس الأحابيل والمكائد التي كان قبل هذا يشمئز منها دائماً وأفلح أخيراً في أن تعلن مسابقة على اللوحة، فيتمكن الرسامون الآخرون من تقديم أعمالهم أيضاً. وبعد ذلك أغلق باب غرفته عليه، وتناول الفرشاة بحماس، وكان يريد، كما يبدو، أن يجمع كل قواه، كل نفسه في اللوحة. وبالفعل خرج من بين يديه واحد من أحسن أعماله. ولم يشك أحد في أن الأولوية ستكون له. وقدمت اللوحات، وكلها بدت إزاء لوحته كالليلب إزاء النهار. وإذا بأحد الأعضاء الحاضرين، وهو رجل دين، إذا لم تخنني الذاكرة، يدي ملاحظة تذهل الجميع. فقد قال: «في لوحة الرسام

قدر كبير من الموهبة حقاً. ولكن الوجوه ليس فيها قدسية. بل على العكس، في العيون شيء شيطاني وكان شعوراً لا نقاء فيه كان يسير يده». ونظر الجميع في اللوحة، وماكان من الممكن أن لا يصدقوا في كلامه. واندفع أبي إلى لوحته، وكأنما يريد أن يتحقق بنفسه من صدق هذه الملاحظة المهينة، وباللفظاعة حين رأى أنه رسم لكل شخص اللوحة تقريباً عيني المرابي. فكانت هذه العيون تنظر بشيطانية ماحقة جعلته يرتعد رعدة لا إرادية، ورفضت اللوحة، وكان عليه أن يسمع بانزعاج لا يوصف، أن الأولوية بقيت لتلميذه. وكان من المستحيل وصف نائرة الجنون التي عااد بها إلى بيته. وكاد يضرب أمي، وطرده الأطفال، وحطم الفرش وحاملة اللوحات، وانتزع من الحائط صورة المرابي، وطلب سكيناً، وأمر بإشعال النار في الموقد، ناوياً أن يمزق الصورة مزقاً ويحرقها. وعلى هذه الحركة وجده صديقه حين دخل الغرفة، وهو رسام مثله، مرح رضي النفس دائماً، لا ينحرف في أية رغائب بعيدة المنال، وكان يعمل في مرح كل ماكان يقع في يده، ويقدم على موائد الغداء والولائم. بمرح أشد من ذلك.

- ماذا تفعل، ماذا تنوي أن تحرق؟ قال هذا الرسام وتقدم من

الصورة

- رحماك، هذه واحد من أحسن أعمالك. هذا هو المرابي الذي مات قبل حين. نعم، هذا عمل غاية في الكمال. أنت لم تمس الحقيقة، بل أصبت عينها. لا تبدو حية أبداً، مثلما تبدو عينا صورتك هاتان. - طيب، سارى كيف تبدوان في النار.

قال أبي، وهمم بإلقاء الصورة في الموقد.

- توقف، بحق الرب! قال الصديق بعد أن أعاقه أعطها لي أفضل، إذا كانت تضايقك إلى هذا الحد.

عاند أبي في البداية، ولكنه وافق أخيراً، وأخذ هذا الرسام المراح الصورة معه راضياً للغاية بغنيمة.

وبانصرافه شعر أبي فجأة بهدوء أكثر، وكأنما انزاح عنه برحيل الصورة عبء ثقیل. واندھش بنفسه من الحق الذي مملكه، ومن حسده، والتغیر الواضح في طبعه. واغتم، حين وعى فعلته، وقال بفجیعة في دخيلته:

- هذا عقاب من ربي، لوحتي جلبت العار عليّ عن إنصاف. فقد وُضِعَتْ لغرض الإساءة إلى ابن حرفتي. كان شعور الحسد الشیطاني هو الذي يسّر يدي، والشعور الشیطاني لا بد أن انعكس فيه.

وخرج في الحال للبحث عن تلميذه السابق، وعانقه بقوة، وطلب منه الصفح، وحاول، قدر ما استطاع أن يكفر عن ذنبه إزاءه. ومن جديد سارت أعماله كالسابق بشكل رائق، ولكن الاستغراق في التفكير صار يلوح على وجهه أكثر من قبل. وصار يصلي أكثر، وغلب عليه الصمت، ولم يعد يتحدث عن الناس بتلك الحدة، وخشونة طبيعته الظاهرية ذاتها بدت وكأنها قد لانت. وبعد قليل هزه حادث أكثر من ذي قبل. كان منذ زمن بعيد لم يلتق برفیق له كان قد طلب منه الصورة. وقد تهيأ للذهاب إليه ومقابلته، وإذا بذلك الرفیق نفسه يدخل إلى غرفته فجأة. وبعد بضع كلمات وأسئلة من كلا الرجلين قال:

- حسناً، يا أخ، كنت على حق في نيتك حرق الصورة. لعنھا الله، فيها شيء غريب... أنا لا أومن بالجن، ولكن قل ما تشاء، فأنا أعتقد أن فيها روحاً شريرة.

قال أبي:

- وكيف؟

- منذ أن علقتها في غرفتي أخذت أشعر بوحشة... وكأنني أنوي قتل إنسان. في حياتي لم أعرف ما هو الأرق، بينما الآن أعاني ليس

من الأرق وحده، بل من الأحلام... أنا نفسي لا أدري أهى أحلام أم شيء آخر. كان عفريتاً يدوس على خناقى، وطوال الوقت أتخيل ذلك العجوز اللعين. وباختصار، لا أستطيع أن أصف لك حالتي. لم يحصل لي مثلاً قط. كنت طوال هذه الأيام أهيم كالطريد. أشعر بخوف ما، بتوقع مزعج لشيء ما. أشعر أنني غير قادر على أن أقول لأحد كلمة مرحة مخلصة. وكأنما يلازمى جاسوس. وما إن أعطيت الصورة لابن عمى الذي رجاني أن أعطيها له، حتى شعرت وكأن صخرة سقطت من على منكبي، شعرت فجأة بالبهجة كما ترانى الآن. أوه، يا أخ، رسمت لنا الشيطان!

كان أبى، أثناء هذا الحديث، يصغى بانتباه مركز، وأخيراً سأل:
- والصورة الآن عند ابن عمك؟

قال صديقه المراح:

- وأين منها ابن عمى! لم يتحملها. كان روح المراهبي نفسه قد حلت في الصورة. طلع من الإطار، وراح يتمشى في الغرفة، وما يرويه ابن عمى لا يقبله عقل إطلاقاً، كنت سأعتبره مجنوناً لو لم أعان أنا جزءاً مما عاناه. باعها إلى جامع لوحات، وحتى هذا لم يتحملها، فتخلص منها بأن باعها لشخص آخر.

ووقعت هذه القصة موقعاً شديداً في نفس أبى. وتأمل المسألة بجد، وركبه الغم، وأخيراً أيقن تماماً بأن ريشته تقمصها الشيطان، أن جزءاً من حياة المراهبي قد حل، بالفعل، في الصورة على نحو ما، وهي الآن تبث الذعر في الناس، مثيرة المشاعر الآتمة، حارفة الرسام عن طريقه، مسببة عذابات الحسد الرهيبة وغير ذلك، وما إلى ذلك. والنكبات الثلاث، الميتات الفجائية الثلاث التي أعقبت ذلك موت زوجته وابنته وابنه الصغير اعتبرها عقاباً إلهياً له، وقرر الانقطاع عن الدنيا من كل بد. وما إن أتممت العام التاسع من عمري حتى

أدخلني أكاديمية الفنون، وصَفَى ديونه، ورحل إلى دير ناء سرعان ما ترقب فيه، وأدهش كل رهبانه بحياته المتقشفة وبمراعاته الصارمة لكل قواعد الدير. وعرف راعي الدير بفن ريشته، فطلب منه أن يرسم الأيقونة الرئيسة في الكنيسة. ولكن الراهب الوديع قال بشكل قاطع إنه لا يستحق الإمساك بالريشة، وإنه ملوث وإن عليه قبل ذلك أن يظهر روحه بالعمل والتضحيات العظيمة ليكون لائقاً بالقيام بهذا العمل. ولم يريدوا إجباره. وشدد بنفسه، وقدر المستطاع، من صرامة حياته في الدير. وأخيراً حتى هذه الحياة لم تكن كافية ولا صارمة بالشكل الكافي. فخرج بمباركة راعي الدير إلى الصحراء^(١) ليعتكف تماماً: وفي الدير صنع لنفسه صومعة من أغصان الأشجار، وأخذ يقات على الجذور النيئة وحدها، وكان يحمل الأحجار من مكان إلى مكان، ويظل واقفاً من مطلع الشمس حتى غروبها في مكان واحد لا يرحه، ويداه مرفوعتان إلى السماء، يتلو الصلوات بلا انقطاع. وباختصار كان يبحث عن كل درجات التحمل المحتملة، والتفاني الخارق الذي لا تجدون له مثلاً إلا في حيوات القديسين. وبهذه الطريقة كان يضني جسده لسنين طويلة، مصلباً إياه، في الوقت ذاته، بقوة الصلوات المنعشة. وأخيراً، ذهب في أحد الأيام إلى الدير، وقال لراعيه بثقة: «أنا مستعد الآن. وبمشيئة الرب سأنجز عملي». وكان الموضوع الذي اختاره هو ميلاد يسوع. عكف عليه سنة كاملة، غير مغادر صومعته، يقات بما قل واخشوشن من الطعام، وهو لا يكف عن ترديد الصلوات. وبنهاية العام كملت اللوحة. وكانت معجزة الريشة حقاً. وينبغي القول إن الرهبان وراعي الدير نفسه لم تكن لهم اطلاعات كبيرة في الرسم، ولكن الجميع

(١) لوحة شكل (بالفرنسية في الأصل).

بهروا، بما كان يشع من شخوص اللوحة من قدسية فريدة. فإن شعور الوداعة الربانية والخشوع في وجه الأم العذراء، المحنية على الرضيع، والهداية العميقة في عيني الطفل الإلهي، وكأنما يلوح شيئاً من بعيد، والصمت المهيّب للملوك المبهورين، بمعجزة الرب، والمنكيين على قدميه، وأخيراً السكينة المقدسة التي لا توصف، والمخيمة على اللوحة كلها، كان كل ذلك قد ظهر بقوة منسقة وجمال قاهر، جعلاً وقع اللوحة على المشاهد سحرياً. ركع الرهبان جميعاً على ركبهم أمام الإيقونة الجديدة، وقال راعي الدير الحنون: «لا يمكن لإنسان أن يصنع بمعونة الفن الإنساني وحده مثل هذه اللوحة. لقد كانت قدرة قدسية سامية تسيّر ريشتك، وبركة السماء شملت عملك».

في ذلك الوقت انتهيت من دراستي في الأكاديمية، وحصلت على ميدالية ذهبية، ومعها أمل سار في رحلة إلى إيطاليا، وهذه أجمل أمنية لرسام في العشرين من العمر، ولم يبق لي إلا أن أودّع أبي الذي فارقه منذ اثني عشر عاماً، وأعترف بأنه لم يبق في ذاكرتي منذ زمان حتى صورته. وقد سمعت شيئاً عن حياته المتنسكة الصارمة، فكنت أتصور مسبقاً لقائي بناسك في هيئته المنقشفة، وقد انقطع على العالم كله ولزم صومعته وصلواته، ونُحل وجفّ عوده من الصوم الطويل والتهجد. ولكن ما أشد دهشتي، حين وقف أمامي شيخ جميل مفعم بما يشبه السحراً ولم تكن آثار النحول ظاهرة على محياه. بل كان يشع قدسية بهيجة سماوية. وكانت لحيته البيضاء كالثلج، وشعره الخفيف كالريش بلون الفضة أيضاً، يتناثر بجمال على صدره، وطيات مسوحه الأسود، ويتهدل حتى الحبل الذي يشدّ به رداء الرهبنة البائس، ولكن أكثر ما بهرني أن أسمع من شفثيه كلمات وأفكاراً عن الفن، بصراحة، سأحفظها زمناً طويلاً في ذاتي، وأودّ من كل قلبي أن يفعل زملائي الرسامين الشيء نفسه.

قال حين تقدمت ليباركني:

- كنت أنتظرك، يا ولدي. أمامك طريق ستسير فيه حياتك منذ الآن، وطريقك طاهر، فلا تزغ عنه، إنك تملك موهبة، والموهبة عطية من الله لا تقدر بثمان، لا تفسدها. ابحث وادرس كل ما تراه، واخضع كل شيء لريشتك، ولكن تعلم أن تجد في كل شيء الفكرة الباطنية، واسع أكثر من أي شيء آخر إلى أن تصل إلى السر السامي للإبداع. طوبى لمن اختير ليمتلكه. لا موضوع حقير عنده في الطبيعة. فالفنانون المبدعون عظيم في الموضوع التافه كما هو عظيم في الموضوع الجليل. وفي الشيء المزدرى لا يوجد ما يزدرى إذا طلع من بين يديه، لأن روح المبدع الرائعة تطلع من خلاله غير مرئية ويكتسب المزدرى تعبيراً أرفعاً، لأنه مرّ من خلال مطهر روحه. والإيحاء بالفردوس السماوي، يتمثل بالفن، بالنسبة للإنسان، وهذا وحده يجعل الفن أرفع شيء. وبقدر ما تكون السكينة المهيبة أعلى من أي لغط دنيوي، وبقدر ما يكون البناء أرفع من التهديم، وبقدر ما يكون الملاك بما لروحه الصافية من براءة طاهرة أرفع، بهذا فقط، من كل القوى الهائلة والأهواء المتكبرة للشيطان، يكون إبداع الفن الرفيع أعلى من كل شيء على الأرض. ضحّ بكل شيء من أجل الفن، وتعشقه بكل مالك من وجد. لا ذلك الوجد المنبعث من رغبة دنيوية، بل ذلك الوجد الإلهي الهادئ، الذي لا يقدر الإنسان بدونه أن يسمو عن الأرض، ولا يستطيع أن يهدئ النفس برنات عجب. لأن إبداع الفن الرفيع ينزل على العالم لتهدئة النفوس كلها والتواؤم بينها. وهو لا يمكن أن يثير الاضطراب في النفس، بل يتطلع دائماً إلى الرب صلاة صداحة... ولكن هناك لحظات قائمة....

وتوقف، ولاحظت أن وجهه الوضيء تجهم فجأة، وكان سحابة مرت به لحظة. وقال:

- في حياتي وقع حادث. وأنا لحد الآن لا أفهم أي شخص غريب،

ذلك الذي رسمت له صورة. لقد كان ظاهرة شيطانية. أنا أعرف أن
الدينيوية تنكر وجود الشيطان، ولهذا لا أريد أن أتحدث عنه. ولكن
أقول فقط إنني كنت أرسمه بامتعاض، ولم أشعر في ذلك الوقت بأي
حب لعملي. كنت أريد أن أجبر نفسي إجباراً وبلا رغبة في النفس
وقد كظمت كل شيء أريد أن أكون أميناً للأصل. ولم يكن ذلك عملاً
إبداعياً من أعمال الفن، ولهذا فإن المشاعر التي تتاب الجميع، حين
ينظرون إليه، هي مشاعر تمرد، مشاعر مفزعة، وليست مشاعر فنان،
لأن الفنان يضيف سكينته، حتى عند الفرع. كانوا يقولون لي إن هذه
الصورة تنتقل من يد إلى أخرى، وتثير الانطباعات المضنية، مولدة
في الرسام شعور الحسد، والكراهية القائمة لزميله الرسام، والتعطش
الحاقد إلى الظلم والملاحقة. فليحفظك العلي القدير من تلك الأهواء!
فلا شيء أفظع منها. أن تتحمل أنت كل مرارة المظالم الممكنة أفضل
من أن تلحق بأحد ولو شبح مظلمة. احرص على نقاوة روحك.
ومن يمتلك موهبة لا بد أن يكون أنقى روحاً من الجميع. يمكن أن
يغفر الكثير لغيره، ولكن لا غفران له. إن الذي خرج من بيته في
حُلة عيد قشبية ما إن يلطخ بلطخة واحدة من طرشة عجيبة، حتى
يكون الناس جميعاً قد أحاطوا به، وراحوا يشيرون إليه بإصبعهم،
ويتحدثون عن قذارة ملبسه، بينما هؤلاء الناس ذواتهم لا يلحظون
اللطخات الكثيرة على مائة آخرين لا بسين ملابس اعتيادية لكل يوم
لأن اللطخات لا تلحظ في مثل هذه الملابس.

وباركني وعانقني. ولم أكن في حياتي كلها بذلك القدر من علو
الهمة المتسامية، وبشعور الإجلال أكثر من شعور الابن نحو أبيه،
التصقت ب صدره، وقبلت شعره الفضي المتناثر، واغرورقت عيناه
بالدموع، وقال لي قبيل الفراق:

- نَفَّذْ لي رجائي الوحيد، يا ولدي، فلربما ستصادفك في وقت

ما، الصورة التي كنت أحدثك عنها، فإنك ستعرفها من العينين الفريدتين، ومن تعبيرهما غير الطبيعي، عندئذٍ مزقها، مهما كلف الأمر.

ولكم أن تحكموا هل كان بوسعي أن لا أعدّه مقسماً الإيمان على تنفيذ رجائه. وفي غضون خمسة عشر عاماً برمتها لم يحدث لي أن التقيت على الأقل بما له شبه، مهما يكن، بالوصف الذي صوره أبي، وإذا أنا الآن، في المزاد....

ولم يتم الرسام جملة، وحول عينيه إلى الحائط ليلقي نظرة أخرى إلى الصورة. وقام جمهور المجتمعين كله بهذه الحركة أيضاً في لمحة واحدة، باحثين بأعينهم عن الصورة الفريدة.

ولكن، بالدهشة، لم تكن الصورة موجودة في مكانها على الحائط، وسرت مهمة غامضة وضجيج في الجمهور كله، أعقب ذلك كلمات تردد بوضوح: «سرقوها». إن أحداً من الناس لحق أن يختطفها مستغلاً استغراق المستمعين في الاستماع إلى القصة. وبقي جميع الحاضرين حائرين وقتاً طويلاً، لا يعرفون أحقاً أنهم رأوا تينك العينين الفريدتين، أم أن ذلك كان مجرد حلم لاح خطفاً لعيونهم المتعبة من إطالة النظر في اللوحات القديمة.

الأنت

١

في ٢٥ من آذار وقع في بطرسبورغ حادث في غاية الغرابة. فقد استيقظ الحلاق إيفان ياكوفليفيتش الساكن في شارع فوزنيسينسكايا (اسم العائلة مفقود، ولا وجود لأكثر من ذلك، حتى في لافتة محله، التي تصوّر سيداً مصوبن الخد، وعبارة «ونحجم أيضاً»). استيقظ في وقت مبكر جداً، وشم رائحة خبز حار. رفع جسمه قليلاً على سريره، ورأى عقيلته المحترمة كفاية، المولعة بشرب القهوة، تخرج من الفرن خبزاً نضج لتوه.

قال إيفان ياكوفليفيتش:

- أنا اليوم لا أشرب القهوة، يا براسكوفيا اوسيوافنا، وأحب أن أكل بدلاً من ذلك خبزاً حاراً مع البصل.

(وذلك يعني أن إيفان ياكوفليفيتش يريد هذا وذاك، ولكن كان يعرف أن من المتعذر طلب شيئين دفعة واحدة، لأن براسكوفيا اوسيوافنا، كانت تكره كثيراً مثل تلك النزوات). وفكرت عقيلته في سرها: فليأكل الأحرق خبزاً، فذلك أحسن لي، ستبقى حصة من القهوة زائدة وألقت رغيفاً من الخبز على المائدة.

لبس إيفان ياكوفليفيتش سترة فراك على قميص النوم حشمة، وجلس أمام المائدة، ونثر الملح، وأعدّ رأسين من البصل، وتناول سكيناً، واتخذ سحنة معتبرة، وأخذ يقطع الخبز، قطع رغيف الخبز

نصفين، ونظر إلى الوسط، فرأى، والدهشة تأخذه، شيئاً أبيض.
نكشه بالسكين حذراً، وتحسسه بإصبعه. وقال في سره: «مرصوص!
تري أي شيء هو؟».

دسّ أصابعه، وأخرجه، فإذا هو أنف!... أرخى إيفان
ياكوفليفيتش ذراعيه، وراح يفرك عينيه، ويتلمسه، نعم، أنف
بالضبط! بل وبدأ وكأنه يعود لشخص يعرفه. ارتسم الرعب على
وجه إيفان ياكوفليفيتش ولكن هذا الرعب لم يكن شيئاً يذكر إزاء
الحق الذي مملّك زوجته. صاحت في سخط:

- أين جدعت هذا الأنف، أيها الوحش؟ محال! سكير! سأبلغ
الشرطة بنفسك عنك، أيها الحقيير! سمعت من ثلاثة أشخاص حتى
الآن بأنك عند حلاقة الناس تجذب أنوفهم بشدة حتى لا تكاد تصمد
في مكانها.

ولكن إيفان ياكوفليفيتش كان في غاية الرعب. فقد عرف أن
الأنف الذي وجده ليس إلا أنف الملاحظ كوفاليوف الذي كان
يحلق ذقنه كل يوم أربعاء واحد.

- على مهلك، يا براسكوفيا اوسيوفا! سأضعه على حدة، وألقه
في خرقه، وأركنه قليلاً، وبعد ذلك أحمله.

- لا أريد حتى أن أسمعك! تتصورني أقبل بأن يوضع في حجرتي
أنف مجدوع؟.. أيها الناشف! لا تعرف غير سنّ الموسى على الخزام.
وعن قريب ستعجز عن القيام بواجبك كلياً، يا ماجن، يا أهبل!
وتريدني أن أتحمل مسؤوليةك عند الشرطة؟ آه، يا وسخ، يا خشبة
خرقاء! اخرجه! اخرجه! أحمله إلى حيث تريد، أبعده عن عيني
تماماً!

وقف إيفان ياكوفليفيتش في يأس تام من أمره. راح يفكر طويلاً،
دون أن يهتدي إلى شيء.

الشيطان يعرف كيف حصل هذا! قال أخيراً، بعد أن حك رأسه وراء أذنه بيده هل رجعت البارحة إلى البيت سكران أم لا، لست متأكداً من ذلك. ولكن كل الدلائل تدل على أن ما حدث ليس شيئاً اعتيادياً. الخبز يُخبز، ولكن الأنف؟ أية علاقة له بالفرن؟ أنا لا أفهم شيئاً.

وسكت إيفان ياكوفليفيتش. فقد أصيب بغيبوبة تامة حين تمثل في ذهنه أن الشرطة ستجد الأنف عنده وتوجه له تهمة. بل وطافت في خياله ياقة الشرطي القرمزية البديعة المطرزة بالفضة، والسيف... فأخذ كيانه كله يرتجف... وفي آخر الأمر أخرج قميصه الداخلي، وحذاءه الطويل، ولبس كل هذه القاذورات، ولفّ الأنف وسط مواعظ براسكوفيا اوسيبوفنا الخائفة، وخرج من بيته.

أراد أن يدسه في مكان ما: في العمود عند بوابة البيت، أو يوقعه من يده عرضاً، ويستدير في زقاق. ولكن سوء حظه شاء أن يلتقي كل مرة برجل من معارفه يأخذ باستجوابه على الفور: «إلى أين ذاهب؟» أو «من تنوي أن تخلق في هذا الصباح الباكر؟»، حتى أن إيفان ياكوفليفيتش لم يستطع أن يجد فرصة سانحة. وفي إحدى المرات أفلح في إلقائه، ولكن الشرطي أشار له بمطرده، وهو ما يزال بعيداً، وقال: «ارفعه! سقط منك شيء!» فكان على إيفان ياكوفليفيتش أن يرفع الأنف، ويخفيه في جيبه، غلبه اليأس، لاسيما وأن الناس أخذوا يتكاثرون في الشارع باستمرار، مع افتتاح المخازن والمحوانيت.

عزم على التوجه نحو جسر ايساكيفسكي، عسى أن يفلح في رميه في نهر النيفا... ولكنني أشعر بشيء من الذهب، لأنني لم أذكر حتى الآن شيئاً عن إيفان ياكوفليفيتش، الإنسان المحترم في نواح كثيرة.

كان إيفان ياكوفليفيتش، كأي حرفي روسي معتبر، سكيراً عتيداً،

وعلى الرغم من أنه كان يحلق وجوه الآخرين كل يوم، إلا أن وجهه غير حلق باستمرار. كانت سترته الفراخ (لم يرتد إيفان ياكوفليفيتش سترة طويلة قط) صهباء، اقصد كانت سوداء، ولكنها الآن مبقعة كلياً ببقع بنية صفراء ورمادية، والياقة براقعة من القدم، ولم يبق من الأزرار الثلاثة غير خيوطها المتدلية، كان إيفان ياكوفليفيتش لا يكثر بالأعراف مئاماً، وكان من عادة الملاحظ كوفاليوف أن يقول له أثناء حلاقته لذقنه: «يداك منتتان دائماً، يا إيفان ياكوفليفيتش!» فيرد إيفان ياكوفليفيتش عن ذلك بسؤال: «وما الذي يجعلهما منتتين؟» فيقول الموظف: «لا أدري، يا أخ، ولكنهما منتتان» وكان إيفان ياكوفليفيتش يتشمم العطوس، ويجازيه على ذلك بصوبنة خده، وما تحت أنفه، ووراء أذنه، وتحت ذقنه، وباختصار، أي موضع يشاء.

وصل هذا المواطن المحترم إلى جسر إيساكيفسكي. فكان أول ما فعله أن تلفت فيما حوله، ثم انحنى على الحاجز، وكأنما يعاين ما تحت الجسر، ليعرف هل السمك كثير هناك، وألقى لفة الأنف خلصة، وشعر رأساً وكان ثقلاً باهظاً قد انزاح عنه. بل وكثر إيفان ياكوفليفيتش لنفسه. وبدلاً من أن يذهب لحلاقة ذقون الموظفين، توجه إلى محل علقت عليه لافتة: «مأكولات وشاي» ليطلب قدح بونش، وإذا به يلمح الشرطي حارس الحي، بمظهره الوجيه، وفوديه العريضين، وقبعته الثلاثية، وحسامه، فتسمر مصعوقاً، ولكن الشرطي أشار له بإصبعه أثناء ذلك، وقال:

- تعال، أيها الفاضل!

كان إيفان ياكوفليفيتش يعرف الأصول، فخلع سدارته من بعيد، وقال، وهو يقترب منه خفيف الحركة:

- حياكم الله، يا حضرة الضابط!

- لا، لا، يا أخ، بلا حضرة، قل لي فقط، ماذا كنت تفعل، في وقفنك على الجسر؟

- والله، بما سيدي، كنت أريد أن أبدأ عملي في الخلاقة، ولكنني
قلت لنفسي لألقي نظرة وأرى هل جريان النهر سريع؟
- تكذب، تكذب! بهذا لا تخلص نفسك. تفضل، أجب!
فأجاب إيفان ياكوفليفيتش:

- أنا لأجل خاطرك مستعد لخلاقة ذقنك مرتين وحتى ثلاث
مرات في الأسبوع، دون أي اعتراض.

- لا، بما صاح، هذه توافه! عندي ثلاثة حلاقين يحلقونني، بل
ويعتبرون ذلك شرفاً عظيماً. أما أنت فتكرم وقل لي: ماذا كنت تفعل
هناك؟...

شحب وجه إيفان ياكوفليفيتش... ولكن الحادثة في هذا الموضع
يكتنفها الغموض التام، ولا شيء يعرف عما حصل بعد ذلك.

استيقظ الملاحظ كوفاليوف في ساعة مبكرة جداً، وبربر بشفتيه «بررر»، وكان يفعل ذلك كلما استيقظ من نومه، لسبب لم يستطع توضيح بنفسه. ممطى كوفاليوف، وطلب أن تعطى له مرآة صغيرة كانت موضوعة على الطاولة. وكان يريد أن يتفقد بثرة كانت قد طلعت على أنفه مساء أمس، ولكنه دهش دهشة عظيمة حين رأى موضعاً أملس للغاية في مكان الأنف افرع كوفاليوف، وطلب ماءً ومسح عينيه بمنشفة. وتيقن أن الأنف قد اختفى.. أخذ يلمس يده ليعرف أهو نائم؟ لا، كما يبدو. ففر كوفاليوف من سريره، ونفض نفسه، فلم يعثر على أنفه. أوعز بأن تقدم له ملابس فوراً، وانطلق قدماً إلى مدير شرطة المدينة.

ولكن من الضروري، في سياق حكايتنا، أن أتحدث بشيء عن كوفاليوف هذا، ليعرف القارئ أي صنف من الناس هذا الملاحظ، فإن الملاحظين المساعدين الذين حصلوا على هذه المرتبة بشهادات علمية لا يمكن مقارنتهم أبداً بأولئك الذين حصلوا عليها في القفقاس. إنهم صنفان مختلفان تماماً. فالملاحظون الحاصلون على شهادات علمية... ولكن روسيا بلاد عجيبة، إذا تحدثت عن موظف معين من هذه الدرجة اعتبر كل المنتسبين إليها، من ريفاً إلى كامتشاتكا، إنك لا محالة تعنيهم بالذات. وذلك ينطبق على كل الألقاب والمراتب. كان كوفاليوف من الصنف القفقاسي^(١). وقد حصل على درجته هذه منذ سنتين فقط، ولهذا لم يغرب ذلك عن باله دقيقة واحدة، ولاضفاء مزيد من الواجهة والوزن على نفسه،

(١) يقصد إلى دير صغير في منطقة قليلة السكان. المغرب.

كان لا يسمي نفسه ملاحظاً قطعاً، بل «رائداً» على الدوام. وكان إذا التقى بائعة صدارات القمصان في الشارع يقول لها عادة: «تعالى إلى بيتي، شقتي في شارع سادوفايا. وما عليك إلا أن تسألي: أين يسكن الرائد كوفاليوف؟ وسيدلك أي إنسان.» أما إذا التقى امرأة مليحة، فقد كان يصدر لها أمراً خصوصياً مضيفاً: «اسألي، يا روجي، عن شقة الرائد كوفاليوف». ولهذا السبب ذاته سنسمي مساعد الملاحظ الرائد، فيما يلي من الحديث.

كانت للرائد كوفاليوف عادة التمشي في شارع نيفسكي كل يوم. كانت ياقة صدار قميصه نظيفة للغاية ومنشأة دائماً. وكان فوداه من ذلك النوع الذي يمكن أن نراه حتى الآن لدى المساحين في الولايات والأقاليم، والمعماريين إذا كانوا روسياً حقاً، ولدى القائمين على مختلف وظائف الشرطة، وبشكل عام لدى جميع موظفي الدولة الوجهاء ذوي الحدود الممتلئة الموردة، والمقتدرين على لعبة «البوستون» بشكل جيد جداً. وكان هذان الفودان يسيران في وسط الخدين مماماً، ويصلان حتى الأنف. وكان الرائد كوفاليوف يزداد بعدد كبير من الخواتم العتيقة منها ما رسمت عليه شعارات، ومنها ما نقش عليه كتابة: الأربعاء، الخميس، الاثنين وغير ذلك. وكان كوفاليوف قد قدم إلى بطرسبورغ لشؤونه الخاصة، وهي بالذات، البحث عن وظيفة تليق برتبته. فإذا حالفه الحظ صار نائب حاكم، وإلا فمديراً للإعالة والتموين في دائرة مرموقة. كما لم يكن الرائد كوفاليوف يمانع من الزواج، ولكن في حالة واحدة فقط، وهي أن يكون للزوجة المقبلة مثلاً ألف روبل رأسمال صداقاً. ولها يستطيع القارئ الآن أن يتصور بنفسه في أي وضع كان الرائد هذا، حين وجد في مكان أنفه اللطيف المعتدل سطحاً أملس في غاية السخف. وكان الحظ كان يناكده، فلم تظهر أية عربة في الشارع، فاضطر

إلى السير ملتفاً في ردائه، مغطياً وجهه بمنديل، كمن أصيب برعاف، وفكر: «لكن لعل هذا ما تراءى لي، فليس من الممكن أن يختفي الأنف، ويضيع هباءً». ودخل محل حلويات خصيصاً لينظر في المرأة، ومن حسن الحظ كان محل الحلويات خالياً، وكان صبيان المحل يكتسون الحجرات، ويرتبون الكراسي، وكان بعضهم يحمل صواني الفطائر الحارة، ناعسي الطرف، وعلى الموائد والكراسي تتناثر جرائد الأمس مبقعة بالقهوة. ونبسك «حمداً لله لا يوجد أحد. ويمكن أن أعاين الآن.» وتقدم من مرآة متهيأ، ونظر. ونطق بعد أن بصق: «الشيطان يعرف أي حقارة هذه! على الأقل لو كان مكان الأنف شيء ما، ولكن لا شيء!...».

عض شفتيه منزعاً، وخرج من محل الحلويات وعزم، خلافاً لعادته، على أن لا ينظر إلى أي إنسان، ولا يتسم لأي إنسان. وفجأة وقف كالمسمر عند باب أحد المباني: فقد حدث أمام بصره شيء يتعذر تفسيره. توقفت عربة أمام المدخل، وانفتح بابها، وقفز منها سيد في بزة رسمية، حانياً قامته، وارتنى الدرج راكضاً. وما أعظم ذلك الرعب الممزوج بالدهشة الذي تملك كوفاليف، حين عرف أنه أنه! ومع هذا المشهد غير الاعتيادي بداله، وكان كل شيء قلب في عينيه. شعر بأنه لا يكاد يثبت على نفسه، ولكنه عزم أن ينتظر عودته إلى العربة، مهما يكن من شيء، مرتجفاً بكل جسده كمن اجتاحتته حمى. وبعد دقيقتين خرج الأنف بالفعل. كان في سترة رسمية موشاة بالذهب، ياقتها كبيرة مرتفعة وفي بنطال من الشمواء، وعلى جنبه سيف، ومن قبعته المريشة كان من الممكن أن يستدل المرء على أنه من مستشاري المرتبة الراقية. وكل شيء يشير إلى أنه كان خارجاً في زيارة. تلفت يميناً ويساراً، وصاح على الخوذي «هات العربة!»، وقعد، ورحل.

وكاد كوفاليوف المسكين يحسن. كان لا يعرف كيف يعلل هذه الحادثة العجيبة. فكيف أمكن حقاً للأنف الذي كان في وجهه إلى يوم أمس فقط، وكان غير قادر على المشي وركوب عربة، أن يلبس بزة؟ جرى وراء العربة التي قطعت مسافة قصيرة، من حسن حظه، وتوقفت أمام كاتدرائية كازانسي.

خَفَّ للدخول إلى الكاتدرائية. وشق طريقه بين صفوف متسولات عجائز بوجوه معصوبة لا تبرز منها غير فتحتين للعينين، كن من مقبل يستدررن ضحكه الشديد، ودخل الكنيسة. كان المصلّون في الداخل قليلين. وكان الجميع واقفين عند المدخل. شعر كوفاليوف بأنه في حالة من الانزعاج أعجزته تماماً عن الصلاة. بحث بعينيه عن ذلك السيد في جميع الأركان. وفي آخر الأمر وجده واقفاً في ناحية. كان الأنف يخفي وجهه تماماً في اللياقة الكبيرة المنتصبة، ويصلي بمسحة من الورع الشديد.

فكر كوفاليوف: «كيف أتقرب منه؟ البزة، والقبعة، وكل شيء يدل على أنه مستشار من الدرجة الراقية. الشيطان وحده يعرف كيف أفعل ذلك.»

أخذ يتنحى بالقرب منه، ولكن الأنف لم يخرج لحظة واحدة عن وقفته الورعة، استمر في أداء الانحناءات.

- يا حضرة المحترم! قال كوفاليوف منشطاً نفسه في سره اضطراراً
يا حضرة المحترم!

التفت الأنف، وقال:

- ماذا تريد؟

- استغرب، يا حضرة المحترم... أتصوّر... أن عليك أن تعرف موضعك. وإذا بي أراك بغتة، وأين؟ في الكنيسة. لا بد أن توافق...

- اعذروي، أنا لا أستطيع أن أفهم معنى ما تقوله... وضح.
وفكر كوفاليوف: «وكيف لي أن أوضح له؟».. واستجمع
شجاعته، وقال:

- بالطبع أنا... بالمناسبة أنا برتبة رائد. ولعلك تتفق معي أن من
غير اللائق أن أطلع على الناس بلا أنف. البائعة التي تبيع البرتقال
المقشّر على جسر فوسكريسينسكي يمكن أن تستغني عن أنفها،
ولكن بالنسبة لمن يتهدى للترقي إلى.... سيؤدي ذلك دون شك...
فاحكم بنفسك. أنا لا أعرف، يا حضرة المحترم (وهنا هزّ الرائد
كوفاليوف كتفيه) أرجو المَعذرة.... إذا نظرت إلى ذلك وفق قواعد
الواجب والشرف... تستطيع بنفسك أن تفهم....
أجاب الأنف:

- لا أفهم أي شيء على الإطلاق. وضح أكثر.

- يا حضرة المحترم قال كوفاليوف يراوده شعور بالكرامة أنا لا
أعرف كيف أفهم كلماتك. أظن المسألة كلها واضحة تماماً.... أم
أنت تريد... الخلاصة أنك أنفي.

نظر الأنف إلى الرائد، وانعقد حاجباه قليلاً:

- أنت مخطئ، يا حضرة المحترم، أنا قائم بذاتي. ثم لا يمكن أن
تكون بيننا أية علاقة. استدل من أزارار سترتك الرسمية إنك موظف
في دائرة أخرى.

وبعد أن قال الأنف ذلك، استدأر، وتابع صلاته.

تخيّر كوفاليوف كلياً لا يعرف ماذا يفعل، بل وحتى بماذا يفكر.
وفي تلك الأثناء تردد حفيف لطيف يرسله ثوب نسائي، واقتربت
امرأة متوسطة العمر، رافلة بالمخرّمات. وبصحبتها سيدة أخرى
نحيفة القوام في ثوب أبيض يظهر محاسن خصرها الأهيف، وفي قبعة

صفراء، موردة، خفيفة ككعكة. وخلفهما توقف سيد مرافق طويل ذو فودين كبيرين ومجموعة كبيرة من الباقات، وفتح علبة العطوس. اقترب كوفاليوف أكثر، ورفع ياقة صدر قميصه من القماش الفاخر إلى الأعلى، وعدّل خواتمه المنظومة في سلسلة ذهبية، ووجه انتباهه، وهو يتبسم في الجانبين، إلى السيدة النحيفة القوام التي انحنت قليلاً كزهرة ربيعية، ورفعت إلى جبينها يدها البيضاء بأصابعها شبه الشفافة. واتسعت الابتسامة على وجه كوفاليوف أكثر، حين رأى من تحت قبعتها حنكها المدور الناصع البياض، أكثر، حين رأى من تحت قبعتها حنكها المدور الناصع البياض، وجزءاً من خدها المشرب بلون ورد الربيع المبكر. ولكنه ارتد فجأة، كالملذوع. فقد تذكر أن مكان أنفه فارغ تماماً، وسالت الدموع من عينيه. استدار ليعلن للسيد ذي البزة الرسمية على المكشوف أنه تقمص شخصية المستشار لا غير، وأنه محتال ووغد، لا يزيد عن كونه أنفه... لكن الأنف لم يكن موجوداً، فقد لحق أن يركب عربته ويهرب، لزيارة شخص آخر على الأرجح.

تملك كوفاليوف اليأس. عاد أدراجه، وتوقف لحظة تحت صف الأعمدة، يحدق بعناية في كل الجهات، لعله يجد الأنف. وكان يتذكر جيداً أن قبعته مزينة، وسترته الرسمية مطرزة بالذهب. ولكنه لم يبال بالمعطف، ولا بلون عربته، ولا الخيول، ولا حتى هل كان له خادم يقف وراء العربة، وفي أجيزة خدم. وبالإضافة إلى ذلك كانت العربات المنطلقة من هذه الجهة ومن الجهة المعاكسة كثيرة العدد وسريعة جداً حتى ليصعب أن يلتقط بعينه العربة المطلوبة، وحتى إذا وفق في ذلك، فليس له أية وسيلة لإيقافها. كان النهار رائعاً مشمساً. وكان شارع نيفسكي مكتظاً. وكان شلال ملون من السيدات ينصب بكامله على الرصيف كله، ابتداء من جسر بوليتسيسكي،

وحتى جسر انيتشكوف. وهاهو رئيس الملاحظين الذي يعرفه يقبل عليه، وكان يسميه المقدم، لاسيما في حضور الغرباء. وهذا أيضاً ياربجكين رئيس قلم في المحكمة العليا، وصاحبه المقرّب، الذي كان يقع في الورطة دائماً في لعبة «البوستون» كلما طلعت له ثمانية، وهذا رائد آخر حصل على درجته في القفقاس، يلوح له بيده ليأتي إليه.

قال كوفاليوف:

- ليذهب إلى المحيم! هاي، يا حوذي، خذني إلى مدير الشرطة.
جلس كوفاليوف في عربة خفيفة، وماكان منه إلا أن صاح:
«أطلق العنان!»

وصاح، حين دخل رواق القسم:

- هل المدير في مكتبه؟

أجاب الشرطي الحارس:

- كلا. خرج لتوه.

- يا لنكد الحظ!

- نعم أضاف الحارس قبل وقت ليس بالطويل جداً، ولكن خرج.
فلو جئت قبل دقيقة لربما وجدته.

وجلس كوفاليوف في العربة، دون أن يرفع المنديل عن وجهه،
وصاح بصوت قانط:

- تحرك!

- إلى أين؟

- إلى الأمام!

- كيف إلى الأمام؟ نحن في منعطف. أما إلى اليمين أم إلى اليسار؟..
أوقف هذا السؤال كوفاليوف، وجعله يفكر من جديد. كان عليه

في وضعه هذا أن يراجع مصلحة الآداب، قبل كل شيء، ليس لأنها على علاقة مباشرة بالشرطة، ولكن لأن أوامرها يمكن أن تكون أسرع من أوامر الجهات الأخرى. فإن الالتجاء في حل مشكلته إلى رئاسة الدائرة التي أعلن الأنف أنه موظف فيها سيكون بلا طائل، فقد كان من الممكن أن يستدل المرء من أجوبة الأنف أن هذا الشخص لا يقدس أي شيء، وأنه سيكذب في هذه المرة أيضاً، مثلما كذب حينذاك مؤكداً أنه لم يره قط. وعلى هذا النحو هم كوفاليوف أن يأمر الخوذي بالتوجه إلى مصلحة الآداب، وإذا بفكرة تعنّ له مرة أخرى، وهي أن هذا النصاب الوغد الذي تصرف، في أول لقاء له، بتلك الطريقة اللئيمة الوقحة، يمكنه في هذه المرة أن ينتهز الفرصة المتاحة، ويوفق في الانسلاخ من المدينة بطريقة ما، وعندئذ ستكون جميع الاستقصاءات عديمة الجدوى، أو قد تستمر، لا سمح الله، شهراً كاملاً. وأخيراً، بدا وكأن السماء نفسها قد ألهمته. عزم أن يلجأ رأساً إلى المكتب الصحفي. وينشر قبل فوات الأوان إعلاناً يعكس فيه جميع الأوصاف بالتفصيل، وعند ذاك يستطيع كل من التقاه أني وصله إليه في التو واللحظة، أو يبلغ بمكان وجوده، على أقل تقدير. وعندما استقر رأيه على ذلك أوعز للخوذي أن يتجه إلى المكتب الصحفي. وظل طوال الطريق يلكر ظهره بقبضته، مردداً: «أسرع، يا وغد، أسرع، يا نصاب!»، فكان الخوذي يقول: «حاضر، يا سيدي!». نافضاً رأسه، لاهباً بالسوط حصانه الطويل الوبر، مثل كلبة من نوع «بولونكا». وأخيراً توقفت العربية، وركض كوفاليوف ودخل لاهث الأنفاس إلى غرفة الاستقبال الصغيرة، حيث كان يجلس موظف أشيب في سترة فراك قديمة، ونظارة، وراء مكتب، وقد وضع الريشة بين أسنانه، وراح يحسب قطع نقد معدنية قد جُلبت له.

- مَنْ يتسلم الإعلانات هنا؟ صاح كوفاليوف ها، مرحباً!

- أهلاً وسهلاً!

قال الموظف الأشيب، ورفع بصره لحظة، وخفضه ثانية على
أكوام النقود المفروزة.

- أريد أن أنشر....

- تفضلوا. أرجو الانتظار قليلاً.

قال الموظف، وهو يخط رقماً على ورقة بيد، ويدفع بأصابع يده
الأخرى كرتين من العداد.

كان خادم ذو أشرطة ومظهر يدل على خدمته في بيت أرستقراطي
يقف قرب المكتب، وفي يده إعلان، فرأى من اللياقة إظهار تبسطه:

- صدقني، يا سيد، أن الكلبة لا تساوي ثمانين فلساً، يعني لن
أشترىها بثمانية فلوس، ولكن الكونيسة تحبها، نعم، والله، تحبها،
فتقدم لمن يعثر عليها مئة روبل! وإذا تكلمنا بأدب، كما نحن الآن،
قلنا أن أذواق الناس متباعدة تماماً. فإذا كنت صياداً يجب اقتناء كلب
صيد أو سلوقياً، ولم تبخل بخمسمئة روبل، وحتى بألف، ولكنك
ستحصل على كلب جيد بالمقابل.

كان الموظف المحترم يصغي إلى ذلك، وعلى وجهه سيماء
الاعتبار، ويشغل في التدقيق في الوقت ذاته: يحسب الحروف في
الإعلان الوارد. وعلى الجانبين وقف عدد كبير من العجائز وباعة
الحوانيت، والخدم ومعهم إعلاناتهم. أحدها يعلن عن تأجير حوذي
لا يقرب الخمر، وآخر عن عربة قليلة الاستعمال جلبت من باريس
في عام ١٨١٤، وثالث عن خادمة في التاسعة عشرة مدرية على
الغسيل، وقابلة لمزاولة أعمال أخرى، وعن عربة متينة لا ينقصها
غير نابض واحد، وعن فرس فنية لاهبة ذات طرتين رماديتين، في
السابعة عشرة من عمرها، وعن بذور جديدة للفت والفجل قادمة
من لندن، وعن بيت ريفي مزود بكل اللوازم ومنها مربطان للخيل،

وبقعة يمكن أن تكون فيها غابة لأشجار البتولا أو الشوح. كما هناك دعوة للراغبين في شراء أنعلة قديمة، للحضور إلى المزاد العلني كل يوم من الساعة الثامنة صباحاً حتى الثالثة بعد الظهر. وكانت الحجرة التي يزدحم بها كل هذا الخلق صغيرة، وهواؤها ثقيلًا للغاية، ولكن الملاحظ كوفاليوف لم يكن يستطيع أن يشم الرائحة، لأنه ملثم بالمنديل، ولأن أنفه نفسه لا يعرف إلا الشيطان في أي مكان الآن.

قال أخيراً في نفاد صبر:

- يا حضرة المحترم، اسمح لي أن أتوجه إليك. أنا بحاجة شديدة.
- حالاً! حالاً روبلان وثلاثة وأربعون كوبيكاً! لحظة! روبل وأربعة وستون كوبيكاً! كان السيد الأشيب يقولن /لقياً إعلانات العجائز والخدم في وجوههم، وقال أخيراً مخاطباً كوفاليوف ماذا تحب؟

- أرجوك قال كوفاليوف حصل نصب أو احتيال، لا أعرف ماذا حتى الآن. أرجوك فقد أن تنشر أن مَنْ يدلني على هذا الوغد يحصل على مكافأة معتبرة.

- هل لي أن أعرف ما اسمك؟

- لا، وما حاجتك إلى اسمي؟ لا يجوز لي أن أبوح به. عندي معارف كثيرون. تشيختاريافا زوجة المستشار من الدرجة الراقية، بالاغيا غريغوريفنا بودوتشيننا زوجة ضابط عالي الرتبة... فقد يسمعون، لا سمح الله! يكفي أن تكتبوا ببساطة: الموظف، أو، وهذا أفضل، المنسب في رتبة رائد.

- وهل الهارب كان خادماً؟

- أي خادم؟ ما كان سيكون عملية نصب كبيرة إلى هذه الدرجة، لو كان كذلك.... الذي هرب مني... أنف....

- احم! اسم عائلة غريب! وسرق منك مبلغاً كبيراً، السيد أنف هذا؟

- أنف.... أنا أعني... ما تفكر فيه غير ذلك! أنف، يعني أنفي لا أعرف أين ضاع. أريد الشيطان أن ينكت علي.

- بأية طريقة ضاع؟ لا أستطيع أن أفهم بشكل جيد.

- ولكن لا أستطيع أن أقول لك بأية طريقة. غير أن الشيء الرئيسي أنه يطوف الآن في المدينة، ويسمي نفسه مستشاراً من الدرجة الراقية. ولهذا أرجو أن تعلن أن من يعثر عليه يقدمه لي في أقرب وقت. احكم كيف لي في الحقيقة أن أستغني عن هذا الجزء الظاهر والمعتبر من الجسم؟ ليس هذا خنصر قدمك الذي، إذا فُقد، لا يراه أحد، وهو في الحذاء. أنا في أيام الخميس أزور زوجة المستشار من الدرجة الراقية تشيختاريفسا، وفي أيام الاثنين بالاعيا غريغوريفنا بودتوتشينا، زوجة ضابط عمالي الرتبة، ولهذا ابنة بديعة جداً، وهما من معارفي الطيبين جداً، ولك أن تحكم ماذا علي أن أفعل الآن... يستحيل أن أزورهم.

وغرق الموظف في تفكير، ظهر ذلك من شفثيه المزمومتين بشدة. وبعد صمت طويل قال:

- لا، لا أستطيع أن أنشر مثل هذا الإعلان في الصحف.

- كيف؟ ولماذا؟..

- هكذا! قد تفقد الجريدة سمعتها. فلو أن أي إنسان يأخذ بالإعلان عن هروب أنفه منه، فإن... بدون ذلك يقولون إن الصحافة تنشر الكثير مما لا يقبله العقل السليم، ومن الإشاعات الكاذبة.

- ولكن ماذا في هذا مما لا يقبله العقل السليم؟ لا أظن فيه شيئاً من ذلك.

- هذا ما تظنه أنت. في الأسبوع الماضي وقع مثل هذا الحادث.
جاء موظف بالطريقة التي جئت بها الآن وجلب إعلاناً يكلفه روبلين
وثلاثة وسبعين كوبيكاً. وفحوى إعلانة كله هو أن كلباً أسود هرب
منه. وقد يظن المرء: وماذا في ذلك؟ ولكن تبين أن وراء ذلك تشهيراً،
نقد كان كلب هذا أميناً للصندوق، ولا أذكر لأية مؤسسة.
- ولكنني لا أعلن عندكم عن كلب، بل عن أنني أي عن كليتي
تقريباً.

- لا، لا أستطيع أن أنشر مثل هذا الإعلان.

- حتى في حالة ضياع أنني!

- إذا كان قد ضاع، فهذه مسألة تخصص الطب. يقال إن هناك
أناساً يستطيعون أن يركبوا أي أنف تشاء. ولكنني، بالمناسبة، أرى
أنك، لا محالة، رجل ذو طبع فكه، وتحب التنكيت بين الناس.
- أقسم لك بالله! وما دام الأمر قد وصل إلى هذا الحد، فمن الممكن
أن أريك.

- لا تعب نفسك! مضى الموظف يقول مستنشقاً السعوط
على كل حال، إذا كان لا يتعبك أضاف ذلك بنفحة فضول فمن
المستحسن أن ألقى نظرة.

أزاح كوفاليوف المنديل عن وجهه. قال الموظف:

- فعلاً، في منتهى الغرابة! أملس تماماً كفضيرة قليت لتوها. نعم،
ومنبسط بشكل لا يصدق.

- طيب، وهل ستجادل الآن؟ أنت تري بنفسك ضرورة النشر.
سأكون ممتناً جداً لك، ومسرور جداً لأن هذه الفرصة أتاحت لي
متعة التعرف عليك...

والظاهر من هذا أن الرائد عزم في هذه المرة أن يعتمد إلى التزلّف
قليلاً. قال الموظف:

- النشر سهل، بالطبع، ولكن لا أرى من وراء ذلك أية فائدة لك.
إذا كنت تريد فأعهد الأمر إلى صاحب ريشة حاذقة ليصف هذا
كشذوذ من شواذ الطبيعة، وينشر مقالته هذه في «سيفرنايا بشيلا»
(واستنشق السعوط مرة أخرى) لمنفعة الشبيبة (ومسح أنفه) أو
هكذا، لحب الاستطلاع عموماً.

أصبح كوفاليوف بخيبة الأمل، أنزل بصره إلى أسفل الجريدة،
حيث الأخبار عن العروض المسرحية، وكادت الابتسامة تطل على
وجهه، حين رأى اسم فتاة مليحة، وانسلت يده إلى جيبه لعله يجد فيه
ورقة نقدية زرقاء^(١)، لأن الضباط عاليي الرتبة، في رأي كوفاليوف،
يجب أن يجلسوا في مقاعد الدرجة الأولى، ولكن تفكيره في الأنف
أفسد عليه كل شيء!..

وبدا وكأن الموظف نفسه قد تأثر بورطة كوفاليوف. ورغبة
منه في تخفيف بلواه، وجد من اللائق أن يعبر عن تعاطفه ببعض
الكلمات:

- في الحقيقة يحزنني جداً أن مثل هذا الحادث حصل لك. ألا
تحب نشقة سعوط؟ إنه يبدد آلام الصداغ، والأمزجة المتعكرة، بل
ومفيد أيضاً للبواسير.

ومع قوله هذا قدم الموظف علبة السعوط، بعد أن رفع عنها بحذق
غطاءها المرسومة عليه صورة سيدة في قبعة.

وهذا الفعل غير المقصود أخرج كوفاليوف عن رباطة جأشه،
فقال بغضب:

- أنا لا أفهم كيف تجدد وقتاً للنكات. ألا ترى أنني لا أملك ما

(١) إشارة إلى أن هذه الدرجة يمكن أن تمنح في القفقاس بسهولة كبيرة، وغالباً
ليس بطريقة نزيهة. الناشر.

يُستشَق منه؟ اللعنة على سعو طك! أنا لا أستطيع النظر إليه، وليس إلى سعو طك الرخيص الحقيق، بل وحتى لو قدمت لي سعو ط «رابه» الفاخر نفسه.

قال ذلك. وخرج من المكتب الصحفي منزعجاً جداً، واتجه إلى معاون شرطة المنطقة، المتيم جداً بالسكر، كانت غرفة الجلوس في بيته، وهي غرفة الطعام أيضاً، تتناثر فيها رؤوس السكر التي جلبها التجار له تعبيراً عن الصداقة. وكانت الطباخة في ذلك الوقت، قد خلعت عن معاون الشرطة حذائيه الطويلين، وكان السيف وجميع ملحقاته العسكرية معلقة بهدوء في الأركان. وابنة ذو الأعوام الثلاثة يداعب القبة الثلاثية المخيفة، أما معاون الشرطة نفسه فقد نهياً لتذوق متعة السلام، بعد حياة قتالية عسكرية.

دخل كوفاليف عليه، في اللحظة التي تمطى فيها وحمحم، وقال: «آه، ما ألد أن أحظى بساعتين من القيلولة!». ولهذا السبب يمكن القول مسبقاً أن وصول الرائد كان في غير وقته تماماً، ولا أعرف بالضبط، فحتى لو جلب له المرء في تلك الزيارة بعض أوقيات من الشاي وشيئاً من الجوخ لما استقبله بترحاب شديد. كان معاون الشرطة مشجعاً كبيراً لجميع الفنون والصنائع، ولكنه كان يفضل الأوراق النقدية على كل شيء. وكان يقول عادة: «إنها شيء لا يفضلته شيء آخر. لا تطلب أن يقدم لها طعام، ولا تحتل غير مكان صغير، والجيب دائماً يسعها. وإذا وقعت منك لا تنكسر».

استقبل معاون الشرطة كوفاليف بجفاف ملحوظ، وقال إن ما بعد الغداء ليس وقتاً لفتح تحقيق، وأن الفطرة نفسها جعلت فترة ما بعد الغداء للاستراحة القصيرة (ومن هذا استطاع الرائد أن يرى أن معاون الشرطة ملم بأقوال الحكماء القدامى) والرجل السوري لا يُخلع أنفه، والدنيا حافلة بأصناف من حَمَلَة رتبة رائد لا يملكون

حتى ملابس داخلية في حالة معتبرة، ويتدردون على مختلف الأماكن المشبوهة.

وهذا بيت القصيدة! وتجدر الإشارة إلى أن كوفاليوف كان رجلاً شديد التكدر كلياً، في إمكانه أن يتسامح في كل ما يقال عن شخصه. ولكنه لم يكن يتسامح قط حين يتعلق الكلام بالرتبة واللقب. بل وكان يرى أن من الممكن في المسرحيات، التساهل بكل ما يتعلق بالضباط المتوسطي الرتبة، ولكن لا يجوز مهاجمة الضباط العاليي الرتبة على الإطلاق. وقد أربكه استقبال معاون الشرطة له إرباكاً جعله ينفذ رأسه، ويقول بشعور من الكرامة، وقد بسط ذراعيه قليلاً: «بصراحة، بعد هذه الملاحظات المهينة من جانبك لا أستطيع أن أضيف شيئاً...». وخرج.

وصل إلى بيته، وهو لا يكاد يحس بالأرض تحت قدميه. وكان الغسق قد حلّ. وبدأ له مسكنه حزيناً وحقيقاً للغاية، بعد هذه التحريات الفاشلة. دخل الرواق، فرأى على الأريكة الجلدية المبقعة خادمه إيفان راقداً على ظهره، ييصق في السقف، ويصيب بصاقه بقعة واحدة بدقة. أحنقه هذا التسيب من الرجل. فضربه بقبعته على جبهته، بعد أن قال: «أنت، يا خنزير، دائماً تنشغل بالسفاسف!». قفز إيفان من مكانه فجأة، واندفع بكل قوته ليخلع معطف سيده. دخل الرائد إلى حجرته، فانهد على الكرسي متعباً حزيناً، وبعد زفرات قليلة قال أخيراً:

- ياربي! ياربي! على أي شيء هذه البلوى؟ لو كنت بلا يدين، أو بلا رجلين لكان ذلك أفضل، لو كنت بلا أذنين لكان أهون على الرغم من بشاعته. ولكن أي شيء إنسان بلا أنف. لا هو طائر يطير، ولا هو مواطن بين المواطنين. لا يساوي إلا أن ترميه من الشباك! وباليست الأنف جدع في حرب أو في مبارزة، أو كنت أنا السبب،

ولكنه ضاع بلا أي موجب ولا أي سبب، ضاع هباءً، ولو جبه الله! ولكن لا، غير ممكن أضاف، بعد أن فكر قليلاً غير معقول أن يضيع الأنف. غير محتمل، البتة، هذا في الحقيقة، حلم أو مجرد توهم. ربما أخطأت فشربت، بدل الماء الفودكا التي أفرك بها لحيتي بعد الحلاقة. لم ياخذ إيفان، الأحق القدرح مني فشربتها أنا، شربتها، بالتأكيد.

وليتأكد من أنه غير سكران فعلاً قرص الرائد نفسه قرصة موجهة، حتى وجد نفسه يصرخ. وقد أقنعه هذا ألا لم كلياً بأنه يحس ويحيا في اليقظة. تقدم من المرأة خلصة، وأغمض عينيه في البداية تحدوه فكرة أن لعل وعسى أن يكون أنفه في مكانه، ولكنه في نفس اللحظة وثب مرتداً إلى الوراء قائلاً:

- أي منظر قبيح.

لم يكن ذلك مفهوماً البتة، لو ضاع زر، ملعقة فضية، ساعة أو أي شيء من هذا القبيل. ولكن ما الذي ضاع؟ ولمن ضاع؟ وفي شفته، علاوة على ذلك!... كان الرائد كوفاليوف، عند تقليبه كل الظروف والملابسات في ذهنه يفترض ما يكاد أن يكون أقرب الاحتمالات إلى الحقيقة، وهو أن الذنب في هذا لا بد أن يقع على زوجة الضابط العالي الرتبة بودتوتشينا أكثر من أي شخص آخر، فهي التي كانت ترغب في أن يتزوج ابنتها. وهو نفسه كان يحب مغازلتها، ولكنه كان يتحاشى القرار النهائي. وعندما أعلنت زوجة الضابط له على المكشوف أنها تريد أن تزوجه إياها، للم نفسه بخفة وبعباراته المجاملة، قائلاً: إنه ما يزال شاباً، وأن عليه أن يخدم زهاء خمسة أعوام ليكون في سن الثانية والأربعين بالنضبط. ولهذا السبب عازمت زوجة الضابط، وعلى سبيل الانتقام على الأرجح، أن تشوّه، واستأجرت لهذا الغرض نساء ساحرات، لأن من المستحيل قطعاً الافتراض بأن أنفه قد جُدِعَ، فإن أحداً لم يدخل إلى حجرته.

والحلاق إيفان ياكوفليفيتش حلق وجهه في الأربعاء الفائت، وخلال يوم الأربعاء كله، بل وحتى يوم الخميس كله كان أنفه سليماً، وهذا ما يذكره ويعرفه جيداً، ثم كان سيشعر بال ألم، والجرح، بدون شك، ما كان ليندمل بهذه السرعة، ويصير أملس كالفطيرة. ورسم الخطط في ذهنه: هل يقيم دعوة رسمية على زوجة الضابط، أم يذهب إليها بنفسه، ويفضحها؟ قطع أفكاره ضوء نفذ من خلال خصائص الباب كلها، مما يدل على أن إيفان أشعل شمعة في الرواق. وبعد قليل ظهر إيفان نفسه، يحمل الشمعة أمامه، ويضيء الحجرة كلها بضوء ساطع. والحركة الأولى التي أبدأها كوفاليوف إنه اختطف المنديل وغطى به المكان الذي كان فيه أنفه حتى يوم أمس فقط، لكيلا يُذهل رجل أبله ويحلق فيه، وهو يرى هذه الأعجوبة في وجه سيده.

وماكاد إيفان يذهب إلى خُنه، حتى ترمى من الرواق صوت غير معروف يقول:

- أهذا مسكن الملاحظ كوفاليوف؟

- ادخل، الرائد كوفاليوف هنا.

قال كوفاليوف وقفز مسرعاً، وفتح الباب.

دخل رجل شرطة ذو وجه وسيم وفودين ليسا وضّاحين ممّاماً ولا داكنين، وخدين ممتلئين، وهو نفس الشخص الذي كان في بداية القصة يقف في طرف جسر ايساكييفسكي.

- هل فقدت أنفك، يا حضرة؟

- نعم.

- عثروا عليه الآن.

- أهذا صحيح؟

صاح الرائد كوفاليوف، وشلت الفرحة لسانه. فحدّق ملياً في

الشرطي والواقف أمامه، الذي كان ضوء الشمعة المتمايل يسقط ساطعاً على شفتيه وخديه الممتلئين. وأضاف:
- وبأية طريقة؟

- بمصادفة غريبة. اعترضوه وهو يوشك على السفر. وقد استقلّ عربة سفر، ليسافر إلى ريغا. جواز سفره كان قد صدر منذ زمان باسم أحد الموظفين. والغريب أنني نفسي حسبته سيداً. ولكن نظارتي كانت معي، لحسن الحظ، فعرفت في الحال أنه الأنف، فأنا قصير النظر، وإذا وقفت أنت أمامي، فإنني لا أرى غير وجهك، ولكن لا أتبين الأنف ولا اللحية ولا أي شيء آخر. حماتي، أقصد أم زوجتي، لا ترى شيئاً أيضاً.

واشتدت اللهفة في نفس كوفاليوف.

- أين هو؟ أين؟ سأجري حالاً.

- لا تتعب نفسك. كنت أعرف أنك تحتاج إليه، فجلبته معي، ولكن الغريب أن الشريك الرئيسي في هذه القضية هو الحلاق النصاب في شارع فوزنيسينسكايا، وهو محتجز الآن في الموقف. منذ زمان وأنا أشبهه في أنه يمارس السكر والسرقة، وقبل يومين فقط نشل من أحد الخوانيت دوزينة من الأزرار، بقي أنفك على شكله تماماً.

وبهذا الكلام دس الشرطي يده في جيبه، وأخرج الأنف ملفوفاً بقصاصة ورق.

صاح كوفاليوف:

- هذا هو! بالضبط! تفضل واشرب الشاي عندي اليوم.

- سيكون ذلك لطفاً كبيراً، ولكنني لا أستطيع، عليّ أن أتوجه من هنا إلى مستشفى المجاذيب... ارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعاً كبيراً... وأنا أعيل حماتي، أقصد أم زوجتين وأطفالي. وكبيرهم

بشكل خاص يبشر بآمال كبيرة، صبي ذكي جداً، ولكن ليس لي ما أنفقه على تعليمه إطلاقاً...

حدس كوفاليوف، والتقط من الطاولة ورقة نقدية حمراء^(١)، ودسها في يد الشرطي الذي خرج وراء الباب شاحطاً قدميه، وفي تلك اللحظة تقريباً سمع كوفاليوف صوته في الشارع، حيث سدّد موعظة ناصحة إلى إنسان ريفي تجاسر أن يسير في عربته للنقل في البولفار.

بعد انصراف الشرطي بقي الرائد بضغ دقائق في حالة غير محددة، وبعد بضغ دقائق فقط عادت إليه حاسة النظر والشعور. إلى هذا الحد من الذهول ونسيان الذات أسلمته فرحته المباغتة. تناول الأنف المفقود بحرص بكلتا يديه المقعرتين، ومرة أخرى نظر إليه بإمعان. وأنشأ الرائد كوفاليوف يقول:

- إنه هو، هو بالضبط! هذه هي البثرة في الجانب الأيسر، تلك التي طلعت عليه يوم أمس.

وأوشك الرائد أن يضحك فرحة.

ولكن لا شيء في الدنيا يدوم طويلاً، ولهذا فإن هذه الفرحة أيضاً في الدقيقة التالية لم تكن بحبوية الفرحة في الدقيقة الأولى، وفي الدقيقة الثالثة صارت أخف، وأخيراً، وبشكل غير ملحوظ تلاشت وامتزجت في المزاج الاعتيادي للنفس، مثل تلك الدائرة التي يحدثها إلقاء حجر في الماء، حين تتلاشى أخيراً في السطح المنبسط. وأخذ كوفاليوف يفكر وانتهى تفكيره إلى أن المسألة لم تنته بعد، صحيح أن الأنف قد عثر عليه، ولكن يجب تركيبه. وضعه في محله.

(١) ورقة نقدية من قيمة معتبرة. المترجم.

وماذا لو لم يثبت في محله؟

وشحب وجه الرائد من هذا السؤال الذي طرحه هو على نفسه. اندفع إلى الطاولة شاعراً بفزع هائل، وقرب المرأة، حتى لا يركب الأنف باعوجاج. كانت يدها ترتجفان. ركب الأنف بحذر وتأن في موضعه السابق. أوه، يا للهول! الأنف لا يلتصق. قرّبه من فمه، ودفاه قليلاً بأنفاسه، ورفعته ثانية إلى تلك البقعة الملساء الموجودة بين الخدين، ولكن الأنف لم يثبت مهما حاولز

- هيا، هيا! اركب، يا أبله! كان يقول له. ولكن الأنف وكأنه من خشب كان يسقط على الطاولة بصوت غريب، وكأنه سداد من فلين. تلوى وجه الرائد بثنتج، وأنشأ يقول بفزع: «معقول إنه لا يلتحم؟». ولكن كل محاولاته في إلصاقه في مكانه السابق باءت بالفشل.

نادى إيفان، وأرسله لاستدعاء الطبيب الذي كان يشغل في نفس البيت أحسن شقة، في الطابق الأول، كان هذا الطبيب رجلاً مرموقاً مكتنز اللحم، له فودان جميلان فاحمان، وزوجة نصرّة بادية العافية، يأكل التفاح الطازج في الصباح، ويحرص على جعل فمه في غاية النظافة، إذ يفرغه كل يوم ثلاثة أرباع الساعة، ويُجلى أسنانه بخمسة أنواع مختلفة من الفرش. حضر الدكتور حالاً. وسأل متى حصلت هذه البلوى، ورفع حنك الرائد كوفاليوف، ونقر بإبهامه الموضع الذي كان فيه الأنف سابقاً نقرة اضطرت رأس الرائد أن يرتد إلى الوراء بقوة شديدة جعلت يافوخه يرتطم في الجدار، قال الطبيب: لا بأس. ونصحته بالابتعاد قليلاً عن الجدار وأمره بأن يميل رأسه إلى اليمين أولاً، وتحسس موضع الأنف السابق، وقال: «إحم!» ثم أمره بأن يميل برأسه إلى اليسار، وقال: «إحم!» وفي الختام نقره بإبهامه مرة أخرى نقرة جعلت الرائد يسحب رأسه، مثلما يفعل الحصان

حين يفحصون أسنانه. وهزّ الطبيب رأسه بعد هذا الفحص، وقال:
- لا، غير ممكن. الأفضل أن تبقى على حالك، وإلا فقد تصير
أسوأ. بالطبع، يمكن تركيبه، ولعلني أستطيع تركيبه لك الآن، ولكن
أؤكد لك أن ذلك سيكون أسوأ لك.

قال كوفاليوف:

- يا إلهي! وكيف أبقى بلا أنف؟ لا يمكن أن يكون أسوأ مما هو
الآن. هذه مصيبة والشيطان وحده يعرف أي شيء هذا! إلى أين أولي
وجهي بهذا المنظر المريع؟ عندي معارف فآخرون. اليوم، مثلاً،
عليّ أن أزور بيتين وأحضر الحفلة المسائية. فأنا أصادق الكثيرين:
زوجة المستشار من الدرجة الراقية تشيختاريفا، وبودوتشينا زوجة
الضابط... وإن لم تبقى أية علاقة لي معها إلا عن طريق الشرطة بعد
فعلتها اليوم. اعمل معروفًا قال كوفاليوف بصوت ضارع ألا توجد
وسيلة؟ ركبّ بطريقة ما ولو بشكل ما، مجرد أن يلزق. بل وأستطيع
أن أسنده بيدي، في الحالات الخطرة. كما أنني لا أرقص ولذلك لن
أؤذيه بحركة غير حذرة. أما بخصوص رد الجميل على الاستشارة،
فكن على ثقة بأنني سأقوم به بقدر ما تسعفني موارد.

- هل تصدق قال الدكتور بصوت لا هو بالعالى ولا بالواطى،
ولكنه هادئ موح إنني لا أعالج أبداً للمنفعة فهذا يعارض أصولي
وفني. صحيح أنني أتقاضى أتعاباً على الزيارات، ولكن لسبب
وحيد هو أنني لا أريد أن أكدر المريض برفضي لها. بالطبع، من
الممكن أن أركب أنفك، ولكن أؤكد لك بالشرف، إذا كنت لا
تصدق بكلامي، أن ذلك سيكون أسوأ بكثير. الأفضل أن تترك
الأمر للطبيعة لتفعل فعلها. اغتسل غالباً بالماء البارد وأؤكد لك إنك
بلا أنف ستكون سليماً معافى كما لو أنك بأنف. أما بخصوص
الأنف نفسه، فأنصحك بأن تضعه في قارورة فيها كحول، أو، وهذا

أحسن، أن تصب فيها ملعقتين من الفودكا القوية، والخل المسخن،
وعند ذاك تستطيع أن تبيعه بمبلغ محترم. بل وأستطيع أن آخذه أنا، إذا
كنت لا تبالغ في الثمن.

- لا، لا! لن أبيعه بأي ثمن! صاح الرائد كوفاليوف يائساً الأفضل
أن يتلف!

- اعذرني! قال الدكتور مستأذناً بانحناءة كنت أريد أن أكون في
خدمتك... لا بأس! على الأقل رأيت جهدي.

وبعد هذا القول خرج الطبيب من الغرفة بسمت الوجاهة. ولم
يتبين كوفاليوف حتى قسماات وجهه، ففي تبلُّده العميق لم ير غير
كمي قميصه الأبيض النقي كالثلج بارزين من ردني فراكه الأسود.

وقرر أن يكتب في اليوم التالي رسالة إلى زوجة الضابط العالي
الرتبة، قبل رفع الدعوى عليها، يسألها ألا توافق أن ترد له، ودون
نزاع، ما يجب أن ترده. وكانت الرسالة بهذا المحتوى:

«حضرة السيدة

بالاغيا غريغوريفنا!

لا أستطيع أن أفهم التصرف الغريب من جانبك. كوني على ثقة،
بأنك في تصرفك هذا لن تكسبي شيئاً ولن تجبريني أبداً على الزواج
من ابنتك. تأكدي أن حكاية أنفي معروفة لي كلية، تماماً كما أعرف
أنكمما، لا غيركما، المتورطتان الرئيسيتان في هذه الفضيحة. إن
انفصاله عن موضعه، وهروبه، وتنكره مرة في هيئة موظف، ومرة
في هيئته الأصلية أخيراً ليس إلا نتيجة أعمال السحر التي قمتما بها،
أو قام بها أولئك الذين يزاولون أعمالاً نبيلة كذلك التي تزاولانها.
ومن ناحيتي أرى من الواجب أن أحذرك من أنني سأضطر، إذ لا
يعود الأنف المذكور إلى موضعه اليوم إلى اللجوء إلى حماية القوانين

ورعايتها، مع احترامي التام، على كل حال، والتشرف بأن أكون
خادمك المطيع.

بلاتون كوفاليوف».

«حضرة المحترم

بلاتون كوزميتش!

رسالتك أدهشتني غاية الدهشة. وأعترف لك بصراحة أنني لم
أكن أتوقع قط، لاسيما تلك الملامات غير العادلة من جانبك. أعلمك
أنني لم أستقبل في بيتي قط الموظف الذي تشير إليه، متكرراً أو في هيئته
الأصلية، صحيح أنني استقبلت فيليب إيفانوفيتش بوتانتشيكوف.
ومع أنه طلب يد ابنتي بالفعل، ومع كونه طيب الخلق، غير مبال إلى
الشربن وافر العلم، إلا أنني لم أمته بأمنية. ثم إنك تنوه عن الأنف،
فإذا كنت تعني بهذا أنني أردت أن أضللك وأخدعك أي أعطيك
رفضاً شكلياً، فإنني لأستغرب أن يصدر هذا الكلام منك، بينما أنا
بقدر ما تعرف أنت، كنت ضد هذا الرأي مماماً، وإذا كنت الآن
تخطب ابنتي بطريقة شرعية، فأنا مستعدة أن ألبي طلبك في نفس
الساعة، لأن هذا كان دائماً موضع رغبتني وأمنيته القوية، وعلى أمل
ذلك أظل دائماً مستعدة لخدمتك.

بالاغيا بودتوتشينا».

قرأ كوفاليوف الرسالة، وأنشأ يقول: «نعم، ليست ملومة بالفعل،
غير ممكن! الرسالة مكتوبة بشكل لا يستطيع إنسان مذنب في جريمة
أن يكتبها به وكان الرائد عارفاً بذلك، لأنه كان قد أرسل إلى التحقيق
عدة مرات لما كان في منطقة القفقاس طيب، بأية طريقة، بأية أقدار
حدث هذا؟ الشيطان وحده يعلم!» قال أخيراً، وقد أسبل ذراعيه.

وخلال ذلك انتشرت الإشاعات عن هذا الحادث غير الاعتيادي في أنحاء العاصمة كلها، وكما يجري عادة، ليس بدون زيادات وإضافات، آنذاك كانت عقول الجميع لا تنجذب إلا لما هو خارق للعادة. قبل فترة قصيرة كانت تجارب تأثير القوى السحرية تستهوي الألباب، كما أن حكاية الكراسي الراقصة في شارع كونيو شينايا ما تزال طازجة في الأذهان، ولهذا فليس غريباً أن الناس سرعان ما أخذوا يتحدثون زاعمين أن أنف الملاحظ كوفاليوف يتمشى في شارع نيفسكي في تمام الساعة الثالثة فكان عدد كبير من الفضولين يتجمع كل يوم. وزعم أحدهم أن الأنف موجود في مخزن يونكر، فتراحم الناس قرب يونكر حشوداً فاضطرت الشرطة إلى التدخل. ثم إن أحد المضاربين بالأسعار، وهو رجل ذو هيئة محترمة وفودين، كان يبيع أنواعاً من الكعك الناشف المحلى قرب مدخل المسرح، قد صنع خصيصاً لذلك مساطب خشبية متينة جميلة، وأخذ يدعو الفضولين للوقوف عليها لقاء ثمانين كوبيكاً للمتفرج الواحد. وتعهد عقيد معتبر ذو جدارة الخروج من بيته قبل الوقت المحدد، خصيصاً لذلك، وشق طريقه خلال الزحام بصعوبة شديدة. ولكنه اغتاظ كثيراً، حين رأى في واجهة المخزن، بدلاً من الأنف، بلوزة صوفية اعتيادية، ولوحة مطبوعة حجرياً تصور فتاة تعدل جواربها وغندوراً يتطلع إليها من وراء شجرة بصداره المفتوح ولحيته الصغيرة، وهي لوحة ظلت معلقة في مكانها أكثر من عشرة أعوام. وحين تنحى جانباً قال بانزعاج: «كيف ممكن مضايقة الناس بمثل هذه الشائعات السخيفة المجانية للحقيقة؟»..

ثم سرت شائعة تزعم أن أنف الرائد كوفاليوف لا يتمشى في شارع نيفسكي بل في حديقة تفريتشيسكي وهو هناك منذ زمان

طويل يعود إلى إقامة خسرو مرزا^(١) الذي كان مندهشاً كثيراً من لعبة الطبيعة الغريبة هذه. فتوجه بعض طلاب أكاديمية الجراحة إلى هناك. وقد أرسلت سيدة وجيهة محترمة رسالة خاصة إلى ناظر الحديقة تطلب منه أن يفرج أولادها على هذه الظاهرة الفريدة، وإذا أمكن فمع شرح يرشد ويُعلم الفتية.

وكل هذه الوقائع كانت مبعث سرور عظيم لزوار حفلات الاستقبال ومآدب العشاء الضروريين من أرباب المقام، من هواة إضحاك السيدات، أولئك الذين نفذ رصيدهم من مادة الإضحاك كلياً في ذلك الوقت. وكان جزء متوسط من الناس المحترمين الموالين للمحكم ساخطاً إلى أقصى حد. وكان أحد السادة يقول في حنق أنه لا يفهم كيف يمكن في هذا العصر المستنير أن تسري اختلاقات رعناء، وأنه مندهش من عدم التفات الحكومة إليها. وكان هذا السيد، كما يبدو، من بين أولئك السادة الذين يودون جر الحكومة إلى كل شيء، وحتى إلى شجارات الزوج اليومية مع زوجته. وعقب ذلك... إلا أن كل ما حدث عقب ذلك يكتنفه الغموض التام، ولا شيء يعرف البتة.

(١) عشرة روبلات. المترجم.

في الدنيا تحدث أشياء في غاية السخف. وأحياناً تنافي الحقيقة بالمرّة. فجأة ظهر ذلك الأنف الذي انتحل رتبة مستشار عالي الرتبة وتحوّل في ربوع بطرسبورغ، وأحدث في المدينة تلك الضجة الكبيرة؛ ظهر في مكانه الطبيعي، أي بين خدي الرائد كوفاليوف بالضبط، وكان شيئاً لم يحدث قط. وقد وقع ذلك في السابع من نيسان. استيقظ الرجل، ونظر في المرأة مصادفة، فإذا به يراه، الأنف! ممسكه بيده. أجل، الأنف بالضبط. «اهيه!» قال كوفاليوف. ومن شدة فرحة كاد أن يرقص رقصة جنونية في الحجرة حافياً، ولكن دخول إيفان أعاقه. أو عز على الفور أن يهني له ليغتسل، وحين كان يغتسل نظر في المرأة مرة أخرى. إنه الأنف! وحين كان ينشّف وجهه بالمنشفة نظر في المرأة من جديد. إنه الأنف!

- انظر، يا إيفان، يبدو أن على أنفي بثرة قال ذلك، وفكر في ذات الوقت «مصيبة، لو أن إيفان سيقول: لا، يا سيدي، لا توجد بثرة ولا أنف!».

ولكن إيفان قال:

- لا، لا توجد أية بثرة، الأنف سليم!

«طيب، تخطفك الشيطان!» قال الرائد لنفسه وطقطق بأصابعه. وفي تلك اللحظة طلع في الباب الحلاق إيفان ياكوفليفيتش، ولكن بتخوف كتخوف القطعة، التي ضربت لتوها على سرقة قطعة شحم مقدّد.

صاح عليه كوفاليوف وهو ما يزال بعيداً:

- قل أولاً: هل يداك نظيفتان؟

- نظيفتان.

- تكذب!

- والله، نظيفتان، يا سيدي.

- طيب، خذ بالك.

جلس كوفاليوف، وغطاه إيفان ياكوفليفيتش بالفوطة، وفي لمحة بصره، وبمساعدة فرشاة غطى لحيته كلها، وجزءاً من خده بصابون حلاقة وجعله يبدو كالقشدة التي تقدم في أعياد ميلاد التجار.

«عجيب أمرك!» قال إيفان ياكوفليفيتش وقد رفق الأنف، ثم أمال رأسه إلى الجانب الآخر، ونظر إلى الأنف من جنب. «هكذا! إنه بعينه، فيا للعجب» مضى يقول، وحدق بالأنف طويلاً. وأخيراً، وبخفة، وبأشد حرص يستطيع أن يتصوره المرء، رفع إصبعين، ليمسكه من أرنبته، فقد كانت هذه طريقة إيفان ياكوفليفيتش في الحلاقة. وإذا بكوفاليوف يصرخ:

- إياك، إياك، إياك. خذ بالك!

أنزل إيفان ياكوفليفيتش يديه، وارتبك وذهل ذهولاً لم يشهده من قبل. وأخيراً أخذ يمرر الموسى تحت خنكه بحذر. وعلى الرغم من أنه كان يجد صعوبة وعدم لباقة في الحلاقة دون أن يمسك بعضو حاسة الشم في الجسم، إلا أنه أسند إبهامه الخشن على خده، ولثته السفلى بشكل ما، وذل كل العقبات، وحلق الوجه في آخر المطاف.

وحين انتهت حلاقة الذقن، أسرع كوفاليوف في لبس ثياب الخروج على التو، واستأجر عرب، وتوجه إلى محل الحلويات مباشرة. وحين دخل صاح على الصبي من بعيد، «أيها الصبي، قدحاً من الشوكولاته»، وفي اللحظة نفسها نظر في المرأة: الأنف موجود!

والتفت إلى الخلف مرحاً ونظر بهيئة انتقادية ساخرة، وبعينين مخاوصتين قليلاً، إلى عسكريين لأحدهما أنف ليس أكبر من زر الصدار. وبعد ذلك توجه إلى إدارة المديرية التي كان يسعى للحصول فيها على منصب نائب حاكم ولاية، أو على منصب مدير للإعالة والتموين، وفي حالة فشله، ولدى مروره بحجرة الاستقبال نظر في المرأة: الأنف موجود! ثم ذهب إلى موظف آخر، أو رائد، وهو منكّت كبير كان غالباً ما يقول له رداً على مختلف الملاحظات اللاذعة له «أوه، أنا أعرفك، أنت قارص اللسان!» وفي الطريق فكّ: «إذا كان الرائد أيضاً لا ينفجر ضاحكاً، حين يراني، فإن ذلك إمارة صادقة على أن كل شيء عندي في محله». غير أن صديقه لم ييدر منه شيء. وفكر كوفاليوف مع نفسه: «لا بأس، لا بأس، عليه اللعنة!» وفي الطريق التقى ببودتوتشينا زوجة الضابط، ومعها ابنتها، تبادل الانحناءات معهما، وقوبل بهتافات الفرح. يعني لا شيء معيب فيه، وليست فيه أية نقيصة. أفاض الحديث معهما مدة جد طويلة، وأخرج علبة السعوط متعمداً، وحشا أنفه أمامهما وقتاً طويلاً جداً، ومن كلا المنخرين قائلاً لنفسه: «ها أنا أمامكما، يا حمقى يا جنس الدجاج! ولكن لن أتزوج بابتنتك. هكذا، بدون زواج! تفضلي!» والرائد كوفاليوف منذ ذلك الحين أخذ يطوف في شارع نيفسكي ويتردد على المسارح ويتجول في كل مكان، وكأنما لم يحصل له أي شيء، وأنفه أيضاً ثابت في وجهه وكأنما لم يحصل له أي شيء. بل ولم يبدُ عليه أنه قد غادر مكانه متجولاً هنا وهناك. وبعد ذلك كان الرائد كوفاليوف يُشاهد وقد شملته دعاية مستحبة، متبسماً، ملاحقاً جميع الحلوات طراً، بل وتوقف ذات مرة أمام حانوت في سوق غوستيني، واشترى شريط وسام، لأسباب مجهولة، لأنه لم يكن يحمل أي وسام.

هذه هي الحكاية التي وقعت في العاصمة الشمالية لدولتنا
 التاسعة! والآن فقط، حين نتمثل كل شيء نرى أنها تنطوي على
 أشياء كثيرة تنافي الحقيقة. كما لا حاجة إلى القول إن انفصال الأنف
 الخارق للطبيعة، وظهوره في أماكن مختلفة في هيئة مستشار عالي
 الرتبة شيء غريب حقاً. فكيف لم يفتن كوفاليفوف إلى أن من غير
 الجائز الإعلان عن الأنف عن طريق المكتب الصحفي؟ أنا لا أقول
 ذلك لأن الإعلان بدائي غالي الثمن، فذلك شيء لا يعتد به، فأنا
 لست من الحريصين على النقود إطلاقاً. بل لأن ذلك غير لائق،
 ومخرج، ومذموم. ثم كيف دخل الأنف إلى رغيف الخبز، وكيف
 أن إيفان ياكوفليفتش نفسه؟.. لا، هذا ما لا أفهمه أبداً، لا أفهمه
 إطلاقاً. ولكن الأفرع من ذلك، وإلا بعد عن الفهم من أي شيء آخر
 هو كيف يمكن للمؤلفين أن يختاروا مثل هذه المواضيع؟ بصراحة،
 هذا شيء غير مفهوم البتة. نعم، بالضبط... لا، لا، لا أفهمه إطلاقاً.
 أولاً لن يجني الوطن من ذلك أية فائدة، وثانياً... مثلما في أولاً، يلا
 أية فائدة أيضاً. لا أعرف قطعاً ما هذا...

إلا أنسي، مع كل ذلك وعلى كل حال يمكنني التسليم بهذا،
 وبآخر، وبثالث، بل وحتى في الإمكان... نعم، ولكن أي مكان
 يخلو من اللا معقولات؟ ومع هذا، فمهما تأملت وترويت، فإن كل
 ذلك، في الحقيقة، ينطوي على شيء ما، ومهما قال هذا وذلك فإن
 مثل هذه الحوادث تحصل في الدنيا نادراً، ولكنها تحصل.

المعطف

(ترجمة د. أبو بكر يوسف)

في إحدى الإدارات كان يعمل أحد الموظفين.. موظف لا نستطيع أن نقول عنه إنه كان بارزاً جداً، بل كان قصير القامة، وأحمر الشعر إلى حد ما، بل ويبدو أعمش إلى حد ما، بصلعة صغيرة فوق الجبين وتجاويز على كلا الخدين، أما لون وجهه فكان كما يقال بواسيرياً... وما العمل؟! الذنب في ذلك ذنب جو بطرسبورغ. أما فيما يتعلق برتبته (لأنه من الضروري عندنا أن نعلن عن الرتبة قبل كل شيء) فقد كان ممن يسمون بـ «المستشارين الاعتباريين»^(١) الخالدين الذين سخر منهم وهزئ بهم ما وسعهم، كما هو معروف، شتى الكتاب من ذوي العادة المحموددة في التهجم على أولئك الذين لا يحسنون العض. وكان اسم عائلة الموظف يشماتشكين. وكان اسم الموظف أكاسي أكافيتش. أما متى وفي أي وقت التحق بالإدارة ومن الذي ألحقه بها، فهذا ما لم يستطع أحد أن يذكره. فمهما تغير المدراء والرؤساء فقد كان الجميع يرونه دائماً في نفس المكان وفي نفس الوضع وفي نفس الوظيفة، أي موظف كتابة، حتى إنهم آمنوا

(١) أمير فارسي زار روسيا في آب ١٨٢٩، بمناسبة مقتل السفير الروسي في طهران غروبويدوف (١٧٩٥ - ١٨٢٩)، المؤلف المسرحي الشهير، صاحب الكوميديا الشهيرة «الحنّة من العقل». المترجم.

فيما بعد بأنه، على ما يبدو، قد ولد هكذا جاهزاً، في حلته الرسمية وبصلعة في رأسه. ولم يكن يحظى في الإدارة بأي احترام. فالخراس لم يكونوا ينهضون عند رؤيته، ليس هذا فحسب، بل حتى لم يكونوا ينظرون إليه، كما لو كانت مجرد ذبابة هي التي طارت عبر صالة الاستقبال. أما الرؤساء فكانوا يعاملونه بطريقة باردة. فأي مساعد من مساعدي رئيس القلم كان يدس الأوراق تحت أنفه مباشرة حتى دون أن يقول له: «انسخها» أو «هاك عملاً طريفاً طيباً» أو أية كلمات طيبة كما جرت العادة في المكاتب المهذبة. أما هو فكان يتناول الأوراق متطلعاً إليها وحدها دون أن ينظر إلى من قدمها له وهل يملك الحق في ذلك أم لا. كان يتناولها ويشرع على الفور في نسخها. وكان الموظفون الشبان يسخرون منه وينكتون عليه بقدر ما كانت تسمح به روح النكتة المكتبية، ويروون أمامه شتى الحكايات التي ألفوها عنه، ويقولون عن مديرة بيته وهي عجوز في السبعين من عمرها، إنها تضربه ويسألونه متى سيحتفلون بزواجهما، ويهبلون الأوراق على رأسه قائلين إنه الثلج يسقط. ولكن أكاكي أكاكيفتش لم يكن يرد على ذلك بكلمة واحدة، كأنما لم يكن يقف أمامه أحد. بل إن ذلك حتى لم يؤثر على عمله، إذ لم يكن يرتكب خطأ واحداً في الكتابة وسط كل هذه السخریات. وفقط عندما تكون النكتة غير محتملة، وعندما كانوا يدفعونه في ذراعه، فيعوقونه عن العمل، كان يقول: «دعوني في حالي، لماذا تهينونني؟» كان يبدو ثمة شيء غريب في كلماته وفي الصوت الذي قيلت به. كان فيها شيء يستدر الشفقة، حتى إن موظفاً شاباً التحق بالوظيفة حديثاً وكان قد سمح لنفسه بالسخرية منه كما يفعل الآخرون، توقف فجأة كالمصعوق، ومن يومها بدا وكأن كل شيء قد تغير أمام عينيه وتبدى في صورة أخرى. ودفعته قوة غير طبيعية مجهولة بعيداً عن زملائه الذين صاحبهم باعتبارهم أشخاصاً محترمين مهذبين.

وظل هذا الموظف بعد ذلك ولفترة طويلة وفي أوج لحظات المرح يتذكر الموظف القصير ذا الصلعة فوق الجبين بكلماته النافذة «دعوني في حالي، لماذا تهينونني؟».. وترن في هذه الكلمات النافذة كلمات أخرى: «أنا مثل أخيك». فكان الشاب المسكين يغطي وجهه بيديه ويرتجف مرات ومرات عديدة بعد ذلك طوال عمره وهو يرى ما في الإنسان من لا إنسانية وإلى أي مدى تختفي الفظاظاة الوحشية في التهذيب الراقي المرفه ويا إلهي حتى في ذلك الإنسان الذي يعتبره المجتمع نبيلًا وشريفاً.

ومن النادر أن تجد شخصاً يتفانى في عمله إلى هذا الحد. فلا يكفي أن نقول إنه كان يعمل بغيرة، كلا، لقد كان يعمل بعشق. كان يرى في ذلك النسخ عالماً خاصاً به، عالماً متنوعاً ولطيفاً. وكانت المتعة تتجلى في وجهه. وكانت بعض الحروف أثيرة لديه، وعندما يبلغها لا يعود يسيطر على نفسه. كان يضحك ويغمز بعينه ويساعد بشفتيه على كتابتها، حتى إنه كان يبدو أنه بالإمكان أن تقرأ على وجهه الحرف الذي كان قلمه يخطه. ولو أنهم كافأوه بقدر حميته فربما أصبح، ولدهشته هو، من مستشاري الدولة^(١). ولكنه، وكما قال زملاؤه المازحون. نال من الخدمة فتلة في عروة وفاز بمعرض البواسير وألم الظهر. وعموماً فلا يمكن أن نقول إنه لم يحظ بأدنى اهتمام. فقد أراد أحد المدراء، وكان رجلاً طيباً، أن يكافئه على خدمته الطويلة، فأمر بأن يعهدوا إليه بشيء ما أهم من مجرد النسخ. فكلّفوه بأن يعد مذكرة من واقع ملف جاهز بالفعل لإرسالها إلى جهة أخرى. ولم يكن الأمر يتعدى أكثر من تغيير العنوان الرئيسي وتعديل بعض الأفعال من صيغة المتكلم إلى الغائب. ولكنه كلف من الجهد ما جعله

(١) رتبة مدنية في روسيا القيصرية من الرتب الدنيا تعادل رتبة النقيب العسكرية.

يعرق تماماً ويحك جبينه، وأخيراً قال: «كلا، من الأفضل أن تعطوني شيئاً ما أنسخه». ومن يومها أبقوه للنسخ إلى الأبد. وكان يبدو أنه لا يوجد بالنسبة له أي شيء خارج هذا النسخ. لم يكن يفكر في ملابسه أبداً: فحلت له لم تكن خضراء اللون، بل ذات لون أحمر طحيني ما. وكانت يافتها ضيقة، قصيرة، حتى إن عنقه. على الرغم من أنه لم يكن طويلاً، كان يبرز من الياقة ويبدو طويلاً بصورة غير عادية. وكان يعلق بحلته دائماً شيء: إما قطعة قش أو خيط ما. وعلاوة على ذلك كانت لديه مهارة خاصة أثناء سيره في الشارع في أن يتواجد تحت النافذة بالضبط في الوقت الذي يلقون فيه شتى الفضلات.

ولذلك كان يحمل على قبعته دائماً قشر البطيخ والشمام وغير ذلك من التفاهات. ولم يحدث مرة واحدة في حياته أن التفت إلى ما يجري ويحدث كل يوم في الشارع ولا حتى إلى ما ينظر دائماً إليه أخوه الموظف الشاب. كما هو معروف، والذي تمتد نظراته الثاقبة النشطة إلى حد أنه يلاحظ على الرصيف الآخر من تفتت ربطة ساق سرواله، الأمر الذي يجعل الابتسامة الخبيثة تظهر على وجهه.

أما أكاي أكاي فتش فحتى لو نظر إلى شيء ما فما كان ليرى فيه سوى سطوره النظيفة المكتوبة بخط منمق، اللهم إلا إذا استقرت على كتفه فجأة سحنة حصان لا يعلم أحد من أين جاءت ونفتت بمنخاريها في خده ريحاً قوية. عندها فقط كان يلاحظ أنه ليس في وسط السطر، بل على الأرجح في وسط الشارع. وعندما يعود إلى المنزل كان يجلس على الفور إلى المائدة، فيلتهم بسرعة حساء الكرنب وقطعة لحم البقر بالبصل دون أن يحس أبداً بطعمها، وكان يأكل ذلك مع الذباب وكل ما كان الله يرسله في تلك الساعة. وعندما كان يلاحظ أن معدته بدأت تنتفخ ينهض من أمام المائدة ويستخرج دواة الحبر ويبدأ بنسخ الأوراق التي جاء بها معه إلى البيت. فإذا لم

تكن لديه مثل هذه الأوراق كان يقوم بعمل نسخة لنفسه، فقط من أجل المتعة الشخصية، خاصة إذا كانت الورقة رائعة لا من حيث جمال صياغتها، بل من حيث أنها مرسلة إلى شخصية جديدة أو هامة.

وحتى في تلك الساعات التي تنطفئ فيها مآسماً بطرسبورغ الرمادية، وبعد أن تكون جماعة الموظفين كلها قد تعشت وشبعت، كل منهم حسب ما يتقاضاه من مرتب وحسب رغباته الخاصة، وبعد أن يكون الجميع قد ارتاحوا من صرير أقلام الإدارات والركض بعد أداء الأعمال الخاصة وأعمال الآخرين الضرورية، بعد كل ما يكلف به الإنسان الذي لا يهدأ نفسه عن طواعية، بل وبأكثر مما ينبغي... وعندما يسرع الموظفون إلى تخصيص ما تبقى من وقت للمتعة: فالأنشط منهم ينطلق إلى المسرح، ومنهم من يخرج إلى الشارع مخصصاً هذا الوقت للتطلع إلى بعض القبعات، ومنهم من يذهب إلى حفل ما لينفق الوقت في إسداء المديح لفتاة ما مليحة تعد نجمة من نجوم أوساط الموظفين الضيقة، ومنهم من يذهب، وهذا هو الأكثر، إلى أخيه الذي يسكن في الطابق الرابع أو الثالث، في شقة من غرفتين صغيرتين ومدخل أو مطبخ وبعض ادعاءات الموضة كمصباح مثلاً أو قطعة أثاث كلفت أصحابها تضحيات كثيرة وحرماناً من وجبات الغداء والنزهات... وباختصار فحتى في الوقت الذي يجلس فيه الموظفون في شقق زملائهم الصغيرة ليلعبوا الورق وهم يرشفون الشاي من الأكواب مع قطع الخبز المحمص الرخيص وينفثون الدخان من الغلايين الطويلة ويروون أثناء توزيع الورق شائعة ما وردت من المجتمع الراقي... وباختصار فحتى عندما يسعى الجميع إلى اللهو فإن أكاسي أكاسي لم يكن يلجأ إلى أي لهو. ولا يستطيع أحد أن يقول إنه رآه في وقت ما في إحدى الحفلات. فبعد أن يشبع

من النسخ ياوي إلى فراشه وهو يتنسم سلفاً مفكراً في يوم الغد: فغداً سيرزقه الله بشيء ما لينسخه. هكذا كانت تمضي حياة هذا الرجل الوداعة، هذا الرجل الذي كان راضياً عن حظه بالأربعمائة روبل التي يتقاضاها في السنة، وربما مضت إلى أرذل العمر لو لا وجود شتى المصائب المتناثرة على درب الحياة ليس فقط أمام المستشارين الاعتباريين. بل والمستشارين السريين الفعليين ومستشاري البلاط^(١) وغيرهم من المستشارين وحتى أولئك الذين لا يقدمون استشارات لأي شخص ولا يطلبون المشورة من أحد.

ثمة في بطرسبورغ عدو لدود لكل من يتقاضى أربعمائة روبل في السنة أو زهاء هذا. وهذا العدو ليس إلا صقيعنا الشمالي، بالرغم من أنه يقال إنه مفيد جداً للصحة، ففي بداية الساعة التاسعة صباحاً، وبالذات عندما تكتظ الشوارع بالذهابين إلى العمل يبدأ هو في توجيه لذعات حادة قوية إلى جميع الأنوف دونما تمييز، حتى إن الموظفين المساكين لا يعرفون أبداً أين يخفونها.

وفي تلك الساعة يشعر حتى أولئك الذين يشغلون مناصب عليا باللم في جباههم من البرد، وتطفّر الدموع من عيونهم، أما المستشارون الاعتباريون المساكين فيصبحون أحياناً بلا حماية. والمخرج الوحيد هو أن يركضوا في معاطفهم الهزيلة بأسرع ما يستطيعون ليقطعوا خمسة أو ستة شوارع، ثم يدقون بأقدامهم جيداً في المدخل حتى يذيقوا بهذه الطريقة كل ما تجمد في الطريق من قدرات ومواهب على أداء الأعمال الوظيفية. ومنذ فترة قريبة بدأ أكاكى أكاكيفتش يحس بوخز شديد خاصة في ظهره وكتفه، على الرغم من أنه كان يحاول أن يقطع بأسرع ما يمكن المسافة المشروعة. وأخيراً فكر: ألا

(١) رتبة مدنية تعادل رتبة نائب مدير الإدارة.

يرجع ذلك إلى بعض العيوب في معطفه. وعندما فحصه جيداً في المنزل اكتشف أنه أصبح في موضعين أو ثلاثة، وبالذات عند الظهر والكفين، مثل الخيش تماماً، فقد رق نسيجه إلى درجة أن الهواء صار ينفذ خلاله، أما البطانة فقد تهرأت. وينبغي أن نعرف أن معطف أكايي أكايفتش كان أيضاً مادة لسخريات الموظفين، بل لقد نزعوا عنه اسم المعطف النبيل وسموه قبوطاً. وبالفعل فقد كان شكله غريباً. كانت ياقته تصغر عاماً بعد عام لأنها كانت تستخدم في ترقيع الأجزاء الأخرى. ولم يظهر الترقيع مهارة الخياط، فكانت الرقع تبدو قبيحة وخرفاء. وعندما عرف أكايي أكايفتش حقيقة الأمر قرر أن يأخذ المعطف إلى بتروفتش، الخياط الذي يقطن في شقة ما بالطابق الرابع من ناحية سلم الخدم والذي كان على الرغم من عوره وجهه المجذور كله يزاول بنجاح كبير تصليح معاطف الموظفين وسراويلهم وحلهم وما إلى ذلك، بالطبع عندما يكون مفيقاً وليس في رأسه مشاريع أخرى. وما كان هذا الخياط ليستحق منا أن نتحدث عنه كثيراً، ولكن بما أن العادة جرت أن يحدد في القصة طبع كل شخصية بوضوح تام، فلا حيلة إذاً، هيا قدموا لنا بتروفتش أيضاً. كان في البداية يدعى ببساطة غريغوري، وكان من رقيق الأرض عند أحد السادة. ثم أصبح يدعى بتروفتش عندما أعتق وأصبح يسكر بشدة في جميع الأعياد، في البداية في الأعياد الكبيرة، وبعد ذلك دون تمييز في جميع الأعياد الدينية وحيثما وضعت إشارة الصليب أمام أي يوم من أيام التقويم.

وبينما كان أكايي أكايفتش يصعد السلم المؤدي إلى بتروفتش أخذ يفكر في المبلغ الذي سيطلبه بتروفتش وقرر في ذهنه ألا يعطيه أكثر من روبلين. كان الباب مفتوحاً لأن ربة البيت تقلي سمكاً، فملأت المطبخ بالدخان إلى درجة أنه لم يعد من الممكن حتى رؤية

الصراصير نفسها. ومر أكاكي أكايفتش عبر المطبخ، حتى دون أن يلاحظ ربة البيت ذاتها، إلى أن وصل أخيراً إلى غرفة رأى فيها بتروفتش جالساً على طاولة خشبية عريضة غير مطلية طاوياً قدميه تحته كالباشا التركي. وكانت قدماه كعادة الخياطين الجالسين إلى عملهم، عاريتين، وأول مالفت نظر أكاكي أكايفتش تلك الإصبع الكبيرة المعروفة جداً له ذات الظفر المشوه، الإصبع السمينة القوية كصدفة السلحفاة. ومن رقبة بتروفتش تدلت ثلة من الحرير والخيط، وعلى ركبتيه حشوما. كان منذ حوالي ثلاث دقائق يحاول إدخال الخيط في ثقب الإبرة ولا يستطيع ولذلك كان ساخطاً على العنمة، بل وحتى على الخيط نفسه وهو يدمدم بصوت خافت: «لا يدخل هذا الوغد، أيها الملعون، أنهكني!». وشعر أكاكي أكايفتش بالضيق من مجيئه في هذه اللحظة التي كان بتروفتش فيها غاضباً، فقد كان يحسب أن يوصي بتروفتش على شيء ما عندما يكون الأخير منتعشاً بعض الشيء أو كما كانت زوجته تقول: «عبّ من الهباب المسكر هذا الشيطان الأعور». ففي مثل هذه الحالة كان بتروفتش في العادة يتنازل ويوافق عن طيب خاطر، بل كان ينحني كثيراً ويلهج بالشكر. صحيح أن زوجته كانت تأتي بعد ذلك وهي تعول وتشكو من أن زوجها كان آنذاك ثملاً ولذلك وافق على ثمن بخس. ولكن الأمر كان ينتهي بزيادة عشر كوبيكات فقط وتسوى الأمور. أما الآن فيبدو أن بتروفتش غير ثمل، ولذلك فهو صعب المراس، لا يلين، وسيطلب على الأرجح ثمناً باهظاً. أدرك أكاكي أكايفتش ذلك وأراد كما يقال أن يعود أدراجه. ولكنه كان قد بدأ الأمر. زر بتروفتش عينه الوحيدة مسدداً نظرتها الثاقبة إليه. فتفوه أكاكي أكايفتش مسلوب الإرادة:

- مرحباً، يا بتروفتش.

فقال بتروفتش :

- مرحباً بكم، يا سيدي ونظر بطرف عينه نحو يدي أكاكي
أكاكيفتش رغبة منه في أن يعرف ما هو الصيد الذي جاء به هذا إليه.
- ها أنذا قد جئت إليك، يا بتروفتش ، بهذا... يعني...

وينبغي أن نعرف أن أكاكي أكاكيفتش كان يعبر عن أفكاره في
أغلب الأحوال بحروف الجر والظروف وأخيراً بالأدوات التي ليس
لها أي معنى على الإطلاق. أما إذا كانت المسألة صعبة جداً فقد كان
من عاداته ألا ينهي الجملة أبداً. ولذلك كان كثيراً ما يبدأ حديثه بهذه
الكلمات: «هذا في الواقع... يعني ممأماً...» وبعد ذلك لا يقول
شيئاً، وينسى هو نفسه، وهو يظن أنه قد قال كل شيء.

- ما هذا؟ قال بتروفتش وتفحص أثناء ذلك بعينه الوحيدة حلة
أكاكي أكاكيفتش كلها ابتداءً من الياقة حتى الأكمام والظهر والصدر
والعراوي كل ما كان معروفاً لديه جيداً لأنه كان من صنع يديه. تلك
عادة الخياطين، وهذا أول ما يفعله الخياط عندما يلقاك.

- وها أنذا، يا بتروفتش ، يعني... المعطف... الجوخ... انظر، في
كل مكان آخر مازال متيناً، لقد تعفّر قليلاً، ويبدو وكأنه قديم، لكنه
جديد، فقط في مكان واحد يعني. على الظهر، وأيضاً هنا على كتف
واحدة، تلف قليلاً، وعلى هذه الكتف أيضاً قليلاً، أترى، هذا كل
شيء، عمل قليل...

أخذ بتروفتش المعطف وبسطه على الطاولة أولاً وفحصه طويلاً
وهز رأسه ومد يده إلى النافذة ليأخذ علبة السعوط المستديرة والمرسوم
عليها صورة جنرال ما، لا يعرف أي جنرال هو لأن المكان الذي كان
وجهه مرسوماً عليه قد ثقب وغطى بقطعة ورق مربعة واستشق
بتروفتش السعوط وبسط المعطف بين يديه وفحصه في مواجهة النور

وهز رأسه ثانية. ثم قلبه، فجعل بطانته إلى أعلى وهز رأسه من جديد، ونزع من جديد غطاء العلبة بصورة الجنرال المغطى بورقة، وبعد أن حشا أنفه بالسعوط أغلق العلبة وخباها وأخيراً قال:

- كلا، لا يمكن إصلاحه، ملبس بال.

أحس أكاكي أكايفتش عند سماعه هذه الكلمات بوخزة في قلبه.

- ولماذا لا يمكن، يا بتروفتش؟ قال بصوت ضارع كصوت الطفل تقريباً. كل ما فيه أنه أصبح خفيفاً عند الكفين، وأنت لديك حتماً قطع ما.

- نعم، يمكن أن أجد قطعاً، القطع موجودة، قال بتروفتش. لكن لا يمكن تثبيتها. النسيج مهترئ تماماً. ما أن تلمسه بالإبرة حتى يتفسخ.

- فلينفخ، أما أنت فلتضع رقعة على الفور.

- ليس هناك ما توضع عليه الرقعة، لا يوجد ما تثبت عليه، إنه مستهلك جداً، الاسم فقط جوخ، ولكن لو هبت عليه الريح فسيتطاير.

- حاول أن تثبتها، كيف إذاً في الواقع يعني؟

- كلا، قال بتروفتش بحسم لا يمكن عمل شيء.. أما المعطف فيبدو أنك ستضطر إلى تفصيل واحد جديد.

عند سماع كلمة «جديد» غامت عينا أكاكي أكايفتش واختلط أمام نظره كل ما كان في الغرفة. لم ير بوضوح سوى الجنرال بوجهه المغطى بورقة على غطاء علبة سعود بتروفتش.

- معطف جديد... كيف؟ قال وكأنما لا يزال نائماً. ليس لدي نقود لذلك.

- نعم، جديد، قال بتروفتش بهدوء وحشي.

- وإذا اضطرتت إلى معطف جديد فكيف يعني هو...

- تقصد كم يساوي؟

- نعم.

- ثلاث ورقات من فئة الخمسين أو أكثر قليلاً سيكون عليك أن تدفع، قال بتروفتش وزم شفتيه زمة ذات مغزى. كان يحب جداً التأثيرات القوية، كان يحب أن يربك من أمامه فجأة بطريقة ما، ثم ينظر بعد ذلك بطرف عينه إلى التعبير الذي يكسو ملامح الشخص المرتبك بعد سماع كلمات الخياط.

وصرخ أكاكي أكايفتش المسكين:

- مئة وخمسين روبلاً لمعطف! صرخ ربما لأول مرة في حياته، فقد كان معروفاً دائماً بصوته الخافت.

- نعم، قال بتروفتش وهذا يتوقف أيضاً على نوع المعطف. فإذا وضعنا على الياقة فراء سنسار وبطنا القلنسوة بالحرير فيصل إلى المائتين.

- بتروفتش، أرجوك، قال أكاكي أكايفتش بصوت ضارع وهو لا يسمع ولا يحاول أن يسمع ما قاله بتروفتش من كلمات وجميع تأثيراته. أصلحه بأي شكل، لكي أستخدمه ولو فترة أخرى.

- كلا، هذا لا يمكن. سيكون ذلك إهداراً للعمل، وتضييعاً للنقود عبثاً، قال بتروفتش، فخرج أكاكي أكايفتش من عنده بعد هذه الكلمات محطماً تماماً.

ظل بتروفتش بعد خروج أكاكي أكايفتش، واقفاً مدة طويلة وقد زم شفتيه زمة ذات مغزى، وهو لا يشرع في العمل، فقد أراضاه أنه لم يفرط في كرامته، كما أنه لم يخنفته كخياط.

خرج أكاكي أكايفتش إلى الشارع وكان كأنه في حلم. ومضى

يحدث نفسه: «يا له من أمر، يالها من قضية. في الحقيقة لم أكن أظن أن المسألة يعني ستكون...» وبعد فترة صمت استطرد: «هكذا إذاً، هذا حقاً غير متوقع أبداً يعني... أبداً لكن.. يالها من مسألة!» وبعد أن قال ذلك وبدلاً من أن يذهب إلى البيت سار في اتجاه آخر ممماً، وهو لا يدري. وفي الطريق احتك به منظف مداخن بجنبه الملوّث، فسوّد له كتفه كلها. وانهاهال عليه كوم من البلاط من قمة منزل يجري بناؤه، فلم يلحظ ذلك كله. وفيما بعد عندما اصطدم بالدركي الذي كان قد أسند بلطته إلى جواره وأخذ ينفض التبغ من علبة تبغه فوق راحته الخشنة، عندها أفاق أكاكي أكايفتش قليلاً، وذلك فقط لأن الحارس قال له: «ما لك تندفع مصطدماً بالسحنة، أليس أمامك رصيف؟» وقد جعله ذلك ينبه ويعود أدراجه إلى المنزل. وهنا فقط بدأ يستجمع شتات أفكاره، فرأى وضعه في صورته الحقيقية الواضحة وأخذ يحدث نفسه لا بعبارات متقطعة، بل بحكمة وصراحة كأنما يتحدث إلى زميل راجع يمكن أن تفضي إليه بأخص أسرار القلب. قال أكاكي أكايفتش: «لا، لا يمكن. الكلام مع بتروفتش الآن مستحيل، فهو الآن يعني... يبدو أن زوجته ضربته علة بشكل ما. الأفضل أن أذهب إليه صباح الأحد. فبعد السبت سيكون زائغ النظرات ونعسان وبحاجة إلى الشراب، وزوجته لن تعطيه نقوداً. وعندئذٍ أدس يعني في يده عشرة كويكات، فيصبح الاتفاق معه أسهل، وعندئذٍ سأأخذ المعطف يعني...» هكذا حدث أكاكي أكايفتش نفسه وشجعها، وانتظر حلول يوم الأحد، وعندما رأى من بعيد زوجة بتروفتش تخرج لأمر ما من المنزل، توجه إليه مباشرة. وبالفعل كان بتروفتش بعد السبت زائغ النظرات بشدة، ورأسه مدلى نحو الأرض، وكان نعسان جداً. وعلى الرغم من كل ذلك فما إن عرف بالأمر حتى اعتدل كأنما وخزه الشيطان وقال: «لا يمكن...

فلتكرم بتفصيل معطف جديد» وهنا دس أكاكي أكايفتش في يده عشرة كوبيكات، فقال بتروفتش: «أشكرك يا سيدي، سأشرب قليلاً في صحتك، أما بخصوص المعطف فلا تقلق، إنه لا ينفع لأية منفعة، سأخيط لك معطفاً جديداً عظيماً، على هذا اتفقنا».

وأراد أكاكي أكايفتش أن يفتح فمه ليتحدث عن التصليح، ولكن بتروفتش لم يصغ إليه وقال: «سأخيط لك واحداً جديداً من كل بد، وبوسعك أن تعتمد عليّ في ذلك، سأبذل جهدي، ومن الممكن حسب الموضة الآن أن أركب الياقة بمشابك فضية».

وعندها أدرك أكاكي أكايفتش أنه لا يمكن التنصّل من تفصيل معطف جديد، فانهار تماماً. وبالفعل كيف يمكن أن يفصله، بأية نقود؟ ومن أين له؟ بالطبع كان من الممكن الاعتماد جزئياً على المكافأة القادمة بمناسبة العيد، ولكن هذا المبلغ قد وُزّع وحدّدت أوجه إنفاقه سلفاً منذ زمن بعيد. فقد كان من المطلوب اقتناء سروال جديد وتسديد دين قديم للإسكافي مقابل تركيب رقبة جديدة للحذاء القديم، وكان عليه أيضاً أن يوصي الخياط على ثلاثة قمصان وعلى قطعتين من تلك الملابس التي لا يليق ذكر اسمها في نص مطبوع، وباختصار كان من المفروض إنفاق المبلغ كله، وحتى لو تكّرم المدير وصرف له بدلاً من الأربعين روبلاً المقررة خمسة وأربعين أو خمسين فلن يتبقّى منها مع ذلك سوى شيء تافه لن يكون في رصيد المعطف سوى قطرة في بحر، على الرغم من أنه كان يعرف طبعاً أنه كان من عادة أكاكي أكايفتش أحياناً أن يطلب فجأة مبلغاً لا يعقل، حتى إن زوجته كانت لا تمالك نفسها فتصيح به: «ماذا دهاك، هل جنتت، أيها الأحمق؟! لا يرضى أن يعمل بأي حال، والآن يدفعه الشيطان إلى طلب سعر لا يساويه هو نفسه». وعلى الرغم من أنه كان يعرف طبعاً أن بتروفتش سيفصل له المعطف حتى مقابل ثمانين

روبلًا، ومع ذلك فمن أين يأتي بالثمانين روبلاً هذه؟ ربما أمكن تدبير نصف المبلغ، نعم، ربما وجد نصفه، بل وربما أكثر قليلاً، ولكن من أين يأتي بالنصف الآخر؟.. ولكن ينبغي أولاً أن يعرف القارئ من أين جاء النصف الأول. كان من عادة أكاكي أكايفتش أن يوفر من كل روبل ينفقه نصف كوبيكاً ويضعه في صندوق صغير بقفل ذي فتحة في غطائه لإلقاء النقود فيما. وكان كل نصف عام يغير قطع النقود النحاسية المتجمعة هناك بقطع فضية. هكذا كان يفعل منذ زمن طويل، وعلى هذا النحو تجمع لديه خلال عدة سنوات مبلغ يفوق الأربعين روبلاً. وهكذا فقد كان معه نصف المبلغ، ولكن من أين يأتي بالنصف الآخر؟ وفكر أكاكي أكايفتش طويلاً، ثم قرر أنه ينبغي عليه أن يخفّض نفقاته العادية، ولو خلال عام واحد على الأقل: أن يمتنع عن تناول الشاي كل مساء، ولا يشعل الشمعة مساءً، فإذا تطلّب الأمر أن يعمل فليذهب إلى غرفة صاحبة البيت ويعمل هناك على ضوء شمعتها وأن يسير في الشارع بأقصى ما يمكن من الخفة والحذر وهو يخطو فوق الأحجار والبلاط على أطراف أصابعه تقريباً لكي لا ييلى نعله بسرعة وأن يقلل ما أمكن من إعطاء ملابسه للغسالة، وحتى لا تبلى فعلية أن يخلعها كلما عاد إلى المنزل ويبقى فقط في الروب القطني العتيق جداً والذي رأف بحاله حتى الزمن نفسه، وللحقيقة ينبغي أن نقول إنه كان من الصعب عليه إلى حد ما في البداية أن يعتاد على هذه القيود، ولكنه ألفها فيما بعد وسارت الأمور على ما يرام، بل إنه تعود تماماً على الجوع في المساء وفي المقابل فقد كان يتغذى معنوياً، وهو يحلم في خاطره الفكرة الخالدة عن المعطف المقبل. ومنذ تلك اللحظة بدا وكأن وجوده نفسه أصبح أكثر اكتمالاً، وكأنما تزوّج، كأنما أصبح يلزمه شخص ما، كأنما لم يعد وحيداً، بل وافقت شريكة حياة لطيفة على أن تمضي معه في

درب الحياة، ولم تكن شريكة الحياة تلك سوى المعطف ذي الحشوة القطنية السميكه والبطانة المتينة التي لا تعرف البلى. وأصبح أكاكي أكايفتش أكثر حيوية، بل وأصبحت شخصيته أكثر صلابة كشخص حدّد لنفسه هدفاً وسعى إليه. واختفت من وجهه ومسلكه تلقائياً الشكوك والتردد أي كل الملامح المتذبذبة وغير المحددة، وكانت عيناه تتوقدان أحياناً، وكانت أكثر الخواطر جرأة وجسارة تومض في ذهنه: «فماذا لو ركب فعلاً ياقة من فراء السنسار!» وكاد التفكير في ذلك أن يجعله نهياً لشروود الذهن. فذات مرة أوشك أن يخطئ وهو ينسخ الأوراق حتى إنه صاح بصوت مسموع تقريباً: «أوه!» ورسم علامة الصليب. وكان كل شهر يزور بتروفتش مرة على الأقل لكي يتحدث عن المعطف: وأين يستحسن أن يشتري الجوخ ومن أي لون وبأي ثمن، وكان يعود من عنده مهموماً بعض الشيء، إلا أنه كان يعود راضياً دائماً وهو يفكر في أنه سيأتي أخيراً ذلك الزمن الذي سيشتري فيه كل ذلك ويصبح المعطف جاهزاً. بل لقد سارت الأمور بأسرع مما كان يتوقع. فخلفاً لكل الأحلام قرر المدير لأكاكي أكايفتش لا أربعين أو خمسة وأربعين روبلاً، بل ستين روبلاً كاملة. وسواء أحسّ المدير أن أكاكي أكايفتش بحاجة إلى معطف أم أن ذلك حدث عفواً فقد أصبح لديه نتيجة لذلك عشرون روبلاً زياد. وعجل هذا الوضع بسير الأمور. فبعد شهرين أو ثلاثة من الجوع البسيط أصبح لدي بالضبط ثمانين روبلاً. وبدأ قلبه الذي كان هادئاً للغاية بصفة عامة، يدق، وفي اليوم نفسه ذهب مع بتروفتش إلى المحلات. وابتاعاً قماشاً جيداً جداً. ولا عجب. فقد كانا يفكران في ذلك قبلها بنصف عام، ونادراً ما مرّ شهر من دون أن يذهبا إلى المحلات للنظر في الأسعار. وفي المقابل فقد قال أكاكي أكايفتش نفسه أنه ليس هناك جوخ أفضل منه. واختار للبطانة قماشاً بفتة، ولكنه كان متيناً

وسميكا وحسب كلام بتروفتش أفضل من الحرير، بل وكان منظره أبهى وأكثر لمعانا. ولم يشترى فراء السنسار لأنه كان بالفعل غالياً، وبدلاً منه اختار فراء قط أفضل لم يجدا غيره في المحل، فراء قط يمكن دائماً أن تظنه فراء سنسار إذا نظرت إليه من بعيد. واستغرق بتروفتش أسبوعين في خياطة المعطف لأنه تطلب الكثير من التنجيد، ولولا ذلك لفرغ منه قبل ذلك. وأخذ بتروفتش اثني عشر روبلاً أجراً، ولم يكن من الممكن إعطاؤه أقل من ذلك: فقد كانت الخياطة كلها بخيوط من الحرير وبخياطة دقيقة مزدوجة، ومر بتروفتش على كل الخياطة بأسنانه بعد ذلك مزيلاً بها شتى التواءات. وكان ذلك في... من الصعب أن نقول في أي يوم كان ذلك بالضبط، ولكنه على الأرجح كان أكثر الأيام مهابة في حياة آكاكي أكايفتش، وذلك عندما جاءه بتروفتش أخيراً بالمعطف. جاء به في الصباح بالضبط مماساً قبيل الوقت الذي كان على آكاكي أكايفتش فيه أن يذهب إلى الإدارة. وجاء هذا المعطف في وقت ليس هناك ما هو أكثر منه مناسبة: فقد بدأ بالفعل الصقيع الشديد، وبدأ أنه ينذر بمزيد من البرد. وجاء بتروفتش بالمعطف كما ينبغي أن يأتي خياط جيد. فقد ظهر على وجهه تعبير أهمية لم يره آكاكي أكايفتش عليه من قبل قط. وبدأ أنه يدرك إلى أقصى حد أنه أنجز عملاً كبيراً وأنه كشف فجأة في نفسه عن الهوة التي تفصل بين الخياطين الذين يرتكبون البطانات فقط ويصلحون الملابس والخياطين الذين يخطون الملابس الجديدة. وأخرج بتروفتش المعطف من المنديل الذي لفّه به. وكان المنديل خارجاً من أيدي الغسالة لتوّه. وقد لفّه بتروفتش بعد ذلك ووضع في جيبه للاستعمال. وبعد أن أخرج المعطف نظر إليه بزهو شديد وأمسكه بكلتا يديه، ثم ألقى به بمهارة شديدة على كفي آكاكي أكايفتش ثم شدّه وسوّاه بيده من الخلف إلى أسفل. ثم مرّ بيده

على المعطف، وهو مسدل على كتفي أكاكي أكايشتش. ولكن أكاكي أكايشتش كرجل متقدم في العمر أراد أن يجرب المعطف وقد ارتداه بأكامه، فساعده بتروفتش على ارتدائه بأكامه، فظهر أنه جيد بالأكام أيضاً، وباختصار فقد اتضح أن المعطف كان على مقاسه بالضبط. ولم ينس بتروفتش بهذه المناسبة أن يقول إنه فقط لأنه يعيش بدون لافتة وفي شارع صغير وفوق ذلك يعرف أكاكي أكايشتش منذ فترة طويلة فقد تقاضى أجراً قليلاً إلى هذا الحد. أما في شارع «نيفسكي» فكانوا سيأخذون منه خمسة وأربعين روبلاً على الخياطة فقط. ولم يشأ أكاكي أكايشتش أن يجادل بتروفتش في ذلك، وعلاوة على ذلك فقد كان يخاف من تلك المبالغ القوية التي كان يحلو لتروفتش أن يوهم بها الزبائن. فنقده أجره وشكره وخرج على الفور في المعطف الجديد إلى الإدارة. وخرج بتروفتش في أثره ووقف في الشارع ينظر طويلاً إلى المعطف من بعيد. ثم انعطف عن عمد إلى حارة ملتوية لكي يختصر الطريق ويعود إلى الشارع ثانية وينظر مرة أخرى إلى المعطف ولكن من ناحية أخرى أي من الوجه مباشرة. بينما كان أكاكي أكايشتش يسير ومشاعر البهجة تغمره. كان يشعر كل لحظة بأن على كتفيه معطفاً جديداً، بل وضحك عدة مرات من السرور الداخلي. وبالفعل فقد كانت هناك منفعتان: واحدة هي أنه دافئ والأخرى أنه حسن. ولم يلحظ الطريق أبداً ووجد نفسه في الإدارة فجأة. وفي غرفة الحاجب خلع المعطف وتفحصه من جميع الجهات ووضع في رعاية الحاجب الخاصة. ولا نعرف كيف علم جميع من في الإدارة فجأة أن لدى أكاكي أكايشتش معطفاً جديداً، وأن معطفه السابق لم يعد له وجود بعد، وفي اللحظة نفسها هرول الجميع إلى غرفة الحاجب ليروا معطف أكاكي أكايشتش الجديد. وراحوا يهتفون ويحيونه، حتى أنه في البداية أخذ يتسم فقط،

ثم شعر بعد ذلك بالخجل، وعندما أخذ الجميع، وقد أحاطوا به، يقولون إنه لا بد من تدشين المعطف الجديد وأنه ينبغي عليه على الأقل أن يقيم لهم جميعاً حفلاً، ارتبك أكابي أكابيفتش تماماً، ولم يعرف ماذا يفعل وبم يردّ وكيف يتملّص. وبعد بضع دقائق، وقد احمرّ كله، راح يؤكد لهم بسلامة نية أن هذا المعطف ليس جديداً أبداً وإنما جديداً أبداً وإنما هكذا مجرد معطف قديم. وأخيراً قال أحد الموظفين، بل كان أحد مساعدي رئيس القلم، ربما لكي يظهر أنه ليس متكبراً أبداً، بل ويتعامل مع من هم أدنى منه، قال: «طيب، فليكن. أنا سأقيم لكم حفلاً بدلاً من أكابي أكابيفتش وأدعوكم اليوم لتناول الشاي، واليوم بالمناسبة عيد ميلادي». وعلى الفور هنأ الموظفون مساعد رئيس القلم وقبلوا دعوته بكل سرور. وأراد أكابي أكابيفتش أن يعتذر، ولكن الجميع راحوا يقولون إن ذلك لا يليق وإنه شيء معيب ومخجل، فلم يستطع أبداً أن يرفض الدعوة. وعلى العموم فقد شعر فيما بعد بالسرور عندما تذكر أن ذلك سيتيح له فرصة السير مساءً أيضاً في المعطف الجديد. وكان هذا اليوم كله بالنسبة لأكابي أكابيفتش كأنما أكبر وأبهى عيد. وعاد إلى البيت في أسعد حالة ونزع المعطف وعلقه بحرص على الجدار، وقد ملأ عينيه مرة أخرى من الجوخ والبطانة، ثم أخرج معطفه القديم عمداً بقصد المقارنة، ذلك المعطف الذي تهرأ تماماً. تطلّع إليه، فضحك هو نفسه منه، فما أبعد الفرق بينهما! وظل يعد ذلك وطوال الغداء بمرح، ولم ينسح شيئاً بعد الغداء، لم يمسك بأية أوراق، بل ثمرغ فراشه قليلاً حتى هبط الظلام، ثم ارتدى المعطف دون تسويق وخرج إلى الشارع. وللأسف فإننا لا نستطيع أن نقول أين كان يسكن الموظف الذي دعاه، فقد بدأت الذاكرة تخوننا بشدة، فاختلط علينا كل شيء في بطر سبورغ. واندجحت كل البيوت والشوارع في الرأس. حتى أصبح

من الصعوبة. يمكن أن نستخرج منها شيئاً مافي الصورة متسقة، وأياً كان الأمر إلا أن الشيء الصحيح على الأقل هو أن الموظف كان يسكن في أحسن مناطق بترسبورغ، وبالتالي بعيداً جداً عن أكاكسي أكايفتش كان على أكاي أكايفتش في البداية أن يمر عبر بعض الشوارع المقفرة ذات الإضاءة الهزيلة. ولكن بقدر اقترابه من شقة الموظف أصبحت الشوارع أكثر حيوية وحركة وإضاءة. وبدأ المارة يلوحون أكثر. ولاحت السيدات الأنيقات، وظهرت على الرجال ياقات من فراء السمور، ولم تظهر إلا نادراً الزحافات الشعبية الخشبية المليئة بالمسامير المذهبة، وعلى العكس من ذلك كثر الحوذيون المندفعون بسرعة بطواقهم المخملية القرمزية، وبزحافاتهم المطلية باللاك اللامع وبالأغطية المصنوعة من جلود الديبة، وكانت العربات ذات مقاعد الحوذية المزينة تنهب الشارع وعجلاتها تصر على الثلج. وتطلع أكاي أكايفتش إلى ذلك له، وكأنما يراه للمرة الأولى إذ لم يخرج من داره مساء منذ عدة سنوات. وتوقف بفضول أمام واجهة متجر مضاء ليتفرج على لوحة كانت تصور امرأة ما جميلة تخلع حذاءها كاشفة بذلك عن ساقها كلها، وكانت ساقاً لا بأس بها أبداً. ومن خلفه أطل من باب غرفة أخرى رجل بسالفين ولحية جميلة تحت شفته. وهز أكاي أكايفتش رأسه وضحك ضحكة قصيرة، ثم مضى في حال سبيله. فهل يا ترى ضحك لأنه رأى شيئاً غير معروف له، ولكنه مع ذلك يترك في نفس كل من يراه حدساً ما، أم أنه ضحك لأنه فكر مثل كثيرين من الموظفين بهذه الصورة: «آه من هؤلاء الفرنسيين! ماذا بوسعك أن تقول... فهم إذا أرادوا شيئاً ما يعني فهو بالضبط يعني..» وربما لم يفكر حتى في هذا، فمن الصعب أن تقحم نفسك في دخيلة إنسان ما لتعرف فيم يفكر. وأخيراً وصل إلى البيت الذي كان يقطنه مساعد رئيس القلم.

كان مساعد رئيس القلم يحيا في بحبوحة من العيش: فعلى سلم المدخل كان مصباح مضاء، وكانت شقته في الطابق الثاني. وعندما دخل أكاكي أكايفتش إلى الردهة رأى على الأرض صفوفاً من الخفوف. وبينها، في وسط الغرفة كان هناك سماور يغلي وينفث سحباً من البخار. وعلى الجدران عُلفت معاطف وأردية. كان من بينها معاطف بياقات من فراء السمور أو بطيات صدور من المخمل. وتناهى من وراء الجدار صخب ولغط أصبحا فجأة واضحين ورنانين عندما فتح الباب وخرج منه خادم يحمل صينية غاصة بالأكواب الفارغة ودورق حليب وسلة خبز مجفف. وكان واضحاً أن الموظفين مجتمعون مدة طويلة وقد شربوا أول كوب شاي. وبعد أن علّق أكاكي أكايفتش معطفه بنفسه داخل الغرفة، وفي نفس الوقت لاحت أمام ناظره الشموع والموظفون والغلايين وموائد لعب الورق، وأصمّ سمعه حديث متصاعد من جميع الجهات وجلبة مقاعد يحركونها. فتوقّف في وسط الغرفة مرتبكاً تماماً، وهو يبحث ويحاول أن يجد لنفسه شيئاً يفعل. ولكنهم كانوا قد لاحظوا وجوده، فاستقبلوه بالصياح ومضوا على الفور إلى الردهة وتفرّجوا على معطفه مرة أخرى. وعلى الرغم من أن أكاكي أكايفتش كان محرّجاً بعض الشيء، ولكنه، إذ كان شخصاً سليم النية، لم يستطع إلا أن يفرح، وهو يرى أن الجميع يمتدحون المعطف. وبعد ذلك بالطبع تركوه ومعطفه واتجهوا كما هو متبع إلى موائد لعب الورق، وكان كل ذلك: الصخب واللغط وهذا الحشد من الناس، كان كل ذلك عجباً بالنسبة لأكاكي أكايفتش. لم يكن يدري كيف يتصرّف ولا ماذا يفعل بيديه وساقيه وجسمه كلّ. وأخيراً جلس إلى اللاعبين وتطلع إلى أوراق اللعب وحدّق في وجه هذا وذلك وبعد فترة من الوقت بدأ يشأب ويشعر بالملل خاصة وإنه قد حان منذ زمن بعيد

الموعد الذي كان عادة يأوي فيه إلى الفراش. وأراد أن يستأذن من رب الدار في الانصراف، ولكنهم لم يسمحوا له قائلين إنه لا بد من تناول كأس شمبانيا بمناسبة المعطف الجديد. وبعد ساعة قدموا العشاء المكوّن من سلطة روسية ولحم عجول بارد وكبد مهروس وقطع جاتوه وشمبانيا. وأجبروا أكافي أكافيتش على شرب كأسين من الشمبانيا أحس بعدهما أن الجو في الغرفة أصبح أكثر مرحاً، إلا أنه لم يستطع أبداً أن ينسى أن الساعة بلغت الثانية عشرة وأن وقت عودته إلى البيت قد حان منذ زمن بعيد. ولكيلا يحاول صاحب البيت أن يستبقه بطريقة ما خرج أكافي أكافيتش من الغرفة بهدوء وبحث عن معطفه في الردهة، فوجده للأسف ملقى على الأرض، فتناوله ونفضه ونزع منه كل ما علق به من زغب ووضع على كتفيه ونزل على السلم إلى الشارع. كان الشارع لا يزال مضيئاً. وكانت بعض المتاجر الصغيرة، هذه النوادي الدائمة للبوابين وغيرهم من الناس، لا تزال مفتوحة، أما البعض الآخر المغلق فكان يصدر عنه على الرغم من ذلك شريط ضوء طويل عبر شق الباب كله، الأمر الذي كان يدل على أنها لم تخل بعد من تجمّع بشري، إذ يبدو أن البوابين والسيّاس أو الخدم يوشكون على الفراغ من أحاديثهم ورواياتهم موقعين أسيادهم في حيرة كاملة بخصوص أماكن تواجدهم. سار أكافي أكافيتش مرح النفس حتى إنه همّ بالركض فجأة لسبب مجهول وراء سيّدة ما مرّت بجواره كالبرق، وكان كل طرف من أطراف جسدها مفعماً بحركة غير عادية. إلا أنه مع ذلك توقف على الفور وسار كما في السابق بهدوء شديد ودهش هو نفسه من ركضه الذي لا يعرف من أين حلّ عليه. وسرعان ما امتدت أمامه تلك الشوارع الخاوية التي لا تتسم بمرح خاص حتى في النهار، فما بالك بال مساء. لقد أصبحت الآن أكثر خواء وعزلة، وومضة المصابيح أضعف،

إذ يبدو أن الزيت فيها أصبح قليلاً، وبدأت تلوّح المنازل الخشبية والأسيجة. ولم يكن هناك أحد على الإطلاق. الثلج فقط هو الذي كان يلعب في الشوارع، ولاحت الأشباح السوداء الحزينة للأكواخ المنخفضة النائمة بنوافذها الموصدة الشيش. واقترب من ذلك المكان الذي كان الشارع يتقاطع فيه مع ميدان لا نهاية له لا تكاد المنازل تبين في طرفه الآخر. وكان هذا الميدان يبدو كصحراء رهيبة.

ومن بعيد، من مكان لا يعلمه إلا الله، ومض ضوء في كشك حراسة بدا وكأنه قائم في آخر الدنيا. وهنا انخفض مرح أكافي أكافيتش إلى حد كبير. ودخل الميدان بإحساس لا إرادي بالخوف كأنما كان قلبه يحده بشر. ونظر خلفه وتلفت حواليه. فبدأ ما حوله وكأنه بحر. فقال في نفسه: «كلامن الأفضل ألا أنظر»، وسار مغمض العينين، وعندما فتحهما ليعرف هل أو شك الميدان على الانتهاء أم لا، رأى أمامه فجأة، تحت أنفه تقريباً شخصين ما بشوارب، ولكنه لم يستطع حتى أن يميز أي شخصين هما. وغامت عيناه وخفق قلبه بعنف. «ولكن هذا المعطف معطفي!» قال أحدهما بصوت راعد وأمسك بياقة معطفه. وأراد أكافي أكافيتش أن يصرخ: «النجدة!»، ولكن الآخر دسّ أمام فمه مباشرة قبضة بحجم رأس موظف ودمدم: «حاول أن تصرخ». ولم يشعر أكافي أكافيتش إلا وهما ينزعان عنه المعطف، ثم ركلاه ركلة قوية، فسقط على وجهه فوق الثلج، ولم يعد يشعر بشيء أكثر من ذلك. وبعد بضعة دقائق عاد إلى وعيه، فنهض على قدميه.. ولكن لم يكن هناك أحد. وأحس أن الجو بارد وأن المعطف ليس موجوداً، فأخذ يصرخ، ولكن صوته كما بدا لم يكن ينوي أن يلبع آخر الميدان. فانطلق أكافي أكافيتش يركض في يأس، وهو لا يكف عن الصراخ، متجهاً، عبر الميدان إلى كشك الحراسة مباشرة حيث كان الدركي يقف متكئاً على البلطة.

وهو يتطلع فيما يبدو بفضول ويريد أن يعرف أي شيطان دفع هذا الشخص إلى الركض نحوه صارخاً من بعيد. وعندما بلغه أكاكي أكاييفتشس راح يصرخ بصوت مختنق بأنه نائم ولا يحرس شيئاً ولا يرى كيف يُنهبون الناس. فأجاب الدركي بأنه لم ير شيئاً وأنه رأى كيف استوقفه شخصان وسط الميدان ولكنه ظن أنهما من معارفه. وأنه بدلاً من السباب عبثاً فمن الأفضل أن يذهب غداً إلى المفتش، وسيعثر المفتش على من سرق المعطف. وعاد أكاكي أكاييفتشس إلى المنزل في اضطراب تام، فقد تبعثر شعره الذي تبقى لديه بكمية صغيرة عند صدغيه ومؤخرة رأسه، وكان جنبه و صدره وسرواله ملوثة بالثلج كلها. وعندما سمعت العجوز، صاحبة شقته دقاً رهيباً على الباب نهضت من فراشها على عجل وركضت بفردة شبشب واحدة في قدمها لفتح الباب وقد شدت بإحدى يديها القميص على صدرها من التواضع. ولكن عندما فتحت الباب تراجعت إلى الخلف إذ رأت أكاكي أكاييفتشس في هذه الهيئة، وعندما قصص عليها ما حدث له أشاحت يديها وأشارت عليه بأن يذهب مباشرة إلى مأمور القسم، لأن شرطي الحى سيخذه، فسيعده بالبحث، ثم يحاظر بعد ذلك. أفضل شيء أن يذهب إلى المأمور مباشرة، بل إنها تعرف المأمور لأن آنا الفنلندية التي كانت تعمل عندها طاهية، أصبحت تعمل الآن عند المأمور مربية، كما أنها كثيراً ما تراه شخصياً عندما يمر بجوار منزلهم، كما أنه يتردد على الكنيسة كل أحد ليصلي وفي الوقت نفسه يتطلع إلى الجميع بحرح، ولذلك فهو على ما يبدو رجل طيب. وبعد أن سمع أكاكي أكاييفتشس هذا القرار جر ساقيه حزينا إلى غرفته. أما كيف قضى ليلته فلنترك الحكم على ذلك لمن يستطيع أن يتخيل ولو على أقل حد ما وضع شخص آخر. وفي الصباح الباكر مضى إلى المأمور. فقبل له إنه نائم. وعاد في العاشرة، فقبل له ثانية إنه

نائم. فعاد في الحادية عشرة، فقبل له إن المأمور غادر البيت. فعاد ساعة الغداء، إلا أن الكتبة في المدخل لم يريدوا أن يسمحوا له بالدخول وأصروا على أن يعرفوا الغرض من زيارته وماذا يريد وماذا حدث. لكن أكاكي أكايفتش أراد أخيراً أن ييدي صلاية ولو مرة في حياته، فقال بلهجة قاطعة إنه يريد مقابلة المأمور نفسه وإنهم لا يملكون الحق أن يمنعوه من مقابلته وأنه جاء من الإدارة في عمل رسمي وأنه سوف يشكوهم وعندئذ سيرون. ولم يستطع الكتبة أن يقولوا شيئاً أمام ذلك. فذهب أحدهم لاستدعاء المأمور. وكان موقف المأمور من روايته عن السرقة غريباً للغاية. فبدلاً من أن يوجه اهتمامه إلى النقطة الأساسية في الموضوع راح يسأل أكاكي أكايفتش لماذا عاد في هذه الساعة المتأخرة وألم يعرج في الطريق على أحد المنازل المشبوهة حتى أن أكاكي أكايفتش أخرج ثمناً وخرج من عنده، وهو لا يعرف هل ستسير قضية معطفه كما ينبغي أم لا. لقد قضى هذا النهار كله غائباً عن العمل (المرّة الوحيدة في حياته). وفي اليوم التالي جاء شاحباً وفي معطفه القديم الذي أصبح أكثر بوساً. وهزّت قصة سرقة المعطف قلوب الكثيرين بالرغم من أنه كان هناك بعض الموظفين الذين لم يتورعوا حتى في هذه المناسبة عن السخرية من أكاكي أكايفتش. وقرروا على الفور أن يجمعوا له تبرعاً، إلا أنهم جمعوا مبلغاً تافهاً لأن الموظفين كانوا قد أنفقوا الكثير في الاكتتاب لرسم صورة للمدير وفي شراء كتاب ما اقترحه عليهم رئيس القسم الذي كان صديقاً للمؤلف. وهكذا جمعوا مبلغاً تافهاً للغاية. وقرّر أحدهم بوازع من الشفقة أن يساعد أكاكي أكايفتش على الأقل بنصيحة طيبة، فأشار عليه بالألا يذهب إلى شرطي الحي، إذ بالرغم من أنه قد يحدث أن يتمكن الشرطي رغبة منه في كسب تقدير الرؤساء من العثور على المعطف بطريقة ما، لكن المعطف مع

ذلك سيبقى في قسم البوليس ما لم يقدم آكاكي آكاكيتش أدلة قانونية على ملكيته له. أفضل شيء أن يقصد إحدى الشخصيات الهامة، فهذه الشخصية الهامة تستطيع بالاتصال ومخاطبة من ينبغي أن تدفع القضية بنجاح أكبر. ولم يكن أمام آكاكي آكاكيتش من مفر، فقرّر أن يقصد الشخصية الهامة. ولكن ما هي وظيفة هذه الشخصية الهامة وما هي طبيعة هذه الوظيفة فهذا ما ظل مجهولاً حتى الآن. إنما ينبغي أن نعلم أن إحدى الشخصيات الهامة أصبح منذ فترة قريبة شخصية هامة، أما قبل ذلك فكان شخصية غير هامة. على أية حال فإنّ منصبه لا يعتبر حتى الآن هاماً بالمقارنة مع المناصب الأخرى الأكثر أهمية. غير أنك ستجد دائماً دائرة من الناس الذين يعتبرون مهما ما يبدو في عيون الآخرين غير مهم. على أية حال حاول هذه الشخصية الهامة أن يزيد من أهميته بوسائل أخرى كثيرة، وبالتحديد فقد عمل على أن يستقبله الموظفون الصغار على السّلم ساعة حضوره إلى وظيفته وألا يجروا أحداً على الدخول إليه مباشرة، بل يمضي كل شيء وفق نظام صارم: أن يبلغ المساعد الاعتباري سكرتير المحافظ، ويبلغ سكرتير المحافظ المستشار الاعتباري أو شخصاً آخر، وبهذه الطريقة يبلغ الأمر إليه. هكذا تنتشر عدوى التقليد إلى كل شيء في روسيا المقدسة، ويحاول كل شخص أن يقلّد رئيسه ويتشبه به. بل إنه يقال إن مستشاراً اعتبارياً ما عندما عيّنه رئيساً لإحدى الإدارات الصغيرة المستقلة، اقتطع لنفسه على الفور غرفة خاصة وسماها «غرفة الحضور» كانت لا تتسع إلا بالكاد لطاولة مكتب عادية. لقد كانت أساليب وعادات الشخصية الهامة رصينة ومهيبية ولكن دون تعقيد. كانت الصرامة هي القاعدة الأساسية لنظامه. وكان يقول عادة: «الصرامة والصرامة، ثم الصرامة» وعند الكلمة الأخيرة يحدّق في العادة بأهمية في وجه من يخاطبه. على الرغم من أن ذلك على

أية حال لم يكن له أدنى مبرر لأن الموظفين العشرة الذين كانوا يشكلون كل الجهاز الحكومي للإدارة، كانوا حتى بدون ذلك مرعوبين بدرجة كافية. فما أن يروه من بعيد حتى يتركوا عنهم أعمالهم ويقفوا في انتباه منتظرين حتى يمر الرئيس عبر الغرفة. وكان حديثه العادي مع مرؤوسيه يتسم بالصرامة ويتألف تقريباً من ثلاث جمل: «كيف تجرو؟ هل تعلم مع من نتحدث؟ هل تفهم أمام من تقف؟» على أية حال كان في قراراته رجلاً طيباً، لطيفاً مع رفاقه، خدوماً، إلا أن رتبة الجنرال أفقدته توازنه. فما إن حصل على رتبة الجنرال حتى ارتبك وضل طريقه ولم يعرف ابداً كيف يتصرف. فإذا حدث أن اجتمع مع أناس من مستواه كان يبدو إنساناً وكما ينبغي إنساناً مستقيماً جداً، بل وحتى إنساناً غير غبي في كثير من النواحي. ولكن ما إن يتواجد في مجتمع فيه أشخاص أدنى منه ولو برتبة واحدة حتى يصبح شخصاً لا أمل منه: كان يركن إلى الصمت، ويثير وضعه الشفقة، خاصة وأنه هو نفسه كان يشعر بأنه كان من الممكن أن يقضي وقته بصورة أفضل بكثير. وكانت تبدى في عينيه أحياناً رغبة قوية المشاركة في أحد الأحاديث أو الانضمام إلى إحدى الحلقات الشيقة، فتصدّه عن ذلك فكرة: «ألن يكون ذلك تنازلاً كبيراً من جانبه؟ ألن يكون في ذلك رفع للكلفة، ألن يكون في ذلك إهدار لأهميته؟» ونتيجة لهذه الأفكار يظل دائماً في نفس حالة الصمت التي لا تتغير، فلا يتفوّه إلا نادراً بأصوات أحادية المقاطع حتى استحق لقب أضجر إنسان. إلى هذه الشخصية الهامة توجه صاحبنا أكافي أكافيتش ووصل في وقت غير موثأبداً وغير مناسب أبداً له وإن كان على أية حال مناسباً للشخصية الهامة. كان صاحبنا الشخصية الهامة جاء منذ فترة قريبة، وهو أحد معارفه القدامى ورفيق طفولته الذي لم يره منذ زمن طويل. وفي هذه الأثناء أبلغوه أن شخصاً يدعى

بشما تشكين يريد مقابلته. فسأل باقتضاب: «من القادم؟» فأجابوه: «أحد الموظفين». فقال الرجل الهام: «آه فلينتظر، لا وقت عندي الآن». ومن المناسب هنا أن نذكر أن الرجل الهام قد كذب تماماً، فقد كان لديه وقت، إذ إنه انتهى منذ زمن بعيد من الحديث مع زميله حول كل شيء، ومنذ زمن بعيد أخذت تتخلل حديثهما فترات صمت طويلة، وبين الحين والحين يربت أحدهما على ساق الآخر مردداً: «هكذا يا إيفان ابراموفتش!» «نعم، يا ستيان فارلاموفتش!» ومع ذلك وعلى الرغم من كل شيء فقد أمر الموظف أن ينتظر لكي يظهر لزميله، هذا الرجل الذي لم يمارس الخدمة منذ زمن بعيد واستقر في داره بالقرية، كم من الزمن ينتظره الموظفون في الردهة. وأخيراً وبعد أن شبعا من الكلام وبعد أن شبعا أكثر من الصمت ودخن كل منهما سيجاراً في كراس وثيرة للغاية بمساند متحركة قال وكأنما تذكر فجأة للسكرتير الذي وقف بجوار الباب حاملاً أوراقاً ليقدم له التقارير: «نعم، أعتقد أن هناك موظفاً ينتظر، أخبره أنه يستطيع أن يدخل». وعندما رأى هيئة أكاكي أكايفتش المستكينة ومعطفه الرسمي القديم التفت نحوه فجأة وقال: «أي خدمة؟» بصوت قاطع حاسم تدرب عليه من قبل في غرفته على انفراد أمام المرأة، وذلك قبل أسبوع من توليه منصبه الحالي ورتبة الجنرال. وكان أكاكي أكايفتش قد مملكه الوجل قبل ذلك بوقت طويل، فارتبك قليلاً، ثم مضى يشرح له قضيته كيفما استطاع وعلى قدر ما سمحت له طلاقة لسانه مع اللجوء أكثر من أي وقت سبق إلى استخدام كلمة «يعني»، فقال إنه كان لديه معطف جديد تماماً، وها قد نهب بصورة لا إنسانية، وأنه يتوجه إليه لكي يتشفع له بما لديه يعني ولكي يخاطب السيد مدير الشرطة أو غيره من المسؤولين لكي يجدوا المعطف. ولسبب ما بدت هذه اللهجة للجنرال خالية من الكلفة، فقال بصوت قاطع:

- ما هذا، يا سيدي المحترم، ألا تعرف النظام؟ إلى أين جئت؟ ألا تعرف كيف تصرف الأمور؟ كان ينبغي قبل كل شيء أن تقدم طلباً في الإدارة، فيرفع الطلب إلى رئيس القلم، ثم إلى رئيس القسم، ثم إلى السكرتير، وعندئذ يرفعه السكرتير إلي...

- ولكن، يا صاحب المعالي، قال أكاكي أكاكيتش محاولاً أن يستجمع آخر حفنة بقيت لديه من الشجاعة، وهو يشعر في الوقت نفسه أن العرق يتصبّب منه بصورة فظيعة. أنا، يا صاحب المعالي، لم أجروء على إزعاج معاليكم إلا الآن، السكرتيرين يعني... لا يعتمد عليهم....

فقال ذو الشخصية الهامة:

- ماذا، ماذا، ماذا؟ من أين جئت بهذه الجرأة؟ من أين جئت بهذه الأفكار؟ ما هذا التمرد الذي انتشر بين الشباب ضد الرؤساء والكبار؟

ويبدو أن الشخصية الهامة لم يلاحظ أن أكاكي أكاكيتش قد جاوز الخمسين. وبالتالي فلو كان من الممكن اعتباره شاباً فلا يعدو ذلك إلا أن يكون أمراً نسبياً أي بالنسبة لمن هم في السبعين.

- أتدري لمن تقول هذا الكلام؟ هل تفهم أمام من تقف؟ هل تفهم ذلك؟ هل تفهم ذلك؟ إنني أسألك.

وهنا دقّ بقدمه رافعاً صوته إلى طبقة عالية إلى درجة أنه حتى لو كان الواقف أمامه شخصاً غير أكاكي أكاكيتش لأصابه الرعب. أما أكاكي أكاكيتش فقد صُنع وترنّج، واهتزّ بدنه كله، ولم يتمكن أبداً من الوقوف. ولولا أن الحراس هرعوا راكضين وأسندوه لانهار على الأرض. وحملوه من الغرفة، وهو بلا حراك تقريباً. أما الشخصية الهامة وقد أرضاه أن تأثير كلماته فاق حتى توقعاته، وانتشى من

فكرة أن كلمته قد تفقد الإنسان وعيه، فنظر بطرف عينه إلى صديقه ليعرف كيف ينظر إلى ما حدث، فرأى بإحساس لا يخلو من المتعة أن صديقه في حالة من القلق البالغ. بل وبدأ يشعر بالخوف.

لم يذكر أكاكي أكايشتش كيف نزل على الدرج وخرج إلى الشارع. ولم يكن يحس لا يديه ولا بساقيه. لم يحدث له في حياته أن نهره جنرال بهذا العنف. وعلاوة على ذلك جنرال ليس رئيسه. فسار في العاصفة الثلجية التي كانت تعربد في الشوارع فاغراً فاه، وهو يتخطى بين الأرصفة. وهبت عليه الريح، كما العادة في بطرسبورغ، من الجهات الأربع كلها ومن جميع الحواري.

وعلى الفور أصيب من البرد بؤرم في زوره، وعندما وصل إلى البيت لم يكن في وسعه حتى أن يتفوه بكلمة. وتورم بدنه كله، فرقد في الفراش. إلى هذه الدرجة يكون التعنيف قوياً أحياناً! وفي اليوم التالي أصيب بحمى شديدة. وبفضل مساعدة جو بطرسبورغ الرحيم سار المرض بأسرع من المتوقع، وعندما جاء الطبيب، وجس نبضه، لم يجد ما يشير به سوى الكمادات، وذلك فقط حتى لا يبقى المريض بدون عناية الطب الخيرة. وعلى العموم فقد أعلن الطبيب ساعتها أن نهايته المؤكدة ستحلّ بعد يوم ونصف. وبعد ذلك قال لربة الدار: «أما أنت، يا سيدتي، فلا تضيعي الوقت وجهزي له من الآن تابوتاً من خشب الصنوبر، لأن خشب البلوط سيكون غالياً بالنسبة له». فهل سمع أكاكي أكايشتش هذه الكلمات المشؤومة، وإذا سمعها فهل كان لها عليه تأثير مذهل، وهل شعر بالأسى على حياته الشقية.. نحن لا نعرف عن ذلك شيئاً لأن أكاكي أكايشتش كان طوال الوقت يهذي في غيبوبة الحمى. وتوالت على ذهنه الرؤى بلا انقطاع، كل رؤيا أغرب من سابقتها: فمرة يرى الخياط يتروفتش، فيوصيه بتفصيل معطف بفخاخ للصمصم الذين كانوا

يبدون له طوال الوقت تحت السرير، فكان يدعو ربة الدار كل لحظة لتنتشل لصاً حتى من تحت البطانية، وتارة كان يسأل لماذا يعلقون قبوطه القديم أمامه، فلدبه معطف جديد، وتارة يخيل إليه أنه يقف أمام الجنرال يصفي إلى تعنيفه وهو يقول: «آسف، يا صاحب المعالي». وتارة، وأخيراً، كان يسب متفوهاً بأفطع الكلمات حتى إن ربة الدار العجوز كانت ترسم علامة الصليب، إذ لم تسمع منه قبلاً كلمات كهذه أبداً، خاصة وأن هذه الكلمات كانت تأتي مباشرة بعد عبارة «يا صاحب المعالي». وبعد ذلك كان يهذي بأشياء لا معنى لها تماماً. فلم يكن يفهم منها شيئاً، الأمر الوحيد الذي كان يبدو واضحاً أن هذه الكلمات والأفكار المشوشة كانت تدور حول المعطف فقط. وأخيراً لفظ آكاكي أكاكيفتش آخر أنفاسه. ولم توصل غرفته أو ممتلكاته بالأختام لأنه أولاً، لم يكن هناك ورثة، وثانياً، لم يتبق لديه من الميراث إلا القليل. وخلت بطرسبورغ من آكاكي أكاكيفتش وكأنما لم يكن موجوداً فيها أبداً. اختفى وغاب ذلك المخلوق الذي لم يكن له من يحميه والذي لم يكن عزيزاً على أحد ولا شيقاً بالنسبة لأحد والذي لم يجذب إليه انتباه حتى عالم الطبيعة الذي لا يدع ذبابة عادية دون أن يغرس فيها دبوساً ويفحصها تحت المجهر.. ذلك المخلوق الذي تحمّل بإذعان سخریات الكتبة الموظفين والذي واره التراب دوغماً علة خارقة. ولكنه مع ذلك ولو قبيل نهاية عمره زاره ضيف جميل في صورة معطف بعث الحيوية ولو للحظة في تلك الحياة البائسة. ذلك المخلوق الذي دهمته فيما بعد الكارثة القاسية كما دهمت القياصرة والحكام.. وبعد بضعة أيام من وفاته أرسلوا حارساً من الإدارة إلى شفته ليأمره بالحضور فوراً، فالرئيس يطلبه. ولكن كان على الحارس أن يعود صفر اليدين قائلاً إنه لا يستطيع بعد الآن أن يأتي. وعلى السؤال «لماذا؟» أجاب بالكلمات التالية:

«هكذا، فقد مات ودفن منذ أربعة أيام» وهكذا علموا في الإدارة بوفاة أكاكي أكاكيتش، وفي اليوم التالي كان يجلس في مكانه موظف جديد، أطول منه قامة بكثير، يكتب الحروف بخط ليس باستقامة خط أكاكي أكاكيتش، بل ميل وانحراف أكثر.

ولكن من كان يتصور أن هذا ليس كل شيء عن أكاكي أكاكيتش وأنه كان مقدر أنه أن يعيش عدة أيام صاخبة بعد وفاته، وكأنما مكافأة له على حياته التي لم ينتبه إليها أحد؟ ولكن هذا ما حدث، وها هي روايتنا البائسة تنتهي فجأة نهاية خيالية. فقد انتشرت في بطرسبورغ فجأة شائعات تقول بأنه عند جسر «كالينكين» وفيما وراءه بكثير يظهر في الليالي ميت في صورة موظف يبحث عن معطف مسروق، وبحجة هذا المعطف المسروق ينتزع كافة المعاطف من على جميع الأكتاف غير آبه باللقب أو الرتبة، سواء كانت بياقات من فراء القطط أو السمور أو مبطنة بالقطن أو معاطف فراء من جلد الثعالب أو الدببة، وباختصار كافة أنواع الفراء والجلود التي ابتكرها البشر ليستروا بها أنفسهم. وقد رأى أحد موظفي الإدارات بعينه ذلك الميت وعرف فيه على الفور أكاكي أكاكيتش. بيد أن ذلك أصابه بفرع شديد حتى أنه ولّى هارباً بكل قواه، ولهذا لم يتمكن من التدقيق جيداً، بل رآه فقط، وهو يلوح له من بعيد بإصبعه مهدداً. وصدرت الأوامر للشرطة بالقبض على الميت بأية وسيلة حياً أو ميتاً ومعاقبته أقسى عقاب ليكون عبرة للآخرين، وكادوا أن يفلحوا في ذلك. ولكننا مع ذلك تركنا عنا مماساً تلك الشخصية الهامة والذي يكاد أن يكون في الحقيقة سبب الاتجاه الخيالي الذي سارت فيه هذه القصة، الحقيقية تماماً على أية حال. إن واجب العدالة يتطلب منا قبل كل شيء أن نقول إن الشخصية الهامة سرعان ما أحس بنوع من الأسف بعد انصراف أكاكي أكاكيتش المسكين الذي نزل به ذلك التعنيف القاسي. فلم يكن الإحساس بالشفقة غريباً عليه، وكان

قلبه قادراً على إبداء كثير من المشاعر الطيبة، على الرغم من أن رتبته كانت تعوقه كثيراً عن البوح بها. فما إن خرج زميله الزائر من غرفة مكتبه حتى انصرف تفكيره إلى أكاكسي أكاكيفتش المسكين. ومنذ تلك اللحظة كان يتخيل كل يوم تقريباً أكاكسي أكاكيفتش الشاحب الذي لم يتحمل تعنيفه الصارم. وأقلقه التفكير فيه إلى درجة أنه قرر بعد أسبوع أن يرسل إليه موظفاً ليعرف أحواله وهل يستطيع حقاً أن يساعده بطريقة ما. وعندما أبلغوه أن أكاكسي أكاكيفتش قد عاجله الموت مصاباً بالحمى اعتراه الذهول، وسمع صوت ضميره يؤنبه وظل طوال اليوم معتل المزاج. وأراد أن يسري عن نفسه بصورة ما وينسى ذلك الانطباع المقبض، فتوجه ليقضي المساء عند أحد زملائه الذي وجد عنده جماعة محترمة، والأهم من ذلك أن الجميع هناك كانوا من نفس الرتبة تقريباً، فلم يكن ثمة شيء يقيد تصرفاته. وكان لذلك تأثير مدهش على حالته النفسية، فانطلق وأصبح لطيفاً في حديثه، ولبقاً، وباختصار قضى المساء على نحو طيب للغاية، وعلى العشاء شرب كأس شمبانيا، تلك الوسيلة المؤثرة تأثيراً لا بأس به فيما يخص المرح كما هو معروف. ومنحته الشمبانيا ميلاً إلى شتى أنواع المفاجآت، وبالتحديد فقد قرر ألا يعود إلى المنزل، بل يمضي إلى سيدة معروفة تدعى كارولينا إيفانوفنا، وهي سيدة فيما يبدو من أصل ألماني، كان يكن لها مشاعر صداقة محضة، ومن الجدير بالذكر أن الشخصية الهامة كان رجلاً قد جاوز الشباب وزوجاً طيباً ورب أسرة محترماً، وكان ابنه، واحدهما يعمل عنده في الإدارة، وابنته اللطيفة البالغة ستة عشر عاماً وذات الأنف الأعقف قليلاً، ولكنه أنف جميل، كانا يقبلان عليه كل يوم ليلثما يده قائلين: «bonjour, papa».

أما قرينته، وهي امرأة لا تزال نضر، بل وحتى ليس فيها ما يعيب، فكانت تعطيه يدها أولاً ليلثمها ثم تقبلها على الوجه الآخر لتقبل يده هو. ولكن الشخصية الهامة الذي كان على أية حال راضياً تماماً عن الملاحظات العائلية المنزلية، وجد من اللائق أن تكون له صاحبة

للعلاقات الودية في القسم الآخر من المدينة. ولم تكن هذه الصاحبة
 أفضل أو أصغر سناً من زوجته، ولكن مثل هذه الألفاظ توجد في
 الدنيا، وليس من شأننا أن نناقشها. وهكذا هبط الشخصية الهامة
 على الدرج واستقل الزحافة وقال للحوذي: «إلى كارولينا إيفانوفنا»،
 أما هو فتغطى بالمعطف الدافئ في جلسة وثيرة للغاية وبقي في ذلك
 الوضع اللطيف. وتذكر وهو في غاية الرضا كل اللحظات المرحّة
 في الأمسية التي قضّاها، وكل الكلمات التي أثارت ضحكات تلك
 المجموعة الصغيرة، وردّد كثيراً منها بصوت خافت، فوجدّها جميعاً
 مضحكة كما كانت، ولذلك فليس من الغريب أن يضحك هو نفسه
 من كل قلبه. ومع ذلك كانت تنفّس عليه أحياناً ريح حارة متقطعة
 تهب فجأة من حيث لا يعلم إلا الله وليسبب لا يدرّيه أحد، فتلهب
 وجهه وتلقي عليه بقطع من الثلج وتنشر كما الشراع ياقة المعطف
 أو تلقى وبها فجأة بقوة رهيبية على رأسه، فتكلفه عناء لا ينتهي في
 محاولة التخلص منها. وفجأة أحس الشخصية الهامة بأحد ما يمسك
 بياقة معطفه بقوة. وعندما التفت رأى رجلاً قصير القامة في معطف
 رسمي قديم مهترئ، فعرف فيه لرعبه أكاكي أكايفتش. كان وجه
 الموظف شاحباً بلون الثلج، وبدأ ميتاً تماماً، ولكن رعب الشخصية
 الهامة فاق كل الحدود عندما رأى فم الميت يلتوي منفرجاً وتهب
 منه عليه رائحة القبور الرهيبة ويلفظ هذه الكلمات: «آه، ها أنت
 ذا أخيراً! أخيراً أنا، يعني، أمسكت بك من يافتك! معطفك بالذات
 هو ما أحتاج إليه! لم تسع لاسترداد معطفي، بل وعنتني. حسناً،
 هات الآن معطفك!» وكاد الشخصية الهامة المسكين أن يموت،
 أحس برعب شديد إلى درجة أنه بدأ يخشى، وليس دون مرر، من
 أن تكون قد أصابته نوبة نفسية. وأسرع إلى نزع معطفه بنفسه عن
 كتفيه وصرخ في الحوذي بصوت غير طبيعي: «أسرع إلى بيت بكل
 قواك!..» وعندما سمع الحوذي نبرة الصوت التي لا تتردد عادة إلا
 في المواقف الحاسمة، بل وتصاحبها حركات أكثر فعالية، دفن رأسه

بين كتفيه تحوطاً، ولوح بالسوط واندفع بالعربة كالسهم. وبعد ست دقائق أو أكثر قليلاً كان الشخصية الهامة أمام مدخل بيته، وصل شاحباً، مفزوعاً وبلا معطف إلى بيته بدلاً من أن يصل إلى كارولينا إيفانوفنا، وجر ساقيه كيفما اتفق حتى وصل إلى غرفته، وقضى ليلته في اضطراب شديد حتى إن ابنته قالت له في صباح اليوم التالي، وهم يتناولون الشاي: «أنت اليوم شاحب جداً يا بابا» ولكن بابا لزم الصمت. ولم يخبر أحداً بما حدث له وأين كان وإلى أين كان ينوي الذهاب. لقد ترك هذا الحادث أثراً قوياً في نفسه. بل إنه أصبح نادراً عن ذي قبل ما يقول لمرووسيه: «كيف تجرؤ، هل تفهم أمام من أنت»، وحتى إذا قالها فما كان يفعل إلا بعد أن يستمع أولاً إلى شرح الموضوع.

ولكن الأمر الأجدر بالملاحظة أنه منذ تلك الساعة كف الميت الموظف ممماً عن الظهور، إذ يبدو أن معطف الجنرال جاء مناسباً له جداً. على أية حال لم يعد يتردد أن أحداً ما ينتزع المعاطف من على الأكتاف. ولكن كثيراً من رجال الأعمال الحريصين لم يريدوا أبداً أن يركنوا إلى الطمأنينة وراحوا يرددون بأن الميت الموظف مازال يظهر في أطراف المدينة البعيدة. وبالفعل فقد رأى أحد رجال الدرك في حي «كولومنسكي» بعينه شبهاً يظهر من خلف أحد المنازل. بيد أنه لم يتمكن من إيقاف الشبح، بل سار خلفه في الظلام إلى أن التفت الشبح خلفه أخيراً وتوقف وسأله: «ماذا تريد؟» وأظهر له قبضة لا تجد لها مثيلاً لدى الأحياء. فقال الدركي: «لا شيء» وعاد أدراجه من فوره. بيد أن الشبح مع ذلك كان أطول بكثير ويحمل شوارب هائلة، ومضى متجهاً كما بدا نحو جسر «أوبوخوف»، ثم اختفى ممماً في ظلام الليل.

مذكرات مجنون

٣ تشرين الأول وقع حادث فريد. استيقظت في الصباح متأخراً إلى حد ما. وحين جلست لي ماقرأ حذائي المنظف سألتها عن الساعة. فعلمت أنها قد تجاوزت العاشرة كثيراً. أسرعت فارتديت ثيابي. وأقولها بصراحة ما كنت سأذهب إلى الدائرة قطعاً، وأنا أعرف مسبقاً بأية جهامة سيقابلني رئيس القسم. إنه منذ زمان يقول لي: «ما لرأسك، يا أخ، دائماً في هرجلة؟ مرة تتخط كالخبول، وتخلط بالأوراق فلا يستطيع أن يفرزها حتى الشيطان نفسه، وتضع على رأس الورقة حرفاً صغيراً بلا تاريخ ولا رقم». مالك حزين لعين! أعتقد أنه يحسدني لأنني أجلس في مكتب المدير أبرو الريش لسعادته. على العموم، ما كنت سأذهب إلى الدائرة لولا أمني في أن ألتقي بالمحاسب، وأطلب من هذا الزنديق، لعلّ وعسى أن يسلفني شيئاً على مرتبي مقدماً. هذا أيضاً خلقه من خلق الله! وهل حسبته أعطى سلفة على المرتب ذات يوم؟ حاشا لله، يأتي يوم القيامة أقرب من ذلك اليوم. لن يفعل مهما حاولت، ولو كنت في أشد ضائقة. لن يفعل، هذا الإبليس الأشيب. بينما طباخته في شقته تصفعه على هذا الخد وعلى ذاك. والدنيا كلها تعلم بذلك، أنا لا أفهم الفائدة من الخدمة في دائرة حكومية حيث لا موارد على الإطلاق. بينما الأمر يختلف تماماً في حاكمية الولاية، والمصالح المدنية والجبايات. فترى هناك من انزوى في أقصى الزاوية يكتب. وسترة الفراك التي عليه حقيرة، وسحته تفرزك، ولكنه يستأجر بيتاً ريفياً معتبراً. لا يقبل

منك حتى قدحاً من الصيني المذهب، قائلاً لك: «هذه هدية يمكنك أن تقدمها لطبيب». أما هو فيهدي له زوج من الخيول المطهمة، أو عربية ركوب صغيرة، أو فراء قندس يساوي ثلاثمائة روبل لا أقل. تراه في مظهره هادئاً، يتكلم بلطف: «أعزني من فضلك سكيناً ليري الريشة». بينما هو ييري المراجع برأى حتى لا يبقى عليه غير قميصه. ولكن مقابل ذلك يمتاز عملنا بالاحترام حقاً، والنظافة في كل شيء في الدائرة لن نجده أبداً في حاكمية الولاية: المكاتب من الخشب الأحمر، وجميع الرؤساء يخاطبونك بصيغة الجمع. نعم، أقول لكم بصراحة لولا احترامية العمل هذه لكنت قد تركت الدائرة منذ زمان. ارنديت معظفي القديم، وتناولت المظلة لأن المطر كان ينزل مدراراً. لم يكن في الشوارع أحد ما عدا النسوة العاميات يغطين رؤوسهن بأذيال ثيابهن، والتجار الروس يتظللون بالمظلات، والسعاة يقع عليهم بصرى بين حين وآخر. ومن النبلاء لم ألتقي إلا بموظف واحد. رأيت في مفترق الطرق. وما إن رأيت حتى قلت لنفسى: «لا، يا حبيب قلبي، أنت غير ذاهب إلى الدائرة، بل تلاحق تلك التي تركض قدامك، وتحقق في ساقبها». أي محتمل هذا صاحبنا الموظف! لا يقل، والله العظيم، عن أي ضابط. ما إن مر ذات قبعة، حتى يتشبث بها. وبينما كنت أفكر في ذلك رأيت عربية تقترب من المخزن الذي كنت أمر به. وعرفت على الفور. إنها عربية مديرنا. وقلت لنفسى: «ولكن أي شغل لمديرنا في المخزن؟ أظنها ابنته». التصقت بالحائط. فتح الخادم باب العربية، فرففت الابنة نازلة كالطائر. ورنّت ذات اليمين وذات الشمال، وهففت بحاجبيها وعينيها بعدوبة... يا رب، يا إلهي! اقرأ علي السلام، انتهيت ممماً. ما الذي جاء بها في هذا الجو المطر. ومع ذلك تجد من يؤكد لك أن النساء غير مغرمات بكل هذه التفاهة. لم تعرفني هي، كما أنني

حاولت عمداً أن ألفت نفسي قدر المستطاع، لأن المعطف الذي كنت أرتديه مبعق كثيراً، فضلاً عن طرازه القديم، الناس يلبسون الآن معاطف ذات ياقات طويلة، بينما كانت ياقة معطفي قصيرة متصلة الطرفين. كما أن قماشته ليست متينة. لم تلحق كلبتها الصغيرة أن تقفز إلى باب المخزن، فبقيت في الشارع. وأنا أعرف هذه الكلبة. اسمها ميدجي. وما كدت أترث دقيقة حتى سمعت صوتاً ناعماً يقول: «مرحباً، ميدجي!» عجب! من القائل؟ حولت بصري، فرأيت سيدتين تتظللان تحت مظلة واحدة، إحداهما عجوز، والثانية شابة. ولكنهما مرتتا، وصدر صوت بالقرب مني ثانية: «حرام عليك، يا ميدجي!» أي شيطان هذا! رأيت ميدجي تشم كلباً صغيراً كان يسير وراء السيدتين. «عجب قلت لنفسي أوه كفى، ربما أنا سكران؟ ولكن هذا، كما يبدو، نادراً ما يحصل لي» «لا، يا فيدل، خسارة أن تفكري هكذا سمعت بأذني ما نطقت به ميدجي كنت واوا واوا كنت واو، واو، واو! مريضة جداً». أوه، يا كلبة! بصراحة دهشت كثيراً، حين سمعتها تتكلم بصوت بشري، ولكنني فيما بعد، حين فكرت بكل ذلك كلباً، زابتني دهشتي. في الحقيقة حصلت في الدنيا أشياء كثيرة من هذا القبيل. يقولون في إنجلترا رفعت سمكة رأسها، وقالت كلمتين بلغة غريبة، حتى أن العلماء يجتهدون منذ ثلاثة أعوام ليعرفوا أية لغة هي، ولم يتوصلوا إلى شيء حتى الآن. كما قرأت في الجرائد عن يقرتين ذهبتا إلى دكان، وطلبنا رطلاً من الشاي. ولكن دهشت أكثر من ذلك بصراحة، حين سمعت ميدجي تقول: «كنت قد كتبت لك، يا فيدل. ولعل بولكان لم يحمل رسالتي إليك!» عسى أن يقطعوا راتبي، إذا كنت أكذب! في حياتي كلها لم أسمع بأن كلبة استطاعت أن تكتب. النبيل وحده يستطيع أن يكتب بشكل صحيح. وبالطبع يمكن أن يكتب أحياناً بعض التجار

من أصحاب الحوانيت، وحتى الأفنان يكتبون من حين لآخر ولكن معظم كتاباتهم آلية، بلا فوارز، ولا نقاط، ولا أسلوب.

لقد أدهشني ذلك. وأعترف بأنني منذ بعض الوقت أخذت أحياناً أسمع وأرى مثل هذه الأشياء التي لم يرها ولم يسمع بها أحد حتى الآن. قلت لنفسي: «لأسير وراء هذا الكلب، وأعرف من وماذا يفكر».

فتحّت مظمتي، وتعقبت السديتين. تحولتا إلى شارع غروخوفيا، وانعطفنا إلى شارع ميشانسكيا، ومن هناك إلى شارع ستوليارييا، وأخيراً إلى جسر كوكوشكين، وتوقفتا أمام بيت كبير. قلت لنفسي: «أنا أعرف هذا البيت. إنه ملك زفر كوف. مصنع بالضبط! يضم ساكنين من شتى الأصناف. فكم من طبابخات فيه، وكم من وافدين على المدينة! وجماعتنا الموظفون فيه بعدد الكلاب، واحد فوق الآخر. وفي هذا البيت أيضاً لي صديق ينفخ بالبوق بشكل جيد. وصعدت السيدتان إلى الطابق الخامس. وفكرت مع نفسي: «طيب، لا أدخل الآن، بل أحدد المكان، وفي أول فرصة لا أفوت الاستفادة».

٤ تشرين الأول

اليوم الأربعاء، ولهذا كنت عند رئيسنا في مكتبه. جئت في وقت أبكر عن عمد، وجلست أبرو كل الريش. ومديرنا لا بد أن يكون ذكياً جداً: كل غرفة مكتبه مملوءة بخزانات الكتب. قرأت عناوين بعضها. كلها علوم رفيعة، علوم يستحيل على جماعتنا الموظفين حتى الاقتراب منها. كلها إما بالفرنسية أو بالألمانية. والنظر إلى وجهه يجعلك ترى كم من العظمة تبهر في عينيه. كما أنني لم أسمع منه قط كلمة زائدة. إلا حين أقدم له الأوراق إذ يسأل: «كيف الجو في الخارج؟».. «رطب، يا صاحب السعادة»، نعم، لا يمكن أن يقارب

بجماعتنا! رجل دولة. إلا أنني ألاحظ أنه يحبني أكثر من الآخرين. ياليت ذلك الحب كان من جانب ابنته... آه، خسارة! لا بأس، لا بأس، أسكت. كنت أقرأ في صحيفة... «النحلة» أي ناس بله هؤلاء الفرنسيون! اللعنة، ماذا يريدون؟ ليتني، والله العظيم، أوجعهم عن بكرة أبيهم ضرباً بعضا الخيزران. وفي هذه الصحيفة قرأت وصفاً جميلاً لحفلة راقصة كتب مالك أطيان من كورسك. وملاكو الأطيان الكورسكيون يكتبون بشكل جيد. وبعد ذلك لاحظت أن الساعة بلغت الثانية عشرة والنصف، بينما رئيسنا لم يخرج من مخدعه. ولكن في نحو الساعة الواحدة والنصف وقع حادث لا تقدر أية ريشة على وصفه. انفتح الباب. فظننت أنه المدير، نهضت وثبا من مقعدي، ومعى الأوراق. ولكن لم يكن هو، بل هي، هي نفسها. يا أولياء، أي لبس عليها! ثوبها أبيض كطائر التم. ياه، وبأي فخفخة! ورنّت فإذا هي الشمس، الشمس، والله العظيم! انحنت محية، وقالت: «بابا هنا؟» يا ويلي، يا ويلي، أي صوت فاتن! كنارية، حقاً، كنارية! وكنت أريد أن أقول: «لا تأمري بعقابي. وإذا كان ولا بد فعاقبيني بيدك الجزائرية». ولكن اللعنة، لم يطاوعني لساني، فلم أقل إلا «لا، غير موجود». نظرت إليّ، وإلى الكتب، وأسقطت المنديل. قفزت بكل ما في قدمي من قوة لالتقاطه وانزلت على الأرضية اللعينة، وكدت أدق أنفي بها، إلا أنني تماسكت، على كل حال، وتناولت المنديل. يا أولياء، أي منديل هو! خفيف مماساً، من القماش الشفاف، فيه أريج العنبر، العنبر مماساً. وتقوح منه الجزائرية أيضاً. شكرتني، ابتسمت حتى أن شفتيها السكرتين كادتا تنفر جان. وبعد ذلك طلعت. جلست ساعة أخرى، وإذا بالخدام يأتي ويقول: «انصرف، يا اكستني أيفانوفيتش. السيد استقل العربة من بيته». أنا الآن لا أطيق وسط الخدم، دائماً ينطحون في الرواق. على الأقل لو

حركوا رؤوسهم، وحيوا بانحناءة. بل الأكثر من ذلك أن أحد هؤلاء المحتالين خطر في باله أن يضيفني على نشوق، دون أن يكلف نفسه فينهض من مكانه. ولكن هل تدري، أيها الجلف، أنني موظف ذو نسب نبيل. على كل حال تناولت قبعتي، ولبست معطفي بنفسي، لأن هؤلاء «الأسياء» لن يعاونوك في ارتدائه، وخرجت. وفي البيت قضيت معظم الوقت في السرير. ثم استنسخت أبياتاً جميلة جداً: «الساعة التي لم أرَ فيها محبوبتي أظنها سنة. وأكره حياتي وأقول: أياحق لي أن أعيش». أظن ذلك من نظم بوشكين^(١).

وفي المساء التفتت بمعطفي، واتجهت إلى مدخل بيت سعادتها، وانتظرت طويلاً لعلها تخرج لتستقل العربى، فأنمت بالنظر إليها مرة أخرى، ولكنها لم تخرج.

٦ تشرين الثاني

رئيس القسم جن جنونه. عندما وصلت إلى الدائرة استدعاني إلى غرفته. وأخذ يقول لي هكذا: «حسناً، قل لي أرجوك ما هذا الذي تفعله؟» فأجبت: «كيف ما هذا؟ أنا لا أفعل شيئاً»، «طيب، حكم عقلك جيداً! فأنت قد تخطيت الأربعين، آن الأوان لتعود إلى رشدك. ماذا تتخيل نفسك؟ أتظنني لا أدري حيلك؟ أنت تغازل ابنة المدير وحق الرب! انظر إليك، فكر فقط ماذا أنت؟ أنت صفر، لا أكثر. ليس في جيبك فلس واحد. على الأقل لو عاينت وجهك في المرأة، إلى أين أنت ترنو!» تخطفه الشيطان! لأن له وجهاً يشبه إلى حد ما قارورة صيدلية، وعلى رأسه خصلة شعر معكوفة، ويشمخ برأسه، ويدهنه كالطرة، يظن أن كل شيء ميسر له وحده؟ إنه الحسد

(١) رتب مدينة في روسيا القيصرية.

بعينه. فقد يكون قد رأى علائم الودّ نحوي. ولكن بصقة عليه! ويتصور درجته في الوظيفة مهمة جداً! علق ساعته بسلسلة ذهبية وأوصى على حذاء بقيمة ثلاثين روبلاً، أوه، عليه اللعنة! وهل أنا بلا نسب، من عائلة خياطين، أو من أبناء ضابط صف؟ أنا من سلالة نبلاء، وأستطيع أن أصل إلى أعلى درجة ما زلت في الحادية والأربعين، السن التي تبدأ فيها الوظيفة بشكل حقيقي. فانتظر، يا صاح! سنكون نحن أيضاً برتبة عقيد، أو ربما، إذ وفق الله، سنصل إلى رتبة أعلى. وستكون لنا أيضاً مكانة، وأحسن من مكانتك. كيف دخل في رأسك أنك وحدك الرجل المعتر؟ أعطني سترة فراك مفصلة خصيصاً أو على الموضة، واعقد لي ربطة عنق كربتلك، وعند ذاك لن أجعلك حتى حشوة لحذائي، ولكنني بلا موارد، هذه هي المصيبة.

٨ تشرين الثاني

كنت في المسرح، مثلوا الأبله الروسي فيلاتكا. ضحكت كثيراً، كما مثلوا فودفيلافيه أشعار طريفة عن موظفي المحكمة ولاسيما عن مسجل صادرة وواردة، أطلقوا فيها ألسنتهم، حتى لدهشت كيف سمحت بها الرقابة، وعن تجار يقولون على المكشوف أنهم يخدعون الناس وأبنائهم يعربدون، ويدعون النبالة، وهناك مثانٍ شعرية عن الصحفيين أيضاً مسلية جداً: إنهم يحبون شتم كل شيء طوال الوقت، والمؤلف يطلب من الجمهور الحماية. المؤلفون اليوم يكتبون مسرحيات طريفة جداً. أنا أحب مشاهدة المسرح. ما إن تصير بعض الفلوس في جيبي حتى لا أصطبر وأذهب إليه. بينما يوجد بين جماعتنا الموظفين خنازير لا يذهبون إلى المسرح قطعاً، إلا إذا أعطيتهم التذاكر مجاناً، غنت إحدى الممثلات غناءً لطيفاً وتذكرت تلك... أوه، خسارة.. لا بأس، لا بأس، أسكت.

توجهت إلى الدائرة في الساعة الثامنة. وتظاهر رئيس القسم بأنه لم يلحظ وصولي. وأنا من جانبي تظاهرت وكأن لا شيء حصل بيننا. صرت أعيد النظر في الأوراق وأدققها. خرجت في الساعة الرابعة. مررت بمنزل المدير. لم أر أي شيء. قضيت معظم الوقت بعد الغداء مستلقياً على الفراش.

اليوم جلست في غرفة مكتب المدير، بروت له ثلاثاً وعشرين ريشة، ولها... آه، آه... لساعاتها أربع ريش. إنه يحب كثيراً أن يكون عنده أكبر عدد من الريش. اهوه! لا بد أنه دماغ! دائماً صامت، بينما يناقش كل شيء في ذهنه، على ما أظن. ليتني أعرف في أي شيء يفكر أكثر من غيره، وماذا يضمر في هذا الرأس، ليتني أنظر عن قرب في حياة هؤلاء الأسياد، كل تلك الدسائس والمناورات كيف هم، وماذا يعملون في وسطهم هذا ما أود أن أعرفه! فكرت عدة مرات أن أدخل في حديث مع سعادته، ولكن اللعنة على لساني، لا يطاوعني أبداً. لا أقول إلا أن الجو بارد أو دافئ، ولا يطلع من لساني أكثر من ذلك إطلاقاً.

وددت لو ألقى نظرة في غرفة الجلوس، التي لا أراها إلا من خلال الباب الموارب أحياناً، وبعد غرفة الجلوس غرفة أخرى، آه، ما أغني أثنائها! أية مرايا، وأي أواني صينية! وددت لو ألقى نظرة إلى ذلك النصف حيث تعيش سعادته، هذا ما أورده من كل قلبي! انظر في غرفة الزينة، وكيف تصطف كل تلك العلب والقوارير، والزهور التي تذبل من لفح الأنفاس، وكيف تتناثر هناك ملابسها، التي هي أشبه بالزغب منها بالملابس، وددت لو أنظر في مخدعها... أظن هناك

أعاجيب، أظن هناك جنة لا مثيل لها حتى في السماوات. ليتني أ
نظر إلى التختة التي تضع عليها قدمها، وهي تنزل من السرير، وكيف
تجورب هذه القدم الحلوة بجوارب أبيض كالثلج.... آه، آه، آه لا
بأس، لا بأس...

أسكت.

اليوم، على كل حال، لمعت في ذهني فكرة، تذكرت ذلك
الحديث الذي سمعته يدور بين الكلبتين في شارع نيفسكي. وقلت
لنفسي: «الآن سأعرف كل شيء». يجب أن أخطف الرسائل التي
كانت تتبادلها هاتان الكلبتان الحقيرتان. وأعتقد أنني سأعرف شيئاً
ما. بل وأعترف أنني ذات مرة دعوت ميدجي إلى غرفتي، وقلت
لها: «اسمعي، يا ميدجي. نحن الآن وحيدان. وإذا شئت قفلي
الباب حتى لا يرانا أحد. خبريني بكل ما تعرفينه عن الآنسة، ماذا
وكيف؟ وأحلف لك بالرب أنني لن أكشف شيئاً لأحد».

ولكن الكلبة الماكرة صكت ذيلها، وانكمشت إلى النصف،
وخرجت من الباب، وكأنها لم تسمع شيئاً. منذ زمان وأنا أعتقد
بأن الكلبة أذكى من الإنسان بكثير. بل وكنت موقناً بأنها تستطيع
أن تتكلم، ولكن عنادها وحده يحول دون ذلك. إنها سياسة حاذقة
تلحظ كل شيء، كل نيات الإنسان. على كل حال سأذهب إلى بيت
زفر كوف غداً، مهما يكن من شيء، واستجوب فيدل، فقد أنجح في
اختطاف كل الرسائل التي كتبها ميدجي لفيدل.

١٢ تشرين الثاني

خرجت في الساعة الثانية ظهراً لأرى فيدل حتماً وأستجوبه.
أنا لا أطيق الكرنب الذي تفوح رائحته من كل دكاكين الخرداوات

في شارع ميشانسكيا، كما أن من وراء بوابة أي بناية يخرج سخام
 جهنمي جعلني ألفت نفسي، وأركض بكل قوتي، وعلاوة على ذلك
 فإن هؤلاء الحرفيين الخبثاء يطلقون العفونات والدخان من مشاغلهم
 بكمية كبيرة تجعل من المتعذر تماماً على الرجل المهذب أن يتمشى
 هنا. وعندما صعدت إلى الطابق السادس، وقرعت الجرس الصغير،
 خرجت فتاة ليست قبيحة أبداً، ذات غمش صغير. عرفتُها. هي نفس
 الفتاة التي كانت تسير مع العجوز. احمرّت قليلاً، ففطنت إلى سرّ
 احمرارها رأساً: أنت، يا حلوتي، ترغبين في أن يزورك خطيب.
 قالت: «ماذا تريد؟» «أريد أن أتحدث قليلاً إلى كلبتك». كانت الفتاة
 بلهاء، أدركت رأساً أنها بلهاء! وفي ذلك الوقت جاءت الكلبة تنبح.
 أردت أن أختطفها، ولكن الحقيبة كادت تنشب أنيابها في أنفي. إلا
 أنني رأيت في الزاوية مريضاً لنوم الكلاب. أي، نعم، تلك بغيتي.
 تقدمت منها، ونبشت القش في تلك العلبة الخشبية، ولدهشتي
 الخارقة، أخرجت ضبة من الوريقات الصغيرة. ولما رأت الكلبة
 الحقيبة ذلك عضتني في بادئ الأمر من ربة ساقي، وبعد ذلك، حين
 تشممت أنني أخذت الوريقات، أخذت تولول وتداهن، ولكنني
 قلت: «لا، يا حلوة، مع السلامة!» وانطلقت خارجاً. أظن الفتاة
 اعتبرتني مجنوناً، لأنها كانت مذعورة للغاية. وعندما وصلتُ إلى
 البيت، أردت أن أباشر العمل فوراً أو أدقق هذه الرسائل، لأنني لا
 أرى جيداً في ضوء الشموع. ولكن ما فراطرات على ذهنها أن
 تغسل أرضية الغرفة. إن هؤلاء الفنلنديات يغرن بالنظافة والترتيب
 في الوقت غير المناسب دائماً. ولهذا خرجت أتمشي، وأتروى فيما
 حدث. الآن وفي آخر الأمر، سأعرف كل الأمور والأفكار، كل
 تلك الدوافع، وأنفذ أخيراً إلى كل شيء. إن هذه الرسائل ستفتح لي
 كل شيء. الكلاب معشر أذكاء. وهم يعرفون كل العلاقات السياسية

ولهذا أعتقد، سيكون كل شيء في باطن هذه الرسائل: الشخصية وكل شؤون صاحبنا رجل الدولة ذاك. وسيكون فيها أيضاً شيء عن تلك التي... لا بأس، أسكت! وفي المساء عدت إلى البيت. وقضيت معظم الوقت مستلقياً على السرير.

١٣ تشرين الثاني

حسناً، لنرَ الرسالة واضحة إلى حد ما. ومع ذلك فإن في الخط شيئاً كليباً، كما يبدو. نقرأ:

عزيزتي فيدل، أنا لا أستطيع أن ألفت اسمك العامي. وكأنما لم يكن في ميسورهم أن يختاروا اسماً لطيف. فيدل، روزا، أية لفظة مبتذلة! على كل حال. سأترك كل ذلك جانباً. أنا مسرورة جداً بأننا فكرنا في أن نراسل.

الرسالة صحيحة جداً من الناحية النحوية. النقاط والفوارز في مكانها، وحتى أدق العلامات. رئيس قسمنا نفسه لا يقدر أن يكتب بهذا الشكل، ولو أنه يردد أنه درس في الجامعة في وقت ما. ولنواصل القراءة.

أعتقد أن تبادل الأفكار والمشاعر والانطباعات مع شخص آخر هو إحدى النعم الأولى في الدنيا.

الفكرة مسروقة من مؤلف مترجم عن الألمانية، لا أتذكر اسمه.

أنا أقول ذلك عن خبرة، على الرغم من أنني لم أتجول في العالم أبعد من بوابة عمارتنا. فهل حياتي لا تجلب متعة؟ إن سيدتي التي يسميها «بابا» ها صوفيا، تحبني إلى حد الدهول.

آه، آه... لا بأس، لا بأس. أسكت!

وبابا أيضاً غالباً جداً ما يداعبني. وأنا أشرب الشاي والقهوة مع

الحليب. آه،^(١) Ma chère عليّ أن أقول لك إنني لا أجد أية متعة في العظام الكبيرة المعروقة التي يقرقشها كلبنا بولكان في المطبخ. العظام لذيدة إذا كانت من عظام الطيور فقط، على أن تكون أيضاً غير مفرغة من نخاعها من قبل أحد. ولذيد أن تخلط ببعض الصلصات سوية، ولكن بدون مخللات ولا خضرة، غير أنني لا أعرف أسوأ من عادة تقديم كرات لباب الخبز المدورة إلى الكلاب. تصوري، أحد السادة الجالسين إلى المائدة، والذي أمسك بيده مختلف القذارات، يدعك الخبز بيديه هاتين، ويدعوك إليه، ويدسّ في أسنانك كرة من هذه الكرات. وأنت لا تستطيعين أن ترفضني، لأن ذلك تصرف غير مؤدب، فتضطرين إلى أكلها وتأكليها، ولكن بتقزز...

الشيطان وحده يعرف ما هذا! أي هذر؟ كأنه لا يوجد موضوع أفضل من هذا لنكتب عنه. لننظر في الصفحة الأخرى. فقد يكون فيها أقرب إلى المنشود.

أنا على استعداد كبير لتزويدك بالمعلومات عن كل ما يحدث عندنا. وكنت قد حدثتك ذات مرة عن السيد الأكبر الذي تسميه صوفيا «بابا» إنه رجل غريب الأطوار جداً.

أها! وأخيراً نعم، كنت أعرف أن للكلاب نظرة سياسية إلى كل الموضوعات. فلنر، ماهو بابا هذا:

... غريب الأطوار جداً. يلتزم الصمت في أكثر الأوقات. ونادراً جداً ما يتكلم. ولكنه قبل أسبوع كان يتكلم مع نفسه بلا انقطاع: «سأحصل أم لا أحصل؟» يضمّ يده على ورقة، ويطوي الأخرى فارغة ويقول: «سأحصل أم لا أحصل؟» ومرة وجهه إلى سؤالا. «ما

(١) الكنسر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) شارع روسي عظيم، وهذه الأبيات الرديئة تنسب إلى بوشكين سخريه به. المترجم.

رأيتك، يا ميدجي؟ هل سأحصل أم لا أحصل؟» ولم أستطع أن أفهم شيئاً بتاتاً، فتشملت حذاه، وانصرفت. وبعد ذلك ma chère بعد أسبوع جاء بابا مغموراً بفرح عظيم وطوال الصباح كان السادة ذوو البزات الرسمية يترددون عليه، ويهتفون عليه شيء ما. وعلى المائدة كان مبتهجاً ابتهاجاً لم أره عليه قط، وكان يطلق النكات. وبعد الغداء رفعتني إلى رقبته، وقال: «انظري، يا ميدجي، أي شيء هذا؟». رأيت شريطاً، فتشمتته، ولكنني لم أجد فيه أي عبر قطعاً، وأخيراً لعقته خلسة. كان مالحاً قليلاً.

اهم! أظن هذه الكلبة تجاوزت كثيراً في كلامها... أخشى أن يضر بها! اها! بهذا الغرور هو! يجب أن آخذ ذلك بعين الاعتبار. مع السلامة ma chère عندي ما يشغلني... هذا وذاك... غداً سأكمل الرسالة. آوه، مرحباً أنا الآن معك ثانية. اليوم سيدتي صوفيا....

آوا طيب، لئر ماذا صوفيا. آه خسارة... لا بأس لا بأس... سنواصل.

سيدتي صوفيا كانت في عجلة من أمرها. تنهياً لحفلة راقصة. وقد فرحت لأنني في غيابها أستطيع الكتابة إليك. سيدتي صوفيا دوماً تقترح جداً في الذهاب إلى حفلة راقصة، ولو أنها أثناء لبسها تختد دائماً تقريباً. أنا لا أفهم أبداً ma chère أي متعة في الذهاب إلى حفلة راقصة. صوفيا تعود من الحفلة الراقصة إلى البيت في الساعة السادسة صباحاً، وأحس دائماً تقريباً من وجهها الشاحب المعروف أنهم لم يقدموا لهذه المسكينة طعاماً. وأقولها بصراحة أنا لا أستطيع أن أعيش بهذا الشكل. لو انقطعوا عن تقديم لي لحم القبيج بالصلصة، أو أجنحة دجاج محمصة... لتحيرت ماذا سيحصل لي، ولذيذة أيضاً الصلصلة مع العصيدة. أما الجزر أو اللفت أو الخرشوف فلن يكون لذيقاً أبداً...

أسلوب متعكر كثيراً. تعرف منه رأساً أن كاتبه ليس من البشر.
تبدأ حسب الأصول، وتنتهي على الطريقة الكلبوية، لتنظر في رسالة
أخرى. أطول قليلاً. أهم! ولم يكتب تاريخ الإرسال.

آه، يا عزيزتي! كم هو محسوس اقتراب الربيع! قلبي يخفق، وكأنما
يتوقع شيئاً طوال الوقت. وفي أذني ضجيج دائم، حتى أنني غالباً
ما أرفع رجلي. وأقف بضعة دقائق منصتة إلى الباب وأكاشفك أن
لي الكثير من المغالين. وغالباً ما أجلس إلى النافذة أتطلع إليهم.
آه، ليتك تعرفين أي دميمين بينهم! بعضهم غليظ، كلب هجين
سارح، أحرق بشكل فظيع، والحماقة مرسومة على وجهه، ويسير
في الشارع متعاضماً، ويتصور أنه شخصية مرموقة، يظن أن الجميع
يرمقونه. مستحيل! أنا لا أعيره أي التفات، وكأنني لم أره. وهناك
كلب درواس ضخمة رهيب يتوقف أمام شباكي! ولو وقف على
قائمتيه الخلفيتين، وهذا ما لا يحسنه هذا الأزهر، على ما أظن، لكان
أطول بمقدار رأس من بابا صاحبتني صوفيا، الذي هو الآخر طويل
إلى حد ما وسمين. إن هذا المتحجر الدماغ وقع إلى حد مفزع،
على ما أتصور. دمدمتُ عليه، ولكنه لم يكرث. أخرج لسانه، ودلى
أذنيه الهائلتين، وراح يحدق في الشباك أي جلف هو! ولكن لا
يعقل أنك، ma chère تتصورين أن قلبي خال من أي ميل عاطفي.
آه. لا. . . . ليتك رأيت أحد المغالين، وهو ينسل من سياج البيت
المجاور، إن اسمه تريزور، آه، ma chère أي بوز لطيف له!

تقوا! إلى الشيطان. أي هراء! وكيف يمكن ملء
الرسائل بمثل هذه السفساف. هاتوا لي إنساناً! أريد أن أرى
إنساناً، أطلب بطعام يمكن أن تتغذى فيه روحي وتلذذ. ولكن بدلاً
من ذلك أجابه بهذه التوافه. . . . لترك هذه الصفحة، فلربما تكون
التالية أحسن.

. . . . كانت صوفيا جالسة وراء الطاولة تخطط شيئاً وكنت أنظر

في الشباك، لأنسي أحب التفرج على المارة، وإذا بالخادم يدخل، ويقول: «جاء تيلوف!» فصاحت صوفيا: «ليتفضل واندفعت تعانقني آه، يا ميدجي، ميدحي! ليتك تعرفين أي شخص هو. أسود الشعر. من ضباط القصر. وعينه! سودوان ومتوهجتان، كالنار». وركضت صوفيا إلى حجرتها. وبعد دقيقة دخل ضابط قصر شاب ذو فودين طويلين أسودين، واقترب من المرأة، وعدّل شعره، وأجال بصره في الغرفة. دمدمت قليلاً، وجلست في مكاني. وبعد قليل خرجت صوفيا، وانحنيت بهجية رداً على تحيته المؤدبة، أما أنا، فكأنني لم ألحظ شيئاً، وتابعت النظر من الشباك، إلا أنني ملت برأسي قليلاً، وحاولت أن أسمع عمّ سيتحدثان. آه، ma chère، أي هراء كانا يتحدثان به يتحدثان عن سيدة بدلاً من أن تقوم بحركة معينة في الرقص قامت بحركة أخرى، وعن شخص يدعى بوبوف كان في ياقته المدورة كثير الشبه بالقلق، وكاد يسقط، وعن امرأة تسمى ليدينا تصور أن عينيها زرقاوان، بينما هما خضراوان، وما إلى ذلك. وفكرت مع نفسي: «ما أبعد الفرق بين ضابط القصر هذا وتريزورا!» بُعد السماء! هذا هو الفرق! أولاً. لضابط القصر وجه عريض أملس تماماً حوله فودان طويلان وكأنهما أحاطه بمنديل أسود، بينما بوز تريزور رقيق، وعلى جبينه غرة بيضاء. وخصر تريزور لا تمكن حتى مقارنته بخصر ضابط القصر. والعينان، والتصرفات، والقيافة، لا تشبهه كلياً. آه، ما أبعد الفرق! أنا لا أعرف ma chère ماذا وجدت في صاحبها تبلوف هذا. وما سرّ إعجابها به؟..

أنا نفسي أتصور أن في الأمر خطأ. مستحيل أن يكون قد سحرها ضابط القصر بهذا الشكل. لننظر ماذا بعد:

يبدو لي أنها إذا كانت اليوم تعجب بضابط القصر، فعن قريب ستعجب بذلك الموظف الذي يجلس في مكتب باباها. آه، ma

chère ليتك عرفت أي دميم الخلقة هو! سلحفاة في زكينة تماماً...

تري من يكون هذا الموظف؟...

اسم عائلته غريب جداً. وترينه دائماً يجلس يرو الريش. على رأسه شعر كثير الشبه بالتبن. بابا يرسله دائماً بدلاً من الخادم.

يبدو أن هذه الكلبة الحقيرة تقصدي. ولكن أين شعري من التبن؟ صوفيا لا تستطيع أن تكبح ضحكاتها، حين تقع عينها عليه.

تكذبين، أيتها الكلبة الملعونة! أية لغة رذيلة! وكأنني لا أعرف أن ذلك من الحسد. كأنني لا أعرف دسائس من هذه. هذه دسائس رئيس القسم. الرجل جرفه الحسد القاهر، فهو يؤذي ويؤذي، في كل خطوة يؤذي. على كل حال، لنر رسالة أخرى، فقد تتكشف القضية فيها من تلقاء نفسها.

عزيزتي فيدل! اعذريني على أني لم أتب لك منذ زمان. كنت في نشوة غامرة. كان أحد الكساب على حق تام، حين قال: الحب عمر ثان. كما أن بيتنا يشهد الآن تغيرات كبيرة. ضابط القصر يزورنا الآن كل يوم. وصوفي مغرمة به إلى حد الغيوبة. وبابا مرح جداً. كما أنني سمعت من خادمتنا غريغوري الذي يكنس أرضية البيت ويتكلم مع نفسه دائماً تقريباً، أن العرس سيكون عن قريب، لأن بابا يريد بالتأكيد أن يزف ابنته إلى جنرال أو ضابط قصر أو عسكري برتبة مقدم...

اللعنة على الشيطان! لا أستطيع أن أقرأ أكثر... كل شيء أما ضابط قصر أو جنرال. كل ما هو أفضل في الدنيا من نصيب ضابط القصر أو الجنرالات. ما إن تجد لنفسك غنيمة صغيرة، وتصور أنها تحت متناول يدك، حتى ينتزعها منك ضابط قصر أو جنرال. اللعنة! كم أود لو أكون جنرالاً. لا لأخطب يد فتاة أو غير ذلك، بل أود أن

أكون جنرالاً لغرض واحد فقط، وهو أن أرى كيف سيحومان حولي ويقومان بكل تلك الدسائس والمناورات المختلفة التي يقوم بها رجال القصر. وبعد ذلك أقول لهما: بصقة على كليكما. تحفظكما الشيطان. خسارة! مزقت رسائل الكلية الحمقاء إرباً.

٣ كانون الأول

مستحيل. أكاذيب! لن يحصل عرس! ماذا يعني أنه ضابط قصر. هذا لا أكثر من مباهاة. ليس شيئاً مرثياً يمكن أن يُلمس باليد. وأن يكون ضابط قصر لا يعني أن تكون له عين ثالثة على الجبين. وأنفه ليس مصنوعاً من ذهب، بل مثل أنفي، وأنف أي إنسان. يشتم به لا يأكل، يعطس به، لا يسعل. كم من مرة أردت أن أتوصل من أين تأتي هذه الفروق؟ لماذا أنا ملاحظ أوراق، وبأي موجب أنا ملاحظ أوراق؟ ربما أنا كنت أو جنرال، ولكن أبدو ملاحظ أوراق؟ ربما أنا نفسي لا أعرف من أنا. وكم في التاريخ من أمثلة على ذلك! إنسان بسيط، وليس من سلالة نبلاء مثلي، مجرد عامي من أهل المدينة أو حتى فلاح. وفجأة يُكتشف أنه من علية القوم وأحياناً حتى قيصر. أحياناً يطلع من ريفي ما لا يمكن أن يطلع أحياناً من نبيل؟ فلو ألبس مثلاً بزة جنرال وعلى منكبي الأيمن كتافية، وعلى منكبي الأيسر كتافية، وعبر صدري وشاح أزرق. فماذا سيكون؟ عندها ماذا ستقول حسنائي تلك؟ وماذا سيقول باباها، مديرنا؟ أوه، ذلك المغرور الكبير! إنه ماسوني. ماسوني بالتأكيد، ولو أنه يتظاهر بهذا وذاك، ولكنني فطنت في الحال إنه ماسوني: فهو إذا قدم لأحد يده، لا يمد إلا إصبعين. ثم ألا يمكن أن تخلع عليّ فجأة رتبة جنرال حاكم ولاية، أو مأمون عسكري أو رتبة أخرى من تلك الرتب؟ أود أن أعرف لماذا أنا ملاحظ أوراق، وملاحظ أوراق بالذات؟..

اليوم قضيت الصباح كله أقرأ الجرائد. في إسبانيا تجري أمور غريبة. بل ولم أستطع أن أفهمها بشكل جيد. يقولون إن صاحب العرش خُلع عن عرشه، وأن رجال الدولة يجدون صعوبة كبيرة في اختيار الوريث، وبسبب ذلك تحدث قلاقل. إن هذا يبدو لي غريباً للغاية. كيف يُخلع صاحب عرش عن عرشه؟ يقولون إن دونة^(١) من الدونات يجب أن تتبوأ العرش، لا يمكن أن تتبوأ دونة عرشاً. مستحيل. يجب أن يتبوأ العرش ملك. إلا أنهم يقولون: لا يوجد ملك، ولكن لا يمكن أن لا يوجد ملك. لا توجد دولة بدون ملك. الملك موجود، سوى أنه في مكان مجهول الآن. فقد يكون في إسبانيا نفسها، ولكن أسباباً معينة، عائلية أو غيرها، أو خوفاً من جانب الدول المجاورة، فرنسا، مثلاً، أو غيرها، تجعله يختبئ، أو لعل هناك أسباباً أخرى.

كنت متهيئاً كلياً للخروج إلى الدائرة إلا أن أسباباً وتأملات مختلفة أعاقنتني عن ذلك. ما تزال الشؤون الإسبانية تلازم ذهني ولا تبارحه. كيف يمكن لدونة، لامرأة أن تصير ملكة؟ هذا غير مسموح. أولاً، إنجلترا لا تقبل به، كما أن هذه قضايا سياسية لأوروبا كلها: الإمبراطور النمساوي، مولانا القيصر... اعترف أن هذه الأحداث أتعبتني وهزنتي، حتى إنني لم أستطع أن أقوم بأي شيء طوال اليوم. نبهتني مافرا إلى أنني أثناء الغداء كنت سارحاً تماماً. وبالفعل يبدو أنني من شروذ الذهن أوقعت صحنين على الأرض، فتحطما في الحال،

(١) يا عزيزتي (بالفرنسية في الأصل). المترجم.

بعد الغداء ذهبت لأتنزه. لم أستطع أن أستخلص شيئاً ذا نفع على الإطلاق. قضيت معظم الوقت مستلقياً على السرير أفكر في شؤون إسبانيا.

اليوم يوم عيد عظيم للغاية! في إسبانيا يوجد ملك. بحثوا عنه فوجدوه. وها الملك هو أنا. واليوم فقط عرفتُ بذلك. أعترف بأنني شعرت فجأة وكأن برقاً أضاء. أنا لا أفهم كيف استطعت أن أظن وأتصور نفسي ملاحظ أوراق. كيف أمكن أن تدخل هذه الفكرة الطائشة في رأسي؟ لطيف أن أحداً لم يفتن في حينها إلى أن يضعني في مستشفى المجاذيب. والآن كل شيء مفتوح أمامي. الآن أرى كل شيء وكأنه على راحة يدي. ولكن من قبل لا أفهم، من قبل كان كل شيء أمامي وكأنه في ضباب. وكل ذلك، على ما أعتقد، لأن الناس يتوهمون أن دماغ الإنسان موجود في رأسه. لا، قطعاً. الريح تأتي به مندفعة من ناحية بحر قزوين. في البداية أعلنت لمافرا من أنا. وعندما سمعت أنها في حضرة الملك الإسباني، رفعت ذراعيها إلى فوق، باندهاش، وكادت تموت من الخوف. إن هذه الحمقاء لم تر قط ملكاً إسبانياً. إلا أنني حاولت أن أهدئها، وحاولت بكلمات رقيقة أن أؤكد ودي لها، وأنتي لست زعلان، بالمرّة، لأنها أحياناً لم تكن تنظف جزمتي بشكل جيد. ذلك لأن هؤلاء أناس جهلة لا يجوز التكلم معهم عن موضوعات رفيعة. وقد دُعرت لأنها توقن بأن جميع الملوك في إسبانيا يشبهون فيليب الثاني. ولكنني أقنعتها بأنه لا يوجد أي شبه بيني وبين فيليب، وليس لي أي كابوتشي.... لم أذهب إلى الدائرة... إلى جهنم! لا، يا أصحاب، لن تغروني الآن. لن أقبل باستنساخ أوراقكم الحقيمة.

اليوم جاء مسؤولنا عن شؤون الموظفين ليجعلني أذهب إلى الدائرة، فأنا منذ أكثر من ثلاثة أسابيع قد انقطعت عن الدوام. ذهبت إلى الدائرة على سبيل المزاح. تصور رئيس القسم أنني سأنحني محيياً، وأعتذر، ولكنني نظرت إليه بلا اكتراث، وبغضب لم أتوسع فيه، وتسامح لم أكثر منه، وجلست في مكاني، وكأنني لم ألحظ أحداً. نظرت إلى كل كتبة الأوراق الأوغاد وأنا أفكر: «ماذا لو عرفتم من يجلس بينكم... يارب! أي هرج سيثيرون، ثم إن رئيس القسم نفسه سيطوي جذعه بانحناءة من وسطه، كما يفعل الآن أمام المدير». وضعوا أمامي أوراقاً لألخصها. ولكنني لم أمسسها بإصبع. وبعد بضع دقائق حصل اضطراب. وقالوا إن المدير قادم. وركض موظفون كثيرون يسابق بعضهم بعضاً ليعرضوا أنفسهم أمامه. ولكنني لم أتحرك من مكاني. وعندما سار عبر قسمنا. زرر الجميع أزرار ستراتهم الفراك. ولكنني لم أبد أي حركة إطلاقاً مدير وماذا يعني! أن أقوم له؟ مستحيل! وأي مدير هو؟ إنه سِدَاد، وليس مديراً. سِدَاد اعتيادي، سِدَاد بسيط، ولا أكثر. من تلك التي تُسد بها الزجاجات. وأكثر ما أطريني أنهم دسوا لي ورقة لأوقعها. ظنوا أنني سأكتب في طرف الورقة تماماً: رأس الأوراق فلان. لن يكون! شخبطتُ في أبرز مكان، حيث يوقع مدير الدائرة عادة: «فيرديناند الثامن». ويجب أن تروا أي صمت مهيب خيم على المكان، ولكنني لوحت بيدي فقط، وقلت: «لا حاجة لأي إشارة للتبعية!»، وخرجت، ومن هناك توجهت إلى شقة المدير رأساً. لم يكن في البيت. لم يرد الخادم أن يدخلني، ولكنني قلت له ماجعله يسبل ذراعيه. وقصدت إلى غرفة الزينة رأساً. رأيته جالسة أمام المرأة، فوثبت من مكانها وتراجعت عني. على كل حال لم أقل لها إنني ملك إسبانيا بل قلت فقط، في انتظارها سعادة لا

تستطيع حتى أن تتخيلها، وإننا سنكون سوية، على الرغم من مكائد الأعداء. ولم أرد أن أقول لأكثر من هذا، وخرجت. آه، من تلك المخلوقة الكريهة، المرأة! الآن عرفت ماهي المرأة. قبل هذا الحين لم يكن أحد يعرف مَنْ تعشق المرأة. أنا أول مَنْ اكتشف ذلك. المرأة تعشق الشيطان. نعم، من غير مزاح. الفيزيائيون يكتبون سخافات، عن كونها كذا وكذا. إنها لا تحب إلا الشيطان. انظروا، إنها توجه نظارتها البدوية من مقصورتها في الطابق الأول. هل تظنون إنها تنظر إلى ذلك السمين ذي الوسام؟ لا، أبداً. إنها تنظر إلى الشيطان، الواقف وراء ظهره. هاهو يتخفى في فراكه. والآن يشير لها بإصبعه من هناك! وستتوجه. تتوجه حتماً. أما آباؤهن ذوو الرتب، هؤلاء جميعهم، كل هؤلاء الذين يتدللون وينسلّون إلى البلاط، ويقولون إنهم وطنيون وما إلى ذلك، فإنهم يريدون منافع. هؤلاء الوطنيون يريدون منافع إنهم يبيعون الأم والأب والرب لقاء فلوس، هؤلاء المغرورون، باعة المسيح. كل هذا غرور، والغرور يأتي من الفقاعة الصغيرة تحت اللسان والتي توجد فيها دودة صغيرة بحجم رأس الدبوس، وكل ذلك من صنع حلاق يسكن في شارع غروخوفيا. لا أتذكر اسمه، ولكن من المعروف المؤكد أنه وقابلة مولدة عجوز يريد أن ينشر ديناً غير المسيحية، ولذلك يقال إن جزءاً كبيراً من الشعب في فرنسا قد اعتنق هذا الدين.

بتاريخ ما

يوم خارج الشهور

كنت أتمشى متخفياً في شارع نيفسكي. مر صاحب الجلالة الإمبراطور. الناس جميعاً رفعوا قبعاتهم، وأنا أيضاً، إلا أنني لم أظهر أية علامة على أنني ملك إسبانيا. وجدت من غير اللائق أن أكشف عن نفسي هنا، أمام الملأ، فقد كان يجب قبل كل شيء، أن أقدم

نفسى إلى البلاط. ولم يكن يوقنى عن ذلك إلا كونى لا أملك حلة الملوكية حتى الآن. على الأقل لو أحصل على عباءة الملوك. أردت أن أوصى عليها أحد الخياطين، ولكن هؤلاء حمير مماماً، كما أنهم يستهينون بعملهم كلياً ويمهدون الطريق. قررت أن أصنع عباءة من سترة رسمية جديدة لم ألبسها غير مرتين. ولكن لا يفسد هؤلاء الأراذل السترة، عزمت على أن أخط عباءة بنفسى، وأغلقت الباب على، حتى لا يراى أحد. قصصت السترة كلها بالمقص لأن التفصيل يجب أن يكون مختلفاً مماماً.

لا أتذكر اليوم. وكذلك الشهر. والشيطان يعرفتى كان ذلك العباءة جاهزة مماماً، ومخاطة، صرخت مافرا حين رأتنى. إلا أننى لم أقرر بعدت قديم نفسى إلى البلاط. لم تصل البعثة من إسبانيا حتى الآن ولا يليق أن أفعل ذلك بدون مبعوثين، لن يكون لمقامى أي وزن. أنا أنتظرهم من ساعة إلى أخرى.

الأول من

يدهشنى كثيراً إبطاء المبعوثين. أية أسباب يمكن أن تحول دون وصولهم؟ أيعقل أن تكون فرنسا؟ أجل، إنها دولة معرقة للغاية. أردت التوجه إلى البريد أسأل عن وصول المبعوثين الإسبان. ولكن مأمور البريد بليد للغاية، لا يعلم شيئاً. يقول: لا يوجد هنا أي مبعوثين إسبان، وإذا كنت أريد أن أكتب رسائل فستسلمها حسب التعريفة المقررة. تخطفك الشيطان! ما معنى الرسالة؟ الرسالة هراء. الصبادة يكتبون الرسائل.

مدريد، في الثلاثين من شيباطياري

وها أنذا في إسبانيا. وقد حدث هذا بسرعة فائقة بحيث ما كدت

أفيق على نفسي. صباح اليوم وقد عليّ المبعوثون الإسبان. فجلست معهم في العربة. والسرعة غير الاعتيادية التي سرنا بها بدت لي غريبة. فقد كنا ننطلق بسرعة هائلة، حتى وصلنا الحدود الإسبانية في ظرف نصف ساعة. وعلى العموم، الطرق الحديدية الآن تعم أوروبا كلها، كما أن البواخر تسير بسرعة خارقة. وأرض إسبانيا غريبة. حين دخلنا الغرفة الأولى رأيت عدداً كبيراً من الناس حلقى الرؤوس. إلا أنني حدست فوراً أنهم إما نبلاء إسبان أو جنود، لأن هؤلاء يحلقون رؤوسهم. وبدا لي تصرف مستشار الدولة الذي قادني من يدي غريباً جداً. فقد دفعني إلى حجرة صغيرة، وقال: «اقعد هنا، وإذا كنت ستسمي نفسك الملك فيرديناند، فساظل أضربك حتى أقلع هذه العادة منك». ولما كنت أعرف أن ذلك مجرد تجربة، أجبته بالنفي، وعلى ذلك ضربني بالعصا مرتين على ظهري ضرباً موجعاً حتى كدت أصرخ، ولكنني تماسكت، بعد أن تذكرت أن هذه عادة فروسية عند تسلّم لقب رفيع لأن عادات الفروسية ما زالت قائمة في إسبانيا حتى الآن.

وحينما بقيت وحدي قررت القيام بشؤون دولية. اكتشفت أن الصين وإسبانيا أرض واحدة تماماً، وبسبب الجهل فقط يعتبرونها دولتين مختلفتين. وأنا أنصح الجميع أن يكتبوا إسبانيا على الورق عن قصد لتطلع الصين أيضاً. ولكن الحدث الذي سيحصل غداً غمّني للغاية. غداً، في الساعة الثامنة، ستقع ظاهرة غريبة. فستقع الأرض على القمر. الكيماوي الإنجليزي الشهير ويلتكنون يكتب عن ذلك أيضاً. وأعترف بأنني شعرت بقلق جدي، حين تصوّرت مع نفسي رقة القمر الفريدة وهشاشته. ذلك لأن القمر في العادة يُصنع في هامبورغ، ويصنع بشكل شنيع. وأنا أندهش كيف لا تلتفت إنجلترا إلى ذلك. وصانع القمر هو صناع براميل أعرج، والظاهر أنه أبله أيضاً، ليس له أي تصور للقمر. صنعه من حبل قطراني وشيء من زيت الخشب، ولهذا تفوح الأرض كلها برائحة فظيعة تضطرك

إلى سد أنفك. ولهذا السبب صار القمر نفسه كرة رقيقة جداً، بحيث لا يستطيع الناس العيش على سطحه، ولهذا لا تعيش عليه الآن غير الأنوف. ولهذا السبب ذاته لا نستطيع أن نرى أنوفنا، لأنها على القمر جميعها. ولما تصورت في ذهني أن الأرض ثقيلة، ومن الممكن بعد قعودها على القمر أن تطحن أنوفنا طحناً استحوذ عليّ قلق شديد، حتى إنني لبست الجوارب والحذاء، وأسهرت إلى قاعة مجلس الدولة، لأصدر أوامر إلى الشرطة بأن يحولوا دون قعود الأرض على القمر. والنبلأ الإسبان الحليقو الرؤوس الذين وجدتهم بأعداد غفيرة في قاعة مجلس الدولة كانوا أناساً أذكاء، فعندما قلت: «أيها السادة، لننقذ القمر، لأن الأرض تريد القعود عليه». اندفع الجميع حالاً لينفذوا رغبتى الملكية، وتسلق الكثيرون منهم الجدار ليصلوا إلى القمر، ولكن المستشار العظيم دخل في ذلك الوقت. ولما رآوه تفرق الجميع متراكمين. وأنا كملك، بقيت وحدي. ولكن لدهشتي ضربني المستشار بالعصا، وساقني إلى غرفتي. إلى هذا الحد تتحكم العادات الشعبية في إسبانيا.

كانون الثاني

الذي جاء بعد شباط من العام نفسه

أنا لحد الآن لا أقدر أن أفهم أي بلاد إسبانيا هذه. العادات الشعبية وتقاليد البلاط غير اعتيادية إطلاقاً. لا أفهم لا أفهم أي شيء البتة. اليوم حلقوا شعر رأسي، على الرغم من أنني كنت أصرخ بأعلى صوتي بأنني لا أريد أن أكون راهباً ولكنني لم أعد أتذكر ماذا حصل لي، حين أخذوا يصبون الماء البارد على رأسي. لم أشعر بمثل هذا العذاب من قبل قط. كان من الممكن أن تعزيني نوبة من السعار ولهذا ماكادوا أن يضبطوني. أنا لا أفهم إطلاقاً دلالة هذه العادة الغريبة. عادة هو جاء فارغة من أي معنى! أنا لا أدرك

استهتار الملوك الذين لا يقضون عليها، حتى الآن. ولما فكرت بكل الملايسات خمنت أنسي وقعت في أيدي محاكم التفتيش، وقد يكون الذي تصورته مستشاراً هو المفتش الأعظم نفسه، سوى أنني لا أستطيع أن افهم كيف أمكن أن يتعرض ملوك لمحكمة تفتيش. في الحقيقة، قد يكون ذلك من جانب فرنسا، ولا سيما بولينياك. آه، ياله من عتال بولينياك هذا! أقسم على أن يؤذيني حتى الموت. وها هو يطاردني ويطاردني، ولكنني أعرف، يا صاح، أن الإنجليز هم الذين يحرضونك. الإنجليزي سياسي كبير. وهو يدس أنفه في كل شيء. وهذا معروف للعالم أجمع: حين تشتم إنجلترا نشوقاً، تعطس فرنسا.

بتاريخ ٢٥

اليوم دخل المفتش الأعظم غرفتي، ولكنني اختبأت تحت المقعد، حين سمعت وقع أقدامه من بعيد، وحين لم يرني أخذ يناديني. في البداية صاح: «يا بويريشين!» لم أنطق بكلمة. ثم «يا اكسنتي ايفانوف! يا ملاحظ الأوراق! يا نبيل!» ظلمت صامتاً. «يا فرديناند الثامن، يا ملك إسبانيا!» أردت أن أخرج رأسي، ولكن فكرت: «لا، يا أخ، لن نخدعنا. نحن نعرفك، ستصب الماء البارد على رأسي مرة أخرى». إلا أنه رأي، وأخرجني من تحت المقعد بالعصا. إن هذه العصا اللعينة توجع إلى أقصى حد. وعلى العموم، على هذا كله كافاني اكتشافي اليوم. فقد عرفت أن لكل ديك إسبانيا خاصة به وهي موجودة تحت ريشه. على كل حال خرج المفتش الأعظم مني شديد الغضب، يهددني بعقوبة معينة. ولكنني استهنت تماماً بحنقه العاجز، عارفاً أنه يتصرف كألة، كأداة بيد الإنجليز.

لم تعد لي قوة على التحمل، حقاً. يا رب! ماذا يفعلون بي! يصبون الماء البارد على رأسي. إنهم لا ينصتون لي، ولا يرون، ولا يستمعون إليّ. ماذا فعلت لهم؟ لأي شيء يعذبونني؟ ما الذي يريدونه مني؟ ماذا باستطاعتي أن أعطيهم؟ أنا لا أملك شيئاً، أنا لا أقوى، لا أقدر أن أنحمل كل عذاباتهم. ورأسي يلتهب، وكل شيء يدور أمامي، أنقذوني! خذوني. أعطوني عربة بجياد سريعة كالريح العاصفة، خيولاً! اجلس في مقعدك، يا سائق عربتين ورن، يا جرس، وانطلق يا خيول، وأخرجوني من هذا العالم.

أبعد، فأبعد، بحيث لا يُرى أي شيء. هاهي السماء تتلولب أمامي، ونجمة تلمع في البعيد، وغابة تندفع بأشجار داكنة، وقمر. وضباب يمامي ينسبط تحت الأقدام، ووتر ين في الضباب، والبحر من جانب، وإيطاليا من الجانب الآخر. وها هي الأكواخ الروسية تلوح. أهذا بيتي الذي يبدو أزرق من بعيد؟ أهذه أمي جالسة أمام الشباك؟ أماه، أنقذي ابنك المسكين. اسكبي دموعاً على رأسه الموجع! انظري كيف يعذبونه! ضمي يتيماً المسكين إلى صدرك! لا مكان له في الدنيا. إنه مطارد! أماه! أشفقي على ولدك المسكين!... هل تعرفون أن لوالي الجزائر عجرة تحت أنفه مباشرة؟..

عربة

عمّ فرح كبير بلدة ب، حين أخذ يربط فيها فوج خيالة. وقبل ذلك الحين كانت الحياة فيها مضجرة جداً. فأنت إذا صادف وأن مررت بها، وتطلعت إلى بيوتها الطينية الصغيرة الواطئة، التي تطل على الشارع جهماء عابسة.... يستحيل عليك أن تصف ما يعمل في قلبك. تستولي عليك وحشة قوية، وكأنك خسرت في لعبة قمار، أو أفلتت منك حماقة في غير محلها، وباختصار: يضيق صدرك. الطين الذي عليها ساح من المطر، والجدران صارت رقطاء بدلاً من بيضاء. ومعظم السطوح مغطاة بالقصب، كما هو الحال عادة في مدننا الجنوبية، والحدائق قد اجتثت، منذ زمان، بأمر من حاكم البلدة لتحسين المنظر. وأنت لا تلتقي في الشارع بنفس حيّة، ما عدا ديكاً يقطع الجادة الناعمة، كمخدة، بسبب التراب المتراكم عليه بكثرة، والذي يتحوّل إلى وحل، عند أقل مطرة، وعند ذاك تمتلئ شوارع بلدة ب. بتلك الحيوانات السمينة^(١) التي يسميها حاكم البلدة بـ «الفرنسيين». إذ تخرج أبوابها الرصينة من بركها وترسل قباعاً لم تدع للمسافر إلا أن يطلق العنان لأفراسه. وعلى العموم تصعب مصادفة مسافر في بلدة ب. فمن النادر، والنادر جداً أن يقع على الجادة مالك أراض صغير يملك إحدى عشرة قنأ، في عربة ركوب وحمولة معاً، وهو في سترته من القماش القطني الرخيص، يحدق

(١) السيدة بالإسبانية المترجم.

من أكياس الطحين المتكدسة، ويسوط حصانه الكمية الذي تلاحقه مهرته. وساحة السوق نفسها ذات منظر في شيء من الكآبة حيث يوجد بيت الخياط مطلاً عليها بانحراف وليس بكل واجهاته، وبطريقة غاية في البلاهة. وقيالته يجري منذ حوالي خمسة عشر عاماً بناء مبنى حجري ذي نافذتين. وأبعد من ذلك يقف مستقلاً بذاته سياج عصري من الألواح الخشبية مطلّي بطلاء رمادي يلائم لون الوحل، كان حاكم البلدة قد أقامه مثلاً لبيان أخرى، حين كان في شبابه، ولم يكن قد ت عود آنذاك على نوم القيلولة غيب الغداء، ويشرب في الليل نقيع نباتات طبية مطعم بثمار عنب الثعلب الجافة. وفي الأماكن الأخرى لا توجد إلا الأيعة من الأغصان المضفورة في الغالب الأعم. وفي وسط الساحة أصغر الدكاكين. وفي داخلها دائماً يمكن أن تقع عينك على ضبة من الكعك المدور، وامرأة ريفية تعتصب بمنديل أحمر، وحقق من الصابون، وبعض الأبطال من اللوز المر، وخردق للصيد، وقماش قطني وبائعين من مساعدي التجار تجدهما في كل وقت يلعبان قرب الأبواب لعبة التصويب على حلقة في الأرض. ولكن حالما رابط فوج الخيالة في بلدة ب. حتى تغير كل شيء. ازدهت الشوارع وانتعشت بالحركة، وباختصار اتخذت مظهراً مغايراً تماماً. وغالباً ما أخذت البيوت الواطئة تشهد ضابطاً خفيف الحركة ممشوق القوام يمر بها، بقبعته المزينة بالريش، ذاهباً إلى رفيقه يحدثه عن الترقية، وعن التبغ الممتاز، وأحياناً ليراهن في لعبة ورق على عربة ركوب صغيرة يمكن أن توصف بأنها «فوجية» لأنها كانت تستطيع أن تضري الجميع، حتى دون أن تغادر مقر الفوج. فاليوم إذا أقلها ضابط برتبة رائد. فغداً ستظهر في إسطنبول ملازم، وبعد أسبوع، ربما سترون مراسل ذلك الرائد مرة أخرى يدهنها بالشحم. والسياج الخشبي بين البيوت صار كله مغطى بطاقيات

الجنود المعروضة لأشعة الشمس، ولا بد أن يبرز معطف عسكري رمادي على إحدى البوابات. وأخذت الأزقة تشهد جنوداً بشوارب خشنة، مثل فرش الإسكاف. وكانت هذه الشوارب تشاهد في كل مكان. وإذا اجتمعت نسوة في سوق بجرارهن فلا بد أن تظل شوارب من وراء أكتافهن. وعلى منصة العقوبات ترى جندياً مشروباً يحلق لحية ريفي أهوج، كان لا يصدر منه إلا أنين، وعينه جاحظتان طالعتان إلى فوق. وبعث الضباط الحياة في مجتمع البلدة الذي كان، إلى حين مجيئهم، يتألف فقط من القاضي الذي يسكن في بيت واحد مع شماسه، وحاكم البلدة، وهو رجل حصيف، ولكنه يقضي اليوم كله في النوم: من وقت الغداء إلى المساء. ومن المساء إلى وقت الغداء. وصار المجتمع أكثر أفراداً وإمتاعاً حين نُقِلَ إلى البلدة مقر جنرال الفرقة، وأخذ ملاكو الأراضي المحيطون بالبلدة، والذين لم يخمن أحد قبل هذه بوجودهم، يأتون أكثر إليها، ليلتقوا بالسادة الضباط وأحياناً ليلعبوا معهم الورق، وهو ما لم يكن يدور إلا بغموض شديد في رؤوسهم المشغولة بالبذار وتوصيات الزوجات واصطياد الأرانب. ومن المؤسف جداً أن لا أتذكر المناسبة التي بسببها أقام جنرال الفرقة مأدبة غداء كبيرة كان الإعداد لها هائلاً. فقد كانت ضربات سكاكين الطباخين في مطبخ الجنرال تسمع بالقرب من بوابة البلدة تقريباً. وخصصت سوق البلدة كلها لهذه المأدبة بالتمام، حتى كان على القاضي وشماسه أن يقتصرا في غدائهما على الرقائق المصنوعة من الخنطة السوداء، وعلى سحب النشا. وامتلاً فناء مسكن الجنرال الصغير بالعربات والعجلات. وكان الحضور من الرجال الضباط وبعض مالكي الأراضي المجاورين. وكان بيفاغور بيفاغوروفيتش تشرنوكوتسكي، وهو من أرسنقراطي قضاء ب. الكبار، أكثر هؤلاء الملاكين بروزاً، وأشدّهم ضجيجاً عند الانتخابات التي حضر إليها

في مركبة أنيقة. وكان، من قبل، يخدم في أحد أفواج الخيالة، وكان أحد الضباط المهمين البارزين. وعلى كل حال كان يشاهد في العديد من حفلات الرقص والمحافل، أينما كان ينتقل فوجهم، وفي الإمكان الاستفسار عن ذلك من آنسات ولايتي تامبوف وسيمبيرسك. وكان من المحتمل جداً أن يكون قد أقام لنفسه شهرة كبيرة في ولايات أخرى، لو لم يتقاعد لسبب يوصف عادة بأنه قصة مؤسفة: إما لأنه سدد صفعة إلى رجل في قديم الزمان وإما لأنه هو نفسه تلقى صفعة، فأننا لا أتذكر على وجه التأكيد. كل ما في الأمر إنه طلب أن يحال على المعاش. وعلى كل حال لم يدع ذلك يقلل من وزنه أبداً. فقد كان يرتدي الفراك بالخصر العالي، على طراز البزة العسكرية، ويضع مهمازين في حذائه، وشاربين تحت أنفه، لأن من الممكن، بدون ذلك، أن يظن النبلاء أنه كان يخدم في المشاة الذين كان يستيهم أحياناً به «المشائين» ازدراءً، وأحياناً «مشاشين».

وكان يشهد كل الأسواق الريفية المزدهمة التي يتردد عليها ما يؤلف جوف روسيا من الأمهات والأطفال والبنات ومالكي الأراضي السمان، طلباً للهو والمرح في عربات من مختلف الأصناف والحجوم، بعضها لم تخطر على أحد حتى في الحلم. وكان يتشمم بأنفه موقع فوج الخيالة، ويأتي دائماً ليلتقي بالسادة الضباط، وكان يقفز نازلاً أمامهم بمهارة شديدة من مركبته الخفيفة أو عربته، ويتعارف معهم بسرعة بالغة. وفي انتخابات الأشراف السابقة أقام مأدبة غداء فاخرة للأشراف، وأعلن فيها أنه حالما ينتخب نقيباً لهم، سيجعل الإشراف في أحسن مقام. وعلى العموم كان يتصرف على طريقة الأسياد، كما يقال عادة في الأقاليم والولايات، وتزوج امرأة مليحة إلى حد ما، وأخذ صداقاً لها مائتي قن، وبعض الألوف من رأسمال. واستخدم الرأسمال فوراً في اقتناء ستة جياد ممتازة حقاً،

وأقفاً مذهباً للأبواب، وقدراً مستأنساً صغيراً للبيت. وخادماً فرنسياً. وزهناً الأفتان المائتان مع الأفتان المائتين الذين يملكهم للقيام بعمليات تجارية. وباختصار كان مالك أراض، كما ينبغي أن يكون المالك الممتاز. وإلى جانب ذلك كان في مادبة الجنرال بعض ملاكي الأراضي الآخرين، ولكن لا داعي للكلام عنهم. وبقيّة الحاضرين كانوا جميعاً عسكريين من ذلك الفوج، واثنين من ضباط الأركان أحدهما برتبة عقيد، والآخر رائد بدين إلى حد ما، والجنرال نفسه كان ركيناً ممتكناً، ورئيساً جيداً، على كل حال، كما كان الضباط يصفونه. وكان يتكلم بصوت على قدر معين من الغلظة وارتفاع النسرة. كان الغداء فاخراً مؤلفاً من أنواع ممتازة من السمك وطيور الحبّارى وخضرة الهليون، وطيور السمان، والحجل والفطر، وكان كل ذلك يدلّ على أن الطباخ لم يضع منذ يوم أمس طعاماً ساخناً في فمه، وقد عمل أربعة جنود مزودين بالسكاكين طوال الليل يساعدونه في طهي اللحم المفروم المقلي ومهلبية الفواكه. وكان كل شيء يتمم بعضه بعضاً: كثرة الزجاجات الطويلة من النبيذ الأحمر، والقصيرة من خمرة الماديرا، واليوم الصيفي الرائع، والنوافذ المفتوحة على مصاريحها، وصحون الثلج على طاولة، وآخر زر الياقة المفتوح في بزات السادة الضباط، وقبة الصدر الناتئة لذوي الفراك العريض والحديث العام، الذي يطغي عليه صوت الجنرال، والشمبانيا المسكوبة. وبعد الغداء نهض الجميع بثقل مريح في المعدة، وخرجوا إلى مدخل البيت حاملين أقداح القهوة، بعد أن أشعلوا غلاينهم الطويلة والقصيرة.

كانت سترات الجنرال والعقيد وحتى الرائد غير مزررة كلياً، حتى كانت تظهر قليلاً حمالات البنطلون الحريرية الفاخرة، ولكن السادة الضباط حفظاً على الاحترام الواجب أبقوا ستراتهم مزررة ما عدا الأزرار الثلاثة الأخيرة.

قال الجنرال:

- والآن يمكن أن نراها. من فضلك، يا محترم قال مخاطباً مرافقه، وهو شاب خفيف إلى حد ما ذات مظهر لطيف اطلب أن يجلبوا الفرس الكميت إلى هنا! وسترونها أنفسكم ومصّ الجنرال مصّة من غليونه، ونفث الدخان، ومضى يقول لم تلق الرعاية التامة بعد. فهذه بلدة لعينة ليس فيها اسطبل معتبر. الفرس، بوف، بوف، معتبرة جداً. قال تشرتوكوتسكي مغللاً كلامه، عصّات من غليونه كما يفعل الجنرال:

- هل هي لديك، بوف، بوف، منذ زمان، يا صاحب السعادة؟
- بوف، بوف، بوف.... يعني.... بوف، ليس كثيراً، ستان فقط، منذ أن أخذتها من المزرعة!

- وأخذتها مروضة، أم روضتها هنا؟

- بوف، بوف، بو، بو، بو.... ف. هنا.

وبعد أن قال ذلك اختفى الجنرال كله في الدخان.

وخلال ذلك طلع جندي من الاسطبل متوثباً، وتردد وقع حوافر حصان، وأخيراً ظهر جندي آخر في جلباب عريض من القماش الأبيض البسيط له شاربان أسودان ضخمان، وهو يقود فرساً جافلة مذعورة رفعت رأسها فجأة، وكادت ترفع إلى فوق الجندي الذي انحنى حتى الأرض سوية مع شاربيه. فكان يقول، وهو يقترب بها من المدخل: «مهلاً، مهلاً، اغرافينا ايفانوفنا!»

كان اسم الفرس اغرافينا ايفانوفنان وهي فرس قوية غير مطواعة كحسنا جنوبية، ضربت مدخل البيت الخشبي بحوافرها، وتوقفت فجأة.

انزل الجنرال غليونه، وأخذ ينظر إلى اغرافينا ايفانوفنان بادي

الارتياح. والعقيد نفسه نزل درجات المدخل، وأمسك الفرس من بوزها. أما الرائد فريست على ساق اغرافينا ايفانوفنان. وممطق الآخرون بالسستهم.

نزل تشرنوكوتسكي درجات المدخل، وجاءها من الخلف. انتصب الجندي بقامته، وهو ممسك بالمقود، وحدق في عيون الزوار، وكأنما كان يريد الوثوب عليها. قال تشرنوكوتسكي:

- حلوة جداً جداً! فرس أصيلة! وكيف سيرها، يا صاحب السعادة؟..

- خطوها جميل. سوى أن البيطري الأحمق.... عليه اللعنة، أعطاها قرص دواء، وهي منذ يومين تعطس طوال الوقت.

- حلوة جداً جداً. وهل لديك مركبة مناسبة لها، يا صاحب السعادة؟

- مركبة؟.... ولكن هذه فرس ركوب.

- أعرف هذا، ولكنني سألت سعادتك لأعرف هل لديك مركبة لخيول أخرى.

- ليست لدي كثير من المركبات. وأقول لك بصراحة منذ زمان وأنا أود أن تكون لي عربية حديثة. وقد كتبت بذلك لأخي الذي هو الآن في بطرسبورغ، ولكن لا أدري هل سيرسلها أم لا. قال العقيد:

- يسدولي، يا صاحب السعادة، ليس هناك أحسن من العربية، صناعة فينا.

- كلامك صحيح، بوف، بوف، بوف.

- عندي، يا صاحب السعادة، عربية رائعة، صناعة فيناوية أصيلة.

- أية عربية؟ التي جئت فيها؟

- لا. هذه عربية للاستخدام اليومي، على الأخص لسفرااتي، ولكن تلك العربية.... مذهلة، خفيفة كالريشة. وحين تجلس فيها تشعر، مع الاعتذار يا صاحب السعادة، وكأنه المربية تهزك في مهد.

- يعني مريحة؟

- مريحة جداً جداً، وسائد، نوابض، كل شيء وكأنما في لوحة تبهج النظر.

- هذا لطيف.

- وسعاً لا توصف! أقصد، يا صاحب السعادة، لم أر، مثيلة لها قط. وعندما كنت في الخدمة كنت أضع في صناديقها عشر زجاجات روم، وعشرين رطلاً من التبغ، بالإضافة إلى ذلك حوالي ست بزات رسمية، وملابس داخلية، وشُكّين طويلين جداً كالودودة الوحيدة وأرجو المَعذرة على هذا التشبيه. أما جيوبها فيمكن أن تستوعب ثوراً كاملاً.

- هذا لطيف.

- دفعت عنها، يا صاحب السعادة، أربعة آلاف.

- لا بد أنها جيدة، مادامت بهذا الثمن. أنت الذي اشتريتها بنفسك؟

- لا، يا صاحب السعادة، حصلت عليها مصادفة. اشتراها صديق لي، وهو رجل نادر، رفيق طفولتي كنت ستصادقه بالتأكيد، لو التقيت به. لا فرق أن يكون هذا الشيء له أو لي. هكذا كانت الحال بيننا. وقد ربحتها منه في لعبة ورق. إذا كنت تحب، يا صاحب السعادة، فتفضل للغداء عندي غداً، وسنرى العربية سوية. سيكون هذا شرفاً لي.

- لا أعرف ماذا أقول لك. لوحدي يبدو.... إلا إذا سمحت باصطحاب الضباط.

- ولتفضل السادة الضباط أيضاً. أيها السادة، يشرفني شرفاً كبيراً أن أستمتع بروياكم في بيتي.

شكره العقيد والرائد وبقية الضباط بانحناءة احترام.

- من رأيي، يا صاحب السعادة، إذا كنت تشتري شيئاً، فاشتره من نوعية جيدة، فإن الرديء، لا يستحق أن يُقتنى. إذا شرفتموني غداً فسأريكم أشياء اقتنيتها بنفسى لاستخدامها في مزرعتي.

ونظر الجنرال، ونفث الدخان من فمه.

ارتاح تشرتوكوتسكي كثيراً من دعوته السادة الضباط إلى بيته، ولكنه أعد في ذهنه مقدماً معجنات اللحم والصلصات، وراح يتطلع ببهجة شديدة إلى السادة الضباط الذين ضاعفوا بدورهم من ميلهم إليه، وقد ظهر ذلك في عيونهم وحركات أجسادهم الصغيرة الشبيهة بنصف انحناءات. وأخذ تشرتوكوتسكي يتصرف ببجوبة أكثر، ولاح ارتخاء في صوته. فقد اتخذ نبرة مثقلة بالارتياح.

- وستعرفون عندنا، يا صاحب السعادة، برتبة البيت.

قال الجنرال ممسداً شاربيه:

- سأكون مسروراً جداً.

وبعد ذلك أراد تشرتوكوتسكي أن يسرع في التوجه إلى بيته، يهيم كل شيء، في إبانته، لاستقبال الضيوف على الغداء يوم غد. وكان قد تناول قبعته لينصرف، إلا أنه ويا للغرابة تأخر لبعض الوقت لسبب ما، في غضون ذلك كانت طاولات اللعب قد وضعت في الغرفة. وسرعان ما توزع الحاضرون أربعة أربعة للعب «الويست»، وجلسوا في أركان مختلفة من غرفة الجنرال.

وقدمت الشموع. ظل تشرتوكوتسكي لا يعرف لوقت طويل هل يتوجب عليه أن يجلس ليلعب أم لا. ولكن حالما أخذ السادة الضباط

يدعونه، بداله الرفض لا يتماشي مع قواعد العشرة. فجلس. ودون أن يشعر وجد أمامه قدحاً من «البونش» الذي شربه في الحال ساهياً، وبعد دورتين متتاليتين من اللعب، وجد تشرتو كوتسكي قدحاً آخر من «البونش» قرب يده، مرة أخرى، فشربه، على الفور بسهولة أيضاً، بعد أن قال مسبقاً: «حان أو ان عودتي إلى البيت، يا سادة، حان حقاً». ولكنه جلس مرة أخرى للعب جولة ثانية. وفي غضون ذلك اتخذ الحديث في مختلف الأركان طابعاً شخصياً تماماً. كان اللاعبون صموتين إلى حد كبير، ولكن المتفرجين الجالسين على الأرائك في ناحية كانوا يجرون الحديث فيما بينهم. في أحد الأركان كان نقيب أركان يروي بطلاقة وسهولة والمخدة تحت جنبه، والغليون بين أسنانه، عن مغامراته الغرامية، حتى استحوذ تماماً على اهتمام الحلقة المجتمعة حوله. وكان مالك أراض بدين للغاية ذو ذراعين قصيرين تشبهان، إلى ح ما، عرقين ناضجين من البطاطس، بصفي والطلاوة على وجهه بشكل غير اعتيادي، ومن حين لآخر فقط، كان يجاهد ليمد ذراعه القصيرة، وراء ظهره العريض ليخرج علبة النشوق من هناك. وفي زاوية أخرى انعقد جدال ساخن نوعاً ما عن تدريب الكوكبة، وكان تشرتو كوتسكي الذي رمى في ذلك الوقت ملكة مرتين بدلاً من الولد يتدخل في حديث الآخرين، ويصيح من ركنه: «في أي سنة هذا؟» أو «في أي فوج؟» دون أن يفتن إلى أن سؤاله في بعض الأحيان في غير محله تماماً. وأخيراً، وقبل بضع دقائق على موعد العشاء انتهت لعبة «الويست»، ولكن الكلام استمر حولها، وبدأ وكأن رؤوس الجميع كانت مملوءة بالويست. كان تشرتو كوتسكي يتذكر جيداً أنه ربح كثيراً، ولكنه لم يمسك شيئاً من المال بيديه وحين نهض من وراء الطاولة وقف طويلاً في وضع إنسان ليس في جيبه منديل لمسح أنفه. وخلال ذلك قدم العشاء. وطبيعي أن أنواع المشروبات لم تكن

تعاني من أي نقص، وأن تشرتو كوتسكي كان أحياناً يجد نفسه ملزماً بشكل لا إرادي تقريباً بأن يصب لنفسه قدحاً، لأن زجاجات الخمر كانت تحاصره من يمين وشمال.

استطال الحديث حول المائدة كثيراً، ولكن فيه شيئاً من الغرابة، فقد حكى أحد الملاكين الذي كان يخدم أثناء حملة ١٨١٢ عن معركة لم تجر قط، وبعد ذلك، ولأسباب مجهولة كلياً تناول سداة من دورق، ودحسها في فطيرة. وباختصار، حين أخذوا ينصرفون كانت الساعة الثالثة، وكان على الحوذية أن يمسكوا بعض الأشخاص بين أذرعهم كما يمسكون صرر المشتريات، أما تشرتو كوتسكي فعلى الرغم من أرستقراطيته، وجد نفسه ينحني، لدى ركوبه عربته، انحناء شديدة من رأسه، حتى إنه حين وصل إلى بيته، جلب في شاربيه شوكتين من راعي الحمام.

كان أهل البيت جميعاً نائمين، عثر الحوذي بصعوبة على الخادم الذي قاد سيده عبر غرفة الاستقبال، وسلمه إلى الوصيفة التي سار تشرتو كوتسكي وراءها، حتى وصل إلى غرفة النوم بطريقة ما، واستلقى جنب زوجته الشابة المليحة التي كانت تضطجع بشكل فاتن في ثوب نوم ناصع البياض كالثلج. أبقيتها الحركة التي أثارها زوجها بسقوطه على السرير. تمطت ورفعت رموشها، وقلصت عينيها بسرعة ثلاث مرات، ثم فتحتهما بابتسامة شبه غاضبة. ولكنها حين رأت أنه في هذه المرة لا يريد أن يلاطفها إطلاقاً، استدارت على الجانب الآخر في غيظ، وألقت خدها الغض على يدها، وسرعان ما غفت بعده بقليل.

استيقظت ربة البيت الشابة جنب زوجها الشاخر في ساعة لا يمكن أن توصف بالمبكرة، حسب عادة القرى. وحين تذكرت أنه عاد إلى البيت يوم أمس بعد الساعة الثالثة أشفقت عليه، ولم

توقفه، وارتدت خلفها البيتي الذي كان زوجها قد أوصى عليه من بطرسبورغ، وبلوزة بيضاء، غمرت جسدها كالماء المنسكب، وخرجت إلى غرفة المغسلة، واغتسلت بماء طازج مثلها، واقتربت من صوان زيتنها. وتطلعت إلى نفسها مرتين، ورأت أنها اليوم نضرة جداً. والظاهر أن هذه المسألة غير المهمة أجبرتها على الجلوس أمام المرأة ساعتين كاملتين زيادة. وأخيراً تحلّت بديع الثياب، وخرجت تشمّ الهواء الطلق في الحديقة. وكان الطقس، من نكد الحظ، رائعاً في تلك الساعة، مثلما هو في أجود نهار صيفي من نهارات الجنوب. والشمس قد صعدت إلى كبد السماء، وراحت تشوي بوقدة أشعتها، ولكن التمشي في الدروب المعرّشة المعتمة الكثيفة الظل يعث طراوة في الجسد، والزهور التي أدفنتها الشمس ضاعفت رائحتها. وغاب عن بال ربة البيت الحلوة ممماً أن الساعة بلغة الثانية عشرة، وزوجها مايزال نائماً. وبلغ سمعها شخير الحوزية الذين كانوا ينامون القيلولة بعد الغداء في الإسطبل وراء الحديقة. ولكنها ظلت جالسة في الدرب المعرّش الكثيف الظل الذي يطل على منظر من الطريق العامة، تحدّق في شرود بال إلى العراء الخالي، وإذا، بغبار متصاعد من بعيد يجذب انتباهها. أمعنت النظر ورأت، بعد وقت قصير، بعض المركبات. في المقدمة سارت عربة خفيفة مكشوفة ذات مقعدين، جلس فيها الجنرال بكتافيتيه السميكتين اللامعتين في الشمس، وإلى جانبه العقيد. ووراءها عربة أخرى ذات أربعة مقاعد، وفيها الرائد ومرافق الجنرال وقبالتهم ضابطان، ووراء العربة عجلة الفوج المعروفة للجميع، وكانت في هذه المرة من نصيب رائد بدين، ووراء العجلة عربة سفر عتيقة الطراز ذات أربعة مقاعد جلس فيها أربعة ضباط، وخامس على الأيدي... ووراء عربة السفر كان يتبختر ثلاثة ضباط على جياد كميتية اللون جميلة ذات طرر داكنة.

وفكرت ربة البيت مع نفسها: «هل معقول أنهم قادمون إلينا؟ آه، يا ربي! بالفعل، استداروا نحو القنطرة!» وندت منها صيحة ورفعت ذراعيها بيأس، وركضت خلال حوض الزهور إلى مخدع زوجها. كان هذا يغط بنوم عميق.

صاحت وهي تجذبه من يده:

- انهض! انهض! انهض بسرعة!

- ها؟

- قال تشرتو كوتسكي متمطياً، دون أن يفتح عينيه.

- انهض، يا حبوب! تسمع؟ ضيوف!

- ضيوف، أي ضيوف؟ قال ذلك وأصدر خواراً قصيراً، كذلك الذي يصدره عجل، حين يبحث ببوزه عن ضروعه مممم... دمدم مدي عنقك، يا ممو! لأقبلك!

- انهض، يا روحين بسرعة، بحق الرب. جنرال وضباط!

آه، يا إلهي، في شاربيك علق قرأص.

- جنرال؟ آه، يعني في طريقه إلينا؟ ولكن، اللعنة، كيف لم يوقظني أحداً؟ والغداء الغداء، هل أعد كل شيء حسب الأصول؟
- أي غداء؟

- معقول لم أوص على غداء؟

- أنت؟ وصلت في الساعة الرابعة ليلاً، وكم سألتك، ولكن لم تقل لي شيئاً، ولم أوقظك، يا حبوب، لأنني أشفت على حالتك...
فأنت لم تنم.

وقالت الكلمتين الأخيرتين بصوت حنون للغاية ومتضرع.

أجحظ تشرتو كوتسكي عينيه، ولدقيقة ظل راقداً في الفراش

كالمصعوق. وأخيراً قفز من السرير في قميص النوم وحده، وقد نسي أن ذلك لا يليق به كلياً. ضرب جبينه بيده، وقال:

- آخ، أنا حصان! كنت قد دعوتهم على الغداء. ما العمل؟ هل هم بعيدون؟

- لا أدري... لا بد أنهم سيصلون في هذه الدقيقة.

- يا روجي... اختبي! ... هاي، يا من هناك! أنت، يا بنت! اذهبي، يا حمقاء، لم تخافين؟ سيصل ضباط الآن، فقولي لهم إن السيد ليس في البيت. قولي إنه لن يعود اليوم، وقد رحل في الصباح، تسمعين؟ وأبلغني ذلك لجميع الخدم، اذهبي، أسرع!

وبعد أن قال ذلك أسرع في اختطاف روبه، وركض ليختبي في سقيفة العربات إذ رأى أنه سيكون في أمان هناك. ولكنه حين وقف في ركن من السقيفة وجد أن في الإمكان أن يروه حتى هنا. ولمع في ذهنه «هذا سيكون أحسن». وفي الحال أنزل مرقاة العربة القريبة منه، وقفز إلى داخلها، وأغلق بابها وراءه، ولمزيد من الأمان أغلق الكوة بستارها الجلدي، وسكن تماماً منطوياً في روبه.

وفي غضون ذلك وصلت المركبات إلى مدخل البيت.

خرج الجنرال، ونفض ثيابه، وأعقبه العقيد، وهو يعدل الريش على قبعته. ثم قفز الرائد البدين من العربة الصغيرة، متباطئ سيفه. ثم قفز من عربة السفر ضباط نحاف برتبة ملازم أول مع الملازم الثاني الذي كان جالساً على أيديهم، وأخيراً ترجل الضباط الذين كانوا يتبخثرون على صهوات جيادهم.

قال الخادم، وقد خرج إلى مدخل البيت:

- السيد غير موجود في البيت.

- كيف غير موجود؟ يعني سيعود في موعد الغداء؟

- لا. غادر لقضاء اليوم كله في الخارج. غداً في مثل هذا الوقت فقط سيكون في البيت.

قال الجنرال:

- يا للمفاجأة. كيف هذا؟

قال العقيد ضاحكاً:

- هذا مقلب، بصراحة.

- ولكن كيف يمكن هذا؟ مضى الجنرال مستاءً فو... اللعنة....

طيب، إذا كان لا يستطيع أن يستقبل الناس، فلماذا يترجاهم للحضور؟

قال أحد الضباط الشبان:

- أنا لا أفهم، يا صاحب السعادة، كيف يمكن أن يقوم بهذا.

- ها؟

قال الجنرال، وكانت له عادة النطق بعلامة الاستفهام هذه، حين يتحدث إلى ضابط أقل مرتبة.

- كنت أقول، يا صاحب السعادة، كيف يمكن التصرف بهذا

الشكل؟

- بالطبع.... طيب، إذا كان قد حصل شيء فأخبرنا على الأقل،

أو لا تترجانا للمجيء.

قال العقيد:

- ليس أمامنا، يا صاحب السعادة، غير الرجوع من حيث أتينا!..

- بالطبع، ولا سبيل آخر. على العموم نستطيع أن نتفرج على

العربة بدونها أيضاً. لا أظنه قد أخذها معه. هاي، يا مَنْ هناك، تعال،

يا أخ، هنا!

- ماذا تأمرون؟

- هل أنت سائس؟

- نعم، يا صاحب السعادة. غير الرجوع من حيث أتينا!..

- بالطبع، ولا سبيل آخر، على العموم نستطيع أن نتفرج على

العربة بدونه أيضاً. لا أظنه قد أخذها معه. هاي، يا مَنْ هناك، تعال،
يا أخ، هنا!

- ماذا تأمرون؟

- هل أنت سائس؟

- نعم، يا صاحب السعادة.

- دلّنا على العربة الجديده التي حصل عليها السيد قبل وقت قصير.

- تفضلوا إلى السقيفة.

توجه الجنرال إلى السقيفة برفقة الضباط.

- اسمحوا لي أن أدفعها قليلاً، فالمكان مظلم هنا.

- كفاية، كفاية، هذا جيد!..

طاف الجنرال والضباط حول العربة، وتفقدوا العجلات

والنوابض بعناية، وقال الجنرال:

- ليس فيها ما يلفت النظر. عربة اعتيادية تماماً.

وقال العقيد:

- في غاية القبح. لا يوجد فيها أي شيء جيد إطلاقاً.

قال أحد الضباط الشبان.

- يبدو لي، يا صاحب السعادة، أنها لا تساوي أربعة آلاف كلياً.

- ها؟

- أقول، يا صاحب السعادة، إنها كما يتهيا لي، لا تساوي أربعة

آلاف.

- ولماذا أربعة آلاف لا تساوي حتى ألفين، لا شيء يُغري فيها إطلاقاً. إلا إذا كان في داخلها شيء متميز.... أرجوك، يا محترم، أن تفك الستار الجلدي....

ووقعت عيون الضباط على ثشرتوكوتسكي جالساً في الروب، مطوي الجذع بشكل غريب.

وقال الجنرال مندهشاً:

- ها؟ أنت هنا؟

وبعد أن قال هذا صفق باب العربة، وغطى ثشرتوكوتسكي بالستار من جديد، وغادر معه السادة الضباط.

مالكو أيام زمان

أحب كثيراً الحياة المتواضعة لأولئك الملاكين المنزليين الذين يسمون في مالوروسيا^(١) عادة بملاكسي أيام زمان، بقراهم النائية، لأنهم كيبوت صغيرة قديمة جميلة رائعة في بساطتها وتضادها العام مع المبنى الجديد الصقيل الذي لم يمسح المطر جدرانها بعد، ولم تغط سطحه الأشنة الخضراء، ومدخله غير المملوط لا يظهر آجره الأحمر. أحب أحياناً أن انغمر لحظة في جو هذه الحياة المنقطعة بشكل غير اعتيادي، حيث لا تتخطى أية رغبة السياج المصمت المحيط بفناء صغير، والسياج المضفور لحديقة البيت المملوءة بأشجار التفاح والأجاص، والأكواخ الخشبية المحيطة به، والمالة إلى جنب، تظللها أشجار الصفصاف والبلسان والكمثرى. إن حياة ملاكيها المتواضعين هادئة جداً حتى لتنسى لحظة، وتظن أن الأهواء والرغائب وما يولده في النفس روح الشر من قلق يعكر صفو الهدوء والسكينة، لا وجود لها إطلاقاً، وإنك لم ترها إلا في حلم لامع براق. من هنا أرى بيتاً واطناً له رواق من أعمدة خشبية صغيرة مسوذة يحيط في البيت كله، ليكون في الإمكان إغلاق صفاقات النوافذ أثناء الرعد والمطر المندرار والبرد دون أن يبلله المطر. ووراء البيت شجرة كرز بري شذية، وصفوف كاملة من شجيرات الفاكهة القصيرة الغارقة في أرجوانية الكرز، والبحر الياقوتي للأجاص الكامد، وشجرة

(١) يقصد الخنازير. المترجم.

قيقب كثيفة الأغصان فرش في ظلها بساط للاستراحة. وأمام البيت
 فناء رحب ذو عشب قصير غض، ودرب مدكوك يصل الشونة
 بالمطبخ، والمطبخ بحجرات أهل البيت، ووزة طويلة العنق تشرب
 الماء مع وزيزات صغيرة ناعمة كالريش. والسياح المصمت تتدلى منه
 حزم الكمثرى والتفاح المجفف، وأبسطة وضعت لتتهوى، وعربة
 شمام تقف قرب الشونة، وثور محلول يرقد كسولاً قربها. كل هذه
 ممتلك عندى فتنة لا يمكن تعليلها، ربما لأننى لن أعود أراها، ولأننا
 نتعشق كل ما نفارقه. ومهما يكن من شيء، فإن روجي كانت، حتى
 حين تقترب عررتى من مدخل هذا البيت، تغمرها حالة مدهشة
 من السكينة والارتياح، وكانت الخيول تتقدم من المدخل مرحلة
 الأعطاف، والحوزي ينزل من مقعده بكثير من الهدوء، ويحشو
 غليونيه، وكأنما وصل إلى بيته، وحتى النباح الذي كانت الكلاب
 الفاترة ترسله كان يلذ لأذنى. ولكن أكثر ما كان يعجبني هم أصحاب
 هذه البقع المتواضعة شيوياً وعجائز يخرجون للقائك في ترحاب.
 وحتى الآن تترأى لى وجوههم أحياناً في الصخب والزحام، وسط
 بدلات الفراك الحديثة، فيداهمني نعاس مفاجئ وأتخيل ما مضى.
 لقد كانت على وجوههم دائماً طيبة وحفاوة ونقاوة قلب تجعلك
 تنبذ لا إرادياً، ولبعض الوقت، على أقل تقدير، كل الأمنيات النزقة،
 وتنتقل بكل مشاعرك، ودون أن تدري، في الحياة الرعوية الواطئة.

وأنا لحد الآن لا أستطيع أن أنسى شيخين من القرن الماضي، هما
 الآن ويا للأسف! قد فارقا الحياة، ولكن روجي ما تزال، حتى الآن
 مترعة بالشفقة، ومشاعرى تنعصر على نحو غريب، حين أتصور
 أننى بمروء الزمن ساصل مرة أخرى إلى مسكنهما السابق الخاوي
 الآن، وأرى مجموعة من الأكواخ المتداعية، وبركة ناضبة، ونجوىفاً
 معشوشباً في مكان الذي كان فيه البيت الواطئ ولا شيء آخر.
 وحشة! أحس مسبقاً بوحشة. ولكن لنعد إلى القصة.

كان افانسي ايفانوفيتش توفستوغب، وزوجته بولخيريا ايفانوفنا توفستوغوبيخا، على حد تعبير الريفيين المجاورين، شيخين من أولئك الذين بدأت قصتي بهم. ولو كنت رساماً، وأردت أن أصور فيليمون وبوسس^(١) على القماش، لما اخترت نموذجين غيرهما. كان افانسي ايفانوفيتش في الستين، وبولخيريا ايفانوفنا في الخامسة والستين، وكان افانسي ايفانوفيتش مديد القامة يرتدي دائماً معطفاً طويلاً من فراء الغنم، مغطى بقماش صوفي، وكان يجلس مخني الظهر، دائم الابتسام تقريباً حتى ولو كان يتحدث أو يسمع. وكانت بولخيريا ايفانوفنا أميل إلى الرصانة قليلاً، لا تكاد تضحك. ولكن على وجهها وفي عينيها من الطيبة ومن الاستعداد لاستضافتكم على أحسن ما لديهم، حتى لأظنكم ستجدون الابتسامة زيادة في الحلاوة لوجهها الطيب. وكانت الغضون الخفيفة على وجهيهما من اللطف بحيث يسرقها الرسام بالتأكيد. وكان يبدو أن في الإمكان أن يُقرأ بهما كل حياتهما الصافية الهادئة، الحياة التي كانت تعيشها العوائل الأوكرانية البسيطة القلوب، والغنية في الوقت ذاته، والتي تقف دائماً في الجهة المضادة لتلك العوائل الوضيعة في مالوروسيا، التي تتحدر من فئة الحرفيين والباعة ويملاؤون كالجراد، المكاتب والدوائر، وتنزع آخر فلس من مواطنيهما، وتغرق بطرسبورغ بالوشاة، حتى تجمع أخيراً رأسمالاً، وتضيف لألقابها في نشوة الانتصار، نهايات تبدو بذلك في روسيتها. لم يكونا يشبهان هذه المخلوقات المحترقة الوضيعة، شأنهما شأن كل العوائل الأصلية العريقة في مالوروسيا.

كان لا يمكن أن تنظر إلى جبهما المتبادل بدون تعاطف، كانا دائماً لا يتخاطبان بضمير المفرد «أنت» بل بـ «أنتم» دائماً. أنتم، يا افانسي

(١) هو اسم قديم لأوكرانيا الحالية. المترجم.

ايفانوفيتش، أنتم، يا بولخيريا ايفانوفنا. «هل أنتم كسرتم المقعد، يا افانسي ايفانوفيتش؟» «لا يهم، لا تغضبين، يا بولخيريا ايفانوفنا. أنا الذي كسرته»^(١). ولم يكونا قد رزقا بأطفال، وبسبب هذا كان كل تواسجهما ينصب على نفسيهما. في صباي كان افانسي ايفانوفيتش يخدم في فوج خيالة من المتطوعين، وبعد ذلك صار برتبة رائد ثان، ولكن ذلك كان منذ زمان مغرق بالبعد، حتى أن افانسي ايفانوفيتش كان لا يكاد يذكر ذلك. كان افانسي ايفانوفيتش قد تزوج في سن الثلاثين، حين كان رجلاً شاطرأ، وكان يلبس صدارأ طويلاً مطرزأ، بل وخطف بولخيريا ايفانوفنا بشطارة كبيرة، وكان أقاربها لا يريدون تزويجها له، ولكن حتى هذا قلماً يتذكره، أو لا يتحدث عنه أبداً على أقل تقدير.

كل هذه الحوادث الفريدة القديمة حلت محلها حياة هادئة ومنعزلة، وتلك الروى الناعسة والمتسقة في الوقت ذاتها، التي نحسونها، وأنتم جالسون في شرفة بيت ريفي مطلّة على حديقة، والمطر الجميل يضح بأبهة، ضاربأ أوراق الشجر، منسابأ بجداول رقراق، مستدعيأ النعاس في أوصالكم كلها، وفي ذات الوقت ينسل قوس قزح من وراء الأشجار ويزين السماء بألوانه السبعة الكدرة، على شكل قنطرة نصف مهدمة. أو حين تهددكم عربة تغوص بين أجسام خضر، وطائر السمان السهبي بهدر، والعشب الشذي ينسل من باب عربتكم مع سنابل القمح، وزهور الحقل ويداعب أيديكم ووجوهكم بلطف.

كان دائماً يستمع، والابتسامة الحلوة على شفثيه، إلى الضيوف

(١) زوج وزوجة في الأساطير الإغريقية يرمزان إلى السعادة في الحياة الزوجية والوفاء الزوجي. المترجم.

الوافدين عليه، وأحياناً يتكلم هو نفسه، ولكنه يستفسر في أكثر الأحيان. لم يكن من أولئك الشيوخ الذين يضجرون بإطراءات مستديمة للزمان السالف أو بعتابهم على الجديد. إنه، على العكس، كان في استفساراته لكم، يظهر حب استطلاع كبيراً، وتعاطفاً مع ظروف حياتكم، ومع النجاحات والإخفاقات، التي تستهوي عادة كل الشيوخ الطيبين، على الرغم من أن ذلك يشبه، بعض الشيء، فضول طفل يتملى طرة ساعتكم، وهو يتحدث معكم، حينذاك يمكن أن يقال أن وجهه ينضح بالطيبة.

كانت حجرات البيت الصغير الذي كان يسكنه شيخانا، صغيرة، واطئة السقف، كتلك التي ترونها عادة لدى ناس أيام زمان. وكانت كل حجرة مزودة بموقد ضخيم يحتل ثلثها تقريباً.

كانت هذه الحجرات مدافئة بشكل مفرط، لأن افانسي ايفانوفيتش وبولخيريا ايفانوفنا كليهما يحبان الدفء. وكانت الوجاقات كلها موصولة في الرواق الذي كان مملوءاً إلى السقف تقريباً بالقش الذي يستخدم عادة في مالوروسيا بدلاً من الحطب، وفرقة هذا القش المشتعل والإضاءة تجعلان الرواق مريحاً للغاية في أمسية الشتاء، حين تدخل إليه راكضاً، وقد تتلجج في ملاحقة لسمراء، تصفق كفاً بكف طلباً للدفء. وكانت جدران الحجرات مزينة ببعض الصور واللوحات في أطر ضيقة قديمة. وأنا على يقين من أن رب البيت وربته قد نسيا مضامينها منذ زمان بعيد، وأنهما في الغالب لن يلحظا شيئاً، إذا رفع بعض منها. كانت صورتان منها كبيرتين مرسومتين بألوان زيتية، كانت إحداهما تصور أسقفاً، والثانية بطرس الثالث، وكانت تطل من إطار ضيق الدوقة لافالير يقعها الذباب. وحول النوافذ وفوق الأبواب كان يوجد عدد كبير من الصور الصغيرة يتعود المرء أن يعتبرها بقعاً على الجدار فلا يمعن النظر فيها مطلقاً. وكانت

أرضية جميع الغرف تقريباً طينية، ولكنها مطلية بدقة، ومنظفة دائماً ذلك التنظيف الذي قد لا تجدونه في أرضية خشبية في بيت ميسور، كنسها بتكاسل سيد ناعس في بدلة خدم.

وكانت الصناديق والعلب من مختلف الحجوم مملأً بحجارة بولخيريا ايفانوفنا، والعديد من الصرر وأكياس بذور الزهور والخضار والبطيخ يتدلى من جدرانها. وكان العديد من وشائع الصوف المختلف الألوان، ومزق الثياب العتيقة التي خيطت قبل نصف قرن من الزمن، موضوعة في الأركان، في الصناديق، وما بين الصناديق. كانت بولخيريا ايفانوفنا ربة بيت مقتدرة، تجمع كل ما لم تكن هي نفسها تعرف أحياناً ما إذا كانت ستستفيد منه فيما بعد.

إلا أن الأبواب الصداحة كانت أروع ما في البيت، وما إن يطلع الصباح حتى يملأ صдах الأبواب البيت كله. وأنا لا أعلم علم اليقين لماذا هي تصدح: أبسبب مفاصلها الصدئة، أم أن الصانع الذي أثبتها أخفى سرأ فيها، ولكن الرائع إن كل باب كان له صوته الخاص: الباب المؤدي إلى حجرة النوم كان يصدح بصوت طفولي رقيق، والباب المؤدي إلى حجرة الطعام ينخر بصوت عالي الطبقة، ولكن باب الرواق كان يصدر صوتاً غريباً مرتعشاً ومتوجعاً في الوقت ذاته، حتى إذا أصغيت إليه سمعته أخيراً ينطق بكثير من الوضوح: «يا أولياء، أنا متجمداً». أنا أعرف أن الكثيرين لا يعجبهم هذا الصوت، ولكنني أحبه كثيراً، وحين يصادف أحياناً أن أسمع هنا صريف بابن تنداح أمام خيالي فجأة قرية وحجرة واطئة مضاءة بشمعة في شمعدان قديم، وطعام عشاء جاهز على المائدة، وليل داج من أيار، يطل من الحديقة من خلال شباك مفتوح، على مائدة صفت عليها أدوات الطعام، وبلبل يملأ بصداحة الحديقة والبيت، والنهر البعيد، وحفيف أغصان مرعب... أوه، يا ربي، وعند ذاك تنفك أمامي

وشبعة طويلة من الذكريات...

كانت مقاعد الحجرة خشبية ضخمة كذلك التي كانت سمة من سمات الزمن السالف، وكانت لجميعها ظهور عالية مسحوجة، في شكلها الطبيعي، دون طلاء صاقل ولا صبغ، بل ولم تكن مبطنة بقماش، وكانت تشبه، بعض الشيء المقاعد التي يجلس عليها الأساقفة حتى الآن. كان كل أثاث البيت البسيط الذي كان يعيش فيه شيخاي لا يزيد تقريباً على مناضد مثثة في الأركان، ومنضدة مربعة أمام الأريكة، وأخرى أمام مرآة في إطار رقيق مذهب مصنوع على شكل أوراق نثر الذباب عليها بقعاً سوداً. وبساط أمام الأريكة عليه رسوم طيور تشبه الزهور، ورسوم زهور تشبه الطيور.

كانت حجرة الخدم مكظفة بفتيات شواب وغير شواب يرتدين أثواباً داخلية مخططة، كانت بولخيريا ايفانوفنا تعهد إليهن أحياناً بخياطة بعض الزينات، تلزمهن بتنظيف ثمار الأعناب البرية، ولكن معظم الوقت يقضيه في الركض إلى المطبخ والنوم. وكانت بولخيريا ايفانوفنا ترى من الضروري ملازمتها البيت، ومراقبة سلوكهن بصرامة. ولكن لدهشتها البالغة كانت لا تهر بعض الشهور دون أن يصير قوام إحدى الفتيات أكثر امتلاءً من المعتاد، والذي كان يدهش أكثر أن البيت كان خالياً تقريباً من أي رجل أعزب باستثناء صبي وصيف كان يرتدي سترة فراك قصيرة رمادية، ويسير حافي القدمين، إن لم تجده يأكل تجده نائماً بالتأكيد، وكانت بولخيريا ايفانوفنا تشتم المذنبه عادة، وتعاقبها عقاباً صارماً حتى لا تعيد الكرة في المستقبل. وكان عدد فظيع من الذباب يهس في زجاج النوافذ، ولكن طنين النحل الطنان العالي كان يغطي عليه جميعاً، مصحوباً، أحياناً بأصوات اليعاسيب الرفيعة، ولكن حالماً تشعل الشموع تأوي كل هذه الجوقة إلى مضاجعها، وتغطي السقف ك له بسحابة سوداء.

كان افانسي ايفانوفيتش قل ما يشتغل بشؤون الزراعة، على الرغم من أنه كان يطلع أحياناً إلى العاملين في حش العشب وحصاد الغلة، ويتمعن كثيراً في عملهم، وكان عيب الإدارة كله يقع على عاتق بولخيريا ايفانوفنا. كان شغل بولخيريا ايفانوفنا يتمثل في فتح وغلق مستودع المؤونة دون انقطاع، ومليح وتخفيف وعلق ع دد لا يحصى من الفواكه والنباتات. وكان بيتها يشبه مختبراً كيمياوياً تماماً. وكانت النار مشتعلة دائماً تحت شجرة التفاح، وكان الموقد الثلاثي الأنافي لا يكاد يفرغ من قدر أو طنجة نحاسية موضوعة فوقه فيها مربى أو مهلبية أو حلوى مصنوعة من العسل، أو السكر، وشيء آخر لا أتذكره. وكان سائق العربدة يقطر الفودكا تحت شجر أخرى في إنبيق نحاسي ويطعمها بأوراق الخوخ، وزهر الكرز البرين، حشيشة القنطريون، ونوى الكرز، وفي نهاية هذه العملية كان يصير عاجزاً تماماً عن تحريك لسانه، ويظل يثرثر بسفاسف لم تكن بولخيريا ايفانوفنا تستطيع أن تفهم شيئاً منها، فكانت ترسله إلى المطبخ لينام. كانت بولخيريا ايفانوفنا تحضر وملح وتخفف كمية كبيرة من كل هذه الأطعمة المتنوعة، حتى كان من المحتمل أن تفرق الفناء كله، لأن بولخيريا ايفانوفنا كانت دائماً تحب أن تحضر للاحتياط أيضاً، علاوة على ما يخصص للاستهلاك، لو لم تكن الخادومات يأكلن أكثر من نصف هذه الأطعمة حين كن ينسلن إلى حجرة المؤونة ويتخمن حتى كن يتأوهن طوال اليوم ويشكين من وجع البطن.

كانت بولخيريا ايفانوفنا قليلة الإدراك في زراعة الحبوب وغير ذلك من الأعمال خارج فنائها. فكان الوكيل والعمدة يتعاونان في سرقتها بشكل لا يرحم. وصار من حكم العادة لهما أن يدخلن غابات السيدين الشيخين، وكأنها ملك لهما، ويصنعان عدداً كبيراً من الزلاجات، ويبيعانها في السوق الريفية القريبة. وبالإضافة إلى ذلك

كانا يبيعان كل أشجار البلوط السميكة للقوزاق المجاورين لتقطع وتصنع منها الطواحين. مرة واحدة فقط رغبت بولخيريا ايغانوفنا في تفقد غاباتها، ولهذا الغرض شدت الخيول إلى عربة ذات ملاحف جلدية ضخمة. وما إن كان الحوذي يجذب العنان، وتنطلق الخيول الهرمة من مكانها، حتى تصدر من العربة فجأة أصوات غريبة ومنها أصوات الفلوت، والدفوف، والطبول، وكان كل مسمار وكل قيد حديدي يرن رنيناً يسمعه الناس حتى بالقرب من الطواحين على الرغم من أن المسافة لم تكن أقل من فرسخين، ويعرفون أن السيدة خرجت من فناء دارها. وما كان من الممكن أن لا تلحظ بولخيريا ايغانوفنا الفراغ الرهيب في الغابة، وفقدان أشجار البلوط التي كانت تعرف، حتى في طفولتها، أنها شهدت مئة عام.

قالت تخاطب وكيلها الذي كان معها:

- لماذا قلت أشجار البلوط عندك بهذا الشكل؟ احترس من أن يقل شعر رأسك أيضاً.

- لماذا قلت؟ قال الوكيل بلهجة اعتيادية هلكت! هلكت تماماً، بالفعل. أهلكها الرعد، ونخرها الدود، هلكت، يا سيدتين هلكت. وقنعت بولخيريا ايغانوفنا بهذا الجواب تماماً، ولدى وصولها إلى البيت، أصدرت أمرها بأن تضاعف الحراسة في البستان فقط، قرب أشجار الكرز وأشجار الكمثرى الشتوية الكبيرة.

كان هذان المديران المحترمان، الوكيل والعمدة، يجدان من الزائد تماماً نقل كل الطحين إلى شونات السيدين بل يكفي نقل نصف الكمية. وأخيراً حتى هذا النصف كانا يأتیان به متعفنًا رطباً ترفضه السوق الريفية لفساده. ولكن مهما سرق الوكيل والعمدة، ومهما التهم من في البيت جميعاً، ابتداء من القهرمانه حتى الخنازير التي كانت تأتي على كمية هائلة من الأجاص والتفاح، وغالباً ما

تنطح الشجرة بأبوازها، لتنزل منها الفواكه مطراً مدراراً، ومهما
نقرت العصافير والغربان، وأخذ كل خدم البيت من هدايا الطعام
لأقربائهم في القرى الأخرى، بل ومهما أخذوا من العناير من
منسوجات قديمة وغزول، ليتحول كل شيء إلى تلك البئر الواسعة
الشهرة، أي إلى الحانة، ومهما سرق الضيوف والحوذية الخاملين
والخدم، إلا أن الأرض المعطاء كانت تغل كمية كبيرة، كانت حاجة
افانسي ايفانوفيتش وبولخيريا ايفانوفنا قليلة جداً منها، حتى أن تلك
الافتراضات الفظيعة لم تكن ملحوظة في استثماراتها فقط.

كان كلا الشيخين، على عادة ملاكي أيام زمان، يحب الأكل
كثيراً. فما أن يطر الفجر (كانا دائماً يستيقظان في وقت مبكر)، وما
إن تصدح الأبواب بجوقة أصواتها المتنوعة حتى يكونا جالسين إلى
المائدة يحتسيان القهوة. وكان افانسي ايفانوفيتش يخرج إلى الرواق
بعد احتساء القهوة، وينفض المنديل، ويقول: «بيش، بيش، يا وزات،
تعالين من المدخل! وفي الفناء كان في العادة يصادف الوكيل. وكان،
على عادته، يدخل في حديث معه، ويستفسر منه عن الأعمال بأدق
التفاصيل ويزوده بملاحظات وإيعازات تدهش كل إنسان لما فيها من
اطلاع فريد في شؤون الزراعة، ولا تجعل الجديد على الأمر يجرؤ
حتى على التفكير بأن في الإمكان أن يُسرق شيء من مثل هذا المزارع
الحاد البصيرة، ولكن وكيله كان شخصاً محكماً. كان يعرف كيف
يجب أن يردن والأكثر من ذلك كيف يجب أن يتدبر الأمر.

وبعد ذلك كان افانسي ايفانوفيتش يعود إلى داخل البيت،
ويقترّب من بولخيريا ايفانوفنا ويقول:

- طيب، يا بولخيريا ايفانوفنا، ربما حان الوقت لتناول شيء من
الطعام.

- ماذا تحب أن تأكل الآن، يا افانسي ايفانوفيتش...؟ ربما بعض

الفطائر بالشحم أو الكعك بمسحوق الخشخاش، أو ربما فطراً مملحاً؟..

- لا بأس، ولو بشيء من الفطر والكعك.

كان بولخير يا ايفانوفنا يردّ، وسرعان ما يكون الخوان ممدوداً على المائدة بالفطر والكعك.

وقبل ساعة من موعد الغداء كان افانسي ايفانوفيتش يأكل من جديد شيئاً من الزاد، يحتسي كأساً من الفودكا بقدح فضي قديم، ويتمرز بالفطر ومختلف أنواع السمك المجفف، وغير ذلك، وكان الشيخان يجلسان إلى الغداء في الساعة الثانية عشرة حيث كانت المائدة تحفل إلى جانب الصحون وأواني الصلصلة، بالعديد من الجرار الصغيرة بأغطيتها اللاصقة حتى لا يفقد ما تحتويه رائحته وهو شيء مشبه مما يجود به المطبخ القديم اللذيذ. وفي العادة كان الحديث على المائدة يجري عن أقرب المواضيع إلى الغداء. وكان افانسي ايفانوفيتش يقول عادة:

- يتهيأ لي أن هذه العصيدة احترقت قليلاً. ألا يتهيأ هذا لك أيضاً، يا بولخير يا ايفانوفنا؟

- لا، يا افانسي ايفانوفيتش، طعمها بمزيد من الزبدة، وعند ذلك لا تبدو محروقة، أو خذ هذه الصلصلة بالفطر، وصبّها عليها.
وكان افانسي ايفانوفيتش يقول مقدماً صحنه:
- طيب، لنجرب ماذا سيكون.

وبعد الغداء كان افانسي ايفانوفيتش يذهب للاستراحة ساعة من الزمن، وبعدها كانت بولخير يا ايفانوفنا تأتي بطيخة مقطعة، وتقول:
- هاك جربن يا افانسي ايفانوفيتش، أي بطيخ لذيذ هو. فكان افانسي ايفانوفيتش يقول: وهو يتناول قطعة كبيرة:

- لا تصدقي يا بولخيريا ايفانوفنا، لأنه أحمر في الوسط. قد يكون أحمر، ولكنه غير لذيذ.

ولكن البطيخة تُلتهم بسرعة. وبعد ذلك يأكل افانسي ايفانوفيتش بعض الكمثرات أياً، ويتجه للنزهة في البستان بصحبة بولخيريا ايفانوفنا. ولدى العودة إلى البيت كانت بولخيريا ايفانوفنا تذهب لشؤونها، بينما يجلس افانسي ايفانوفيتش تحت ظلة تواجه الفناء، ينظر إلى مستودع المؤونة كيف يفتح باستمرار وتظهر أحشاؤه، ثم يغلق، والخادومات يدخلن أو يخرجن الأطعمة المتنوعة يزاحم بعضهن بعضاً حاملات مختلف أنواع الفواكه في صناديق خشبية، ومناخلن وجرات، وفي مختلف أواني حفظ الفواكه. وبعد وقت قصير يرسل مَنْ يستدعي بولخيريا ايفانوفنا أو يذهب إليها بنفسه، ويقول:

- هل يوجد ما أكله، يا بولخيريا ايفانوفنا؟

فكانت بولخيريا ايفانوفنا تجيب:

- ماذا تحب؟ ربما أذهب، وأطلب أن يُجلب لك فطائر بالأعشاب البرية التي طلبتُ خصيصاً أن تحفظ لك؟

فيرة افانسي ايفانوفيتش :

- سيكون هذا جيداً.

- أم ربما تأكل شيئاً من المخثرات؟

- وهذا أيضاً جيد كان افانسي ايفانوفيتش يرد، وبعد ذلك كان كل ذلك يُجلب على الفور، ويؤكل في العادة.

وقبيل العشاء كان افانسي ايفانوفيتش يصيب شيئاً من الطعام أيضاً. وفي الساعة التاسعة والنصف يجلس الشيخان إلى مائدة العشاء. وبعد العشاء مباشرة يؤيان للنوم من جديد، ويهجع السكون الشامل في هذه البقعة النشطة والهادئة في ذات الوقت.

كانت الحجرة التي ينام فيها افانسي ايفانوفيتش و بولخيريا ايفانوفنا حارة جداً، حتى من النادر أن يتحمل المرء البقاء فيها بضع ساعات. ولكن افانسي ايفانوفيتش، فوق ذلك، وطلباً لمزيد من الدفء، كان ينام على سطيحة الموقد، ولو أن الحرارة الشديدة غالباً ما تجبره على النهوض عدة مرات خلال الليل، ويتمشى في الحجرة، وأحياناً كان يمشى أثناء تمشيه في الحجرة، وعند ذاك كانت بولخيريا ايفانوفنا تسأله:

- لماذا تنن، يا افانسي ايفانوفيتش؟

- الله يعلم، يا بولخيريا ايفانوفنا، يبدو أن بطني يوجعني قليلاً.

- ألا يكون أحسن لك أن تأكل شيئاً، يا افانسي ايفانوفيتش؟

- لا أعرف ما إذا كان أحسن، يا بولخيريا ايفانوفنا! على العموم ما الذي سأكله؟

- شيئاً من اللبن الحامض، أو أصبّ لك شيئاً من نقيع الكمثرى المجففة.

- لا بأس، لمجرد أن أجرب.

وكانت الخادمة، والنوم في جفنيها تذهب للنش في الدواليب، وياكل افانسي ايفانوفيتش صحناً، وبعد ذلك يقول عادة:

- الآن أحس وكان الوجع خف.

وأحياناً، حين يكون الجو صافياً، والحجرات مدفأة بشكل جيد جداً، كان المرح يشيع في أعطاف افانسي ايفانوفيتش، فيحبّ التكيّمت على بولخيريا ايفانوفنا، ويتحدث عن موضوع خارجي، فيقول:

- طيب، يا بولخيريا ايفانوفنا، ماذا لو احترق بيتنا، فإلى أين نولي وجوهنا؟

فكانت بولخيريا ايفانوفنا تقول راسمة علامة الصليب:

- وقانا الله من ذلك!

- ولكن، لنفرض أن البيت احترق، فإلى أين نتقل عند ذاك؟

- الله يعلم ما هذا الذي تقوله، يا افانسي ايفانوفيتش!

وكيف يمكن أن يحترق البيت: الله لا يسمح بذلك.

- ولكن ماذا لو احترق؟

- عندئذٍ نتقل إلى المطبخ، وستشغل أنت مؤقتاً الحجرة التي

تشغلها القهرمانه الآن.

- وإذا احترق المطبخ أيضاً؟

- وهذا أيضاً! سيقينا الله من بلوى كهذه، أن يحترق البيت

والمطبخ سوياً! طيب، عندها نتقل إلى مستودع المؤونة وننتظر هناك

حتى ينتهي بناء بيت جديد.

- وإذا احترق المستودع أيضاً؟

- الله يعلم ما هذا الذي تقوله! لا أريد حتى الاستماع إليك. هذا

القول إثم. والله يعاقب على مثل هذه الأقوال.

غير أن افانسي ايفانوفيتش كان يتسم، وهو جالس في مقعده،

وقد ارتاح لتنكيته على بولخيريا ايفانوفنا.

ولكن أمتع ما يكون عليه الشيخان، بالنسبة لي، حين يكون

عندهما ضيوف. حينئذٍ كان كل ما في بينهما يتخذ مظهراً آخر. إذ

من الممكن القول، إن هذين الشيخين الطيبين كانا يعيشان من أجل

الضيوف.

كانا يقدمان أفضل ما في البيت من أشياء، ويسعيان إلى استضافتك

بكل ما كانت استثمارتهما تتجه. ولكن أكثر ما كان يريحني إن كل

كرمهما ومخدوميتهما كان خالياً من أي تصنع. كانت هذه الحفاوة والأريحية تنعكسان بوداعة على وجهيهما، وتناسبانهما إلى درجة أنني كنت أجد نفسي أوافق على رجائهما دون أن أدري. كانتا نابتين من البساطة الصافية النقية لقلبيهما الطيبين الطاهرين. إن هذه الحفاوة لا تشبه أبداً تلك التي يديها، عند استضافتك، موظف هيئة حكومية حصل على مكان مريح بفضل جهودك، وهو يسميك محسناً، ويتمرغ تحت أقدامك. وكانا لا يتركان الضيف يرحل في يوم قدومه، مهما يكن من شيء. فلا بد أن يقضي الليلة عندهما.

- كيف يمكن أن تخرجوا في سفر طويل في هذا الوقت المتأخر!
كانت بولخيريا ايفانوفنا تقول ذلك (وكان الضيف عادة لا يبعد عنهما بغير ثلاثة أو أربعة فراسخ). وكان افانسي ايفانوفيتش يقول:
- بالطبع. كل شيء يحصل في الدنيا: يهاجمكم قطاع طرق أو عدو.

وكانت بولخيريا ايفانوفنا تقول:

- أعاذنا الله من قطاع الطرق! ولم الكلام عن هذا في الليل؟ لا علاقة ذلك بقطاع الطرق، بل لأن الدنيا ظلماء، ولا يجوز السفر على الإطلاق. كما أن سائق عربتكم، وأنا أعرف سائق عربتكم، ضعيف وصغير، لا يستطيع أن يسيطر على أي حصان، وهو الآن على الأغلب سكران طينه، ونائم في زاوية.

وكان لابد للضيف أن يبقى. ولكنه سيكافأ على بقائه بقضاء أمسية في حجرة دافئة واطئة السقف، وبحكاية لطيفة تبعث الدفء والنعاس في الأوصال، ويمنظر البخار يتصاعد مما وضع على المائدة من طعام مغذٍ دائماً، ومطبوخ بمهارة. وأنا أتخيل افانسي ايفانوفيتش وكأنما أراه الآن، جالساً على المقعد محدوداً بابتسامته الأبدية يصغي

إلى الضيف باهتمام، بل وباستمتاع أيضاً. وكان الحديث غالباً ما يجري عن السياسة. وكان الضيف، الذي نادراً ما كان يبارح قريته أيضاً، ويستخلص حدوسه، بسيماء من الأهمية غالباً، وتعبير غامض على الوجه، ويذكر أن الفرنسيين اتفقوا مع الإنجليز سرّاً على ترك بونايرت يهاجم روسيا مرة أخرى، أو مجرد أن يتحدث عن حرب موشكة، وعند ذاك كان افانسي ايفانوفيتش غالباً ما يقول، متظاهراً بأنه لا يرمق بولخيريا ايفانوفنا :

- أنا أيضاً أفكر في الخروج إلى الحرب، ولماذا لا أستطيع الخروج؟ فكانت بولخيريا ايفانوفنا تقاطعه قائلة:

- هاقد بدأ! وكانت تقول مخاطبة الضيوف: لا تصدقوا به، العجوز، يخرج إلى الحرب! سيرميه أول جندي يصادفه! وحق الرب، سيرميه! يسدد عليه هكذا، ويرميه.

فكان افانسي ايفانوفيتش يقول:

- وليكن، فسأرميه أنا أيضاً.

فتبادر بولخيريا ايفانوفنا :

- اسمعوا ماذا يقول! كيف له أن يخرج إلى الحرب! مسدساته صدئة منذ زمان، ومرمية في المستودع. وليتكم رأيتموها. سينسفها ما فيها من بارود قبل أن تلحق أن ترمي، وعندها ستقطع يدي الرامي، وتشوه وجهه، فيظل تعيشاً مدى العمر.

فكان افانسي ايفانوفيتش يقول:

- لا بأس، سأشتري سلاحاً جديداً. سأخذ السيف أو الرمح القوزاقي.

- هذه كلها تخيلات، ما إن يطرأ في ذهنه شيء، حتى يبدأ بالتحدث عنه كانت بولخيريا ايفانوفنا تأخذ الكلام في غيظ أنها أعرف أنه يمزح،

ومع ذلك لا يريحني سماعه. إنه دائماً بهذا الشكل، أحياناً أسمع وأسمع، حتى أشرع بالخوف.

ولكن افانسي ايفانوفيتش الذي كان قد ارتاح من تخويف بولخيريا ايفانوفنا بعض الشيء، كان يضحك وهو جالس على مقعده محدوباً.

وبالنسبة لي كانت بولخيريا ايفانوفنا أمتع ما تكون، حين كانت تغري الضيف بالمشهيات. كانت تقول، وهي ترفع السداد عن الدورق:

- هذه فودكا مطعمة بالمرمية والافستين، وهي تساعد كثيراً مَنْ يشكو وجع الدفتين والخصر، وهذه بحشيشة القنطريون تساعد جداً في حالة الصفير في الأذان، والطفح على الوجه، وهذه معمولة على نوى الخوخ. خذ قدحاً، راثحتها شذبة جداً. الذي يشكو من دواخ الرأس، حين ينهض من السرير، فيقع على حافة الدولاب، أو الطاولة، وتطلع عجرة على جبينه، ما عليه إلا أن يشرب قدحاً واحداً منها قبيل الغداء، وسيزول كل شيء رأساً وكأنما لم يكن.

وبعد ذلك يجري مثل هذا التعداد لميزات الدوارق الأخرى، التي تملك دائماً تقريباً صفات علاجية. وبعد أن تكون قد حشيت بطن الضيف بهذه الصيدلية كانت تغريه بالعديد من الصحون الموضوعة على المائدة.

- هذا فطر بالصعتر! وهذا بالقرنفل والجوز! علمتني على تملّحه تركية، منذ أن كان الأتراك أسرى عندنا. كانت تركية طيبة، ولم يكن يبين عليها أبداً أنها تدين بالدين التركي. وهي في حياتها الاعتيادية مثلنا تقريباً، سوى أنها لا تأكل لحم الخنزير. تقول: الشرع يحرم عليهم ذلك. وهذا فطر مطعم بأوراق عنب آذار، والبندق! وهذا النوع من الفطر، أسلقه لأول مرة، مع الخل، ولا أعرف كيف هي.

علمت سرها من الأب ايفان. قبل كل شيء يجب أن تفرش أوراق
البسوط في قاع برميل صغير، ثم تنثر الفلفل، والملح ثم تأخذ زهور
بعض الأعشاب، وتفرشها على أن تكون نهاياتها في الأعلى. وهذه
فطائر! هذه فطائر بالجبن، وهذه مع عصارة بذور القنب، وهذه التي
يحبها افانسي ايفانوفيتش كثيراً محشوة بالكرنب وعصيدة الحنطة
السوداء.

وكان افانسي ايفانوفيتش يضيف:

- صحيح. أنا أحبها كثيراً. فهي هشة وحامضة قليلاً.

وعلى العموم كانت بولخيريا ايفانوفنا في مزاج رائع للغاية، حين
يكون عندهما ضيوف، عجوز طيبة جداً! كلها مُلك للضيوف.
وكنْتُ أحب أن أزورهما، وأسرُّ بالنزول في ضيافتهما، على الرغم
من أنني كنت أتخم بشكل مخيف، مثل جميع الذين ينزلون في
ضيافتهما، وعلى الرغم من أن ذلك كان يضرني كثيراً. على العموم
أظن أن للهواء ذاته في مالوروسيا خاصية معينة تساعد على الهضم،
لأن أحداً لو فكر في أن يأكل بتلك الصورة في هذه المدينة لتسجى،
دون شك راقداً في تابوته، بدلاً من سريره.

شيخان طيبان! ولكن قصتي تقترب من حدث شجي للغاية، غير
إلى الأبد حياة تلك البقعة الهادئة. ومما يزيد هذا الحادث فداحة أنه
وقع بسبب مصادفة قليلة الأهمية. ولكن الأسباب القليلة الأهمية
في النظام الغريب للأشياء كانت دائماً تخلق أحداثاً جساماً، بينما
الأعمال الكبيرة، على العكس، تأتي بنتائج تافهة. يجمع أحد
الفاتحين قوات دولته، ويحارب عدة سنوات، وقادته يذبح صيتهم،
وأخيراً ينتهي كل ذلك بالاستيلاء على قطعة من الأرض ليس فيها
موضع لزراع البطاطس. وأحياناً يكون العكس، يتشاجر بانعا سجع
من مدينتين مختلفتين فيما بينهما على شيء تافه، وإذا بالشجار يعم

المدن أخيراً، ثم القرى والأرياف، ولربما الدولة كلها. ولكننا لنترك هذه الأفكار، فإنها لا تناسب المقام. كما أنني لا أحب الأفكار، حين تبقى أفكاراً مجردة فقط.

كانت لبولخيريا ايفانوفنا قطعة رمادية، ترقد دائماً تقريباً عند قدمي العجوز ملتفة على نفسها. وكانت بولخيريا ايفانوفنا تمسك على شعرها أحياناً وتدغدغ بإصبعها رقبتها التي كانت القطعة المدللة تمددها إلى الأعلى قدر استطاعها. ولا يمكن القول إن بولخيريا ايفانوفنا كانت تحب قطتها أكثر من اللازم، ولكنها ألفتها، وقد تعودت على رؤيتها دائماً. إلا أن افانسي ايفانوفيتش كان غالباً ما يضحك من مثل هذا التعلق:

- لا أدري، يا بولخيريا ايفانوفنا، ماذا رأيت في هذه القطعة. ما نفعها؟ لو كان ذلك كلباً، لاختلف الأمر، إذ يمكن الخروج بالكلب إلى الصيد. ولكن ما نفع القطعة؟

فكانت بولخيريا ايفانوفنا تقول:

- اسكن، افانسي ايفانوفيتش، أنت تحب الكلام ولا أكثر. الكلب نجس، الكلب يتغوط، الكلب يحطم كل شيء، بينما القطعة مخلوقة وديعة، ولا تلحق أذى بأحد.

وعلى العموم لا فرق عند افانسي ايفانوفيتش بين القطط والكلاب، ولكنه كان يقول ذلك لمجرد أن ينكت قليلاً على بولخيريا ايفانوفنا.

كانت لهما، وراء الحديقة غابة كبيرة كان الوكيل العملي قد عفا عنها، ربما لأن ضربة الفأس كانت ستصل إلى سمع بولخيريا ايفانوفنا. وكانت صماء مهملة، تغطي جذوع أشجارها المعمرة شجيرات البندق المتنامية، فكانت تشبه أظفار حمام شعشاء. في هذه

الغابة كانت تعيش قطط وحشية. ولا يجوز الخلط بين قطط الغاب الوحشية وبين تلك القطط الجريئة التي تركض على سطوح البيوت. فإنها، على الرغم من حدة خلقها تحضرت، بوجودها في المدينة أكثر جداً من القطط ساكنات الغاب التي كانت في معظمها وعلى العكس من ذلك، مخلوقات موحشة بهيمية، نحيلات هزيلات دائماً، مموء بصوت خشن حوشي، وأحياناً تحفر نفقاً في باطن الأرض تحت الشونات تماماً، وتسرق الشحم المقدد، بل وتظهر في المطابخ ذاتها، بعد أن تقفز بغتة من فتحة الشباك، حين تلاحظ أن الطباخ خرج إلى أجمة الأعشاب البرية. وهي، بشكل عام، لا تعرف أية مشاعر مهذبة، فهي تعيش حياة افتراس، وتخنق العصافير الصغيرة في عقر أعشاشها. إن هذه القطط تشامت طويلاً من خلال ثغرة تحت الشونة، مع قطة بولخيريا ايفانوفنا الوديدة حتى أغوتها أخيراً، مثلما يغوي فصيل جنود فلاحه بلهاء. وفطنت بولخيريا ايفانوفنا إلى اختفاء القطة، فبعثت من يبحث عنها، ولكنهم لم يعثروا على القطة. ومضت ثلاثة أيام، وتأسفت بولخيريا ايفانوفنا وأخيراً نستها تماماً. وذات يوم، حين عادت من تفقد حديقة خضرواتها بخيار أخضر طازج قطعته بيدها لافانسي ايفانوفيتش دُهشت حين بلغ سمعها مواء بائس تماماً. فأخذت تدعو بالسليقة: «بيش، بيش!» وإذا بالقطة الرمادية تطلع من أجمة الأعشاب البرية نحيلة عجفاء، وكان واضحاً أنها منذ عدة أيام لم تضع في فمها أي طعام. تابعت بولخيريا ايفانوفنا تدعوها، ولكن القطة وقفت أمامها، مموء، ولا تجرؤ على الاقتراب. والظاهر أنها توحشت كثيراً خلال هذا الوقت. سارت بولخيريا ايفانوفنا إلى الأمام، وهي ما تزال تدعو القطة التي سارت وراءها متهيبة حتى السياج، وأخيراً رأت الأماكن السابقة المعروفة لها فدخلت الحجرة أيضاً، أمرت بولخيريا ايفانوفنا على الفور

بتقديم الحليب واللحم لها، وجلست أمامها، تستمتع بنهم محبوبتها المسكينة، وهي تزدرد القطعة وراء القطعة وتعب الحليب. ونفخت القطعة الرمادية وامتلاأت لحماً أمام عينيها تقريباً، ولم تعد تأكل بذلك النهم. ومدت بولخيريا ايفانوفنا يدها لتمسّد على شعرها، ولكن يبدو أن القطعة الجاحدة اعتادت كثيراً أن تكون مع القطط الكاسرة أو اكتسبت العادات الرومانسية القائلة بأن الفقر عند الحب أحسن ستر، والقطط فقيرة إلا من رحمة ربها. ومهما يكن من شيء، فإن القطعة قفزت من الشباك، ولم يستطع أحد من الخدم العثور عليها.

واستغرقت العجوز تفكير، وقالت لنفسها: «هذا حتفي جاء يسعى إلي!» ولم يسلمها شيء، ظلت طوال اليوم ضجرة، ولم يُجد مزاح افانسي ايفانوفيتش، ورغبته في معرفة السبب الذي أحزن العجوز بغتة. فقد كانت بولخيريا ايفانوفنا لا تجيب، أو تجيب بشكل لم يكن من الممكن أن يرضي افانسي ايفانوفيتش، وفي اليوم التالي ظهر عليها نحول ملحوظ.

- ماذا جرى لك، يا بولخيريا ايفانوفنا؟ ربما أصابك مرض؟

- لا، يا افانسي ايفانوفيتش، لست مريضة! أريد أن أعلن لك شيئاً خاصاً. أنا أعرف أنني سأموت في هذا الصيف. حتفي جاء يسعى إليّ.

اعوجت شفتا افانسي ايفانوفيتش في أسى ولكنه أراد أن يقمع شعور الحزن في نفسه، وقال مبتسماً: الله يعلم ما هذا الذي تقولينه، يا بولخيريا ايفانوفنا! لعلك شربت فودكا الخوخ، بدلاً من نقيع الشفاء الذي تشربينه دائماً.

- لا، يا افانسي ايفانوفيتش لم أشرب فودكا الخوخ.

وكان يأسف افانسي ايفانوفيتش لأنه نكّث على بولخيريا ايفانوفنا

كثيراً، وينظر إليها، والدموع تتدلى من جفونه. قالت بولخيريا
ايفانوفنا:

- أرجوك، يا افانسي ايفانوفيتش، أن تنفذ وصيتي. حين أموت
ادفني بالقرب من سياج الكنيسة، وألبسني الثوب الرمادي ذا الزهور
الصغيرة على قاعية بنية، ولا تلبسني الفستان الأطلس المقلّم بشرائط
وردية. فالمنية لا تحتاج إلى فستان. وأي حاجة لها؟ بينما سينفعل.
تفصل منه رويًا محتشماً، تلبسه حين يأتبك ضيوف، فتظهر إليهم
مظهر لائق، وتستقبلهم.

ويقول افانسي ايفانوفيتش:

- الله يعلم ما هذا الذي تقولينه، يا بولخيريا ايفانوفنا. ما يزال
الموت بعيداً عنك وأنت تخوفيني بهذه الكلمات.

- لا، يا افانسي ايفانوفيتش، أنا أعرف متى ستحين منيتي. وعلى
كل حال لا تحزن عليّ. فأنا عجوز الآن. وقد عشت عمراً طويلاً
نوعاً ما، وأنت أيضاً عجوز. وستقابل قريباً في الدار الآخرة.
ولكن افانسي ايفانوفيتش أعول كالطفل.

- البكاء، إثم، يا افانسي ايفانوفيتش! فلا تأثم، ولا تغضب الرب
بنحيبك. أنا لا آسف على موتي. آسف على شيء واحد فقط
(وقطعت كلامها زفرة ثقيلة للحظة) آسف على أنني لا أعرف لمن
أتركك، ومن سيرعاك، حين أموت. فأنت كالطفل الصغير. والذي
سيرعاك يجب أن يحبك.

وارتسم على وجهها إشفاق قلبي عميق ساحق، حتى إنني لا
أعرف هل كان في وسع أحد من البشر أن ينظر إليها بدون اكتراث.
قالت تخاطب القهرمانه التي أمرت باستدعائها خصيصاً:

- اسمعي، يا فدوخا، حين أموت قومي أنت برعايته، واحرصي

عليه، حرصك على حذقة عينك، وكطفلك، واطبخي له ما يحب من الطعام. وأعطيه بياضات وملابس نظيفة دائماً، وحين يأتي ضيوف، اهتمي بهندامه ليكون لائقاً، وإلا أظنه سيطلع أحياناً بروبه القديم، لأنه حتى الآن غالباً ما ينسى ولا يعرف يوم العيد من اليوم الاعتيادي. ولا تصرفي بصرك عنه، يا يافدوخا، وسأدعوك في الآخرة، وسيجازيك الرب، لا تنسي، يا يافدوخا، أنك الآن عجوز، ولم يسق أمامك عمر طويل، فلا تثقلي على روحك بالآثام، لئن لا ترعيه لن تسعدي في الدنيا. سأدعوك الرب بنفسه بأن تكون نهايتك سيئة. وستكونين أنت تعيسة، وأطفالك تعيسين، وعشيرتك كلها لن تحظى بمباركة الرب.

يا للعجوز المسكينة! إنها آنذاك لم تكن تفكر في اللحظة العظيمة التي في انتظارها، ولا في مصير روحها، ولا في حياتها الآتية. بل كانت لا تفكر إلا بشريكها المسكين الذي قضت معه عمرها، والذي كانت ستركه يتيماً وبلا مأوى. ودُبرت كل شيء بحذق بالغ بحيث لا يفترقها افانسي ايفانوفيتش بعد وفاتها. وكان اعتقادها بدنو أجلها قوياً جداً، وحالتها النفسية مهيئة جداً لهذا الحدث، حتى إنها انطرحت في الفراش، بالفعل، بعد عدة أيام، ولم تستطع أن تتناول أي طعام. وتحول افانسي ايفانوفيتش بكليته إلى اهتمام، ولم يبارح سريرها. وكان يقول، وهو ينظر في عينيها بقلق: «حبذا لو تأكلين شيئاً، يا بولخيريا ايفانوفنا؟» ولكن بولخيريا ايفانوفنا لم تكن تقول شيئاً، وأخيراً، وبعد صمت طويل، بدا وكأنها تريد أن تقول شيئاً، وحركت شفيتها، ولفظت أنفاسها.

وانصعق بولخيريا ايفانوفنا تماماً، فقد بدا له الأمر وحشياً غريباً، حتى إنه لم يملك. نظر إليها بعينين كدرتين، وكأنما لا يفهم معنى الجثمان.

وسُجِّيت الراحلة على طاولة، وألبست الثوب الذي حددته بنفسها، وطويت ذراعيها متصالبتين، ووضعت في اليدين شمعة. وكان بولخيريا ايفانوفنا ينظر إلى كل ذلك جامد الإحساس. وملاً الفناء عدد غفير من الناس من مختلف الرتب، وقدم عدد كبير من الضيوف من أماكن مختلفة لحضور التشييع، ونصبت في الفناء موائد طويلة تغطت بحلاوة الأموات والأشربة والفظائر. وأخذ الضيوف يتحدثون، ويكون، ويرمقون الراحلة، ويتناظرون في مناقبها، وينظرون إليه، ولكن الزوج كان ينظر إلى كل ذلك بغرابة. وحملت الراحلة أخيراً، وسار الناس وراءها، وسار هو أيضاً. وكان القسس في حللهم الكهنوتية الكاملة، والشمس تسطع، والأطفال الرضع يبكون، وهم على أذرع أمهاتهم، والقبريات تهدل، والأطفال يركضون في القمصان وحدها، ويمرحون في الطريق. وأخيراً وضع الثابوت فوق اللحد، وطُلب من افانسي ايفانوفيتش أن يقترب، ويقبل الراحلة قبله الوداع. واقترب، وقبلها، ولاحت دموع في عينيه، ولكنها دموع جامدة الإحساس. وأنزل الثابوت، وتناول القسس الرفش، وألقى أول حفنة من التراب، ورثلت جوقة أصوات غليظة ممطوطة من الشماس واثنين من مساعديه دعاء الخلود، تحت سماء صافية لا غيمة فيها، فتناول الدفانون الارفاش، وامتلات حفرة القبر، وتسaut مع الأرض، وفي ذلك الحين انسل افانسي ايفانوفيتش إلى الأمام، وتنحى الجميع، وفسحواله الطريق، يريدون أن يعرفوا على أي شيء نوى، رفع عينيه، ونظر نظرة كدرة، وقال: «يعني دفتموها! ولماذا؟!» وتوقف دون أن يتم كلامه.

ولكنه حين عاد إلى البيت، ورأى حجرته خاوية، أفرغت حتى من المقعد الذي كانت تجلس عليه، انتحب، انتحب بشدة، انتحب لا يعزیه شيء، وسالت الدموع كالنهر من عينيه الخامدتين.

وانقضت خمسة أعوام على ذلك، وأي بلية لا يمحوها الزمان؟ وأية عاطفة لا تسلم في النزال غير المتكافئ معه؟ كنت أعرف رجلاً ما يزال في ريعان شبابه، مفعماً بخالص النبل والسجايا، وقد عرفته عاشقاً برقة وهيام وجنون وجرأة وتواضع، ورأيت حبيبته، بأم ع يني، يحصدها الموت الذي لا يشيع، وهي الرقيقة، الجميلة كملاك. ولم أر قط مثل ما استحوذ على العاشق المسكين من سوررات مخيفة من العذاب النفسي، والوحشة المسعورة اللاهبة، والقنوط الأكال. وما كنت أتصور أنه في إمكان إنسان أن يخلق لنفسه جحيماً ليس فيه أي ظل أو صورة أو شيء مما له علاقة في الأمل... حاولوا أن لا يغيب عن أنظارهم، وأخفوا عنه كل الأسلحة والأدوات التي يمكن أن يقتل نفسه بها، وبعد أسبوعين انتصر على نفسه. وأخذ يتسم. ويمزح، فأطلقوا له الحرية، وأول شيء استخدمهاله هو أن اشترى مسدساً. وفي أحد الأيام أفرغت طلقة مفاجئة أقاربه فزعاً شديداً. فتراكضوا إلى الحجرة، ورأوه مطروحاً وجمعته مهشمة. والطبيب الذي صادف وجوده آنذاك، وكانت لمهارته صيت شائع، شخّص فيه علائم الحياة، ورأى الجرح غير مميت تماماً، وأشفاه وسط دهشة الجميع. وازدادت الرقابة عليه أكثر. وحتى على المائدة لم يكونوا يضعون تحت متناوله سكيناً، وسعوا إلى إبعاد كل ما يمكن أن يضرب نفسه به، ولكنه بعد وقت قصير وجد فرصة جديدة، فألقى نفسه تحت عجلة مركبة عابرة. كسرت يده ورجله، ولكنه عولج مرة أخرى وشفي من جديد. وبعد عام رأيته في قاعة مكتظة بالناس، وكان جالساً وراء طاولة يقول. «مرح «بيتيت اوفرت»^(١) وقد غطا

(١) فيما بعد سيستعمل ضمير المفرد لثقل المنطق في جمع المؤنث بالعربية. المترجم.

أحد أوراقه، ووراءه كانت تقف زوجته الشابة مرتفة ظهر المقعد، وهي تقلب فيشه.

بانقضاء خمسة أعوام على وفاة بولخيريا ايفانوفنا، وأثناء وجودي في تلك الأنحاء عرجت على ضيعة افانسي ايفانوفيتش لأزور جاري القديم الذي قضيت عنده يوماً جميلاً ذات مرة، وكنت دائماً أضيّف على أحسن مطبوعات ربة البيت الحنون. عندما اقتربت عربتي من البيت خُيِّل إليّ أن البيت قد تضاعف قَدَمه، وكانت أكواخ الفلاحين قد مالت إلى جنوبها تماماً، مثل مالكيها بالضبط، والسياج الخشبي والسياج من الأغصان المضفورة في الفناء قد تحطما كلياً، ورأيت بنفسي الطباخة تخلع منه الأعواد وقوداً للموقد، في الوقت الذي كانت لا تحتاج إلى لقطع خطوتين زيادة للحصول على الأغصان الجافة المكومة على الأرض. تقدمت من المدخل حزناً، فأخذت نفس الكلاب، التي صارت عمياء الآن، وأرجلها محطمة، تنبح رافعة إلى فوق أذيالها المعوجة وقد علقت بها زهور الشوك. خرج العجوز للقائي. هذا هو! عرفته فوراً. ولكنه احدودب مرّتين أكثر من السابق. ع رفني وحياني بتلك الابتسامة القديمة المألوفة لي. دخلت ورائه إلى الحجرات، بدا وكأن كل شيء فيها على سابق عهده. ولكنني لحظت في كل شيء فوضى غريبة، فقداناً محسوساً لشيء ما، وباختصار شعرت في داخلي بتلك المشاعر الغريبة التي تستولي علينا، حين ندخل، لأول مرة، مسكن أرمّل كنا نعرفه من قبل غير منفصل عن القرينة التي صاحبتة طوال العمر. وهذه المشاعر أشبه بمشاعرنا، حين نرى أمامنا إنساناً مقطوع الرجل، عرفناه من قبل سليماً على الدوام. كان فقدان بولخيريا ايفانوفنا المعنوية ملحوظاً في كل شيء. وعلى المائدة قدموا سكيناً واحداً بدون مقبض، وأطباق الطعام لم تكن مطبوخة بتلك المهارة السابقة. أما الشؤون الزراعية

فلم أرد حتى الاستفهام عنها، بل وخفت أن ألقى نظرة على منشآت المزرعة.

عندما جلسنا إلى المائدة، شذت الخادمة على افانسي ايغانوفيتش فوطه، وحسناً فعلت، لأنه بدونها كان سيلطخ كل روبة بالصلصة. أردت أن أسامره بشيء ما، فرحت أقص عليه مختلف الأخبار، وقد أصغى بنفس تلك الابتسامة السابقة، ولكن نظرت كانت أحياناً خالية من أي إحساس إطلاقاً، ولم يكن يقلب الأفكار في ذهنه، بل إن الأفكار نفسها اختفت منه. وغالباً ما كان يرفع ملعقة العصيدة، ويقربها من أنفه، بدلاً من فمه، وكان يغرس شوكته بالدورق، بدلاً من قطعة الفراخ. وعند ذاك كانت الخادمة تمسك يده، وتوجهها إلى الفرخة. وكنا أحياناً ننتظر الطبق التالي بضع دقائق و كان افانسي ايغانوفيتش بنفسه يلحظ ذلك ويقول: «لماذا يتباطأون في تقديم الطعام؟» ولكنني رأيت من خلال شق في الباب أن الصبي الذي كان يحمل الأطباق لنا، لم يفكر في ذلك قط، بل كان ينام مدلياً رأسه على المصطبة.

قال افانسي ايغانوفيتش حين قدموا لنا الفطائر بالقشطة: «هذه الأكلة، هذه الأكلة» كرر يقول، ولحظت ارتعاشاً في صوته، والدموع على وشك أن تطل من عينيه الكئيبتين، ولكنه جمع كل قواه يريد أن يسيطر على نفسه: «هذه الأكلة التي كانت المر... المر... حو... مة...» وفجأة طفرت الدموع من عينيه. ووقعت يده على الصحن، وانكفأ الصحن، وقفز، وانكسر، وتناثرت الصلصة عليه كلية، فجلس جامد الإحساس، وأمسك بالمعلقة جامد الإحساس وهمت الدموع كالسيل، كنافورة لا تهدأ، همت كالوابل على الفوطه التي فرشت عليه.

و كنت أفكر مع نفسي وأن أنظر إليه: «يا إلهي! خمس سنوات

من الزمن الجائر على كل شيء، وإذا بالعجوز يصير بلا إحساس، العجوز الذي لم تهز حياته قط عاطفة قوية تعصف بالروح، فكانت، كما بدت، لا تخرج عن الجلوس في المقعد العالي الظهر، وأكل السمك المجفف والكمثرى وعن الحكايات اللطيفة، هذا العجوز يستولي عليه مثل هذا الحزن الطويل، هذا الحزن العميق! ماهو الأقوى علينا: الهوى أم العادة. أم أن كل السورات القوية، كل دوامة رغائبنا وصيواتها الفائرة، ما هي إلا ميزة لريعان عمرنا، ولهذا السبب وحده تبدو عميقة ساحقة؟».

ومهما يكن من شيء فقد بدت لي، في تلك اللحظة، طفولية كل صيواتها إذا قورنت بهذا التعود الطويل البطيء الخالي من الإحساس تقريباً، جاهد عد مرات لينطق باسم الراحلة، ولكن وجهه الهادئ المعتاد كان يعوج متشنجاً بعد أن ينطبق بنصف هذه الكلمة وبكاؤه الطفولي كان يطعني في صميم القلب. لم تكن تلك الدموع، قطعاً، كتلك التي يسكبها الشيوخ عادة بسخاء حين يصفون لكم حالتهم البائسة وبلا ياهم. ولم تكن أيضاً تلك الدموع التي تذرف عند قدح من الخمرة. بل كانت دموعاً همت من تلقاء نفسها، غير مدعوة، وقد فاض بها الألم الحاد الذي يعصر حتى القلب الخالي من الإحساس.

وبعد هذا لم يعيش طويلاً، وقد سمعت بوفاته قبل زمن ليس بالبعيد، ولكن الغريب، على أية حال، إن الظروف التي أحاطت بموته كان لها شبه بموت بولخيريا ايفانوفنا. ذات يوم عزم افانسي ايفانوفيتش أن يتمشى قليلاً في الحديقة. وحين سار ببطء في الدرب بخلو باله المعتاد، دون أن تشغل ذهنه أية فكرة وقع له حادث غريب. سمع فجأة شخصاً يناديه من ورائه بصوت واضح على نحو كاف: «افانسي ايفانوفيتش!» التفت، ولكن لم يكن ثمة أحد إطلاقاً، عاين في كل الجهات، ونظر في الأجمات، فلم ير أحداً في أي مكان. كان

النهار هادئاً، والشمس ساطعة، واستغرق يفكر لحظة، وسرت حيوية في وجهه، فنطق أخيراً: «هذه افانسي ايفانوفيتش تنادينى!»

ليس من شك في أنكم، في بعض الأحيان تتخيلون سماع صوت يناديكم بأسمائكم، والعامّة تفسّره بأن الروح تشوق إلى إنسان، فتناديه، وبعد هذا يأتي الموت لا محالة. وبصراحة كنت دائماً أفرع من هذا النداء الغامض. أتذكر أنني في طفولتي كنت غالباً ما أسمع. فجأة أسمع خلفي مَنْ ينطق باسمي واضحاً. والنهار عادة ما يكون في مثل ذلك الوقت صاحباً جدياً ومشمساً، ومامن ورقة تتحرك على شجرة في الحديقة، وسكون الأموات يعم كل شيء، وحتى الجندب كان يكف عن الصرير. وما من إنسان في الحديقة. ولكنني بصراحة ما كنت سأخاف من ليلة عاصفة معرّبة، تداهمني بكل حممها الجهنمية، وأنا وحدي في غابة صماء لا مخرج منها، مثلما كنت أخاف من ذلك الصمت المريع وسط نهار لا غيمة فيه. وفي العادة كنت آنذاك أركض هارباً من الحديقة بهلع شديد وأنفاس متقطعة، ولا يهدأ روعي إلا حين أصادف إنساناً يطرد مرآه ذلك الخواء الرهيب في قلبي.

استسلم افانسي ايفانوفيتش بكلّيته إلى اعتقاده الروحي بأن بولخيريا ايفانوفنا تدعوه، استسلم بامتثال طفل طيّع، وجفّ عوده، وراح يسعل ويذوب كالشمعة، وأخيراً انطفأ مثلما تنطفئ الشمعة حين لا يبقى شيء يحفظ ذبالتها البائسة. وكل ما قاله قبل نهايته: «ضعوني جنب بولخيريا ايفانوفنا».

وُنُفذت رغبته، ودُفن قرب الكنيسة على مقربة من قبر بولخيريا ايفانوفنا. وكان الضيوف لدى التشييع أقل، ولكن بسطاء الناس والمتسولين كانوا كثيرين أيضاً، وأقرب بيت الملاكين تماماً. ونقل الوكيل المدبر والعمدة إلى بيتيهما كل ما تبقى من الأشياء العتيقة

وسقط المتاع الذي لم تلحق القهرمانه أن تنقله. وبعد قليل وصل قريب بعيد من مكان مجهول، هو وارث الضيعة، وكان من قبل ضابطاً في فوج لا أتذكره، وهو إصلاحى مترممت. ورأى، على الفور، الاختلال الكبير والإهمال في شؤون المزرعة. فعزم على القضاء على كل ذلك من كل بد، وإصلاح كل شيء، وإعادة النظام إليه، واشترى ستة مناجل إنجليزية ممتازة، ورقم كل كوخ برقم خاص، وأخيراً رتب الأمور بشكل جيد، حتى أن الضيعة، بعد ستة أشهر، وضعت تحت الحجز، وفي وقت قصير أنت لجنة الحجز الحكيمة (كانت تتألف من عميد أشراف سابق وضابط مبهذل اللباس) على كل الدجاج والبيض. كما أن الأكواخ التي كانت قد تداعت مماماً، انهارت كلياً، وعكف الفلاحون على السكر الشديد، وتهرب معظمهم. أما المالك الحقيقي، الذي كان، بالمناسبة، على صلة ودية لا بأس بها مع لجنة الحجز ويشرب الخمرة معها، فكان نادراً ما يأتي إلى قريته، وإذا جاء إليها، لا يبقى مدة طويلة، وهو لحد الآن يتردد على جميع الأسواق الريفية في مالوروسيا، ويستفسر باهتمام عن أسعار مختلف البضائع الكبيرة التي تباع بالجملة مثل الطحين وخيوط القنب والعسل وغير ذلك، ولكنه لا يشتري غير الأشياء الصغيرة مثل حجر الصوان ومسمار تنظيف الغليون، وبشكل عام لا تساوي قيمة كل ما يشتريه روبلاً واحداً.

تتضمن هذه المؤلفات المختارة لنيقولاï غوغول:
مسرحية المفتش العام والتي تُعتبر من أهم أعمال الكاتب الروسي
نيقولاï غوغول وهي مسرحية كوميدية ساخرة تم نشرها أول مرة عام
١٨٣٦.

ومسرحيتا: خطوبة و بعد عرض مسرحية جديدة
ومؤلفاته القصصية: المعطف، الأنف، شارع نيفسكي، الصورة،
مذكرات مجنون، غربة، ملاكو أيام زمان .

نيقولاï غوغول كاتب روسي يُعد من آباء الأدب الروسي.
وُلد في ١ نيسان ١٨٠٩.

كان مولعاً بقراءة الكتب وبشكل خاص كتب بوشكين. كما كان يحفظ الأمثال
والأقوال المأثورة والكلمات الروسية ذات النكهة الخاصة والأغاني وغيرها.
واستفاد من هذا كله في مجموعته القصصية عن أوكرانيا. وفي المدرسة كتب
عدداً من الأعمال الصغيرة. ونظم الكثير من الأشعار في مواضيع مختلفة.
ويدخل غوغول مرحلة جديدة من الشقيف الذاتي حيث يقرأ شكسبير وغوته
وشيلر.

من أعماله الأكثر شهرة رواية الأنفس الميتة وقصته القصيرة المعطف، بالإضافة
إلى المسرحيتين الكوميديتين المفتش العام وخطوبة.

ظهرت قصة (المعطف) عام ١٨٤٢ وكانت آخر ما كتبه غوغول وأروعه.
واعتبرت مرحلة هامة في تطور الأدب الواقعي للقرن التاسع عشر ورائدة القصة
القصيرة الحديثة.

'We all came out from under Gogol's 'Overcoat'

توفي غوغول في ٤ مارس ١٨٥٢.

ISBN 284306224-1



9 782843 062247